عدنان الطرشة

نهاية الأمم

سنة الله في إزالة الأمم
من نهاية قوم نوح إلى نهاية أمة المسلمين

مكتبة ونشر
العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطرشة، عدنان

نهاية الأمم. /عدنان الطرشة. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٥٨٢ص، ١٦,٥X٢٤سم

ردمك: ٧-٠٣٦-٥٤-٩٩٦٠

١- التاريخ الإسلامي ٢- الملوك والحكام أ- العنوان

ديوي ٩٥٣ ٣٠٣٩/ ١٤٢٧

ردمك: ٧-٠٣٦-٥٤-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٠٣٩/ ١٤٢٧

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة ونشر العبيكان Obeikan Publishers & Booksellers

الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٧
توطئة عامة	٢١
المؤمنون والكافرون	٢١
الظلم والمكر سبب للهلاك	٢٣
أهل الخير وأهل الشر	٢٥
الباب الأول	
نهاية قوم نوح عليه السلام	٣١
نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله	٣١
نزول العذاب ونهاية قوم نوح الكفار	٣٤
وقفات مع القصة والمستفاد منها	٣٦
نهاية أمة عاد أعداء هود عليه السلام	٣٩
هود عليه السلام يدعو أمة عاد إلى الله	٣٩
نزول العذاب ونهاية أمة عاد الكفار	٤٢
وقفات مع القصة والمستفاد منها	٤٣
نهاية أمة ثمود أعداء صالح عليه السلام	٤٥
صالح عليه السلام يدعو أمة ثمود إلى الله	٤٥
نزول العذاب ونهاية أمة ثمود الكفار	٤٧
وقفات مع القصة والمستفاد منها	٤٩
نهاية النمرود وجنوده أعداء إبراهيم عليه السلام	٥١
إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى الله	٥١

الموضوع	الصفحة

نهاية النمرود وجنوده ٥٨
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٥٩
نهاية قرى المؤتفكة أعداء لوط عليه السلام ٦٣
لوط عليه السلام يدعو قومه إلى الله ٦٣
ملائكة العذاب تزور إبراهيم ٦٤
ملائكة العذاب تزور لوطًا ٦٥
قوم لوط يريدون الملائكة ٦٥
نزول العذاب ونهاية قوم لوط الكفار ٦٧
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٦٨
نهاية أمة مَدْيَن أعداء شعيب عليه السلام ٧٣
شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى الله ٧٣
نزول العذاب ونهاية أمة مدين الكفار ٧٧
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٧٩

الباب الثاني

نهاية فرعون وجنوده أعداء موسى عليه السلام ٨٥
فرعون لعنه الله ٨٥
موسى عليه السلام ٨٦
دعوة فرعون إلى الله ٨٩
انتصار الآية على السحر ٩١
خروج بني إسرائيل من مصر ٩٤
نزول العذاب ونهاية فرعون وجنوده الكفار ٩٦
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٩٧
نهاية بني إسرائيل العاصين لموسى عليه السلام ١٠٧

الموضوع	الصفحة

معاناة موسى عليه السلام مع قومه ١٠٧
يريدون صنمًا إلهًا ١٠٧
يلومون موسى على الطعام ١٠٨
يلومون موسى على الماء ١٠٩
يعصون أمر موسى بقتال الجبارين ١١٠
معاقبتهم بالتيه أربعين سنة ١١١
ضجروا من المن والسلوى ١١٢
أذاهم لموسى عليه السلام ١١٣
عبادتهم العجل الذهبي ١١٤
يريدون رؤية الله عزَّ وجلَّ ١١٦
يشترطون لقبول التوراة ١١٦
نهاية جيل العاصين المتمردين ١١٧
وقفات مع القصة والمستفاد منها ١١٧
نهاية أمة اليهود أعداء المسيح عليه السلام ١٢١
اليهود والرسل ١٢١
اليهود والعقاب المتنوع ١٢١
مريم عليها السلام ١٢٢
أذى اليهود لمريم ١٢٤
عيسى عليه السلام يتكلم في المهد ١٢٤
عيسى عليه السلام يفعل المعجزات ١٢٥
عيسى عليه السلام يتنبأ بنهاية اليهود ١٢٧
عيسى عليه السلام يبشر بأحمد صلى الله عليه وسلم ١٢٨
لم يؤمن من اليهود إلا القليل ١٣٠

الموضوع	الصفحة

الحواريون يلبون دعوة عيسى عليه السلام ١٣١
عيسى عليه السلام يعلن انتهاء مهمته ١٣٢
لا إله إلا الله عيسى عبد الله ورسوله ١٣٣
اليهود يريدون قتل عيسى عليه السلام ١٣٣
رفع عيسى عليه السلام ١٣٤
نهاية اليهود في القدس ١٣٥
وقفات مع القصة والمستفاد منها ١٣٧

الباب الثالث

نهاية أمة المشركين أعداء محمد ﷺ في الجزيرة العربية ١٤٣
رحمة الله بعباده ١٤٣
النبي المنتظر ١٤٤
اليهود ينتظرون النبي ﷺ ١٤٥
النصارى ينتظرون النبي ﷺ ١٤٦
حان زمن الرحمة العالمية ١٤٧
جاء الحق وزهق الباطل ١٤٨
بدء الدعوة إلى الإسلام ١٥١
أذى قريش لرسول الله ﷺ ١٥٣
عرض الإسلام على القبائل ١٥٤
دخول الأنصار في الإسلام ١٥٥
هجرة الرسول ﷺ ١٥٦
إذن الله في القتال ١٥٧
وقعة بدر الكبرى سنة ٢ هـ ١٥٨
فتح مكة ونهاية المشركين ١٦٣

الموضوع	الصفحة

وقفات مع القصة والمستفاد منها ١٦٥

نهاية أمة اليهود أعداء محمد ﷺ في الجزيرة العربية ١٧٩

غضب الله على اليهود ١٧٩

دعوة اليهود إلى الإسلام ١٧٩

اليهود ينكرون النبي ﷺ ١٨٠

لم يُسلِم من اليهود إلا القليل ١٨٣

تطاول اليهود على الله ١٨٥

فضح الله لليهود ١٨٦

نقض بني قينقاع للعهد ١٩٠

بنو النضير يحاولون قتل النبي ﷺ ١٩٠

اليهود يحرضون لقتال النبي ﷺ ١٩١

نهاية يهود بني قريظة ١٩٣

غزوة خيبر ١٩٤

تسميم النبي ﷺ ١٩٧

وقفات مع القصة والمستفاد منها ١٩٧

نهاية أمة اليهود في جزيرة العرب ٢١٢

نهاية أمة الروم أعداء محمد ﷺ في الشام ٢١٥

دعوة الروم إلى الإسلام ٢١٥

غزوة تبوك سنة ٩هـ ٢١٧

وقعة اليرموك سنة ١٣هـ ٢٢٠

فتح الشام ٢٢٣

فتح بيت المقدس سنة ١٦هـ ٢٢٦

وقفات مع القصة والمستفاد منها ٢٢٨

الموضوع	الصفحة

نهاية أمة الفرس أعداء محمد ﷺ في فارس ٢٣٣
دعوة الفرس إلى الإسلام ٢٣٣
معركة القادسية سنة ١٤هـ ٢٣٥
فتح بلاد فارس ٢٤٠
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٢٥٠

الباب الرابع

نهاية دولة الروم والقبط في مصر ٢٥٧
دعوة القبط إلى الإسلام ٢٥٧
فتح مصر ٢٥٩
فتح الإسكندرية ٢٦١
وقفات مع نهاية دولة القبط في مصر ٢٦٢
تحقق وعد الله لنسل إبراهيم ٢٦٤
نهاية دولة الروم والبربر في شمال إفريقيا ٢٦٥
فتح ليبيا ٢٦٥
فتح تونس ٢٦٦
فتح الجزائر والمغرب ٢٦٦
نهاية أمة القوط في الأندلس ٢٦٩
فتح الأندلس ٢٧٠
نهاية أمة القوط في الأندلس ٢٧٢
نعمة الإسلام على الإسبان ٢٧٣
نهاية أمة الوثنيين في آسيا الوسطى ٢٧٥
دعوة أهل آسيا الوسطى إلى الإسلام ٢٧٥
نهاية أمة الوثنيين في آسيا الوسطى ٢٧٦

الموضوع	الصفحة

آسيا الوسطى المسلمة ٢٨٢

نهاية أمة البوذيين في السند ٢٨٣

سوق الجهاد ٢٨٣

دعوة أهل السند إلى الإسلام ٢٨٣

نهاية أمة البوذيين في السند ٢٨٥

نهاية أمم الصليبيين في بلاد المسلمين ٢٨٧

الصليبيون قوم لا يتعظون ٢٨٧

الحروب الصليبية واحتلال القدس ٢٨٧

كسر الصليبيين في حطين ٢٩٤

استرداد المدن الإسلامية ٢٩٧

استرداد القدس ٢٩٨

نهاية الصليبيين في بلاد الشام ٣٠١

وقفات مع القصة والمستفاد منها ٣٠٤

نهاية أمة المغول في بلاد المسلمين ٣١٣

قضاء الله وقدره ٣١٣

الغزو المغولي للعالم الإسلامي ٣١٤

نهاية التتار في بلاد الشام ٣٢٣

وقفات مع القصة والمستفاد منها ٣٢٥

نهاية أمة البيزنطيين في القسطنطينية ٣٣٣

الأرض لله يورثها من يشاء ٣٣٣

السلاجقة التركستانيون ٣٣٤

نهاية أمة البيزنطيين في الأناضول ٣٣٥

الأتراك العثمانيون ٣٣٩

الموضوع الصفحة

نهاية أمة البيزنطيين وفتح القسطنطينية ٣٣٩
فتوحات أخرى ٣٥٤
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٣٥٤
نهاية أمم الوثنيين في جنوب شرق آسيا ٣٥٩
نشر الإسلام في آسيا ٣٥٩
نهاية الوثنية في جنوب شرق آسيا ٣٦٠
وقفة مع القصة والمستفاد منها ٣٦٥

الباب الخامس

نهاية أمم الصليبيين في بلاد المسلمين ٣٦٩
الصليبيون مرة أخرى ٣٦٩
حالة العالم الإسلامي سبب للبلاء ٣٧١
الاستعمار الأوروبي الصليبي ٣٧٥
الصليبية الغربية ٣٨١
نهاية أمم الصليبيين ٣٨٢
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٣٨٦
نهاية دولة الشيوعيين في بلاد المسلمين ٣٩٩
الشيوعية صناعة يهودية ٣٩٩
غزو الشيوعيين للبلاد الإسلامية ٤٠٢
نهاية الشيوعية ودولتها ٤٠٤
وقفات مع القصة والمستفاد منها ٤٠٦
نهاية الدول الكبرى المعتدية على المسلمين
نهاية دولة الولايات المتحدة الأميركية ٤١١
سنة الله في إزالة الدول ٤١١

الموضوع	الصفحة

لم تتعظ ٤١٤
حرب صليبية ٤١٩
على خطى الدول الهالكة ٤٢١
السقوط في الاختبار ٤٢٣
بداية النهاية ٤٢٨
النهاية المتوقعة ٤٣٢
أحداث متوقعة للنهاية ٤٣٦
الرؤساء يتوقعون دمارها ٤٣٩
نبوءات دمار الدول العظيمة ٤٤١
نهاية دولة إسرائيل في فلسطين ٤٤٥
اليهود من جديد ٤٤٥
لم يكن اليهود غائبين ٤٤٦
اليهود يؤسسون دولة زائلة ٤٤٧
الكذبة الكبرى ٤٥٢
الخدعة الرهيبة ٤٥٥
السقوط في الاختبار ٤٥٨
المهلكة العظيمة ٤٥٩
بداية النهاية ٤٦٣
مقدمات ونماذج الزوال ٤٦٦
يهود ضدها ويؤمنون بزوالها ٤٦٨
الله خير الماكرين ٤٧٣
العقاب المنتظر ٤٧٤
مصير يهود دولة إسرائيل ٤٨٦

الموضوع الصفحة

الباب السادس

نهاية أمم الكفر والدجال أعداء المسيح عليه السلام والمسلمين ٤٩١
اليهود والمسيح عليه السلام ٤٩١
أحوال الأمم قبل عودة المسيح ٤٩٢
المهدي ٤٩٨
معارك المسلمين ٥٠٠
خروج الدجال ٥٠٣
نزول المسيح عيسى عليه السلام ٥١٤
نهاية الدجال وأمم الكفر ٥١٨
نهاية أمتَي يأجوج ومأجوج أعداء المسيح عليه السلام والمسلمين ٥٢٥
يأجوج ومأجوج ٥٢٥
خروج يأجوج ومأجوج ٥٢٦
نهاية يأجوج ومأجوج بالدعاء ٥٢٧
قوى الخير وقوى الشر ٥٢٨
الإسلام والخير يعم الأرض ٥٢٩
وفاة عيسى عليه السلام ٥٣٣
نهاية أمة المسلمين قبل قيام الساعة ٥٣٥
أجل أمة المسلمين ٥٣٥
مسلمون يعودون إلى الشرك ٥٣٥
نهاية أمة المسلمين ٥٣٧
مكة المكرمة والكعبة ٥٣٨
المدينة النبوية ٥٣٩
قرب قيام الساعة ٥٤٠

الموضوع	الصفحة

نهاية الأمم وقيام الساعة ٥٤١

كل من عليها فان ٥٤١

الرسل والرسالات ٥٤٢

نهاية الأمم وقيام الساعة ٥٤٤

دروس مستخلصة للمسلمين ٥٤٩

أسباب النصر والاستخلاف ٥٤٩

الحكام المسلمون ٥٥١

الحرب الدائمة بين الإيمان والكفر ٥٥٦

ليستعد المسلمون فالصليبيون عائدون ٥٥٨

العبرة والواجب من نهاية الأمم ٥٦٣

العبرة الدائمة ٥٦٣

واجبات أمة المسلمين ٥٦٦

واجب الأمم غير المسلمة ٥٧٠

خاتمة ٥٧٧

ما قدروا الله حق قدره ٥٧٧

التحدي العظيم ٥٧٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد قص الله - عزَّ وجلَّ - في التوراة والإنجيل والقرآن قصص الأمم السابقة، وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1]، وأمر نبيه محمدًا ﷺ والمسلمين أن يقصوا القَصَصَ بقوله عزَّ شأنه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]. ليس الغرض من قَصِّ قَصَصِ الأمم السابقة في كتب الله المقدسة هو الثقافة أو الترويح والتسلية، وإنما الغرض منه أن يتأمل الناس ويتفكروا في مصائر الأمم السابقة، كيف كانت نهاية كل أمة وكل دولة حاربت حزب الرحمن، وأهل الإيمان، أتباع عبد الله ورسوله في ذلك الزمان. وأن يعلموا أن هذه هي سنته على الدوام مع حزب الرحمن وحزب الشيطان؛ ليتبين بعدها مَن من الفريقين هم المؤمنون وأهل الخير، ومَن هم الكافرون وأهل الشر؛ لعل الناس الخالفين لهم يحذرون أن يكونوا من حزب الشيطان؛ حتى لا ينالوا العقاب نفسه ويكونوا من الخاسرين. ويحرصون على أن يكونوا من حزب الرحمن لينالوا النجاة ويكونوا من المفلحين...!.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

وهذا الكتاب (**نهاية الأمم**)[1]؛ فيه قصص نهاية الأمم والدول السابقة، وكذلك قصص نهاية الأمم والدول اللاحقة في مستقبل الزمان[2]، أقدمه عبرةً وذكرى لجميع الأمم والدول؛ المسلمة وغير المسلمة، للاعتبار بنهاية كل أمة أو دولة تشرك بالله أو تكفر به، أو تحارب دين الله أو أولياءه، أو تقتل المؤمنين بالله المسلمين له. فهكذا كان مصير كل أمة وكل قوم وكل دولة؛ كانت لديهم فرصة ليعتبروا بمصير الأمم والدول التي كانت قبلهم فلم يفعلوا! بل كفروا بالله وظلموا عباده المؤمنين، وساروا على نهج الذين قبلهم ممن عذبهم سبحانه وأهلكهم بما كفروا وبما ظلموا؛ فكان مصيرهم كمصيرهم، وأنزل سبحانه عليهم العذاب الذي يستحقونه. وكذلك ليأخذ المسلمون العبرة من الحالة التي يكون فيها شأنهم ومصيرهم إذا تركوا دينهم وأقبلوا على الدنيا.

ومع أن الله تعالى قد أظهر للناس وبيَّن مَن هم حزب المؤمنين ومَن هم حزب الكافرين، ما يزال إبليس اللعين مستمرًا في تلبيسه على الأمم والدول الحاضرة، وكذلك التي ستأتي في المستقبل، ويوهمهم بأنهم هم الأخيار وغيرهم من الأمم هم الأشرار. وهذا التلبيس يؤدي إلى تكرار ما حدث في قصص الأمم السابقة من أعمال الظلم والقتل وإطلاق التهم الباطلة والألفاظ السيئة من قِبَل الكفار الفجار على المؤمنين الأبرار!.

ويتطابق سلوك الأمم والدول المعاصرة وأقوالها وأفعالها الظالمة في حق المؤمنين بالله المسلمين له، تطابقًا كبيرًا جدًا مع سلوك الأمم الظالمة السابقة؛ حتى تجعل

---

(١) اعتمدت في قصص الأمم وتفسير الآيات الواردة اعتمادًا كبيرًا على الكتب الآتية: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم كلاهما لابن كثير، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري. ولم تُذكر هذه المراجع في مواضعها إلا إذا كان هناك ذكر لمراجع أخرى غيرها.

(٢) جاء ذكر أحداث المستقبل بصيغة الماضي أو الحاضر، كأنها وقعت أو تقع في الزمن الحاضر؛ حتى يعايش القارئ هذه الأحداث كأنه في زمانها، والأهم من ذلك للدلالة على وقوعها وتحققها؛ وذلك على طريقة القرآن في ذكر بعض أمور الآخرة والجنة والنار... إلخ بصيغة الماضي الدال على الوقوع والتحقق لا محالة.

المرء يتساءل: ألم تقرأ هذه الأمم والدول المعاصرة التاريخ، وكيف كانت نهاية كل أمة وكل دولة حاربت دين الله وأتباعه المسلمين الذين آمنوا بالله واتبعوا رسل الله؟!.

ومع ذلك.. فلعل وعسى أن يستفيد من هذا الكتاب أمة أو قوم أو دولة أو جماعة أو حتى أفراد في الحاضر أو المستقبل، فيتركوا طرق الضلال والباطل المعوجة الشريرة المؤدية إلى جهنم وبئس المصير، ويسيروا في طريق الهدى والحق المستقيم المؤدي إلى جنات النعيم، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فالمسلم يعظ وينصح ويريد الخير للآخرين، ويتمنى أن لو كان الناس كلهم مؤمنين؛ ليكونوا في الآخرة من نزلاء جنات النعيم، وهل هناك أعظم خيرًا من أن يتمنى المسلم الجنة لغيره؟! فليدلنا أحد على خير في الدنيا هو أعظم من الجنة في الآخرة! لن يجد أحد نعيمًا قط خيرًا من نعيم الجنة، ولهذا فإن مَن يريد دخول الجنة لا بد له من أن يسير في طريقها ليصل إليها، وليس للجنَّة إلا طريق واحد سوف يظهر واضحًا بيِّنًا على صفحات هذا الكتاب عند ذكر نهاية كل أمة، وكل طريق غيره فإنه يوصل إلى النار لا محالة.

هذا الكتاب:

إضافة إلى ما ذكرته من أهداف للكتاب، فقد أردت منه أيضًا تحقيق الأهداف الآتية:

- أن يكون مرجعًا سريعًا في قصص الرسل والأنبياء مع أقوامهم، ما دمت مضطرًّا إلى ذكر قصصهم؛ لأخذ العبرة منها والاستفادة من أحداثها. ولهذا حاولت أن تكون كل قصة مكتملة الجوانب قدر المستطاع؛ فغدت هذه القصص كأنها كتاب داخل كتاب.
- بما أن الكتاب ليس كتابًا بحتًا في قصص الأنبياء أو التاريخ، وإنما هو أيضًا كتاب في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة = تجنبت أن يكون جافًّا يكتفي بسرد الحقائق المجردة، بل أضفت التعليقات والتنبيهات حيثما لزم الأمر، وبعد انتهاء القصة كانت لي وقفات عند بعض أحداثها لبيان المستفاد منها، ولأوجه من خلالها رسائل معينة في النصح والوعظ والإرشاد، بل خطابات التقريع والتشفي من الذين

أهلكهم الله بسبب كفرهم. كذلك قمت بالتنبيه على عظمة الله وقدرته في طريقة إهلاكه للكافرين وإنجائه للمؤمنين. وعلى طريقة القرآن الذي ختم كل قصة رسولٍ في سورة القمر بالآية نفسها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1]؛ فقد ختمت أيضًا كل قصة بالدعوة نفسها إلى الاعتبار والاتعاظ من أحداث القصة ومما تركه الله من آيات، وأيضًا بذكر الجواب على الزعم المستمر عن الأخيار والأشرار؛ وذلك ببيان مَن هم الأخيار الحقيقيون، ومَن هم الأشرار الحقيقيون.

- استشهدت بنصوص من كتب العهد القديم والعهد الجديد التي يؤمن بها اليهود والنصارى، لإثبات بعض الأمور التي تتعلق بهم، على طريقة: (وشهد شاهد من أهلها)، وأيضًا: (من فمك أدينك).

أحمد الله تعالى على هدايته لي وتوفيقي لتأليف هذا الكتاب، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله، القائل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]. فأرجو من الله - جلَّ جلاله - أن أكون قد اجتهدت في تسهيل الطريق لتسير عليه الأمم والدول والحكومات والزعماء... من الآن وحتى آخر الزمان، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم.

وأدعو الله - عزَّ وجلَّ - أن يجعل كتابي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن ينفع به خلقه في كل مكان، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم الدين، إنه تبارك وتعالى وليُّ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

عدنان الرشة

(١) سورة القمر الآية: ١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

توطئة عامة

المؤمنون والكافرون:

لقد خلق الله - عزَّ وجلَّ - آدم وحواء، ومنهما خلق البشر، وجعلهم أممًا وشعوبًا وقبائل، ولم يتركهم هملاً، بل أرسل في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، ومبشرًا ومنذرًا؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل... حتى كان آخر رسله هو محمد ﷺ الذي بعثه الله برسالة الإسلام التي سوف تستمر إلى آخر الزمان. فمنهم مَن آمن ومنهم مَن كفر...! فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم الجنة ويوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا وكفروا فيجعلهم في النار، ويعذبهم عذابًا أليمًا، ولا يجدون من دونه وليًّا ولا نصيرًا. قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].

هكذا هو الأمر منذ آدم وأبنائه إلى قيام الساعة. فلا يجوز للإنسان أن ينشغل عن هذه الحقيقة التي لا بد له من مواجهتها بمجرد الموت، ومهما عاش ومهما ابتعد عن هذه الحقيقة أو نسيها. وقد بيَّن الله تعالى هذه الحقيقة في كتبه التي أنزلها على رسله ليبلغوها لخلقه؛ لكي يعلموا الهدف من خلقهم، والغرض من وجودهم على هذه الأرض لمدة زمنية محددة هي عمر كل إنسان منهم؛ حيث قال عزَّ شأنه وتقدست أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. وفطر خلقه على التوحيد والإسلام وعبادة الله، ولكن أبى أكثر الناس أن يؤمنوا بالله ويعبدوه؛ فعبدوا غيره واتخذوهم من دون الله آلهة، ولم يكتفوا بذلك، بل أصروا على أن يضلوا عباد الله

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٨-٤٩.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الذين آمنوا به وعبدوه، وودوا لو يردونهم من بعد إيمانهم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم، وحتى يكونوا جميعًا سواء في النار وفي العذاب.

وهكذا وقع الظلم والبغي والعدوان والقتل على الذين آمنوا بالله وأسلموا له واتبعوا رسله وشريعته، وذلك على يد الذين كفروا وظلموا وطغوا وبغوا...! منذ زمن نوح عليه السلام وقومه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وبذلك يكون الناس قد انقسموا إلى فريقين: فريق المؤمنين المسلمين، وهم الأبرار الأخيار، وفريق الكافرين العاصين، وهم الفجار الأشرار: ﴿ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾[1]. ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن يُدخل من يشاء في رحمته، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير. وقد أخبر تعالى بأن كل أمة أو قوم آمنوا مع رسوله الذي أرسله إليهم، ابتداء بقوم نوح عليه السلام وانتهاء بأتباع خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، مرورًا بإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كانوا جميعًا مسلمين.

فليس محمد ﷺ وأمته وحدهم هم المسلمين، بل كل نبي وكل رسول كان مسلمًا، ودعا قومه إلى الإسلام. والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، والبراءة من أهله. فنوح عليه السلام يقول: ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[2]، وإبراهيم عليه السلام ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[3]، ويدعو هو وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾[4]، وإبراهيم عليه السلام ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[5]، ويعقوب عليه السلام ﴿ **إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**

(١) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]، ويوسف ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2]، وموسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [3]، وسليمان عليه السلام يأمر بلقيس وقومها: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[4]، وبلقيس ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]، وعيسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[6]، وأمر الله محمدًا ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[7].

الظلم والمكر سبب للهلاك:

لقد أخبر الله تعالى أن الظلم سبب كبير لهلاك البلاد والأمم والدول، كما في قوله عزَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[8]، وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[9]. فالأمم السالفة والقرون الخالية أهلكهم الله بسبب ظلمهم، وجعل هلاكهم إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص. وقد أمر سبحانه الإنسان بأن ينظر كيف كان عاقبة الأمم السابقة فيعتبر ويتعظ، بل إن الدارس لتاريخ الأمم السابقة والمتأمل فيها يمتلك قلبًا يعقل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨٤.
(٤) سورة النمل، الآية: ٣١.
(٥) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٧) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٨.
(٨) سورة يونس، الآية: ١٣.
(٩) سورة الكهف، الآية: ٥٩.

به، وحدسًا يعرف به سلفًا مصير الأمم والدول الظالمة التي في زمانه.

وأخبر تعالى أن سنته مع الكفار الظالمين والفجار الفاسقين والأشرار المجرمين أنه يمهل ولا يهمل.. يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.. يقول تعالى عن الظالمين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾[1]. ويقول عن الكافرين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

فالله - عزَّ وجلَّ - ليس غافلاً عما يعمل الظالمون من عمل دق أو جل، ظهر للناس أو لم يظهر.. وهو سبحانه يطيل عمر الظالم ويؤخر موته، فيظن أن ذلك خير له في دنياه، ولا يشعر أن ذلك هو عين عقاب الله له في الدنيا قبل الآخرة، ولا ينتبه أن ذلك ليس إلا استدراجًا من الله له في الدنيا ليكثر ظلمه ويزداد عقابه، فإذا أنزل الله به نقمته في الدنيا لم يستطع الخلاص منه، وكذلك لم يستطع أحد أبدًا تخليصه منه، بل يهلكه لكثرة ظلمه، ثم بعد ذلك مأواه جهنم وبئس المهاد، ويجعل الله هلاكه آية وعبرة للأجيال التي سيخلقها من بعده؛ ليتعظوا به فلا يسلكون سبيله ولا يتبعون طريقته، بل يؤمنون بالله ويتبعون رسله.

وكذلك أخبر الله - جلَّ جلاله - بأن سنته مع الذين يمكرون المكر السيئ بالمؤمنين المسلمين أن مكرهم يحيق بهم، وتعود النتائج السيئة لمكرهم عليهم هم وليس على المسلمين: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[3]، وأنه سبحانه يمكر بهم وهم لا يشعرون، ثم يعاقبهم على مكرهم بتدميرهم وإهلاكهم: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4]. وأنه سبحانه يعاقب كل أمة بما تستحقه وبحسب ذنوبها: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ٥٠-٥١.

بذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1]. وأنه سبحانه ينجي المؤمنين: ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[2].

أهل الخير وأهل الشر:

لم يخل عصر من العصور - ولن يخلوَ - من فريقين من البشر؛ هما: المؤمنون والكافرون، أو أهل الخير وأهل الشر، وذلك منذ خلق الله البشر إلى آخر الزمان، ولو تأملنا في قصص الأمم السالفة لوجدنا المشهد نفسه يتكرر بين الفريقين؛ فأهل الخير يعرفون أنهم أهل الخير، ولكن أهل الشر لا يعرفون أنهم أهل الشر[3]، بل يظنون أنهم هم قوى الخير، ويقومون بمحاربة أهل الخير ويتهمونهم بأنهم قوى الشر، حتى لو كانوا أنبياء ورسلاً من عند الخالق تبارك وتعالى...! وهذا ما كان يحدث مع كل نبي ورسول مع قومه الكفار الأشرار الذين يحاربونه هو وأتباعه، ويتهمونهم بأنهم أشرار وأصحاب ضلال يستحقون القتل أو السجن والتعذيب أو الطرد من الديار، كما قال الشاذون القذرون فيما ذكره الله عنهم: أخرجوا آل لوط من قريتكم، إنهم أناس يتطهرون!. فالطهارة عن الشذوذ والنجاسات التي يمدح الله عليها تصير شيئًا مرفوضًا سيئًا وشرًا بنظرهم يستحق الإخراج من البلد، أما الشذوذ وارتكاب الرجل الفاحشة مع رجل مثله فهو بنظرهم خير وحرية وحق من حقوق الإنسان يستحق عليها التقريب والاحترام!.

ويتهمون رسول الله وأتباعه بأنهم حاسدون لهم وكارهون، وأنهم مفسدون في الأرض، كما قال فرعون الملعون عن موسى عليه السلام وقومه المؤمنين المسلمين من بني

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٣.

(٣) لقد أبان الكتاب، بل كشف كل فصل فيه، عمن هم قوى الخير الحقيقية، وعمن هم قوى الشر الحقيقية، وأعطى الجواب الفصل في ذلك.

إسرائيل فيما ذكره الله عنه: ذروني أقتل موسى، وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد. ففرعون يعتقد بأن موسى والمؤمنين هم من أهل الشر، ويخاف أن يبدلوا الدين ويفسدوا في الأرض! لأن فرعون يظن نفسه وقومه على دين صحيح، وأنهم أهل الخير والرشاد؛ ولهذا يقول لقومه بلهجة جبرية (دكتاتورية) فيما ذكره الله عنه: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وأن مَن لم يكن معنا ويتبعنا ويسلك سبيلنا فهو ضدنا وعدونا!؛ ولهذا لما كان موسى عليه السلام وقومه ضده؛ اجتهد فرعون في محاربتهم وتعذيبهم وإذلالهم، ولما رحلوا عنه لم يدعهم وشأنهم، بل خرج هو وجنوده في مطاردتهم، وأسرع إلى اللحاق بهم وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، ولم يدر هذا الكافر البغيض أنه يسرع إلى حتفه والغرق في البحر؛ ليجعل الله منه عبرة لمن خلفه من الحكام الكفرة الظلمة الذين يسيرون على نهجه ويتبعون طريقته في الحكم وإرغام الناس على ما يرونه صحيحًا وراشدًا، في حين أنه الكفر والضلال، والكذب والإفك والبهتان!.

وقد اتهم المشركون محمدًا ﷺ بالسحر والكذب، لكونه دعاهم إلى النطق بكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)؛ وقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عُجاب. فالشرك وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة، هي باعتقادهم دين سليم صحيح، فظنوا أنهم هم أهل الخير دون غيرهم! أما رسول الله ﷺ الذي بلَّغهم بأن الله رب العالمين وخالق السماوات والأرض هو واحد ولا إله غيره، فهو بنظرهم قد اختلق هذا الأمر؛ لأنه يريد الشرف والاستعلاء، وأن ما جاء به هو شر وأن مَن يتبعونه من الناس هم أهل الشر!.

هكذا كان الموقف دائمًا بين المؤمنين الأخيار والكافرين الأشرار، وسيظل الموقف نفسه يتكرر في كل عصر وفي كل بلد إلى آخر الزمان، فمن سنة الله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ**

﴿الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1]. فالله تعالى يُديل على المؤمنين المسلمين الأعداء تارة، وإن كانت لهم العاقبة لما له سبحانه في ذلك من الحكمة، ليرى من يصبر على مناجزة الأعداء، ويتخذ منهم شهداء يُقتَلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته، وليكفِّر الله عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. ويمحق الكافرين؛ فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم. أم حسب المؤمنون أن يدخلوا الجنة ولم يُبتَلوا بالقتال والشدائد؟! لا...! لا يحصل لهم دخول الجنة حتى يبتلوا، ويرى الله من هم المجاهدون في سبيله، والصابرون على مقاومة الأعداء. ولهذا يقول الله تعالى مسليًا للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[2]. أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، فالعاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون، إن كنتم قد أصابتكم جراح وقُتِل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح.[3]

نعم...! لقد قضى الله وحكم بأن النصرة والغلبة في النهاية دائمًا للمؤمنين المسلمين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[4]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[5]، وأنهم لا يُغلَبون، بل إما يُقتَلون أو يَغلِبون: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[6]. فإما الشهادة وإما

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٠-١٤٢.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٩-١٤٠.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤١٧/١ (بتصرف).

(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٦) سورة النساء، الآية: ٧٤.

النصر، وهما الحسنيان: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[1]. وأن من يحارب الإسلام وأهله قد يربح جولة أو معركة، ولكنه لا يمكن أن يربح حربًا نهائية عليه. والآيات في ذلك كثيرة، ولمن لا يؤمن بها فأمامه تاريخ الأمم السابقة الذي يشهد بذلك ويؤكد هذه الحقيقة.

إذًا.. ففي نهاية المطاف يفصل الله - عزَّ وجلَّ - بين الفريقين، فيُنزل عذابه على الكافرين الأشقياء الأشرار، ثم مأواهم النار، التي إذا غُمِس فيها غمسةً واحدةً أنعم إنسان في الدنيا، من أهل النار، ثم قيل له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ يقول: لا، والله! يا رب! وينجي المؤمنين الأبرار الأخيار، وينصرهم على أعدائهم، ثم يدخلهم الجنة، التي إذا غُمِس فيها غمسةً واحدةً أشد المؤمنين ضُرًّا وبلاءً وبؤسًا، من أهل الجنة، ثم قيل له: هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ يقول: لا، والله! يا رب! ما مر بي بؤس قط. ولا رأيت شدة قط[2].

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

(٢) هذا معنى حديث أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار.

الباب
الأول

نهاية قوم نوح أعداء نوح عليه السلام

نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله:

لقد كان قوم نوح عليه السلام على الفطرة التي هي التوحيد والإسلام لله تعالى.. فأضلهم إبليس اللعين بعد مدة، وجعلهم يعبدون من دون الله أصنامًا صنعوها بأيديهم...! ولكن من رحمة الله - عزَّ وجلَّ - أنه لم يتركهم على ضلالهم وكفرهم به، فبعث إليهم عبده ورسوله نوحًا عليه السلام رحمة لهم، فكان أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بعد حدوث الشرك ليدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له، وألاَّ يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً ولا طاغوتًا، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولينذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، فأبلغهم بأنه لهم نذير مبين، وبلغهم رسالة الله إليهم: ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ** ﴾[1]. وبيَّن لهم جزاء من يعبد الله ويوحده ويتقيه: ﴿ **يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[2].

بل إن نوحًا عليه السلام قد كشف لهم وللأمم من بعدهم سرًا من أسرار استغفار الله وما رتب عليه سبحانه من النعم الكثيرة، إذ يقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾[3]. وكلما رأى نوح منهم صدودًا عن الحق خوَّفهم بالله وبيَّن لهم عظمته، وأنه تعالى خلقهم أطوارًا، وحثهم على التأمل في

(١) سورة نوح، الآية: ٣.

(٢) سورة نوح، الآية: ٤.

(٣) سورة نوح، الآيات: ١٠-١٢.

كيفية خلق الله لسبع سماوات طباقًا، وكيف جعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا، وأنبتهم من الأرض نباتًا، ثم يعيدهم فيها ويخرجهم إخراجًا، وجعل لهم الأرض بساطًا ليسلكوا منها سبلاً فجاجًا.

طريقة واضحة ولغة مفهومة ظل نوح عليه السلام يستخدمها مع قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فكان يدعوهم بأنواع الدعوة ليلاً ونهارًا، سرًا وجهرًا، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[1].

ومع كل هذا لم يستجيبوا له إلا مَن رحم الله، وما آمن معه إلا قليل، حتى زوجته وأحد أبنائه لم يؤمنا معه. أما أكثرهم فقد استمر على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، وناصبوه العداوة وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم. وأعلنوا صراحة أنهم لن يتركوا عبادة آلهتهم الخمسة: وَدًّا وسُوَاعًا ويَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، لكي يعبدوا الإله الواحد الذي يدعوهم نوح إليه، وليكونوا لهذا الإله الواحد من المسلمين. فما كان من نوح عليه السلام إلا أن قال لهم: ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[2]. فهو لا يسألهم أجرًا على نصيحته إياهم، فثواب الله خير له وأبقى، وهو ممتثل ما أُمِر به من الإسلام لله عزَّ وجلَّ.

واتهم السادة والكبراء والقادة نوحًا عليه السلام وأتباعه بالكذب عليهم، وأنهم ما يرونه إلا بشرًا مثلهم وليس ملَكًا، وأنه لم يتبعه الأشراف ولا الرؤساء منهم، بل لم يتبعه إلا الفقراء والضعفاء بمجرد ما دعاهم استجابوا له من غير نظر ولا روية، ولم يظهر لهم فضل عليهم بعد اتصافهم بالإيمان. فهذا الذي رموهم به هو عين ما يُمدحون

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٢.

بسببه، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر؛ فهذا ليس إلا دليلاً على جهل أصحاب هذا القول وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. والغالب على الأشراف والكبراء مخالفة الحق بسبب سلبه الرياسة منهم، وصعوبة تخليهم عنها، وأنفتهم من الانقياد.

ولهذا أمعن قوم نوح في الظلم، وافتروا على رسول الله نوح عليه السلام فاتهموه بالضلال المبين في دعوته إياهم إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدوا عليها آباءهم. وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة، وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون. فدافع نوح عليه السلام عن نفسه وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وكان كلما انقرض جيل من قوم نوح وصُّوا مَن بعدهم بعدم الإيمان بنوح ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألاَّ يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقي، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق.

ولما اقتربت ساعة نقمة الله من قوم نوح الكفرة الذين لم يستجيبوا لرسوله وأصروا على عبادة غيره، وأمعنوا في إيذاء عباده المؤمنين فاستحقوا بذلك العذاب؛ أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن؛ تسلية له عما كان منهم إليه، وألاَّ يبتئس بما كانوا يفعلون؛ وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه ألاَّ يسوأنه ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب. فحدثت المواجهة الحاسمة بين رسول الله وقومه، حيث أخبرهم بأنه إن عظم عليهم مقامه وقيامه بما أمره الله، فهو على الله توكل، فليجتمعوا هم وشركاؤهم الذين يدعون من دون الله من صنم

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٦١-٦٢.

ووثن، ولا يجعلوا أمرهم عليهم متلبسًا، فإن كانوا يزعمون أنهم محقون فليقضوا إليه ولا يؤخروه ساعة واحدة، ومهما قدروا فليفعلوا، فهو لا يبالي بهم ولا يخاف منهم لأنهم ليسوا على شيء.

فأعلنوا له التحدي وقالوا له: يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت من الصادقين. هكذا ظنوا بعد كل هذه المدة من دعوته لهم أن العذاب من عنده هو فليأت به، وإذا كان العذاب من عند الله فليأت به كذلك، فأخبرهم بأن العذاب ليس من عنده وقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1]. أي؛ إنما يقدر على ذلك الله - عزَّ وجلَّ - فإنه الذي لا يعجزه شيء، بل هو الذي يقول للشيء: كن فيكون. ويا ويل من سيقع عليه عذاب الله، فعذابه ليس كعذاب البشر بعضهم لبعض؛ مثلما يأمر السادة والقادة جنودهم بإنزال العقاب البدني بالمعارضين والمخالفين، بل عذابه أمر للكون، وأمر للسماء والأرض بأن تشتركا في إنزال العذاب المهين؛ لذا فهو عذاب كوني، وحدث فوق مستوى عقول البشر.

نزول العذاب ونهاية قوم نوح الكفار:

لما يئس نوح عليه السلام من صلاح قومه وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه؛ دعا عليهم دعوة غضب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[3]. فأجاب الله دعوته فاجتمعت عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم. فعند ذلك أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة العظيمة التي لم يكن

(١) سورة هود، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١١٧-١١٨.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ٢٦-٢٧.

لها نظير قبلها. وأعلمه تعالى أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يراجعه فيهم، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

وفي أثناء قيام نوح عليه السلام بصنع السفينة كان كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه واتهموه بالجنون؛ إذ كيف يصنع سفينة وهو في البر حيث لا بحر ولا نهر فكيف ستجري؟! وكذلك استبعدوا وقوع ما توعدهم به من العذاب، فكان يرد عليهم: ﴿**إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾[1]. اسخروا كما تريدون! وغدًا سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون! فالعبرة في النهاية وفي المآل لا في البداية ومنتصف الأحوال...!.

وأخذ رسول الله نوح عليه السلام ينتظر أمر الله والعلامة على ساعة الصفر وهي فوران التنور لبدأ عملية الجلاء وركوب السفينة: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾[2]. فقال لهم نوح: اركبوا في السفينة، بسم الله مجراها ومرساها. ودعا نوح ربه بأنه مغلوب فلينتصر له، فقد وعد الله رسله والذين آمنوا بنصرهم، وقد حانت ساعة النصر. ففتح الله أبواب السماء بماء منهمر، وفجَّر الأرض عيونًا فالتقى الماء حتى أصبح بحرًا وطوفانًا عظيمًا لم تشهد الأرض مثيلاً له... وارتفعت السفينة على الماء... ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾[3].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٣٨-٣٩.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٣) سورة هود، الآيتان: ٤٢-٤٣.

فماذا كان مصير نوح عليه السلام ومَن معه من المؤمنين في السفينة، ومصير قومه الذين كذبوا بآيات الله وكفروا؟! ﴿ **فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾[1]. هذا هو مصير قوم نوح في الدنيا، فما هو مصيرهم في الآخرة؟! ﴿ **مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا** ﴾[2].

هذه هي نهاية كل مَن يؤمن بالله حتى ولو كانوا من الفقراء الضعفاء، فهم في النهاية السادة والأشراف...! وهذه هي نهاية كل من يكفر بالله حتى ولو كانوا من السادة والأشراف والقادة والأكابر، فهم أرذل القوم وأردؤهم وأسوؤهم وأفجرهم...! ليس هناك واسطة لأحد في أحد حتى ولو كان لابن من أبناء رسول الله أو زوجة من زوجاته...! وهو ما حلَّ بابن نوح الذي أبى أن يركب مع أبيه في السفينة، واختار البقاء مع الكافرين فغرق معهم...! وكذلك زوجة نوح التي خانت زوجها في الدين فلم تتابعه فيه، وكانت على طريقة قومها في الكفر؛ فاستحقت أن يضرب الله بها مثلاً للذين كفروا، قال الله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ** ﴾[3].

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

والآن أين الأشراف والسادة والقادة والكبراء من قوم نوح؟! ماذا نفعتهم رياستهم وزعامتهم في قومهم، وهل أغنت عنهم من الله شيئًا؟! أين أنصارهم وأتباعهم؟! لقد أبوا طاعة نوح واتباعه في عبادة الله وحده لا شريك له، وأصروا على عبادة الأولياء

(١) سورة يونس، الآية: ٧٣.

(٢) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١٠.

والأحجار، فليدعوا أحجارهم لتنقذهم من النار، أو ليدعوا أنصارهم وأتباعهم لتحميهم من الله أو ليحملوا عنهم بعضًا من العذاب.

لقد أضلوا كثيرًا فاستحق عليهم العذاب، فلم تنقذهم آلهتهم التي عبدوها من الغرق في الطوفان العظيم، وهي لن تنقذهم من العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة. فقد أتى أجلهم فأهلكهم الله الذي خلقهم وسيستبدل قومًا غيرهم، ونزع المُلك منهم وسيؤتيه غيرهم من بعدهم. فهل رأوا كيف فعل الله بالكافرين والظالمين من أمثالهم؟! وهل رأوا كيف نصر الله تعالى نبيه ورسوله والمؤمنين؟! لقد طلبوا من نوح أن يأتيهم بما يعدهم وينذرهم من العذاب؛ فقد جاءهم ما طلبوا فهل وجدوا ما وعدهم ربهم حقًا؟!.

لقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول! إذ: «**يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عزَّ وجلَّ: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك فيقول: محمد وأمته. فنشهد أنه قد بلَّغ**»[1]. نعم...! فالله تعالى قد جعل أمة محمد ﷺ أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول ﷺ عليهم شهيدًا؛ فماذا هم فاعلون هؤلاء الكفرة بهذه الشهادة الحق؟!.

سبحان الله كيف يمهل للظالم حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر، لا يجعل له باقية ويجعله عبرة لمن يعتبر. لقد حلم الله على قوم نوح تسع مئة وخمسين عامًا، ظلوا فيها يؤذون الله تعالى بالشرك في عبادته، ويؤذون رسوله نوحًا عليه السلام ومن آمن معه، فلم يؤاخذهم ولم ينتقم منهم بل أمهلهم كل هذه المدة عسى أن يؤمنوا أو يخرج

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: إنَّا أرسلنا نوحًا إلى قومه...

من أصلابهم مَن يعبده ويوحده، كما قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾[1] نعم...! لكل أمة ودولة عمر محدد إذا انتهى ماتت واندثرت وجاءت أمة ودولة أخرى لتحل محلها. أجل مقدَّر ونهاية حتمية.

لقد أنجى الله رسوله والمؤمنين المسلمين الذين ركبوا معه في السفينة بالرغم من أنها تجري بهم في موجٍ كالجبال؛ ليعلم المؤمنون من بعدهم أن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. وقد ترك تعالى ما حدث لقوم نوح من عذاب وهلاك وغرق آية وعبرة للأمم التي سوف تأتي من بعدهم؛ وقال عزَّ شأنه: ﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾[2]. ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾[3].

لقد تركها الله آية للناس ليروا فيها أن نوحًا عليه السلام ومن آمن معه كانوا هم المؤمنين المسلمين الأبرار الأخيار.. وأن قومه الهالكين كانوا هم الكفار الفجار الأشرار، الذين رأينا فيهم عجائب قدرة الله تعالى إذا أراد هلاك قوم كافرين...! فهل الذين سيأتون من بعدهم سيتذكرون هذه الآية؟! وهل سيتعظون بمصير الكافرين والظالمين من قوم نوح فلا يسلكون سبيلهم، ولا يتبعون طريقتهم، ويصدقون رسل الله وأنبياءه، ويتبعون صراط الله المستقيم، ويوحدونه ويعبدونه وحده لا شريك له، ويكونون من حزبه المؤمنين المسلمين، ويتجنبون أن يكونوا من حزب الشيطان الكافرين الظالمين؟!.

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٥.

نهاية أمة عاد أعداء هود عليه السلام

هود عليه السلام يدعو أمة عادٍ إلى الله:

كانت أمة عاد على الفطرة التي هي الإسلام له سبحانه.. وهو دينه الوحيد الذي ارتضاه لآدم وحواء ولذريتهما من بعدهما إلى قيام الساعة.. فيا ليتهم اتعظوا بما أنزله على الكافرين والظالمين من قوم نوح عليه السلام من ألوان العذاب.. يا ليتهم علموا الحكمة من خلق الله إياهم وهي عبادته وحده لا شريك له فكانوا جميعًا إخوانًا.. معتصمين بحبله غير متفرقين.. وأسلموا له، واجتنبوا الكفر والفسوق والعصيان.. وتعاونوا على البر والتقوى.. ولم يقتل أخ أخاه.

فإن اختار بعضهم سلوك طريق قوم نوح في الكفر والظلم وإيذاء الله تعالى بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره، وإيذاء مَن سيبعثه الله رسولاً لهم بعيب أو نقص أو سب أو شتم أو كذب أو جنون، وإيذاء المؤمنين به والبطش بهم وممارسة جميع أنواع الإرهاب والإجرام عليهم لأنهم مسلمون يقولون: ربنا الله، وينفذون أوامره؛ فلينتظروا العذاب من الله في الدنيا والآخرة، فإنه قد قال عزَّ شأنه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾[1].

فبعد زمن على خلق أمة عادٍ نجح إبليس اللعين في أن يضل أعدادًا منهم، وجعلهم يعبدون من دون الله أصنامًا آلهة لا تنفعهم شيئًا ولا تضرهم. ومن رحمة الله بهم لم يتركهم على ضلالهم المبين فأرسل لهم نبيه ورسوله هودًا عليه السلام ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكفوا عن ظلم الناس: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا**

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٥٧-٥٨.

﴿لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾[1]. وأبلغهم بأنه رسول الله الأمين ليدعوهم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطرهم التي خُلِقوا عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحًا وأهلك مَن خالفه من الخلق، ولا يسألهم أجرًا عليه، بل يبتغي ذلك من عند الله؛ لأنه مالك الضر والنفع.

لقد رغَّبهم هود عليه السلام في طاعة الله وتقواه والإخلاص له، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة. وذكَّرهم بنعم الله الكثيرة والخيرات الكبيرة التي أمدهم بها وسخرها لهم وتفضل بها عليهم، وزادهم في الخلق بسطة وجعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش؛ فهو سبحانه الذي يجب أن يُعبَد ويُشكَر ولا يُكفَر... ولامهم على بناء الريع التي يبنونها للعبث بغير نفع والمنازل والقصور المشيدة كأنهم باقون خالدون فيها، والبطش وقتل الناس، وحذرهم من عذاب الله إن كفروا به وأصروا على ذلك. وكشف لهم أيضًا سر استغفار الله والتوبة إليه كما سبق أن كشفه نوح عليه السلام لقومه... حيث قال لهم هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[2]. فاستغفار الله والتوبة إليه سبب في نزول الخير وزيادة القوة.

فما كان منهم إلا أن ردوا عليه بأنه سواء عليهم أوعظ أم لم يكن من الواعظين لا يسمعون منه، وأن ما هم عليه من الأمر والبنيان والبطش فإنه من عادة الأولين من الآباء والأجداد ودينهم، وهم قد ماتوا ولم ينزل بهم شيء مما يحذرهم به من العذاب، وهم تابعون لهم سالكون وراءهم، يعيشون كما عاشوا ويموتون كما ماتوا ولا بعثًا ولا معادًا، وما هم بمعذبين على ما يفعلون، إن هي إلا حياتهم الدنيا. استبعدوا

(١) سورة هود، الآية: ٥٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٢.

المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا. واتهموه بالسفاهة والكذب؛ فنفى عن نفسه ما اتهموه به، وأكد لهم بأنه رسول الله إليهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]. فرفضوا ترك الآلهة التي يعبدونها ورفضوا أن يؤمنوا بهود عليه السلام وبما جاءهم به من الله تعالى. وقد أخبرهم: لقد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم، لم يُنزل الله على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهانًا؟! فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

بل افتروا على هود، وقالوا إن بعض أصنامهم أصابه بجنون وخبل في عقله، بسبب نهيه عن عبادتها وعيبه لها! فأعلن هود أنه بريء من جميع أصنامهم، ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾[2]. وهذا تحد منه لهم وتنقص لآلهتهم، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر، فها أنا بريء منها لاعن لها فاحتالوا أنتم وآلهتكم جميعًا في عداوتي وضري ولا تؤخروني طرفة عين؛ فإني لا أبالي بكم، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[3].

بعد كل هذه المواعظ من هود عليه السلام ودعوة قومه لتوحيد الله وعبادته وحده ومناظرته لهم؛ أبوا إلا أن يكونوا كافرين بالإصرار على عبادة الأوثان التي لا تغني

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٧.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٥٤-٥٥.

(٣) سورة هود، الآيتان: ٥٦-٥٧.

عنهم شيئًا، واتهموا هودًا عليه السلام بأنه يريد أن يصدهم عن آلهتهم ويمنعهم من عبادتها. أبوا أن يتعظوا بقوم نوح الكافرين الذين أهلكهم الله، فقالوا مثل قولهم، إذ قالت عاد لأخيهم هود: فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت من الصادقين. استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه عليهم، أما رسول الله هود عليه السلام فقد ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[1].

نزول العذاب ونهاية أمة عاد الكفار:

لما حانت ساعة عذاب رب العالمين بأمة عاد نجى الله رسوله هودًا عليه السلام والذين آمنوا معه؛ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[2]. أما الكافرون من أمة عاد فقد حلت عليهم لعنة الله؛ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[3]. ولما نزل بهم العذاب رأوا... وماذا رأوا...؟! ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[4].

أبوا إلا الكفر فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك؛ فرأوا سحابًا في عرض السماء قادمًا من الوادي الذي جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثًا، فاستبشروا ومدوا أيديهم وقالوا: هذا عارض ممطرنا. ولما رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش عرفوا أنه عذاب. فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح أبوابهم وصرعتهم،

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٨.

(٣) سورة هود، الآيتان: ٥٩-٦٠.

(٤) سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٤-٢٥.

فكانت الريح ترفع الرجل منهم في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، وتكسر رأسه. لقد بقوا أبدانًا بلا رؤوس، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم الخنادق في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم كل ذلك من أمر الله شيئًا.

وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال، ولهم أنين. ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر. هذه الريح الباردة الشديدة تدمر كل شيء بُعثت إليه من رجالهم وأموالهم بأمر ربها. سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات حتى أبادهم عن آخرهم ولم يجعل لهم خلفًا.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

والآن ماذا عن عاد، وكيف رأوا عذاب الله الذي وقع عليهم؟! لقد سألوا هودًا عليه السلام أن يأتيهم بما يعدهم من العذاب، فجاءهم ما سألوا، فهل وجدوا ما وعدهم به حقًا؟!. حين تهددهم أخوهم هود عليه السلام بالعذاب، بلغ بهم الاستكبار والغطرسة أن يتحَدوا ويقولوا: من أشد منا قوة؟! فهل رأوا كيف أن الله تعالى الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟! فأين بطش هؤلاء الجبارين، أبطشهم أشد أم بطش ربهم؟! وأين آلهتهم لتدفع عنهم العذاب الذي حل بهم أو لتمنع الريح التي أهلكتهم؟!. قالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا. فأين قوتهم؟! فليمنعوا هذه الريح! وإنما هم كانوا بآيات الله يكفرون، فاتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة. ولعذاب الآخرة أشد خزيًا لهم، وهم لا يُنصَرون كما لم يُنصَروا في الدنيا.

لقد كان ذلك درسًا وعبرة من الله تعالى لكل من يجحد بآياته ويصدف عنها، ويعصي رسله ويتبع كل جبار عنيد، ويبطش بالمؤمنين به والمسلمين إليه...! فهو ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.. وهو على كل شيء قدير.. وإذا أراد بقوم هلاكًا وعذابًا، أو بلاءً أو أمراضًا، فلا مرد لذلك وما لهم من دونه من والٍ أو ناصر

أو ملجأ يمنعهم من عذابه أو بلائه.. وهو سبحانه إذا أراد بقوم سوءًا أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه...!.

خلق الله أمة عاد بأجسام ضخمة طويلة قوية فاغتروا بذلك واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله فطغوا وبغوا في الأرض...! نسوا ولم يتفكروا فيمن يبارزون بالعداوة! فالله هو الذي خلق الأشياء وركَّب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه لشديد...!.

ومن رحمة الله بهم أن أرسل لهم أخاهم هودًا عليه السلام رسولاً فعصوه ولم يؤمنوا معه، وفعلوا ما فعلوا من الكفر بالله والاستكبار في الأرض حتى استحقوا العذاب...! قال تعالى عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[1].

نعم، لقد رأينا كيف فعل الله بعاد...! رأينا أن هودًا عليه السلام ومن آمن معه كانوا هم المؤمنين المسلمين الأخيار الأبرار. وأن قومه الهالكين كانوا هم الكفار الأشرار الفجار. ورأينا كيف ينزل الله بأسه على الكفار الظالمين...!. ولكن هل الذين سيأتون من بعدهم سيرون كيف فعل الله بعاد...؟! وهل سيتعظون بما أنزل عليهم من العذاب الشديد فلا يكفرون كما كفروا، ولا يجحدون بآيات الله كما جحدوا، فيوحدونه ويعبدونه وحده لا شريك له، ويكونون من حزبه المؤمنين المسلمين، ويتجنبون أن يكونوا من حزب الشيطان الكافرين الظالمين؟!.

(١) سورة الفجر، الآيات: ٦-٨.

نهاية أمة ثمود أعداء صالح عليه السلام

صالح عليه السلام يدعو أمة ثمود إلى الله:

لم تتعظ أمة ثمود بما أنزله الله على الكافرين والظالمين من أمة عادٍ قوم هود عليه السلام من العذاب والريح التي تدمر كل شيء بإذنه.. بل اختار بعضهم سلوك طريقهم في الكفر والظلم ومخالفة أوامر الله وارتكاب نواهيه، وإيذاء رسول الله إليهم، وإيذاء المؤمنين به والبطش بهم.. فلينتظروا العذاب من الله في الدنيا والآخرة، كما وقع على مَن قبلهم من قوم نوح وعاد.

أما إبليس اللعين فقد استمر في إضلاله لبني آدم حسدًا منه حتى استطاع أن يضل أعدادًا من أمة ثمود، وجعلهم أيضًا يعبدون من دون الله أصنامًا آلهة كما فعل بقوم نوح وعاد من قبل...! أيضًا من رحمة الله بهم أنه لم يتركهم على ضلالهم المبين فأرسل لهم نبيه ورسوله صالحًا عليه السلام ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا إله غيره، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، وأن يستغفروا الله ويتوبوا إليه ليرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء، فقال صالح عليه السلام: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾[1]. وقد آمنت به طائفة منهم وكفر معظمهم ورفضوا ترك عبادة ما كان آباؤهم يعبدون، فقال صالح عليه السلام: ﴿**يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[2]. فأجابه الذين كفروا بأقبح جواب، وأخبروه بأنهم يتطيرون ويتشاءمون به وبمن معه! ونالوا منه بالقول والفعل؛ وقالوا له: أتنهانا أن

(١) سورة هود، الآية: ٦١.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٦.

نعبد ما يعبد آباؤنا؟ إننا لفي شك مما تدعونا إليه. وقالوا أيضًا: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل دعائك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد، فقال لهم: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه، ما هو عذركم عند الله؟ وما الذي يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعوتكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني من الله ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وأكد لهم صالح عليه السلام أنه رسول الله الأمين، وعدَّد نعم الله الكثيرة التي أسبغها عليهم من الأمن والأمان، والجنات والعيون، والزروع والنخل، ونحتهم البيوت الفارهة في الجبال، ودعاهم إلى أن يتقوا الله ويطيعوه، ونهاهم عن طاعة المفسدين. وذكَّرهم بأمة عادٍ وأن الله تعالى جعل أمة ثمود خلفاء من بعدهم. ولكن ثمود استكبروا أن يتبعوا بشرًا واحدًا منهم، واتهموا رسول الله صالحًا عليه السلام بأنه كذَّاب أشر. كبرت كلمةً تخرج من أفواههم، سيعلمون غدًا من الكذَّاب الأشر.

وبدلاً من أن يستجيبوا له اتهموه بأنه من المسحورين وأنه لا يدري ما يقول في دعوته إياهم إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد. ثم سألوه أن يأتيهم بآية خارقة للعادة تدل على صدقه، وقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ فقالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عزَّ وجلَّ - ما قدر له، ثم دعا ربه - تبارك وتعالى - أن يجيبهم إلى ما طلبوا؛ فاستجاب له الكريم؛ فأمر الله تلك الصخرة أن تنفض عن ناقة عظيمة على الصفة التي نعتوها؛ فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا، ومنظرًا هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا؛ فقال صالح

لقومه ناصحًا ومحذرًا: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وجحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها، بالرغم من أنهم هم الذين طلبوا هذه الآية، وسنة الله تعالى قد جرت أن مَن يطلب آية ليؤمن ثم تأتيه الآية فلا يؤمن فلا يلومن إلا نفسه؛ لأنه استحق العذاب الشديد.

ونبَّأهم صالح عليه السلام أن الماء قسمة بينهم، للناقة شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلم تعجبهم هذه القسمة بينهم وبين الناقة، وخططوا للتخلص منها: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2].

نزول العذاب ونهاية أمة ثمود الكفار:

بعد أن قتلوا الناقة أمهلهم صالح عليه السلام ثلاثة أيام، وبعدها سيأتيهم العذاب العظيم الذي حذرهم منه فيما لو مسوا الناقة بسوء. ومع ذلك كذبوه ولم يصدقوه في هذا الوعد الأكيد وتحدوه أن يأتيهم بما يعدهم إن كان من المرسلين. ولم يكفهم أنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية وحجة عليهم واختبار لهم أيؤمنون بها أم يكفرون، والله أعلم بما يفعلون، بل هموا أيضًا بقتل صالح عليه السلام وأهله! وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة، وقالوا: لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولكن هيهات أن يقدروا على رسول الله، فلله العزة ولرسوله. أظنوا أن العذاب الذي وعدهم به صالح عليه السلام سيكون من عنده هو حتى يخططوا لقتله كضربة استباقية وقائية؟! ألم يعلموا أن العذاب سيكون من عند الذي خلقهم؟! إنهم حقًا لجاهلون! ولكن الله تعالى يعلم مكرهم، فمكر سبحانه وتعالى مكرًا وهم لا يشعرون. إذ لما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه وجاؤوا من الليل

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٦٥.

ليفتكوا بنبيه؛ أنجاه وأهله من مكرهم السيئ وكان الله خير الماكرين. فقد أرسل الله تعالى على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح عليه السلام حجارة رضختهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم.

وأصبحوا في اليوم الأول من أيام النُّظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل. ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل. فلما كان صبيحة اليوم التالي تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يُفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، وكذلك ﴿ **فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[1]. ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، فأصبحوا في ديارهم جاثمين جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها، كأن لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء، فدمرهم الله وقومهم أجمعين. ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدًا لهم...! ألا إنهم قد ذاقوا عذاب الدنيا وإن عذاب الآخرة بانتظارهم...! لقد سألوا صالحًا عليه السلام أن يأتيهم بما يعدهم من العذاب، فجاءهم ما سألوا، فهل وجدوا ما وعدهم به حقًا؟!

ولما جاء أمر جبار السماوات والأرض بالعذاب على قوم ثمود الكفار في الموعد المحدد نجى الله رسوله صالحًا عليه السلام ومَن آمن معه، ﴿ **وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾[2]. وبعد هلاك الكافرين نظر إليهم رسول الله صالح عليه السلام وهو يبتعد عنهم ذاهبًا إلى مكان آخر فقال: ﴿ **يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ**

(١) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٨.

﴿تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1]. لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب عليَّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

سبحان الله رب العالمين الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء...! سبحان مَن يقول للشيء: كن فيكون...! حين قال سبحانه للناقة: اخرجي من الصخرة خرجت بالصفات التي طلبوها تمامًا بالرغم من تحديدهم لهذه الصفات على سبيل التعجيز، ولكن ذلك ليس على الله بعزيز...! وحين مكرت ثمود مكرًا مكر سبحانه بهم وهم لا يشعرون، فدمرهم وقومهم أجمعين، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر...!.

لقد ترك الله - عزَّ وجلَّ - بيوت ثمود المحفورة في الجبال سليمة خالية بما ظلموا لتكون آية وعبرة لمن يعتبر، وعظة ليتعظ بها مَن سيأتي بعدهم من الأقوام، ولتكون هذه البيوت إنذارًا لمن بعدهم فلا يكفرون مثل كفرهم وإلا سينالون من العذاب ما نالوا. ولا يزال الناس يرون هذه البيوت المحفورة في الجبال إلى زماننا هذا، ومن الناس من يذهب إلى الشمال الشرقي من الجزيرة العربية لمشاهدتها على الطبيعة، ويدخل إلى غرفها بعد أن تحولت إلى أثر سياحي مشهور باسم (مدائن صالح)...! كما أن صور هذه البيوت منتشرة في كل مكان يراها الكثير من الناس؛ فهل من متعظ...؟!.

لقد كانت قصة رسول الله صالح عليه السلام وقومه ثمود آية وعبرة علمنا منها علمًا يقينًا أن صالحًا والذين معه كانوا هم المؤمنين المسلمين الأخيار الأبرار، وأن ثمود

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٩.

الهالكين كانوا هم الكفار الأشرار الفجار. فهل مَن سيأتي بعد أمة ثمود سيعتبر بما فعله الله بهم من العذاب العظيم، ويتعظ بما تركه من بيوتهم الخاوية التي لم تُسكن من بعدهم فلا يكفرون كما كفروا، ولا يجحدون بآيات الله كما جحدوا، فيوحدون الله ويعبدونه وحده لا شريك له، ويكونون من حزبه المؤمنين المسلمين، ويتجنبون أن يكونوا من حزب الشيطان الكافرين الظالمين؟!

نهاية النمرود وجنوده أعداء إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى الله:

لم يتعظ قوم إبراهيم عليه السلام بما أنزله الله من العذاب على من كفر به وعبد غيره، ولم يعلموا الحكمة من خلقه إياهم، وهي عبادته وحده لا شريك له، وأن يكونوا مسلمين له؛ فعبدوا الأصنام التي صنعوها بأيديهم، وعبد آخرون الكواكب والنجوم. وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام.

آتى الله تعالى إبراهيم عليه السلام رشده في صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبره؛ وكان أهلاً لذلك. فقال عزَّ شأنه: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**﴾[1]. فقد أخلص إبراهيم عليه السلام دينه لله وخضع له، وتوجه إليه بالعبادة فوصل إلى غاية ما يتقرب به العباد، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، قال سبحانه: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ**﴾[2]؛ إذ قام بجميع ما أمره الله به، ووفَّى كل مقام من مقامات العبادة.

وأثنى الله تعالى على عبده ورسوله وخليله إبراهيم وزكاه ومدحه بقوله: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[3]. فهو إمام الهدى الذي يُقتدى به، وهو معلم الخير الذي يعلم الناس دينهم، وهو أمة وحده،

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٧.

(٣) سورة النحل، الآيات: ١٢٠-١٢٢.

وهو الحنيف المائل عن الشرك إلى التوحيد، قائمًا بشكر نعم الله عليه. اختاره الله واصطفاه وآتاه رشده وهداه إلى صراطه المستقيم.

وقد أرسل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إلى قومه في أرض بابل ليدعوهم إلى الله، فأخبرهم بأنه رسول من الله يريد أن يبلغهم رسالته إليهم، ودعاهم إلى عبادته وحده، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر على ما أنعم به عليهم، فإنه المشكور على النعم لا مُسْدي لها غيره؛ فإذا فعلوا ذلك حصل لهم الخير في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[1]. كما نهاهم عن عبادة الأوثان التي لا تملك الرزق ولا تضر ولا تنفع، وإنما هم الذين ينحتونها أصنامًا؛ فهي مخلوقة مثلهم. وأخبرهم بأنهم إن كذبوا فقد كذَّب أمم من قبلهم، وبلغهم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، فليعتبروا بما جرى لهم فلا يكذبوا، وليحرصوا لأنفسهم أن يكونوا من السعداء.

ثم ذكر الله تعالى مناظرة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه، وكان أول دعوته لأبيه، الذي كان يعبد الأصنام؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له. فذكر تعالى ما كان بين إبراهيم وأبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة، بيَّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئًا أو تفعل به خيرًا من رزق أو نصر؟! ثم قال منبهًا على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع: يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطًا مستقيمًا واضحًا سهلاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٦.

لم يقبل أبوه هذا الرشد وهذه النصيحة، ولم ينته عن عبادة الأصنام، بل تهدده وتوعده وقال له: أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليًا. فعندها قال له إبراهيم عليه السلام: سلام عليك؛ سأستغفر لك ربي إنه كان بي لطيفًا في أن هداني لعبادته والإخلاص له. وكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته كما وعده في أدعيته، فلما مات على الشرك وتبين لإبراهيم أنه عدو لله تبرأ من أبيه ورجع عن الاستغفار له.

وقد قام خليل الله إبراهيم عليه السلام بمناظرة قومه الذين يعبدون الأصنام، فأنكر عليهم عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها وقال لهم: ماذا تعبدون أئفكًا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟! وقال لهم: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟! فقالوا له: وجدنا آباءنا لها عابدين. سلموا له أنها لا تسمع داعيًا ولا تنفع ولا تضر شيئًا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال. قال لهم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. وقال: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. وهذا برهان قاطع على بطلان ألوهية ما ادَّعوه من الأصنام؛ لأنه تنقص بها فلو كانت تضر لضرته، ولو كانت تؤثر لأثرت فيه.

وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وأخبرهم بأنه لا يعبد إلا رب العالمين الذي يفعل هذه الأشياء، وهو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. والذي هو خالقه ورازقه بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية. وإذا وقع في مرض فإنه لا يقدر على شفائه أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه. والذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد. والذي لا يقدر على غفران الذنوب

في الدنيا والآخرة إلا هو، وهو الفعال لما يشاء. وقال إبراهيم عليه السلام لقومه مقرعًا لهم وموبخًا على سوء صنيعهم في عبادتهم الأوثان: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[1]. وقال قومه له: هذا الكلام الذي تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقوله محقًا جادًا فيه أم لاعبًا؟! قال إبراهيم: بل أقول لكم ذلك جادًا محقًا، وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء فاطر السماوات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقد أقسم إبراهيم عليه السلام بالله ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يذهبوا إلى عيدهم. وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره، فقال: إني سقيم. لقد عرَّض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام. فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم ذهب إلى آلهتهم مسرعًا مستخفيًا فوجدها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعًا من الأطعمة قربانًا إليها. فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ألا تأكلون؟! ما لكم لا تنطقون؟! فراح يكسرها حتى جعلها حطامًا، وقد كسَّرها كلها وأبقى على كبير لهم لعلهم إليه يرجعون. فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين؟! وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون؛ وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا هذا القول من جهلهم وقلة تفكيرهم وضعف عقولهم وكثرة ضلالهم وخبالهم. قالوا: سمعنا فتى يذكرهم بالعيب والتنقص لها والازدراء بها

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

فهو المقيم عليها والكاسر لها يقال له إبراهيم. قالوا: فأتوا به في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكبر مقاصد خليل الله عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عبَّاد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه. فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا؛ فاسألوهم إن كانوا ينطقون. وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول أن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات. فعادوا على أنفسهم بالملامة ووقعوا في حيرة سوء فأطرقوا، ثم قالوا: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها؟ فعند ذلك قال لهم خليل الله عليه السلام: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم؟! أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟! كما قال لهم: أتعبدون ما تنحتون؟! كيف تعبدون أصنامًا أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون، والله خلقكم وما تعملون؟! إنكم مخلوقون، وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق مخلوقًا مثله؟! فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل فالآخر باطل، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

فلما دُحِضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل ولم يعد لهم جواب بعد مقالة إبراهيم عليه السلام هذه المشتملة على الهدى والبيان؛ عدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، وهذا هو الخيار الأخير الذي يلجأ إليه دائمًا أهل الباطل عندما يستنفدون الحجج ويشعرون بالهزيمة وهي استعمال القوة ضد أهل الحق، وهي أيضًا عادة الجبابرة، فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة. إذ تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة فقالوا: ابنوا له بنيانًا تملؤونه حطبًا فتضرمونه، ثم ألقوه فيه. حرقوه

وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. ولكن هيهات هيهات...! فالله جبار السماوات والأرض وقادر على أن ينصر رسله مما يكيد لهم أعداؤهم؛ وهذا ما فعله بإبراهيم خليله عندما رموه في النار ليحرقوه نصرة لآلهتهم فكاد الله لهم وأعلى كلمته ودينه وبرهانه. فأرادوا بإبراهيم كيدًا فجعلهم الله الأخسرين. وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة في الأرض فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فتأججت والتهبت وعلاها شرر عظيم ولهب مرتفع، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك. حسبنا الله ونعم الوكيل. وقال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد وأعبدك. وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة. وكان أمر الله سبحانه أسرع: ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾[1] أي؛ يا نار لا تضريه، فأنجاه الله من النار وسلمه منها بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا. وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الحفرة حوله النار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم!. وقد قال خاتم أنبياء الله ورسله محمد صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ دَابَّةٌ إِلاَّ أَطْفَأَتِ النَّارَ عنهُ، غَيْرَ الْوَزَغِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَيْهِ**»[2]. فأمر النبي عليه السلام بقتل الوزغ وسماه فويسقًا. ثم خرج إبراهيم عليه السلام من النار سالمًا بعدما مكث فيها أيامًا؛ ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إمامًا، فإنه بذل نفسه للرحمن، وبذل جسده للنيران، فاجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

سبحان الله ما أعظمه...! أراد قوم إبراهيم أن ينتصروا فخذلهم ورفع رسوله، وأرادوا أن يرتفعوا فوضعهم ورفع رسوله، وأرادوا أن يغلبوا فغلبهم ونصر رسوله،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم: ١٥٢٤.

واحتالوا لإهلاكه فجعلهم سبحانه المقهورين المغلوبين، إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم. وفازوا بالخسارة والسفال؛ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل إنها ساءت مُستقراً ومُقاماً.

وقد جرت مناظرة بين خليل الله إبراهيم عليه السلام والملك في زمانه (النمرود)، وأخبر الله بذلك بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1]. فهذا الملك المتكبر المتغطرس أخذ يجادل إبراهيم عليه السلام ويحاججه في وجود الله، وذلك أنه أنكر أن يكون ثَمَّ إله غيره، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك، وكان قد طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾، أي؛ إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

فعند ذلك قال النمرود عناداً ومكابرة: أنا أحيي وأميت. ولهذا قال له إبراهيم: إن هذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة. فبيَّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، وبُهت ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل سكت وأخرس، عندما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، فلم يتكلم وقامت عليه الحجة. فالله - عزَّ وجلَّ - لا يلهم الظالمين حجة ولا برهانًا بل حجتهم داحضة عنده، وعليهم غضبه ولهم عذاب شديد. والله - عزَّ شأنه - وحده القادر على أن يأت بالشمس من المغرب.

وهكذا أزال الله تعالى بإبراهيم عليه السلام تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال، ثم نجى خليله إبراهيم عليه السلام من النار ومما كاد له قومه الكفار، فهاجر من هذا البلد الظالم أهله وأقام في بلد آخر، بعدما آمن له ابن أخيه لوط عليه السلام وهاجر معه، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

نهاية النمرود وجنوده:

لقد أراد المتغطرس النمرود وأصحابه أن يمكروا بإبراهيم عليه السلام فجعلهم الله الأخسرين في أعمالهم، ورد مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقه: البعوض. فقد قيل: إن الله قد بعث إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه، وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه أسرابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلَّط سبحانه ذلك البعوض عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم وتركتهم عظامًا، ودخلت واحدة منها في منخر النمرود فمكثت، فعذبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب، وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه، وبقي على ذلك مدة طويلة من الزمن حتى أهلكه الله بها، والله تعالى أعلم.

---

(٩) سورة الأنبياء، الآية: ٧١.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

والآن ماذا عن الحاكم المتكبر المتغطرس (نمرود) وما رأيه بما جرى له...؟! لقد آتاه الله تعالى هذا المُلك وأنعم عليه، فبدلاً من أن يؤمن بما دعاه إليه إبراهيم عليه السلام ويكون قدوة حسنة لرعيته ليتبعوه في عبادة الله وحده طغى وتجبر وعتى وآثر الحياة الدنيا، فسلَّط الله عليه واحدة من أضعف خلقه وهي البعوضة، فأهلكه بها! فأين كبره وغطرسته وجبروته؟! لقد عاقبه الله تعالى من جنس عمله، فقد ادعى الربوبية وأنه يحيي ويميت، فلم يستطع إماتة بعوضة واحدة بل أماته الله بها.

سبحان الله! كيف يفعل بمن ينازعه الكبرياء والعظمة، أو بمن يدعي الربوبية...! إنه سبحانه يقصمه ويفضحه ويجعله عبرة للناس أجمعين، خاصة للحكام الذين تسوِّل لهم أنفسهم أن ينازعوا الله أو يدعوا لأنفسهم ما هو من صفاته الإلهية أو الربوبية!.

فهو عزَّ شأنه قادر على أن يرسل إلى أي ملك أو حاكم جبار فيروسًا صغيرًا، لا تُرى الآلاف منه بالعين المجردة من صغرها، فيدخل جسمه فلا يستطيع له دفعًا ولا علاجًا فيهلكه الله به، أو يدخل دماغه فيسبب له الحمى الشوكية أو غير ذلك من الأمراض فلا يستطيع أحد علاجه أو إنقاذه من عذاب الله وعقابه. وما ذلك على الله بعزيز إنه على كل شيء قدير.

لقد جعل الله تعالى فيما فعله بالنمرود آية وعبرة علمنا منها أن أهل الخير هو المؤمن الموحد المسلم، وأن أهل الشر هو الحاكم المتغطرس الذي يدعي القوة العظمى، وأنه لا أحد أقوى منه، وأن بإمكانه أن يحيي ويميت مَن تحت يده من الناس، ويبطش بالمؤمنين؛ لأنهم مسلمون...!. وكذلك فيما فعله خليل الله إبراهيم عليه السلام بالأصنام آية وعبرة وعظة أن كل من صنع أصنامًا وتماثيل على أشكال البشر أو الملائكة أو غير ذلك وعبدها من دون الله أو اتخذها زلفى لتقربه إلى الله؛ فإنه

كافر بالله ضال عن طريقه مشرك به غيره، لا يوحده ولا يفرده بالعبادة، بل يتخذ معه آلهة أخرى.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]. نعم...! إن في ذلك لآيات على عظيم جبروت الله وعظيم قدرته. لقد جعل الله ما فعله بإبراهيم آية وعبرة لغيره من الموحدين المؤمنين المسلمين كيف أنه تعالى يبطل السنن الكونية وينزع عن الأشياء الخصائص التي منحها إياها وهي التي لا تعمل إلا بإذنه، فنزع عن النار خاصية الإحراق، فلم يأذن لها بإحراق خليله إبراهيم عليه السلام، بل أعطى للنار خاصية جديدة مضادة لما كانت عليه، فجعلها بردًا وسلامًا على إبراهيم، وهكذا لا يجعلها تحرق مَن لا يريد سبحانه إحراقه.

وفي الوقت نفسه هي عبرة وعظة بأنه تعالى ينصر عباده المؤمنين وإن كانوا فردًا واحدًا مثل إبراهيم الذي كان أمة بمفرده، كان أمة التوحيد وأمة المؤمنين وأمة المسلمين في زمانه، فنصره الله على أمة الكافرين مع كثرة عددهم وعدتهم، وكيف لا ينصر الله إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء وأبو الأنبياء، وقد برَّأه الله من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، وأعلن أنه كان حنيفًا مسلمًا، وأن أولى الناس به عبده ورسوله محمد ﷺ والمؤمنون المسلمون؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

لقد أخبر الله تعالى أن خليله إبراهيم عليه السلام كان مسلمًا، وأن إبراهيم وابنه إسماعيل قد دعوا ربهما أن يجعلهما مسلمَيْن وأن يكون من ذريتهما أمة مسلمة لله

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٦٧-٦٨.

فقالا عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1]. فقد اصطفى الله إبراهيم وأمره أن يخلص دينه له بالتوحيد، وأن يخضع ويخشع وينقاد ويستسلم له: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. فأطاعه وأجابه إلى ذلك، بل ووصى بنيه بهذه الملة وهي الإسلام لله وأن يقولوا كما قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولحرص أبناء إبراهيم عليه السلام عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا بها أبناءهم من بعدهم بألاَّ يموتوا إلا وهم مسلمون، فعاهدوا بتوحيد الله وإفراده بالعبادة وأنهم له مسلمون؛ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3]. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[4]؛ فجعل إبراهيم عليه السلام كلمة الإسلام (لا إله إلا الله) دائمة في ذريته، ولا يزال في ذريته من يقولها إلى أن بعث الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ بها، فاستجاب بذلك دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[5]. فدعا النبي محمد ﷺ الناس إليها، فلا يزال أتباعه يقولون: لا إله إلا الله، أسلمنا لرب العالمين، فهم مسلمون يطبقون تعاليم الإسلام الحنيفية السمحة، وهو الدين الذي أكمله الله ونسخ به الشرائع السابقة ورضيه للجن والإنس أجمعين. فالله - جلَّ جلاله - هو الذي سمَّى المسلمين:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٢-١٣٣.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(مسلمين)، في كتبه المقدسة السابقة وفي هذا القرآن: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[1]. والمسلمون لرب العالمين مستسلمون.

وهكذا يتبين من قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام وقومه أن عبد الله الموحد الحنيف المسلم إبراهيم ومن آمن معه كانوا هم المؤمنين المسلمين الأخيار الأبرار، وأن الحاكم النمرود وقومه المشركين بما فيهم والد إبراهيم كانوا هم الكفار الأشرار الفجار. فهل سيأتي من بعدهم مَن سيعتبر بما فعله الله بهم فلا يكفرون كما كفروا، ولا يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم؟!.

هل مَن سيأتي بعد النمرود من الحكام سيتعظون بما حصل له من النكاية والخسران، فلا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يتعالون على مَن ولاهم الله عليهم، ولا يؤذون أولياءه ولا يبطشون بالمسلمين له بأنواع البطش المتنوعة، ولا يجحدون بآياته كما جحد النمرود، فيوحدونه ويعبدونه وحده لا شريك له، ويكونون من حزبه المؤمنين المسلمين، ويتجنبون أن يكونوا من حزب الشيطان الكافرين الظالمين، وإلا سلَّط الله عليهم أصغر من بعوضة؟!.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

نهاية قرى المؤتفكة أعداء لوط عليه السلام

لوط عليه السلام يدعو قومه إلى الله:

هاجر لوط عليه السلام إلى أرض الشام مع عمه خليل الله إبراهيم عليه السلام، ثم بعد هذه الهجرة نزح لوط عن محلة عمه ونزل بمدينة سدوم من أرض غور زُغَرَ (غور الأردن). وكانت سدوم أمَّ تلك المحلة، ولها أرض وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوئهم طوية وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا جريمة فاحشة شنيعة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء...!.

لقد آتى الله لوطًا عليه السلام حكمًا وعلمًا وأدخله في رحمته، وبعثه إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها. فما كان منهم إلا أن كذبوه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وأنذرهم نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[2]. أي: إنكم تفعلون هذه الفاحشة لأجل الشهوة، وعدلتم عن النساء

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٦٠-١٦٤.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٨٠-٨١.

وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله. وتجهلون عاقبة انحرافكم وجزاء عصيانكم. فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا، بل استمروا على حالهم في الكفر بالله وتكذيب رسوله إليهم ومخالفته وارتكاب الأفعال السيئة والقبيحة، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم.

وكعادة أهل الكفر من قبلهم في تحدي الرسل، ما كان جواب هؤلاء الفسقة بعد كل المواعظ التي وعظهم بها لوط عليه السلام إلا أن قالوا له: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. فطلبوا من رسولهم وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم، وأمروا بإخراجه وأهله من قريتهم. قالوا لبعضهم: إن آل لوط يتحرجون من فعل ما تفعلون ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من قريتكم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم لأنهم أناس يتطهرون. فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج، فالتطهر يعد جريمة بنظرهم تستحق الطرد من القرية، أما فعلهم للفاحشة فيستحق كل تقدير وترحيب، فيا لهم من منتكسين...!.

ملائكة العذاب تزور إبراهيم:

عند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم لوط عليه السلام، فسأل رب العالمين وإله المرسلين: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]. فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمروا على خليل الله إبراهيم عليه السلام، وأخبروه بأنهم ملائكة وقد أُرسلوا إلى قوم لوط المجرمين المشركين الضالين ليهلكوهم برجمهم بالحجارة، وهي حجارة من طين معروفة بأنها حجارة العذاب، قد أعدها الله لرجم من قضى برجمه، معدة عنده سبحانه للمسرفين بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه الذي يهلك به. فأخبرهم إبراهيم بأن في

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٠.

القرية لوطًا، فطمأنوه بأنهم لمنجون لوطًا وأتباعه وأهل دينه، إلا امرأته، فستكون من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، وكانت على طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيوف لوط ليأتوا إليهم!.

وأخذ إبراهيم يجادل الملائكة الكرام في قوم لوط؛ لأنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، فهو حليم أوَّاه منيب؛ فقالوا له: يا إبراهيم أعرض عن هذا وتكلم في غيره، فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم، إنه قد جاء أمر ربك؛ قد أمر به من لا يُرد أمره، ولا يُرد بأسه، ولا مُعقب لحكمه، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود. قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يُرد عن القوم المجرمين، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

ملائكة العذاب تزور لوطًا:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[1]. فصلت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام وأقبلوا حتى أتوا أرض سدوم وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاءً من الله تعالى، واختبارًا لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، ولله الحكمة والحجة البالغة. فاستضافوا لوطًا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فلما رآهم كذلك اغتم بأمرهم، وساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم، فخشي إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، وحسبهم بشرًا من الناس، وضاق بهم ذرعًا وقال: هذا يوم عصيب؛ شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك.

قوم لوط يريدون الملائكة:

جاء قوم لوط إليه مسرعين من فرحهم بذلك لما علموا بضيوفه وجمال وجوههم، مستبشرين بالضيوف طمعًا منهم في ركوب الفاحشة. فدعاهم إلى أن

(١) سورة هود، الآية: ٧٧.

يتقوا الله، ونصحهم بأن يقبلوا ما يأمرهم به من الاقتصار على نسائهم، وقال: أليس منكم رجل رشيد فيه خير، يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه. ففي قوله هذا نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له عقل ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء فجرة. فقال قومه الخبثاء مجيبين نبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا، إنما نريد الرجال. فنحن ليس لنا غرض إلا في الذكور، وإنك لتعلم ذلك وتعلم مرادنا وغرضنا من ضيوفك. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم.

وقيل: إن لوطًا جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]. فقد ود عليه السلام أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب والنكال على هذا الخطاب، فيرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد وهو الله ذو القوة المتين.

فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الجهد والكرب والنصب بسببهم، قالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[2]، وإن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وطمأنوه وقالوا له أيضًا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[3]. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[4]. وبالرغم من ذلك لم يتوبوا ولم يستغفروا ربهم، بل ظنوا

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٣.

(٤) سورة القمر، الآية: ٣٧.

أنهم قد سُحِروا فلم يستطيعوا رؤية طريقهم وهم يرجعون على أدبارهم إلى بيوتهم كالعميان يتحسسون بالجدران، وهم يهددون لوطًا ويتوعدونه بأنهم سوف يتدبرون أمره في الصباح، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وأن هناك مَن سيتدبر أمرهم هم في الصباح...! فالموعد موعدهم إذ سيصبحهم بكرة عذاب مستقر، لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه...!.

نزول العذاب ونهاية قوم لوط الكفار:

تبرأ لوط عليه السلام مما يعمله قومه من الفاحشة، ثم دعا الله أن ينجيه وأهله مما يعملون. تقدمت الملائكة من لوط عليه السلام وقالوا له: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**﴾[1]. فأمروه بأن يخرج هو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منهم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه. وقالوا له، مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه، الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائن مريب: ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ**﴾[3].

فقد أخرج الله لوطًا وأهله، وهم ابنتاه، سالمين لم يمسهم سوء، من قرى المؤتفكة التي كتب عليها الدمار والفناء ولم يتبعه منهم رجل واحد، فلما خلصوا من بلادهم وأشرقت الشمس، جاءهم من أمر جبار السماوات والأرض ما لا يُرَد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصَد. قال عزَّ شأنه: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾[4]. فاقتلعها جبريل بطرف جناحه من قرارها، بمن فيها من الأمم، وما معهم

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

(٤) سورة هود، الآيتان: ٨٢-٨٣.

من الحيوانات، وما يتبع تلك القرية من الأراضي والأماكن، فرفع الجميع حتى بلغ بهم عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها. ثم أُمطِروا بحجارة شديدة صلبة قوية متتابعة في نزولها عليهم من السماء، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي هبط عليه فدمغه. ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها فأصابها ما أصابهم. ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، والتفتت إلى قومها، سقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها؛ إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على مَن يكون عند لوط من الضيوف، فخانت زوجها في الدين فلم تتابعه فيه؛ فاستحقت مع زوجة نوح عليه السلام أن يضرب الله بهما مثلاً للذين كفروا، قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[1].

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

والآن ماذا عن قوم لوط وما رأيهم بما وقع عليهم من أصناف العذاب الشديد؟! لقد ابتدعوا فعلاً قبيحًا شاذًا شنيعًا لم يسبقهم إليه أحد من الأمم السابقة؛ فكان جزاؤهم من جنس عملهم أصنافًا من العذاب لم تقع على مَن سبقهم من الأمم...! لقد أحل الله بهم من البأس الذي لا يُرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مَثُلَةً في العالمين، وعبرة يتعظ بها أصحاب العقول في كل زمان وحين.

إنهم ما إن سمعوا بنزول ضيوف جدد في بيت لوط حتى أسرعوا مهرولين إلى بيته طمعًا في ارتكاب الفاحشة الشنيعة معهم، ولكن هيهات هيهات، إنهم لم يعرفوا مَن هم هؤلاء الذين عند لوط، إنهم ملائكة خالق السماوات والأرض، قد جاؤوا خصيصًا إليهم ليقطعوا دابرهم ويستأصلوهم من على وجه الأرض. فلما أشرقت الشمس أخذتهم

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.

الصيحة وهي صوت قاصف، ونزل بهم العذاب الذي استحقوه، وتم استئصالهم وقطع دابرهم وشرورهم من الأرض؛ وهذا ما طلبوه من نبيهم لوط! ألم يقولوا له: ائْتِنَا بعذاب الله إن كنت من الصَّادقين...! فقد جاءهم عذاب الله فكيف رأوه...؟!.

هل تيقنوا الآن أن لوطًا كان صادقًا في إنذارهم بعذاب الله، وأنه كان يدعوهم إلى ما فيه خير لهم في الدنيا والآخرة من الإيمان بالله وترك هذه الفاحشة؟! ولا بد أنهم تيقنوا الآن أن ما ذاقوه في الدنيا من عذاب الله تعالى لم يكن سوى العذاب الأدنى، وهو دائم عام استقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. وأنه لا يزال أمامهم العذاب الأكبر والأعظم يوم القيامة، حيث سيكون مأواهم جهنم وبئس المصير خالدين فيها أبدًا، يوم يسحبون في النار على وجوههم فليذوقوا مس سقر، وليذوقوا العذاب بما كانوا يعملون...!.

سبحان الله كيف يفعل بمن يؤمن به ويسلم وجهه له...! سبحانه كيف جعل قصة لوط عليه السلام دليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور...!.

لم يكن في قرى المؤتفكة إلا بيت مسلم واحد هو بيت لوط عليه السلام، وكذلك الله سبحانه يجزي من يشكره ولا يكفره؛ قال عزَّ شأنه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[1]. فالذين يخافون عذاب الله الأليم هم المؤمنون المسلمون، وما فعله الله بلوط وقومه دليل على نصره لعباده الصالحين، وعبرة وعظة لغيره من المؤمنين المسلمين، الذين يخافون عذاب الآخرة، ويخشون الله بالغيب، ويخافون مقامه، وينهون النفس عن الهوى، فينزجرون عن محارم الله، ويتركون معاصيه، ويخافون أن يشابهوا قوم لوط.

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٣٥-٣٧.

وقد أخبر الله تعالى بأنه بعد هلاك قوم لوطٍ قد ترك من قريتهم التي كانوا فيها ودمرها آية بينة واضحة لمن كان لديه عقل يتفكر ويخاف العذاب الأليم؛ فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾[1]. فها هي أرضهم موجودة ظاهرة للعيان. حيث جعل تعالى أعلى قريتهم وما فيها في بطن الأرض، وجعل أسفلها على سطح الأرض، وجعل موضعها في أدنى بقعة على وجه الأرض، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة...! وإن قرى المؤتفكة أو سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب والقذف للحجارة لفي طريق واضح ومكان معروف والناس يمرون من عندها ويأتون ويذهبون صباحًا ومساءً، كما أخبر تعالى بذلك: ﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾[2]. وهذا ليكون الذي صنع الله بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجائه لوطًا وأهله لآية وعبرة، ليعلم الناس منها وليتذكروا أن هذا هو عقابه وهذا ما يستحقه من العذاب كل من ارتكب مثل هذه الفاحشة الشنيعة أو سار على نهجهم في الشذوذ الجنسي، وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم؛ فبهذا يعاقب المسلمون المرتكب لهذا الفعل بأن يُلقى من شاهق ويُتبَع بالحجارة كما فُعِلَ بقوم لوط. وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوطٍ فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[3].

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[4]. نعم...! لقد علم المؤمنون من قصة لوط وقومه أن أهل الخير كانوا هم المتطهرين المتبرئين من فعل هذه الفاحشة الشنيعة، وهم الذين أنجاهم الله من العذاب الواقع على قوم لوط.. وكذلك يكون كل مَن كان مثلهم في

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٧-١٣٨.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٧٤٥.

(٤) سورة الحجر، الآيات: ٧٥-٧٧.

أي زمان وفي أي مكان. وعلموا أيضًا أن أهل الشر كانوا هم الشاذون المرتكبون لهذا الفعل الفاحش الشنيع، الذين عاقبهم الله بما يناسبهم من العذاب.. وكذلك يكون كل مَن كان مثلهم في أي زمان وفي أي مكان.

لقد علم المؤمنون أيضًا من قصة نبي الله لوط عليه السلام وقومه أن عبد الله لوطًا ومن آمن معه كانوا هم المؤمنين المسلمين الأخيار الأبرار، وأن قوم لوط بما فيهم زوجة لوط نفسها كانوا هم الكفار الأشرار الفجار. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ**﴾[1]. ﴿**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[2]. فقوم لوط لم يتعظوا بما جرى لقوم نوح وأمة عاد وأمة ثمود وقوم إبراهيم والنمرود، كذلك لم يحملوا إنذارات لوط ببطش الله على محمل الجد وتماروا فيها فذاقوا عذاب الله ونذره. وقد ذكر الله تعالى قصتهم في كتابه الكريم ويسر تلاوته، فهل مَن سيأتي بعد قوم لوط من الأمم والأقوام سيتذكرونهم ويعتبرون بما فعله الله بهم فلا يكفرون كما كفروا، ولا يفجرون كما فجروا، ولا يرتكبون هذه الفاحشة كما ارتكبوا، ويتعظون بما حصل لهم من العذاب الشديد الأليم؟!.

(١) سورة القمر، الآية: ٣٦.

(٢) سورة القمر، الآيتان: ٣٩-٤٠.

نهاية أمة مَدْيَن أعداء شعيب عليه السلام

شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى الله:

لقد كان أهل مدين كفارًا، اخترعوا أمورًا وسنوا سننًا سيئة لم يسبقهم إليها أحد ممن أتى قبلهم من الأمم. فكانوا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة[1]؛ وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص. فبعث الله فيهم رجلاً منهم؛ وهو رسوله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى ما قد دعا إليه الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله قبله، ألا وهي دعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده لا شريك له، فقال الله تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾[2].

وقد نهاهم شعيب عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة؛ من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم. وأمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وبيَّن لهم أن ذلك خير لهم، ونهاهم كذلك عن الجلوس على الطريق وأخذهم العشور من أموال المارة، وكانوا أول مَن سنَّ ذلك.

ثم ذكَّرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذَّرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلَّهم عليه؛ كما كان عاقبة المفسدين الذين سبقوهم، ونهاهم قائلاً: ﴿**وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ**﴾[3]. فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذَّرهم

(١) الأيكة: شجر ملتف مجتمع. وقيل: الغيضة.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٣) سورة هود الآية: ٨٤.

سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذاب الله الأليم في أخراهم، وعنَّفهم أشدَّ تعنيف، ثم قال لهم آمرًا بعدما كان عن ضده زاجرًا: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1]. أي؛ ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قلَّ، والحرام ممحوق ولا يجدي وإن كثُر.

ومع تأكيد شعيب عليه السلام أنه رسول الله الأمين إليهم، وأنه لا يطلب منهم أجرًا فأجره على رب العالمين؛ إلا أنه لم يؤمن منهم سوى بعضهم، وأما أكثرهم فقد كفروا واتهموه بالكذب. لقد كان شعيب عليه السلام خطيبًا فصيحًا بليغًا في دعوة قومه إلى الإيمان، ومع ذلك ما كان من قومه (مدين) سوى مقابلته بالاستهزاء والتنقص والتهكم؛ فمثل عادة الكفار في كل زمان ومكان في الاستهزاء من المؤمنين ومن ممارستهم للفرائض التي فرضها الله عليهم، استهزأ قوم شعيب منه وتهكموا عليه بقولهم: أصلاتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا، فلا نعبد إلا إلهك، ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟! أو أنَّا لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت، ونترك المعاملات المالية التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟ إنك لأنت الحليم الرشيد! يقولون ذلك له على سبيل الاستهزاء، وهو عليه السلام لا يزال يتلطف معهم في العبارة، ويدعوهم إلى الحق بأبين إشارة، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٨٥-٨٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.

لقد أفهمهم عليه السلام بأنه إذا كان على أمر بيِّنٍ من الله أنه أرسله إليهم ورزقه النبوة والرسالة، وعمِّي عليهم معرفة ذلك، فأي حيلة له بهم؟ وقال لهم بأنه لا يأمرهم بالأمر إلا وهو أول فاعل له، وإذا نهاهم عن الشيء فهو أول من يتركه. وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وهي صفة الأنبياء، والعلماء الذين يخشون ربهم بالغيب. وضدها هي المردودة الذميمة، التي هي صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء. فشعيب عليه السلام لا يريد في جميع أمره إلا الإصلاح في الفعال والمقال، بجهده وطاقته، وما توفيقه في جميع أحواله إلا بالله، وعليه يتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعه ومصيره في كل أمره.

لقد كانت هذه الموعظة من شعيب عليه السلام في مقام الترغيب. ثم انتقل عليه السلام إلى نوع من الترهيب، فقال لهم: ﴿**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ**﴾[1]. أي؛ لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئت به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فينزل بكم الله من العذاب والنكال نظير ما أنزله بنظرائكم وأشباهكم، ممن سبقكم من الأقوام، من المكذبين المخالفين. وذكَّرهم بأن قوم لوط ليسوا منهم ببعيد في الزمان، وقد بلغهم ما أحل الله بقوم لوطٍ على كفرهم وعتوهم، كما أنهم ما هم منهم ببعيد في المحلة والمكان؛ لأن قوم لوط كانوا في قرى المؤتفكة (سدوم) عند البحر الميت، ومَدْيَن في (معان) من بلاد الشام (جنوب الأردن). وما هم كذلك منهم ببعيد في الصفات والأفعال المستقبحات؛ من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات.

ثم مزج شعيب عليه السلام الترهيب بالترغيب، فقال لهم: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾[2]. دعاهم إلى الإقلاع عما هم فيه، وأن يتوبوا إلى الله؛

(١) سورة هود، الآية: ٨٩.

(٢) سورة هود، الآية: ٩٠.

لأنه الرحيم الودود، ومن تاب إليه تاب عليه، فهو سبحانه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود حبيب ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام. فما هو جوابهم على هذا الكلام النبوي الحكيم الذي يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة؟! لقد أخبروه بأنهم لا يفهمون كلامه ولا يعقلونه؛ لأنهم لا يحبونه ولا يريدونه، وليس لهم همة إليه ولا إقبال عليه. ومن كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع أنهم قالوا له: إنَّا لنراك فينا ضعيفًا مضطهدًا مهجورًا، ولولا قبيلتك وعشيرتك فينا لرجمناك وما أنت علينا بعزيز!.

فتعجب شعيب عليه السلام من قولهم وقال لهم مستنكرًا: تخافون قبيلتي وعشيرتي وتتركوني لأجلهم، ولا تخافون الله ولا تراعوني لأني رسول الله، فصار قومي أعز عليكم من الله، واستخففتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون بأمره ولا تخافون عقابه، ولا تعظمونه حق عظمته؟! إن ربي عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه. فهددهم عليه السلام تهديدًا شديدًا، وتوعدهم وعيدًا أكيدًا بأن يعملوا على طريقتهم وناحيتهم إن كانوا يظنون أنهم على هدى، وهو يعمل على طريقته ومنهجه، فسوف يعلمون مَن تكون له عاقبة الدار، ومَن يحل عليه الهلاك والبوار في هذه الحياة الدنيا، ويحل عليه عذاب مقيم في الآخرة، ومَن هو كاذب منه ومنهم فيما أخبر وبشَّر وحذَّر، وأن يرتقبوا فإنه معهم رقيب، وقال لهم عليه السلام أيضًا: ﴿**وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾[1].

فعلى عادة الجبابرة حين تقام عليهم الحجة؛ هددوا شعيبًا بإخراجه والمؤمنين معه من قريتهم أو يعودوا في ملتهم الكافرة. فطلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن أتباعه، فقال: أولو كنا كارهين؟! إن هؤلاء

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٧.

لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون، إن عادوا، اضطراراً مكرهين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يَسْخَطُهُ أحد، ولا يريد أحد أن يزول عنه، ولا محيد لأحد منه. وقال لهم بأن الله وسع كل شيء علماً، وهو ومَن معه من المؤمنين يتوكلون على الله، فهو كافيهم وهو العاصم لهم، وإليه ملجؤهم في جميع أمرهم.

نزول العذاب ونهاية أمة مدين الكفار:

لقد استفتح شعيب عليه السلام على قومه واستنصر الله عليهم في تعجيل ما يستحقونه من العذاب، فقال عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾[1]. فقد دعا عليه السلام على قومه، والله - عزَّ وجلَّ - لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، وخالفوا رسوله. ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه متلبسون، فكان ردهم كما أخبر بذلك عزَّ شأنه: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾[2]. بل ساروا على طريقة من قبلهم من الكفار الهالكين، فبدلاً من أن يعتبروا بهم فينتهوا عما فعلوا ليتجنبوا عذاب الله أخذتهم العزة بالإثم، وبالغوا في تكذيب رسولهم، فتحدوا شعيباً وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقًا، وعميت عقولهم وقلوبهم عن أنه إذا نزل العذاب بهم فسوف يُهلَكون، ولن يكون أمامهم أي فرصة لكي يؤمنوا ويصدقوا. وقالوا له: إنما أنت من المسحرين، وما أنت إلا بشر مثلنا، وإن نظنك لمن الكاذبين، فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين. فقال لهم: رب أعلم بما تعملون. أي؛ الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم.

لقد سدوا جميع الطرق أمام دعوة شعيب، ولم تعد هناك أي فرصة لكي يؤمنوا. وبعد أن كذبوا رسول الله وطلبوا منه العذاب؛ عند ذلك استحقوا عذاب الله

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٠.

على ما كفروا، وعلى ما وصفوا بخسران مَن يتبع شعيبًا ويؤمن بالله، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. وقبل أن ينزل بهم العذاب أنجى الله تعالى شعيبًا والمؤمنين، ثم أنزل سبحانه بالذين كفروا وظلموا صنوفًا من العذاب، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[2].

لقد أخذتهم رجفة، فرجفت بهم أرضهم، وزُلزِلت زلزالاً شديدًا، أزهقت أرواحهم من أجسادها. وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات. أخذهم عذاب يوم الظُّلَّة إنه كان عذاب يوم عظيم، وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكسف عليهم، فليذوقوا ما طلبوا من الكسف وغيره بما يستحقونه من العذاب، ولا يلوموا إلا أنفسهم بما جرى لهم!. فعذاب يوم الظُّلَّة كان بعدما أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشُهُبٍ من نار، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح.

وبعد أن أهلكهم الله تعالى أعرض شعيب عليه السلام عنهم مولِّيًا عن محلتهم، ونعاهم إلى أنفسهم موبخًا ومؤنِّبًا ومقرِّعًا: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[3]. فهو قد أدى ما كان واجبًا عليه من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرص على هدايتهم بكل ما يقدر عليه ويتوصل إليه، فلم ينفعهم ذلك؛ لأن الله

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٩١-٩٢.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٩٤-٩٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٣.

لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين، فلا يتأسف بعد هذا عليهم؛ لأنهم لم يقبلوا النصيحة، ولم يخافوا يوم الفضيحة، فكيف يتأسف ويحزن على قوم كافرين لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه، فحل بهم من بأس الله الذي لا يُردُّ ما لا يُدافَع ولا يُمانَع؟!.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

والآن ماذا عن قوم مدين بعدما اتهموا أخاهم شعيبًا عليه السلام بأنه يتعمد الكذب عليهم فيما يقوله، ولم يصدقوا أن الله أرسله إليهم؟! هل تيقنوا أن شعيبًا عليه السلام كان من الصادقين، وكان رسولاً إليهم من رب العالمين، ليدلهم على ما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة؟! لقد غرتهم كثرتهم فهددوا بإخراج شعيب ومَن آمن معه من قريتهم أو يعودوا في ملتهم؛ فكيف رأوا ملتهم الآن؟! أهي الملة الرابحة أم الملة الخاسرة؟!.

إن كبرهم واستعلاءهم دعاهم إلى أن يحكموا بأمزجتهم أن مَن يتبع شعيبًا هو الخاسر! فبئس ما قالوا؛ إنهم هم الخاسرون بتكذيبهم لنبيهم شعيب عليه السلام، ولا شك أنهم قد عرفوا الآن مَن الخاسر! فهكذا هم دائمًا الكافرون الظالمون المجرمون يضحكون من المؤمنين، وإذا مروا بهم يتغامزون عليهم استهزاءً وسخريةً محتقرين لهم! وإذا رأوا المؤمنين المسلمين حكموا عليهم بأنهم هم الضالين لمجرد أنهم على غير دينهم، ولا يرضون عنهم حتى يتبعوا ملتهم، وهذا ما طلبه هؤلاء المجرمون من شعيب والمؤمنين بقولهم له: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك أو لتعودن في ملتنا! فهذه هي حقيقتهم وحقيقة كل قوم كافرين؛ لا مكان لديهم سوى لمن كفر مثلهم واتبع ملتهم!.

فلماذا يفعل هؤلاء المجرمون هكذا بالمؤمنين؟! إنهم ما بعثوا حافظين على هؤلاء المؤمنين وعلى ما يصدر عنهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، فلِمَ اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟! إنهم فريق من عباد الله تعالى يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فلِمَ اتخذوهم سخريًا وكانوا منهم يضحكون؟!.

وكما تبين لهم الآن صدق رسولهم شعيب بعد فوات الأوان ونزول العذاب بهم، فسوف يتبين لهم أيضًا في الآخرة صدق قول ربهم وخالقهم الذي قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[1]. فلينتظر هؤلاء الكفار يوم القيامة حين يضحك عليهم المؤمنون في مقابلة ما ضحكوا بهم، وحين يجازون أوفر الجزاء وأتمه وأكمله على ما كانوا يقابلون به المؤمنين، من الاستهزاء والسخرية!.

لقد وعد الله - عزَّ وجلَّ - بنصر رسله والمؤمنين ووعده حق: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[2]. لقد نصر شعيبًا على قومه وأنجاه والذين آمنوا معه مما وقع على قومه الكفار من العذاب المتنوع.. سبحانه كيف فعل بقوم مدين الذين كفروا به وكذبوا رسوله، وجعل ذلك آية لمن بعدهم من الناس ليعتبروا بهم فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله بما يعدهم من العذاب إن لم يؤمنوا؛ فلا يكذبونه ولا يستهزئون به وبالمؤمنين معه أو يؤذونهم أو يبطشون بهم...!.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]. لقد كانت آية وعبرة ولكن لقوم يعقلون ويعتبرون.. وقد تبين من هذه الآية أن عبد الله شعيبًا ومن آمن معه كانوا هم المؤمنين المسلمين الأخيار الأبرار؛ ولهذا أنجاهم الله من العذاب الواقع على أمة مدين.. وكذلك يكون كل مَن كان مثلهم في أي زمان وفي أي مكان. وتبين أيضًا أن أمة مدين كانوا هم الكفار الأشرار الفجار، الذين عاقبهم الله بما يناسبهم من العذاب.. وكذلك يكون كل مَن كان مثلهم في أي زمان وفي أي مكان.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٨٩-١٩٠.

فأمة مدين قوم شعيب لم يتعظوا بما جرى لقوم نوح وأمة عاد وأمة ثمود وقوم إبراهيم والنمرود، وقوم لوطٍ. كذلك لم يحملوا إنذار نبي الله شعيب عليه السلام بعذاب الله على محمل الجد...! وقد ذكر الله قصتهم في كتابه الكريم فهل مَن سيأتي بعدهم من الأمم والأقوام سيتذكرونهم ويعتبرون بما فعله الله بهم فلا يكفرون كما كفروا، ولا يرتكبون الأفعال السيئة التي فعلوها، ويتعظون بما حصل لهم من العذاب الأليم؟!.

الباب
الثاني

نهاية فرعون وجنوده أعداء موسى عليه السلام

فرعون لعنه الله:

لم يتعظ فرعون وقومه بما جرى للأمم من قبلهم التي كفرت بالله وبأنعمه فأذاقها من العذاب من جنس عملها. بل إن فرعون لم يتعظ بالملك النمرود الذي سبقه وادعى الألوهية فقلَّده فيما ادعاه!. وقد أخبر الله - عزَّ شأنه - بأن فرعون قد علا في الأرض وأفسد فيها، وتجبَّر وعتا، وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الله، وقسَّم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع، واستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل، الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

لقد كان بنو إسرائيل إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد تسلَّط عليهم هذا الملك الظالم الكافر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها، ومع هذا يُذَبِّح أبناءهم الذكور ويستبقي الإناث للخدمة. وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح، أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. واحترز فرعون كل الاحتراز ألاَّ يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. فهيهات هيهات أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه واتساع سلطانه، فقد حكم العظيم الذي لا يُغَالَبُ ولا يمانَعُ، ولا تخالَف أقداره أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك، ولا يغذَّى إلا بطعامك وشرابك، وأنت الذي تتبناه وتربيه، ولا

تطلَّع على سره، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه؛ لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحِيَ إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة، التي لا مردَّ لها.

موسى عليه السلام:

لقد أمر فرعون بقتل الأبناء عامًا، وأن يُتركوا عامًا، حتى لا يقل رجال بني إسرائيل، الذين كانوا خدمًا لآل فرعون؛ فوُلِدَ هارون عليه السلام في عام المسامحة عن قتل الأبناء، ووُلِدَ موسى عليه السلام في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا، واحترزت من أول ما حبلت به، ولم يكن يظهر عليها دلائل الحبل، فلما وضعت أُمِرت أن تتخذ له تابوتًا، فتربطه في حبلٍ، وكانت دارها متاخمة لنهر النيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به. وقد أخبر جلَّ وعزَّ بذلك: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[1].

وقد أُرشِدَت أم موسى إلى هذا وأُلقِيَ في خلدها وروعها ألاَّ تخف ولا تحزن، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليها، وسيجعله نبيًا مرسلاً، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة. فكانت تصنع ما أُمِرَت به، فأرسلته ذات يوم، وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل، فمرَّ على دار فرعون، فالتقطه آل فرعون. ولما وُضع بين يدي امرأة فرعون؛ آسية بنت مزاحم، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، فأحبته حبًا شديدًا، فلما جاء فرعون ورآه وأمر بذبحه، استوهبته زوجته منه ودافعت عنه، كما أخبر تعالى: ﴿**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ**

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

﴿نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]. وقد أنال الله سبحانه آسية ما رجت من النفع؛ أما في الدنيا فهداها به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه. وقد تبنَّياه؛ لأنه لم يكن لهما ولد. وهما لا يدريان ماذا يريد الله بهما، أن قيضهما لالتقاطه، من النقمة العظيمة بفرعون وهامان وجنودهما.

وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا من كل شيء من أمور الدنيا إلا من أمر موسى، إن كادت لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة، لولا أن ربط الله على قلبها فصبَّرها وثبَّتها لتكون من المؤمنين. وأمرت أخته الكبيرة أن تتبع أثره وتعرف خبره. ولما استقر بدار فرعون، أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثديًا...! قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[2]، أي تحريمًا قدريًا؛ وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله - سبحانه وتعالى - جعل ذلك سببًا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة...! وقد حاروا في أمره، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل، فأرسلوه مع النساء إلى السوق؛ لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه، رأته أخته، فلم تُظهِر أنها تعرفه، بل قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ فذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها، وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولادًا، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي. فأرسلته معها، وأجرت عليها النفقات والهبات، فرجعت أم موسى بولدها إلى بيتها وهي راضية مرضية، وقد جمع الله شمله بشملها، وأبدلها بعد خوفها أمنًا في عزٍّ وجاه ورزق دارٍّ. فسبحان

(١) سورة القصص، الآية: ٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٢.

الله! كيف جعلها ترضع ولدها وتأخذ أجرها ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل؛ يوم وليلة...! فبيد الله الأمر، يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجًا، وبعد كل ضيق مخرجًا. قال تعالى: ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[1]. فقد وعد - عزَّ وجلَّ - أم موسى برده إليها وجعله من المرسلين؛ وقد رده إليها كما وعدها بذلك، وهو دليل على صدق البشارة برسالته التي ستكون في المستقبل. وسبحان الله! حين كانت أمه تخفيه عن أعين الناس خوفًا من القتل، فجعل سبحانه فرعون نفسه يتكفل بتربيته والإنفاق عليه وإرساله إلى أمه عن رضىً منه، بعد أن عزم على قتله لكونه وُلِدَ في عام قتل الذكور.

وقد امتن الله على موسى، وألقى عليه محبة منه؛ فكل من يراه يحبه. ويُطعَم ويُغذَّى بأطيب المآكل، ويلبس أحسن الملابس؛ وكل ذلك بحفظ الله وكلاءته له. وعندما قتل موسى رجلاً كافرًا من قوم فرعون، ولم يرد قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه؛ ومع ذلك قال موسى عليه السلام: هذا من عمل الشيطان، واستغفر ربه فغفر الله له. فلما بلغ فرعون أن موسى هو قاتل ذلك الرجل بالأمس، أرسل في طلبه، فأسرع إليه رجل فنصحه بالخروج من المدينة؛ فعمل موسى عليه السلام بالنصيحة؛ وخرج من المدينة خائفًا يترقب وهو يدعو ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، فاستجاب الله دعاءه ونجاه إلى أرض مدين؛ فأقام فيها وتزوج.

فلما قضى موسى عليه السلام الأجل الذي اتفق عليه مع والد زوجته، بعد ثمان أو عشر سنين؛ سار بأهله من أرض مدين متوجهًا إلى أرض مصر، وحصل معه في الطريق ما حصل من تكليم الله إياه، وإنعامه عليه بالنبوة والرسالة، كما وعد بذلك أمه بأن يجعله من المرسلين، فأمره بالذهاب إلى فرعون. وقد أعطى الله موسى عليه السلام تسع آيات معجزات، وهي براهين على صدقه عند مَن يكذبه من أهل مصر.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٣.

وقد أجاب الله تعالى لموسى جميع ما سأله، وأعطاه الذي طلب، فقد كان عليه السلام عند الله ذا جاه ومنزلة، قال تعالى عنه: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[1]. ومن وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يجعله الله رسولاً معه ليكون له عونًا ونصيرًا؛ فأجاب سؤاله، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[2].

دعوة فرعون إلى الله:

أمر الله - عزَّ وجلَّ - موسى وأخاه هارون أن يأتيا فرعون ويبلغانه أنهما رسولا رب العالمين، وأن يطلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، وأن يفكهم من قبضته وقهره، وتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا. وأن يبلِّغاه كذلك ما أرسلهما الله به من دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فقاما بما أمرهما الله به. ولكن فرعون المتغطرس تكبر في نفسه، وعتا وطغى، ونظر إلى موسى عليه السلام بعين الازدراء والتنقص، قائلاً له: أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسنا إليه، وأنعمنا عليه مدة من الدهر، وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا، وجحدت نعمتنا؟ فأخبره موسى أنه فعلها قبل أن يوحى إليه، ويُنزَّل عليه، ففر منهم لما خافهم، فوهب الله له حكمًا وجعله من المرسلين. ثم قال مجيبًا فرعون عما امتنَّ به عليه من التربية والإحسان إليه: وتلك نعمة تمنها على أن عبَّدت بني إسرائيل. أي؛ ليس ما ذكرته شيئًا بالنسبة إلى ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟!.

وقد كانت بين رسول الله موسى عليه السلام وفرعون مناظرة ومحاجة، إذ لما قال له موسى: إني رسول رب العالمين؛ قال له فرعون: وما رب العالمين؟ وذلك أنه كان يزعم لقومه أنه هو الإله، وقال لهم: أنا ربكم الأعلى! وقال مستخفًا بهم: يا أيها الملأ ما

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٣.

علمت لكم من اله غيري! فكانوا يجحدون الله تبارك وتعالى، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون. فقال له موسى عليه السلام: رب السماوات والأرض وما بينهما إن كانت لكم قلوب موقنة. عند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لرسول الله موسى فيما قاله: ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري؟ فقال موسى عليه السلام مخاطبًا له ولهم: ربكم ورب آبائكم الأولين. فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا والديه، وإنما أوجده وخلقه الله رب العالمين.

ومع ذلك لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه، واتهم موسى عليه السلام بأنه مجنون. قال موسى عليه السلام: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون. أي؛ هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الشمس، والمغرب مغربًا تغرب فيه الشمس، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا. فلما غلب فرعون وقامت الحجج عليه وانقطعت شبهه وحججه، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وسطوته، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال لموسى: لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين. قال موسى عليه السلام: أولو جئتك بشيء مبين؟ فقال فرعون: فأت به إن كنت من الصادقين. فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم الشكل، وأدخل يده في جيبه واستخرجها فإذا هي كفلقة القمر، تتلألأ نورًا يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى. وهكذا أقام موسى الكليم على فرعون اللئيم الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية.

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه!. لقد رأى فرعون الآيات كلها فكذب وأبى، وقال لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يُظهِرَ آيات الله وحججه وبراهينه جهرة

بحضرة الناس، ولهذا قال موسى عليه السلام: موعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضحىً. وكان يوم الزينة عيدًا من أعيادهم، ومجتمعًا لهم. وأراد موسى عليه السلام أن يكون ذلك من أول النهار، في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى؛ لأنه على بصيرة من ربه ويقين من أن الله سيظهر كلمته ودينه.

انتصار الآية على السحر:

أخذ فرعون يجمع مَن كان ببلاده من السحرة الخبراء في فنهم، فاجتمع منهم خلق كثير. وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم، تلبية لنداء فرعون في حضور هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة، فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه؛ وقال بعضهم لبعض: إن هذا وأخاه هارون ساحران، عليمان، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة، فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفًا، وقد أفلح اليوم من استعلى. وهكذا تواصوا بأن يأتوا بجميع ما عندهم من الخديعة والسحر والبهتان، جملة واحدة؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومنَّاهم.. وهيهات، فأنى يعارض السحر والبهتان الآيات البينات الخارقة للعادات، التي أجراها رب العالمين على يدي عبده الكليم؟!.

ولما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون، عليهما السلام، تُجاههم، قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك. قال: بل ألقوا أنتم. فألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون: بعزة فرعون إنَّا لنحن الغالبون. فأخذت تلك الحبال والعصي تضطرب اضطرابًا يُخيَّل للرائي أنها تسعى وتتحرك باختيارها، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، فخاف موسى على الناس أن يفتتنوا بسحرهم قبل أن يلقي ما في يده، فإنه لا يضع شيئًا قبل أن يُؤمَر، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة: ﴿**لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ**

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1]. فعند ذلك ألقى موسى عصاه، فصارت حية عظيمة ذات شكلٍ هائلٍ مزعجٍ، فهرب الناس منها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحداً واحداً، في أسرع ما يكون من الحركة.

وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطَّلعوا على أمرٍ لم يكن في خلدهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم، فعند ذلك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر، ولا شعوذة، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيَّدَ به بالحق. وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأنابوا إلى ربهم، وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين: آمنا برب موسى وهارون. لم يخشوا عقوبة ولا بلوى، ولم يلتفتوا إلى تهديد فرعون ووعيده؛ وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا، وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان صاحب كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله، فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس: آمنتم له قبل أن آذن لكم. ثم تهدد وتوعد، قائلاً: إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. وكذب فرعون وافترى؛ لأن السحرة لم يروا موسى من قبل، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟!.

وقال فرعون للسحرة: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم على جذوع النخل. لأنها أعلى وأشهر؛ ليجعلهم مثلة ونكالاً؛ لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته، قالوا: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات، والدلائل القاطعات، فافعل ما قدرت عليه، إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة، صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله، إنَّا آمنا

(١) سورة طه، الآيتان: ٦٨-٦٩.

بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، وثواب الله خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب، وأدوم من هذه الدار الفانية. وقالوا: لا ضير إنَّا إلى ربنا منقلبون، إنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا ما اجترمناه من المآثم والمحارم، أن كنا أول المؤمنين من القبط، بموسى وهارون، عليهما السلام. وقالوا له أيضًا: ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا. ثم دعوا الله: ربنا ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد. وهكذا كانوا أول النهار سحرة، فصاروا آخره شهداء بررة. وقد قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[1].

وهكذا غُلِبَ فرعون وقومه من القبط بعدما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وبعدما أسلم السحرة الذين استنصروا بهم. وبدلاً من أن يحذو فرعون وقومه حذو السحرة فيسلمون كما أسلموا؛ لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق. وهنا بدأ عمل البطانة الفاسدة من الأمراء والكبراء من قوم فرعون الذين سارعوا وحرضوا فرعون على إيذاء رسول الله موسى عليه السلام، ومقابلته بالكفر والأذى بدل التصديق بما جاء به من عند الله! وعدُّوا دعوة موسى عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط. فما كان جواب فرعون إلا أن قال لهم: سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنَّا فوقهم غالبون. فقرر فرعون قتل الغلمان من بعد بعثة موسى على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل لملأ بني إسرائيل، لئلا تكون لهم شوكة يمتنعون بها أو يصولون على القبط بسببها، وكانت القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك؛ ولم يرد عنهم قدر الله، فهو سبحانه يقول للشيء: كن فيكون.

سبحان الله...! فقد صار فرعون واعظًا! فزعم أنه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام فقال لقومه: ذروني أقتل موسى، وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٦.

دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد. وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1]. وهكذا تمادى قبط مصر على كفرهم، وعتوهم، وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لرسول الله موسى عليه السلام، وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون، ولا ينتهون، ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلا القليل، ومنهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون الذي وعظهم وأشار عليهم، والرجل الناصح، الذي نصح موسى بالخروج. هذا غير السحرة، فإنهم كانوا من القبط. وجميع شعب بني إسرائيل.

خروج بني إسرائيل من مصر:

أخذ رسول الله موسى عليه السلام يحث قومه على الاستعانة بالله والالتجاء إليه، ويأمرهم بالتوكل عليه والصبر على الأذى؛ لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2]؛ فجعل سبحانه لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا. وقد قال قوم موسى له: قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. أي؛ قد كانت الأبناء تُقْتَلُ قبل مجيئك، وبعد مجيئك إلينا، ونتحمل من التكاليف الفرعونية في كل يوم قسطًا معينًا، إن لم نفعله وإلا ضُربنا وأُهنا غاية الإهانة، وأوذينا غاية الأذية. فقال لهم موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3]. فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط، وكذلك وقع، وهذا من دلائل النبوة.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة يونس، الآيات: ٨٤-٨٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.

قال الله تعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[1]. وقد آن أوان قصم هذا المتعالي المسرف. فدعا موسى ربه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[2]. فهذه دعوة عظيمة على عدو الله فرعون وقومه من القبط، غضبًا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله؛ فاستجاب الله لها وحققها، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].

فقد استأذن بنو إسرائيل فرعون، في الخروج إلى عيدٍ لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج من مصر، وكان في ذلك مكيدة بفرعون وجنوده؛ ليتخلصوا منهم، ويرحلوا عنهم إلى الأرض المقدسة. فخرجوا بليلٍ، فساروا ذاهبين، فلما علم فرعون بذهابهم، حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع في استدعاء جنوده ليلحقهم ويمحقهم. انطلق فرعون طالبًا بني إسرائيل، وكان في جيش كثيف عرمرم، فأدركهم عند شروق الشمس، وعاين كل من الفريقين صاحبه، ولم يبق إلا القتال والدفاع، فعندها قال أصحاب موسى، وهم خائفون: إنا لمدركون. وذلك لأنهم اضطُروا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد، ولا يقدر عليه، وفرعون قد حصرهم وواجههم، وهم منه في غاية الخوف والذعر، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والذل، فشكوا إلى موسى مما قد شاهدوه وعاينوه، فقال عليه السلام: ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[4]. ونظر إلى البحر، وهو يتلاطم بأمواجه، وهو يقول: ههنا أُمِرْتُ. ومعه أخوه هارون؛ ويوشع بن

(١) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٣) سورة يونس، الآية: ٨٩.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.

نون، وهو يومئذ من علماء بني إسرائيل وعُبَّادهم الكبار. واقترب فرعون وجنوده، فعند ذلك أوحى العظيم القدير، إلى موسى الكليم: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[1]. فلما ضربه انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء: كن فيكون. وأمر الله ريح الدَّبُور، فلفحت طين البحر، فأذهبته حتى صار يابسًا.

لما آل أمر البحر إلى هذه الحال، أمر الله موسى أن يجوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يُحَيِّرُ الناظرين، ويهدي قلوب المؤمنين، فلما جاوزوه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند وصول أول جيش فرعون إليه، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، ليرجع كما كان عليه، لئلا يلحق فرعون وجنوده بهم ويصلوا إليهم، فأمره الله أن يترك البحر على هذه الحال: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾[2]. فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون، فرأى ما رأى، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك، من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم، والحالة هذه، حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدًا، وحملته النفس الكافرة، والسجية الفاجرة، على اقتحام البحر للحاق ببني إسرائيل.

نزول العذاب ونهاية فرعون وجنوده الكفار:

اقتحم فرعون البحر، وتبعه جنوده، وصاروا جميعًا في البحر، حتى هَمَّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك، أمر الله كليمه موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم أحد، كما أخبر تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٦٦.

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]. فقد أخبر - عزَّ وجلَّ - عن كيفية غرق فرعون، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارةً، وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه، وإلى جنوده، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم، والخطب الجسيم، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم، فلما عاين فرعون الهلكة، وأحيط به، وباشر سكرات الموت، أناب حينئذ، وتاب، وآمن حين لا ينفع نفسًا إيمانها. فهكذا دعا موسى على فرعون وملئه، أن يُطْمَسَ على أموالهم، ويُشْدَدَ على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم، وقد قال الله - عزَّ وجلَّ - لموسى وهارون، حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[2]. فهذا من إجابة الله دعوتهما. قال رسول الله ﷺ: «**لما أغرق الله فرعونَ قال: آمَنْتُ أَنّهُ لا إلَهَ إلا الذي آمَنَتْ به بَنُو إسرائيلَ. قال جبريلُ: يا محمدُ! فلَو رأيتني وأنا آخُذُ من حَالِ البحرِ وأدُسهُ في فيهِ، مَخافةَ أنْ تُدرِكَهُ الرحمة**»[3]. وقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[4] استفهام إنكار، ونص على عدم قبول الله منه.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع فرعون:

والآن... هل رأى فرعون الطاغي المتجبر ما وعده ربه حقًا؟! هل رأى ما أنذره به موسى عليه السلام حقًا؟! ألم يدعي أنه ربهم الأعلى، فلماذا لم ينفع نفسه ويمنعها من الغرق؟! لقد استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلى الله لا

(١) سورة يونس، الآية: ٩٠.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٩.

(٣) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٥٢٠٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩١.

يُرجعون، فأخذه الله وجنوده فأغرقهم في البحر، فلينظر المتكبرون كيف كانت عاقبة الظالمين...! وماذا عن قوم فرعون؟! استخفهم فرعون فأطاعوه! فليذوقوا هم وفرعونهم النار التي يُعرضون عليها غدوًا وعشيًا. ولينتظروا يوم تقوم الساعة حين يقول الرب جلَّ وعلا: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[1].

ولما هم فرعون بقتل رسول الله موسى عليه السلام، وعزم على ذلك، وشاور قومه فيه؛ أتاه رجل من قومه، وليس من قوم موسى، وتلطف في رده بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال كلمة الحق: أتقتلونه من أجل أنه قال: ربي الله؟! فمثل هذا لا يقابل بهذا، بل بالإكرام وترك الانتقام؛ لأنه قد جاءكم بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة؛ لأنه إن يك كاذبًا فعليه كذبه، ولا يضركم ذلك، وإن يك صادقًا، وقد تعرضتم له، يصبكم بعض الذي يعدكم. وقد حذرهم هذا الرجل الناصح أن يُسلَبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سُلِبوا مُلْكَهم وذَلُّوا بعد عزِّهم.

أليس هذا ما وقع لفرعون وقومه؟! ما زالوا في شكٍّ وريبٍ، ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من المُلك، ثم أغرقهم في البحر مهانين، ونُقِلَت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين. ولهذا قال لهم هذا المؤمن: يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟ فلو كانوا أضعاف ما هم عليه من القوة والشدة، لما نفعهم ذلك ولا رد عنهم بأس الله تعالى.

فبماذا أجاب فرعون المتكبر على هذا كله؟ قال: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. فقد كذب في كلا القولين؛ فإنه قد كان يتحقق ويعلم في نفسه أن هذا الذي جاء به موسى حق من عند الله لا محالة، وإنما كان يُظْهِر خلافه

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

بغيًا وعدوانًا، وعتوًا وكفرانًا. وكذلك لم يكن على رشادٍ من الأمر، بل كان على سفهٍ وضلال، قال الله في شأن فرعون: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[1].

وقد حذرهم مؤمن آل فرعون، مذكرًا إياهم بما حصل للأمم التي كانت قبلهم، عندما كذبت رسلها وكفرت بالله. وحذرهم إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بتلك الأمم السابقة، من العذاب، مما تواتر عندهم وعند غيرهم؛ ما حل بقوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودٍ، ومَن بعدَهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام الله به الحجج على أهل الأرض قاطبةً، في صدق ما جاءت به الأنبياء، بما أنزل من النِّقمة بمكذبيهم من الأعداء، وبما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء. وخوفهم يوم القيامة، ثم أخبرهم عن نبوة يوسف عليه السلام في بلاد مصر؛ ما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا الرسول موسى عليه السلام من سلالته وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، و ألاَّ يشركوا به أحدًا من بريته، وأخبرهم عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، أن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل، وهو أمر يمقته الله غاية المقت، ويبغض من اتصف به من الخلق.

لم يتأثر فرعون ولم يقتنع بهذه المواعظ والحجج والبراهين من هذا المؤمن، فضلاً عما جاء به رسول الله موسى عليه السلام إليه، من الآيات المعجزات؛ بل أمر وزيره هامان أن يبني له برجًا ليطَّلع إلى إله موسى الذي ظن فرعون أنه كاذبًا. فقد كذَّب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله، وأن للعالم ربًّا غير فرعون...! فماذا فعل فرعون، هل اطلع إلى إله موسى؟! هل سأله إذا كان أرسل موسى أم لا، أم أن مقصوده لم يكن سوى أن يصد الناس عن تصديق موسى، وأن يحثهم على تكذيبه؟!

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٠-٢٦.

كذلك زُيِّنَ لفرعون سوء عمله، وما كيده إلا في خسارٍ، باطلٍ، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء الدنيا أبدًا، فكيف بما بعدها من السماوات العُلى، وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ؟!.

ألم ينصحهم هذا الرجل المؤمن بسلوك طريق الرشاد والحق، وهي متابعة نبي الله موسى، وتصديقه فيما جاء به من ربه، ثم زهدهم في الدنيا الفانية المنقضية لا محالة، ورغبهم في طلب الثواب عند الله، الذي يعطي على القليل كثيرًا، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها. وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار، التي مَن وافاها مؤمنًا قد عمل الصالحات، فلهم الجنة يُرزَقون فيها بغير حساب؟ ألم يدعوهم إلى النجاة وعبادة رب الأرض والسماوات، وهم يدعونه إلى النار والكفر بالله والشرك به وعبادة فرعون الملعون الضال؟ وقد بيَّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مَردَّهم إلى الله، وأن المسرفين هم أصحاب النار. ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد، وفوَّض أمره إلى الله؛ ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**﴾[1]. فبإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[2].

فمن عدل الله تعالى أنه لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم، فبالترهيب تارةً والترغيب أخرى. فقد ابتلاهم بأعوام الجدب ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون، فلم ينتفعوا ولم يَرْعَووا، بل تمردوا واستمروا على كفرهم

(١) سورة غافر، الآية: ٤٥.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٤٥-٤٦.

وعنادهم، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا: هذا الذي نستحقه، وادَّعوا الخير لأنفسهم، وإن تصبهم سيئة اطيَّروا بموسى ومن معه، وأسندوا الشر إليه، واستكبروا عن الحق، وقالوا لموسى عليه السلام: مهما جئتنا به من خوارق العادات، فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية.

فتابع الله عليهم بالآيات: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[1]. أرسل الله عليهم الطوفان، والأمطار الغزيرة المتلفة للزروع والثمار. وأرسل عليهم الجراد، فأكل زرعهم وثمارهم. وأرسل الله عليهم القُمَّل، فمنعهم النوم والقرار. وأرسل عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية والأفران والمعاجن. وأرسل عليهم الدم، فكان قد مُزِجَ ماؤهم كله به، فلا يستقون من النيل شيئًا إلا وجدوه دمًا طريًا، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دمًا. هذا كله، ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية. وهذا من تمام المعجزة الباهرة، والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لفرعون وقومه، فينالهم عن آخرهم، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل.

وكانوا كلما شاهدوا آية وعاينوها، وجَهَدَتْهم وأضْنَكَتْهم، حلفوا وعاهدوا موسى وقالوا له: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك، لئن كشفت عنا الرجز؛ لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل. فيدعو موسى ربه، فيكشف الله عنهم، فلا يفوا له بشيء مما قالوا، فيرسل الله عليهم آية أخرى، هي أشد من التي قبلها وأقوى، فيقولون فيكذبون، ويعِدون ولا يَفون.

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه، وعظمة بلده وحسنها، وتَخَرُّقِ الأنهار فيها، ثم تبجح بنفسه وحليته، وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام، ويزدريه بكونه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.

لا يكاد يبين كلامه، بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللُّثْغَة، التي هي شرف له، وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى، وأوحى إليه. وتنقصه فرعون بكونه لا أساور في يديه ولا زينة عليه!.

لقد تجاوز فرعون كل الحدود! وأبى أن يؤمن كما آمن سحرته، مع كثرة الفرص التي أُعطيت له لكي يعود عن كفره وعصيانه، بل طارد هو وجنوده موسى وبني إسرائيل إلى البحر يريد قتلهم، وما علم أن الله تعالى أخرجه من الجنات والعيون، والزروع والمقام الكريم، والنعمة التي كانوا فيها فاكهين، ليورثها الله - عزَّ وجلَّ - قومًا آخرين، وأن هذا هو آخر يوم في عمره، وما علم ما الذي ينتظره في البحر، حتى إذا أدركه الغرق، وفات أوان الإيمان، قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين. آلآن فرعون الجبار اللئيم يريد أن يدخل الإسلام، وأن يكون واحدًا من المسلمين؟! آلآن عرف أن الإسلام لله هو الدين الحق؟! بعد ماذا؟! بعد أن قتل كثيرًا من المسلمين، وعصى الله وكان في أرضه من المفسدين؟!.

- وقفة مع قوم فرعون:

وأما قوم فرعون...! قال الله عنهم: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ**﴾[1]. لقد استخف فرعون بعقولهم، إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية، ووافقوه عليها، وأطاعوه فيها، فانتقم الله منهم أشد الانتقام، وأغرقهم هم وفرعونهم في صبيحةٍ واحدةٍ، فلم يفلت منهم أحد، فدخلوا النار، وأُتْبِعوا في هذه الدنيا لعنةً، ويوم القيامة هم من المقبوحين. وجعلهم سلفًا لمن سار على نهجهم، ومثلاً لمن اتعظ بهم، وخاف من وبيل مصرعهم.

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٥٤-٥٦.

- وقفة مع امرأة فرعون:

أما امرأة فرعون آسية بنت مزاحم.. التي كفلت نبيًا مرسلاً وقامت بتربيته، وأحسنت الصحبة في كفالته، وصدقته حين بُعث.. فلتبشر...! فقد ضرب الله تعالى بها مثلاً للذين آمنوا، وأخبر عن دعائها له: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

فهذا المثل ضربه الله - عزَّ وجلَّ - للمؤمنين، فقد كان زوجها فرعون أعتى أهل الأرض، وأكفرهم، فما ضرها كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه. وكذلك ضربه للمؤمنين ترغيبًا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين، وحث للمؤمنين على الصبر في الشدة، و ألاَّ يكونوا فيه أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون. وقد اختارت آسية الجار قبل الدار، فقالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة، وتبرأت إلى الله تعالى من عمل فرعون، ودعت الله أن يخلصها منه، فنجاها الله أكرم نجاة، وكتب لها الجنة.

أيضًا فلتبشر...! فقد أخبر خاتم النبيين محمد ﷺ أنها من النساء الكاملات: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[2]. وإنها من خير نساء العالمين: «**خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خُويلد، وفاطمة بنت محمدٍ، وآسية امرأة فرعون**»[3].

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى وضرب الله مثلاً للذين آمنوا.

(٣) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٣٣٢٨.

- عظمة الله تعالى:

سبحان الله كيف جعل فرعون نفسه يربي عدوه موسى عليه السلام، الذي ستكون نهايته ونهاية دولته على يديه... ! وسبحان الله حين قال لموسى عليه السلام: ﴿ **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾[1]. فهذا من حلم الله وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يأمرهما أن يدعواه إلى الله برفق ولين، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى.

لقد حلم الله على فرعون بالرغم من أنه ادعى الربوبية ودعا الناس إلى عبادته من دونه! وحلم عليه وعلى قومه بالرغم من قتلهم للمسلمين، وإيذائهم، وإهانتهم، وتكليفهم بالأعمال المهينة!. وبالرغم من سخريتهم من رسوله موسى عليه السلام، واتهامه بالسحر والجنون! لم يؤاخذهم ولم ينتقم منهم بل أمهلهم طويلاً إلى أجل مسمّى، فلما جاء أجل فرعون وجنوده أهلكهم، وكذلك يفعل بالكافرين والظالمين أعدائه وأعداء رسله والمؤمنين.

ما أحلم الله حين أرسل بالآيات الكثيرة على فرعون وقومه لعلهم يؤمنون، بل استمرت آيات الله حتى اللحظة الأخيرة قبل غرق فرعون، حين رأى فرعون معجزة الله الباهرة في انفلاق البحر، ونجاة بني إسرائيل، ومع ذلك لم يؤمن فرعون إلا بعد أن أيقن الموت.

لقد ترك الله تعالى ما حدث لفرعون من عذاب وهلاك وغرق ونجاة البدن آية وعبرة للأمم التي سوف تأتي من بعدهم؛ وقال عزَّ شأنه، في شأن فرعون: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾[2]. وها هو بدن فرعون من الفراعنة معروض

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٢.

للعالم، ليكون عبرة لكل سلطان ولكل حاكم تسول له نفسه أن يحذو حذو فرعون في الكفر، أو التجبر، أو التغطرس، أو التسلط، أو استخفاف قومه، أو قتل المسلمين والبطش بهم، أو إيذائهم أي إيذاء، أو إهانتهم أية إهانة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1]. لم يُنْجِ الله سبحانه موسى وثلث مَن معه، أو نصفهم، أو معظمهم، بل أجمعين، كيف لا وهم المسلمون في ذلك الزمان...؟! ثم أغرق الله الآخرين، فجعلهم عبرةً، ونكالاً وسلفًا لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين. ففي إنجائه أولياءه، فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه، فلم ينج منهم أحد، آية عظيمة، وبرهان قاطع على قدرته العظيمة.

لقد تركها الله آية للناس، ليروا فيها كيف ينجي وينصر عباده المؤمنين المسلمين، وأن موسى عليه السلام ومن آمن معه من بني إسرائيل وغيرهم؛ مثل: زوجة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وغيرهم؛ ممن يوحدون الله ويعبدونه وحده لا شريك له؛ كانوا هم المؤمنين المسلمين الأبرار الأخيار. وليروا فيها كيف يُنزل بأسه على الكفار الظالمين، وأن فرعون وقومه وجنوده الهالكين ممن يؤلهون الحاكم، ويتخذونه ربًا من دون الله، ويطيعونه في كل ما يريد، خيرًا كان أم شرًا، ويقدمون أمره ونهيه على أمر الله ونهيه؛ كانوا هم الكفار الفجار الأشرار.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦٥-٦٨.

فهل المتأخرون الذين سيأتون من بعدهم سيتذكرون هذه الآية ويؤمنون بها...؟! وهل سيتعظون بمصير الكافرين والظالمين من قوم فرعون فلا يسلكون سبيلهم، ولا يتبعون طريقتهم، ويصدقون رسل الله وأنبياءه، ويتبعون صراط الله المستقيم، ويوحدون الله ويعبدونه وحده لا شريك له، ويكونون من حزبه المؤمنين المسلمين، ويتجنبون أن يكونوا من حزب الشيطان الكافرين الظالمين...؟!.

نهاية بني إسرائيل العاصين لموسى عليه السلام

معاناة موسى عليه السلام مع قومه:

لقد نجى الله - تبارك وتعالى - بني إسرائيل من العذاب المهين الذي كانوا يلقونه من فرعون وجنوده، واختارهم على علمٍ على أهل زمانهم، وآتاهم من الآيات والبراهين وخوارق العادات ما فيه بلاء مبين. فقد كانت المعجزات تبيت معهم وتصبح، وترتحل وتتوقف، تصاحبهم ولا تفارقهم؛ وما رأى قوم من الآيات الكثيرة التي خدمتهم وأنجتهم مثلما رأوا؛ مما يُفتَرض معه أن يكونوا من أقوى الناس إيمانًا بالله، وأشدهم طاعة له ولرسله وأنبيائه، وأكثرهم صلاةً وتواضعًا وشكرًا له على نعمه الكثيرة عليهم. ولكن ما حصل منهم كان على العكس من ذلك.

فعندما خرجوا من مصر مع موسى، انتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون وجنوده، فخاف كثير منهم، وبدأت رحلة المعاناة لموسى عليه السلام معهم، وفي كتاب العهد القديم[1] أنهم لما رأوا المصريين يتبعونهم قالوا لموسى: «هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مِصر؟ أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كُفَّ عنا فنخدم المِصريِّين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية؟»[2].

يريدون صنمًا إلهًا:

بالرغم من أن بني إسرائيل كانوا حديثي عهد بآية معجزة باهرة، وهي انفلاق البحر وعبورهم إلى الضفة الأخرى ونجاتهم من فرعون الذي طاردهم هو وجنوده، ثم

---

(١) حكم المسلمين بصحة نصوص من العهد القديم لا يعني صحة الكل، فهناك جزء من الحقيقة في التوراة المحرفة، وقد أكد الله - تبارك وتعالى - حصول التحريف وليس التبديل الكامل.

(٢) الخروج ١٤/١١-١٢.

عودة البحر إلى ما كان عليه وغرق فرعون وجنوده فيه، إلا أنهم ما إن جاوزوا البحر ونجوا ومروا على قوم يعبدون أصناماً لهم، حتى سألوا نبيهم أن يجعل لهم آلهةً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]. قالوا هذا الجهل والضلال؛ وقد عاينوا من آيات الله وقدرته، ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسوله؛ فبيَّن لهم موسى عليه السلام أنهم لا يعقلون ولا يهتدون. ثم ذكَّرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على أهل زمانهم بالعلم، والشرع، والرسول الذي بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم، وما امتن به عليهم، من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال، وبيَّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له؛ لأنه الخالق الرازق القهار.

فهكذا كانوا يشاهدون آيات الله، ويتعايشون معها مثل أي شيء عادي، ومع ذلك يجادلون ويتعنتون ويسيئون أدبهم مع الله ومع رسوله إليهم، ويطلبون منه أن يجعل لهم آلهة. وقد أراد موسى عليه السلام إنقاذهم بأمر الله من العذاب المهين في مصر، في حين هم يحمِّلونه مسؤولية خروجهم من مصر، ويتمنون لو أنهم ظلوا في العذاب المهين في خدمة المصريين!.

يلومون موسى على الطعام:

في العهد القديم: «ورحلَ جميعُ بَني إسرائيلَ مِنْ إيليمَ إلى برِّيَّةِ سينَ التي بَينَ إيليمَ وسيناءَ، في اليومِ الخامسَ عشَرَ مِنَ الشَّهرِ الثَّاني لخروجِهِم مِنْ أرضِ مِصْرَ. فألقَوا اللَّومَ على موسى وهرونَ في البرِّيَّةِ، وقالوا لهُما: «ليتَنا مُتْنا بيدِ الرّبِّ في أرضِ مِصْرَ. فهناكَ كُنَّا نجلِسُ عِندَ قُدورِ اللَّحمِ ونأكُلُ مِنَ الطَّعامِ حتى نشبَعَ، فلماذا أخرجتُمانا إلى هذهِ البرِّيَّةِ لِتُميتا هذا الجمْعَ كلَّهُ بالجوعِ؟».

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

فهكذا كلما وقعوا في مشكلة ألقوا اللوم على موسى، فهم غير راضين عن خروجهم من مصر. وذكروا أن الله وضع عليهم الفرائض والأحكام لامتحانهم، وأنذرهم بأنهم إن سمعوا كلامه، واستقاموا في حياتهم، وعملوا بالوصايا وجميع الفرائض، فإنه تعالى لن ينزل بهم ما أنزله بفرعون وجنوده من أنواع الضربات والعذاب، وهذا يعني أن جميع ذلك سينزل بهم إذا خالفوا أوامره، وتركوا طاعته وطاعة رسله. ثم ما لبثوا أن ألقوا اللوم على موسى وأخيه من أجل بطونهم، وتمنوا لو أنهم بقوا في مصر، فهناك كانوا يأكلون اللحوم حتى يشبعوا! فأمطر الله لهم المن من السماء، وأمرهم أن يلتقطوا منه طعام كل يوم في يومه، وألاَّ يأخذ أحدهم أكثر من حاجته اليومية، وبهذا امتحنهم لتقام عليهم الحجة هل يتبعون شريعته أم لا؟ وقد أطاعه بعضهم، وعصاه بعضهم الآخر، فكانوا يلتقطون أكثر من حاجتهم، ولما أمرهم موسى بألاَّ يبقوا شيئًا منه إلى الصباح، لم يطيعوه وأبقى منه بعضهم، فدوَّدَ وأنتن؛ فغضب عليهم موسى عليه السلام.

وامتحنهم الله بأن أمرهم أن يكون يوم السبت هو يوم عطلة لا عمل فيه، فلا يجوز لهم الخروج فيه لالتقاط المن لأنهم لن يجدوه، وكان يرزقهم في اليوم السادس الجمعة طعام يومين، فكان المن الذي يتركوه ليوم الغد السبت لا يدود ولا ينتن، ومع ذلك كان بعضهم يخالف أمر الله، ويرفض العمل بوصاياه وشرائعه؛ فيخرج ليلتقط فما يجد شيئًا.

يلومون موسى على الماء:

في العهد القديم أن موسى، رحل بهم من البحر الأحمر إلى برية شور، «فساروا ثلاثةَ أيّامٍ في البرِّيَّةِ ولم يجدوا ماءً. ولمَّا وصلوا إلى مارَّةَ وجدوا ماءَها مُرًّا، فلم يقدروا أنْ يشربوهُ، ولذلكَ سُمِّيتْ مارَّةَ. فألقى الشَّعبُ اللَّومَ على موسى وقالوا: «ماذا نشربُ؟» فصرَخ إلى الرّبِّ، فأراهُ الرّبُّ شَجرةً. فلمَّا طرحَها في الماءِ صارَ عذْبًا»[1].

(١) الخروج ١٥/٢٢-٢٥.

ثم بعد ذلك ما لبثوا أن عادوا مرة أخرى فألقوا اللوم على موسى عليه السلام بسبب الماء: «فخاصموا موسى وقالوا: «أعطونا ماءً نشربُهُ». فقالَ لهُم موسى: «لماذا تُخاصمونَني؟ ولماذا تجرِّبونَ الرّبَ؟» وعطِشَ هُناكَ بَنو إسرائيلَ إلى الماءِ وألقَوا اللَّومَ على موسى وقالوا: «لماذا أصعدتَنا منْ مِصْرَ لتميتَنا نحنُ وبَنونا ومَواشينا بالعَطشِ؟» فصرخ موسى إلى الرّبِّ: «ماذا أفعَلُ بهؤلاءِ الشَّعبِ؟ بعدَ قليلٍ يرجمونَني»[1]. فأمره الله أن يضرب بعصاه الصخرة ليخرج منها الماء؛ قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[2]. «ففعلَ موسى كذلكَ، أمامَ عيونِ شُيوخ إسرائيلَ. وسمَّى موسى ذلكَ المكانَ مسَّةَ ومَريبة، لأنَّ بَني إسرائيلَ عَطِشوا وارتابوا بالرّبِّ فقالوا: «أمَعَنا الرّبُّ أم لا؟»[3].

سبحان الله كم كان حليمًا على بني إسرائيل...! لقد ارتابوا به سبحانه، هل هو معهم أم لا؟ وخاصموا رسوله، بالرغم من كل الآيات المعجزات التي وقعت، وفيها برهان ساطع على رعاية الله لهم، واعتنائه بهم، وإحسانه إليهم؛ حتى جعلوا موسى يجأر إلى ربه داعيًا ومتعجبًا من هؤلاء القوم، وقائلاً: «ماذا أفعَلُ بهؤلاءِ الشَّعبِ؟ بعدَ قليلٍ يرجمونَني». فما أعظم صبر موسى عليه السلام على أذاهم المتواصل، الذي لا يتوقف ولا ينقطع، كلما جاعوا أو عطشوا!.

يعصون أمر موسى بقتال الجبارين:

لما اقترب رسول الله موسى عليه السلام من بلاد بيت المقدس، وجد فيها قومًا من الجبارين، فأمر بني إسرائيل بالدخول عليهم، ومقاتلتهم، وإجلائهم إياهم عن بيت

(١) الخروج ١٧/٢-٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

(٣) الخروج ١٧/٦-٧.

المقدس، ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾[1]. بعد أن ذكَّرهم موسى عليه السلام، نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية، أمرهم بالجهاد في سبيل الله، ومقاتلة أعدائه، وأن يدخلوا الأرض المقدسة، ولا ينكصوا على أعقابهم، وينكلوا عن قتال أعدائهم؛ فيخسروا بعد الربح، وينقصوا بعد الكمال. فرفضوا الدخول إلا بعد أن يخرج منها القوم الجبارون. خافوا منهم، وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أكثر تجبرًا من هؤلاء، وأشد بأسًا، وأعظم جندًا. ثم أساؤوا الأدب مع الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[2]. فلما نكلوا عن الجهاد، قال موسى داعيًا عليهم: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، أي؛ ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمرك، ويجيب إلى ما دعوت إليه، إلا أنا وأخي هارون، فاقض وافصل بيننا وبين القوم الفاسقين.

معاقبتهم بالتيه أربعين سنة:

عندما رفض بنو إسرائيل أمر موسى لهم بالجهاد في سبيل الله، سلط الله عليهم الخوف، وعاقبهم بالتيه، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[3]. فذم سبحانه بني إسرائيل على نكولهم وترك جهادهم، ومخالفتهم رسولهم، وعاقبهم بالتيهان في الصحراء أربعين سنة، يسيرون إلى غير مقصد، ليلاً ونهارًا، وصباحًا ومساءً، لا يهتدون للخروج منها، حتى يفنى هذا الجيل وينشأ جيل آخر قادر على تنفيذ أمر الله بالجهاد. وقوله تعالى: ﴿ فَلا

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٢١-٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٢٤-٢٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٦.

﴿تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم، أي: لا تأسف ولا تحزن عليهم، فيما حكمت عليهم به؛ فإنهم مستحقون لذلك. وهذه القصة تضمنت تقريع بني إسرائيل، وبينت فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم؛ مع أن بين أظهرهم رسول الله وكليمه، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون، من إغراقه وجنوده في اليم وهم ينظرون لتقر به أعينهم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد لا توازي عشر المعشار في عدة أهل مصر وعددهم.

وذكروا في العهد القديم أن هذا الجيل الشرير قد استحق الفناء لجبنه وامتناعه عن الجهاد في سبيل الله: «وسَمِعَ الرّبُّ ما قلتُموهُ فغضِبَ وأقسمَ أنْ لن يرى أحدٌ مِنْ هؤلاءِ الذينَ مِنْ هذا الجيلِ الشِّرِّيرِ تلكَ الأرضَ الصالحةَ التي أَقسمتُ أنْ أُعطيَها لآبائِكُم»[1]، «تتَحمَّلونَ عاقبَةَ آثامِكُم أربعينَ سنَةً، كُلَ يومٍ بِسنَةٍ، فتَعرفونَ كيفَ تكونُ مُعاداتي لكُم. أنا الرّبُّ تَكلَّمتُ، فأفعلُ ذلكَ بكُلِّ هذهِ الجماعةِ الشِّرِّيرةِ التي تُهَدِّدُني. في هذهِ البرِّيَّةِ يَنقرضونَ وهُنا يَموتونَ»[2].

ضجروا من المن والسلوى:

لقد أنعم الله على بني إسرائيل، وأحسن إليهم بما يسر لهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض، التي ليس فيها زرع ولا ضرع، من المنِّ والسلوى، طعامين شهيين، بلا كُلْفَةٍ، ولا سعي لهم فيه، بل ينزل سبحانه المنَّ من السماء باكرًا، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة. ويرسل عليهم طير السلوى عشيًّا، فيغشاهم من آخر النهار، فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه، حسب كفايتهم لعشاهم. وأنبع الله الماء لهم بضرب

(١) التثنية ١/٣٤-٣٥.

(٢) العدد ١٤/٣٤-٣٥

موسى عليه السلام، حجرًا - كانوا يحملونه معهم - بالعصا؛ فتفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، لكل سِبْطٍ منهم عين منه تنبجس، ثم تتفجر ماءً زلالاً، فيستقون ويسقون دوابهم، ويدَّخرون كفايتهم. وإذا كان فصل الصيف ظلَّل عليهم الغمام، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر، لا يصيبهم تحته حر ولا برد.

وهذه نِعَم من الله عظيمة وعطيات جسيمة، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها، ثم ضجر كثير منها، وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها، مما تنبت الأرض من بَقْلِها، وقِثَّائها، وفومها، وعدسها، وبصلها. فقرَّعهم موسى الكليم عليه السلام، ووبخهم، وأنَّبهم على هذه المقالة، وعنَّفهم قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[1]. وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم، تدل على أنهم لم ينتهوا عما نُهُوا عنه.

أذاهم لموسى عليه السلام:

لم ينج رسول الله موسى عليه السلام نفسه من أذى بني إسرائيل المتكرر له حتى دفعوه إلى أن يقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾[2]. وقد نهى الله المؤمنين عن أن يكونوا مثلهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة، وإما آفة. وإن الله أراد أن يُبَرِّئَه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه،**

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾[1]،[2].

عبادتهم العجل الذهبي:

لم يكتف اليهود بجحود نعم الله عليهم ونكرانها، بل قاموا بعبادة صنم صنعوه على شكل عجل...! فعندما ذهب موسى بمفرده لميقات ربه، أخبره الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾[3]. أما السامري الذي قام بصنع العجل، فقد عوقب بما يستحق، بأن يقول في الحياة: لا مساس، وله موعد لا محيد له عنه. وأما العجل فقد تم حرقه ونسفه في البحر نسفًا.

وقد ذكروا في كتاب العهد القديم قصة عبادتهم العجل، ولكنهم حرفوا اسم مَن صنع لهم العجل فجعلوه هارون بدلاً من السامري، الذي ذكره الله في القرآن، أما هارون فقد نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي، وزجرهم عنه أتم الزجر، وقد شهد الله له أنه فعل ذلك، فلم يطيعوه ولم يتبعوه. وذكروا أيضًا: «فقالَ الرّبُّ لموسى: «قُمِ انْزِلْ. فسَدَ شعبُكَ الذينَ أخرَجتُهُم منْ أرضِ مِصْرَ. حادوا سريعًا عَنِ الطَّريقِ الذي أمَرتُهُم بِسُلوكِهِ، فصنَعوا لهُم عِجلاً مَسبوكًا وسجدوا لَه وقَدَّموا الذَّبائِحَ وقالوا:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام.

(٣) سورة طه، الآيات: ٨٥-٨٨.

«هذهِ آلهتُكُم يا بَني إسرائيلَ، آلهتُكُمُ التي أخرَجتْكُم منْ أَرضِ مِصْرَ». وقالَ الرّبُّ لموسى: «رأيتُ هؤلاءِ الشَّعبَ، فإذا هُم شعبٌ قُساةُ الرِّقابِ. والآنَ دع غضَبي يشتَدُّ علَيهِم فأُفنيَهُم وأجعَلَكَ أنتَ أُمَّةً عظيمَةً»[1].

إنهم قوم لا يصبرون، حتى الإله يغيرونه بسبب قلة صبرهم...! ويا عجبًا من سرعة فسادهم وابتعادهم عن الطريق الذي أمرهم الله بسلوكه، سبحانه هو أعلم بهم منهم بأنفسهم، وحقًا إنهم شعبٌ قُساةُ الرِّقابِ، ويستحقون ما يعاقبهم به، حتى ولو أن يقتل بعضهم بعضًا، وقد حصل. إذ ذكروا أن موسى عليه السلام «وقفَ على بابِ المَحلَّةِ وقالَ «مَنْ منكُم للرّبِّ فَلْيَجئْ إليَّ». فاجتَمعَ إليهِ جميعُ بَني لاوي، فقالَ لهُم: «قالَ الرّبُّ إلهُ إسرائيلَ: على كُلِّ واحدٍ منكُم أنْ يحملَ سيفَه ويَطوفَ المَحلَّةَ منْ بابٍ إلى بابٍ ويَقتُلَ أخاهُ وصديقَه وجارَهُ». ففعَلَ بَنو لاوي كما أمرَ موسى، فسَقطَ منَ الشَّعبِ في ذلكَ اليومِ ثَلاثَةُ آلافِ رَجلٍ»[2]. وذكروا أيضًا: «ولكنْ يجيءُ يومٌ أُعاقِبُهُم فيهِ على خطيئَتِهِم». وبَطَشَ الرّبُّ بالشَّعبِ لأنَّهُم عبَدوا العِجلَ»[3].

لقد وصل بهم حب التعنت والمخالفة والعصيان أن عبدوا جمادًا! أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا؟! ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟! اتخذوه وكانوا ظالمين؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾[4]. فنزل بهم من الله ما يستحقون على عبادة العجل، وهو أنه تبارك وتعالى لم يقبل لهم توبة حتى يقتل بعضهم بعضًا، فقتلوا آلاف الرجال، وأعقبهم الله ذلاً وصغارًا في الحياة الدنيا؛ وهذا من عدل الله، وهو ما يستحقه من العقوبة مَن يعبد غير الله تبارك وتعالى.

---

(١) الخروج ٣٢/٧-١٠.

(٢) الخروج ٣٢/٢٦-٢٨.

(٣) الخروج ٣٢/٣٤-٣٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٢.

يريدون رؤية الله عزَّ وجلَّ:

ما أعجب هؤلاء الخلق الذين فعلوا كل الذي فعلوه من عصيان الله ومخالفة رسوله وعبادتهم العجل.. ثم يطلبون رؤية الله...؟! فقد قال الله عنهم: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾[1]. لم يكفهم عبادة العجل وما عاقبهم الله بسببه بقتل أنفسهم! بل تمادوا في غيهم وتعنتهم حتى اشترطوا على نبيهم أنهم لن يؤمنوا له حتى يروا الله عيانًا! إذا كان كليم الله ونبيه ورسوله وخير خلقه في ذلك الزمان لم يستطع رؤية الله، فكيف يستطيع هؤلاء الذين ما إن يخرجوا من معصية أو مخالفة لأوامر الله وأوامر رسوله، حتى يدخلوا في أخرى؟! فكان لا بد أن ينزل بهم أيضًا ما يستحقونه من العقاب على طلبهم رؤية الله عيانًا؛ فأخذتهم الصاعقة فماتوا، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرونه؛ فأحياهم؛ فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون...!.

يشترطون لقبول التوراة:

لما جاءهم موسى عليه السلام بالألواح فيها التوراة، أمرهم بقبولها، والأخذ بها بقوة وعزم، فقالوا: انشرها علينا، فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة، قبلناها. فقال: بل اقبلوها بما فيها. فراجعوه مرارًا، فرفع الله الجبل فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها، وإلا سقط هذا الجبل عليكم. فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم. ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم، والأمر الجسيم، نكثوا عهودهم ومواثيقهم، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

نهاية جيل العاصين المتمردين:

لقد توفى الله تعالى هارون عليه السلام، ثم بعده بثلاث سنين توفى موسى عليه السلام وأقام الله فيهم (يوشع بن نون) عليه السلام نبيًّا، خليفة عن موسى عليه السلام، ومات أكثر بني إسرائيل في الصحراء في مدة التيه. ففي العهد القديم: «فَاشْتَدَ غضَبُ الرَّبِّ على بَني إِسرائيلَ فتركَهُم يَهيمونَ في البرِّيَّةِ أربَعينَ سنَةً، حتى اَنقرَضَ جميعُ الجيلِ الذي أساءَ إلى الرَّبِّ»[1].

وبعد أن انقرض الجيل الشرير المسيء إلى ربه، وانقضت المدة، خرج يوشع بن نون عليه السلام، بسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، ثم فتحها. وأمر الله - عزَّ وجلَّ - يوشع أن يأمر بني إسرائيل أن يدخلوا بيت المقدس من بابها سجدًا، شكرًا لله على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وإنقاذهم من التيه والضلال، وهم يقولون: حطة، أي أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فإذا فعلوا ما أمرهم الله غفر لهم الخطايا، وضاعف لهم الحسنات. فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم؛ فبدلاً من قول: حطة، استهزؤوا وقالوا: حنطة، أو قالوا: حبة في شعرة، أو حنطة في شعيرة. وأمروا أن يدخلوا الباب سجدًا، قيل: ركعًا من باب صغير، فدخلوا من قبل أساتهم؛ وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بخروجهم عن طاعته.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

والآن ماذا عن العاصين المتمردين؟! كيف رأوا عقاب مَن يعصي الله تعالى، ولا يتبع رسوله ولا يطيعه في كل ما يدعوهم إليه...؟. لقد أرسل الله تعالى إليهم موسى عليه السلام، وهو كليم الله، وأحد الخمسة الذين هم أولو العزم من الرسل، فما أعجب سوء أدبهم معه حين قالوا: «فهذا الرجل موسى، الذي أخرجنا من مصر»[2]. ! وكأنه

(١) العدد ١٣/٣٢.

(٢) الخروج ١/٣٢.

ليس نبيًّا، ولا رسولاً أرسله الله إليهم لينقذهم من حياة الذل والهوان والسخرة التي كانوا يعانون منها في مصر، فلم يزالوا في حنين إلى تلك الحياة ويلومون موسى على إخراجهم منها كلما سنحت لهم الفرصة، وكلما واجهوا أتفه المشكلات...! كذلك عصوا أوامر موسى عليه السلام وردوا عليه بأقبح ما يكون الرد على نبي ورسول مثله، فعاقبهم الله تعالى بالعقاب الذي يستحقونه، وكان التيه في الصحراء أربعين سنة من نصيبهم؛ حتى يفنى جيلهم العاصي المتمرد الذي لا يستطيع قتالاً ولا جهادًا في سبيل الله، وينشأ جيل غيرهم.

لقد رأوا من الآيات العظيمة، والمعجزات الباهرات، ما لم تره أي أمة قبلهم أو بعدهم، ومع ذلك ما أسرع ما يخرجون عن طاعة الله - عزَّ وجلَّ - وطاعة رسوله موسى عليه السلام...! يُسَخِّر الله تعالى المعجزة لأجلهم؛ فما أسرع ما يتضجرون منها ويطالبون بغيرها...! يريد الله لهم العزة والكرامة، فيرغبون بالذلة والمهانة...! فضلهم الله على الناس في زمانهم، فيريدون أن يبقوا خدمًا لفرعون وقومه...! يطعمهم الله تعالى المن والسلوى، وهو خير الطعام، وهم يعترضون على ذلك ويريدون العدس والبصل وغيرهما من الطعام الأدنى، ويقولون لرسول الله وكليمه: يا موسى! لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك...! حتى إنهم لا يريدون أن يكلفوا أنفسهم فيدعوا ربهم بأنفسهم فطلبوا من موسى أن يدعو ربه، وكلما تكلموا مع نبيهم قالوا له بلهجة خالية من الأدب: ربك، ربك، ادع لنا ربك يخرج لنا! ادع لنا ربك يبين لنا! اذهب أنت وربك فقاتلا! ولا يقولون ربنا.

وقد أنزل الله سبحانه بهم ما يستحقون وما يناسبهم من العقاب والعذاب على عنادهم وتمردهم، وكفرهم بآيات الله، وعصيان الله ورسوله. فهم الذين رأوا آية الله الباهرة في انفلاق البحر لينجيهم من فرعون وجنوده؛ فما وصلوا إلى الضفة الأخرى للبحر حتى طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا صنمًا ليعبدوه من دون الله، مع أنها آية تجعل الكافر يؤمن بالله؛ وهذا ما فعله فرعون نفسه ولكن بعد فوات

الأوان! وما تركهم موسى أيامًا معدودة؛ حتى عاد فوجدهم يعبدون عجلاً من ذهب، ويرقصون حوله ويفرحون...! وما اجترأ السامري أن يصنع لهم هذا العجل إلا بعد أن علم أنهم يميلون إلى عبادة العجل؛ بعد أن سمعهم يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهًا كما لأولئك القوم أصنامًا آلهة يعكفون عليها؛ فاغتنم الفرصة وصنع لهم العجل في غياب موسى! ومع أن هارون عليه السلام نهاهم عن عبادة العجل، وقال لهم: يا قوم، إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري، إلا أنهم ردوا عليه بعناد وغطرسة: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى!.

لقد ذكروا عن أنفسهم في كتابهم العهد القديم أنهم: شعب رعاع، قساة الرقاب! فاستحقوا أن يعاقبهم الله عقابًا لم يعاقبه أمة من قبلهم ولا أمة من بعدهم؛ فكانوا الأمة الوحيدة التي عاقبها الله بأن تقتل نفسها ليتوب عليها، فقام الرجال المؤمنون منهم ممن لم يعبد العجل بقتل الأخوة والأصدقاء والجيران ممن عبدوا العجل! أفلا يستحون من وصفهم أنفسهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، فلمَ يعذبهم الله بذنوبهم إذًا؟! إذا كانت هذه صفاتهم وهم الذرية القريبة العهد من إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وأبنائه، فكيف ستكون إذًا صفات ذريتهم ونسلهم في المستقبل القريب أو البعيد؟!.

نهاية أمة اليهود أعداء المسيح عليه السلام

اليهود والرسل:

إن الله تعالى رحيم بعباده، يتلطف بهم جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، بإرسال الرسل إليهم. إن معظم الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى خلقه من بني آدم كانوا لبني إسرائيل، الذين صار لقبهم (اليهود). كلما مضى زمن بعث سبحانه فيهم نبيًّا أو رسولاً ليدعوهم إلى طاعته وعبادته، وليبلغهم شريعته، وأوامره ونواهيه، وهم لا يزالوا في إعراض، وفي عصيان، وفي تمرد، وفي تعنت...!.

فمن الأنبياء أو الرسل مَن مَنُّوا عليه طاعتهم له، ومنهم مَن كذَّبوه، ومنهم مَن عصوه، ومنهم مَن آذوه، حتى وصل بهم سوء أخلاقهم، واستخفافهم بأنبياء الله ورسله، إلى أن قتلوا بعضهم! مع أن هؤلاء الأنبياء والرسل لم يأتوهم إلا لصالحهم، ولم يأمروهم إلا بما فيه خير لهم في الدنيا والآخرة، ولم ينهوهم إلا عما فيه شر لهم في الدنيا والآخرة...! فقال الله تعالى عن اليهود: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1].

اليهود والعقاب المتنوع:

لما كثر في بني إسرائيل أنبياء الله ورسله، وكثرت فيهم آياته الباهرة، وتنوعت عندهم المعجزات وخوارق العادات، تنوعت أيضًا أصناف العذاب والعقاب لمن خالف الله منهم وعصاه، وكذَّب رسله، وكفر بآياته، وعاقبهم سبحانه بأنواعٍ فريدةٍ من

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

العقاب، لم يعاقب بها أحدًا من الأمم السالفة؛ ومن ذلك: أنهم لما عبدوا العجل؛ عاقبهم بأن جعل قتلهم أنفسهم شرطًا لتوبتهم؛ فقتل الرجل أخاه وصديقه وجاره، حتى قُتِلَ منهم الآلاف. ولما حرَّم الله عليهم العمل في يوم السبت، فعصوه وارتكبوا ما حرَّمه عليهم، باحتيالهم على ذلك، عاقبهم عزَّ وجلَّ أيضًا عقابًا فريدًا، لم يعاقب به أحدًا قبلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1]. لأجل ذلك: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[2].

مريم عليها السلام:

لما أراد الله - عزَّ وجلَّ - أن يرسل إلى بني إسرائيل (اليهود) آخر الأنبياء والرسل المبعوثين خاصة إليهم، وهو عبده عيسى ابن مريم، أراد تعالى أن تكون ولادة عيسى آية من آياته الباهرة، بل أول آية معجزة من نوعها، وهي ولادته من غير أب. فقد كانت أمه مريم بنت عمران عذراء لم تتزوج، كانت والدتها قد نذرتها لله وسمَّتها مريم، وأعاذتها بالله وذريتها من الشيطان الرجيم؛ فاستجاب الله لها في هذا، ودعته أن يتقبلها منها؛ فتقبلها سبحانه بقبولٍ حسنٍ، وأكرمها بخوارق العادات.

اتخذ نبي الله زكريا عليه السلام لمريم محرابًا، لا يدخله أحد عليها سواه، وهو زوج خالتها وكفيلها. ولما بلغت مريم اجتهدت في عبادة الله ليلها ونهارها، فكانت معتكفة في مصلاها قانتة ساجدة لله، حتى صارت يُضْرَبُ المثل بعبادتها في بني إسرائيل، فلم يكن في ذلك الزمان نظير لها في فنون العبادات، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة، والصفات الشريفة، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به النبي زكريا عليه السلام، حتى إنه كان كلما دخل عليها موضع عبادتها، يجد عندها رزقًا غريبًا

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها: أنى لكِ هذا؟! فتقول: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ولما كانت مريم عليها السلام في محرابها، أرسل الله إليها الملائكة فبشَّرتها أن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين، واختارها لإيجاد ولدٍ منها، من غير أب، اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وبشرتها بما سيكون عليه شأن ابنها في الدنيا والآخرة. ولما تعجبت من وجود ولد من غير والدٍ؛ لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج، أخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون. فاستكانت لذلك وأنابت، وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها.

وقد أخبر الله - جلَّ جلاله - بقصة حمل مريم وولادتها، وما كان من أمرها مع قومها اليهود. فقد انفردت مريم عليها السلام وحدها شرقي المسجد الأقصى، واتخذت من دون أهلها حجابًا، فأرسل الله إليها الروح الأمين، جبريل عليه السلام، فتمثل لها بشرًا سويًا، فلما رأته قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا، فخاطبها الملَك وأوضح لها بأنه ليس ببشر، ولكنه ملَك بعثه الله إليها ليهب لها ولدًا زكيًا، فتعجبت وسألت كيف يكون لها ولد، وهي ليست ذات زوج، وما هي ممن يفعلن الفاحشة؟! فأجابها الملَك بأن هذا أمر الله. وهو سهل على الله، ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير. ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[1] أي؛ وليجعل الله خلقه دليلاً على كمال قدرته على أنواع الخلق، فإنه تبارك وتعالى خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثى، وخلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكرٍ، وخلق بقية الخلق من ذكرٍ وأنثى. وسيكون عيسى رحمة منه؛ يرحم به العباد، بأن يدعوهم إلى الله في

(١) سورة مريم، الآية: ٢١.

طفولته وكهولته، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، والشركاء والأنداد، وهذا أمر قد قضاه الله وقدَّره. قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[1]. فحملت مريم بعيسى من غير زواج برجل، ومن غير أب، وبغير جماع كجماع الزوجين.

أذى اليهود لمريم:

شاع أمر مريم في بني إسرائيل أنها حامل، واتهمها بعض الزنادقة بالزنا! وتوارت عنهم، واعتزلتهم. فألجأها الطلق إلى جذع النخلة ببيت لحم، قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا. وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات، فحملت بسبب ذلك من الهم والحزن، ما تمنت أن لو كانت قد ماتت قبل هذا، فأُمِرت بأنه إذا رأت أحدًا من الناس، أن تقول بلسان الحال والإشارة؛ أنها نذرت لله صمتًا، فلن تكلم اليوم أحدًا.

وبدأ أذى اليهود لها ولابنها...! فأول ما رأوها اتهموها بالفاحشة العظمى! وبأنها ارتكبت فعلة منكرة عظيمة! وقالوا لها: يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيّاً، أي؛ لستِ من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم. فأشارت إلى ولدها الرضيع ليكلموه. فعندها قالوا: كيف نكلم مَن كان في المهد صبيًّا لا يعقل الخطاب؟! وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء؛ إذ لا تردين علينا قولاً نطقيّاً.

عيسى عليه السلام يتكلم في المهد:

عند ذلك كانت آية الله الباهرة، التي جعل بها الرضيع يتكلم في المهد، ليبرِّئ بلسانه أمه من افتراء اليهود عليها، وليخبرهم بحقائق أخرى. قال عيسى عليه السلام في

(١) سورة التحريم، الآية: ١٢.

مهده: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1]. هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، اعترف لله بالعبودية، وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين، الذين سيزعمون بعده أنه ابن الله، أو هو الله...! بل هو عبد الله ورسوله وابن أَمَته. ثم برَّأ أمه مما قالوه عنها من البهتان العظيم، بقوله: آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا؛ فإن الله سبحانه لا يعطي النبوة من هو كما زعموا، كما أخبر تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾[2]. فبرأها الله من ذلك، وأخبر عنها أنها صِدِّيقة، واتخذ ولدها نبيًّا مرسلاً. وأخبرهم عيسى بأن ربه جعله مباركًا أينما كان؛ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وأن الله تعالى قد أوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا. وبرًّا بوالدته، فلا والد له سواها.

عيسى عليه السلام يفعل المعجزات:

بعد أن أنطق الله تعالى عبده عيسى ابن مريم وهو في مهده، أمسك عن الكلام حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان. وترعرع عيسى، فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البَغِيَّة. وهمَّ اليهود به، فخافت أمه عليه، فآواهما الله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[3]. ثم لما كبر عيسى عليه السلام، أنزل الله عليه الإنجيل، وعلمه التوراة، وأعطاه إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، والعلم بالغيوب مما يدَّخرون في بيوتهم، وتحدَّث الناس عنه، وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله سبحانه ففشا فيهم أمره.

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٠-٣٣

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٦

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

وذكر الله – جلَّ ثناؤه – نعمه على عيسى، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[1]. يؤكد الله بذكر الإذن لعيسى في الخلق والإبراء وإخراج الموتى لرفع التوهم. ومن نعم الله عليه أنه تعالى كف بني إسرائيل عنه، وذلك صيانة لجنابه الكريم عن الأذى. وأوحى سبحانه إلى الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله، فاستجابوا وأسلموا.

وقد أقر عيسى عليه السلام واعترف بنعم الله عليه، وبأنه رسوله إلى بني إسرائيل، وبأن ما يقوم به من المعجزات المتنوعة، والأعمال الخارقة للعادة، هي بإذن الله جلَّ جلاله، وذلك حين بلَّغ اليهود بأنه رسول الله إليهم، وأكد لهم مرة أخرى أنه عبد الله، وأن الله ربه وربهم، وهذا هو الطريق المستقيم، وأي طريق غيره فهو الطريق المعوج الضال. فقال لهم عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2].

لقد كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فموسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه، فكانوا سحرة أذكياء، فبعثه الله بآياتٍ بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر؛ أسلموا سراعًا، ولم يتلعثموا.. وهكذا عيسى عليه السلام بعثه الله في زمن الأطباء الحكماء،

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١١٠-١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥١.

فأرسله بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنَّى لحكيم إبراء الأكمه والأبرص؟! وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟! هذا مما يعلم كل أحدٍ أنه آية معجزة دالة على صدق من قامت به، وعلى قدرة مَن أرسله. ولما بعث الله عيسى عليه السلام وجاءهم بالبينات، جعل الكافرون والمنافقون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون: ما أكل فلان البارحة، وما ادَّخَر في بيته؟ فيخبرهم، فيزداد المؤمنون إيمانًا، والكافرون والمنافقون شكًا وكفرانًا.

عيسى عليه السلام يتنبأ بنهاية اليهود:

لقد تنبأ رسول الله عيسى بنهاية اليهود في بيت المقدس عقوبة من الله تعالى لهم، إذ ذكرت أناجيل النصارى أن عيسى عليه السلام قال في بعض مواعظه وخطبه التي وجهها إلى اليهود، إن عقاب الله سينزل بهم على سفك دم الأبرياء، وعلى أذاهم وقتلهم لأنبيائه ورسله، وأن هذا كله سيقع على هذا الجيل. وقد نبأهم بخراب الهيكل عقابًا لهم على هذه الأفعال، فذكرت الأناجيل أنه قال: «وخرَجَ يَسوعُ مِنَ الهَيكَلِ. وبَينَما هوَ يَبتَعِدُ عَنهُ، دَنا إلَيهِ تلاميذُهُ يُوجِّهونَ نظَرَهُ إلى أَبنِيةِ الهَيكَلِ. فقالَ لهُم: «أتَرَونَ هذا كُلَّهُ؟ الحقَّ أقولُ لكُم: لن يُترَكَ هُنا حجَرٌ على حجَرٍ، بل يُهدَمُ كُلُّهُ»[1].

كذلك ذُكِر في الأناجيل أن عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام، نبأهم بأن الله سوف يصب نقمته وغضبه على اليهود، بتسليط الأمم عليهم، فيخربون بيت المقدس، وينهون وجودهم بقتلهم وتشتيتهم: «فإنه تكون شدة عظيمة على الأرض، وغضب على هذا الشَّعب، فيَسقُطونَ بِحَدِّ السَّيفِ، ويُسبَون إلى كل الأُمَمِ، وأورشليم تدوسها أقدام الأمم، إلى أن تنتهي أزمنة الأمم»[2].

---

(١) متى ٢٤/١-٢.

(٢) لوقا ٢١/٢٣-٢٤.

عيسى عليه السلام يبشر بأحمد صلى الله عليه وسلم:

لقد بشر عيسى عليه السلام قومه برسول يأتي من بعده، وسمَّاه لهم تأكيدًا على مجيئه، وهو ما أخبر به الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾[1]. وقد ذكر لهم صفته ليعرفوه، ويتابعوه إذا شاهدوه، إقامة للحجة عليهم، وإحسانًا من الله إليهم. وأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عن بني إسرائيل، وأنها بعده في هذا النبي العربي الأمي، خاتم الأنبياء جميعًا على الإطلاق أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

تقول الأناجيل إن عيسى عليه السلام جمع تلاميذه فيما يسمى (العشاء الأخير) قبل مجيء اليهود للقبض عليه بغرض صلبه، وأخذ يحدثهم عن مستقبل البشر، متوجهًا إلى الإنسانية برمتها عبرهم، فأعطاهم إرشاداته وأوامره وحدَّد بشكل نهائي الرسول المرشد الذي على الإنسانية أن تتبعه بعد اختفائه. فقال عليه السلام: «إذا كُنتُم تُحبّوني عَمِلْتُم بوصاياي. وسأطلُبُ مِنَ الآبِ أنْ يُعطيَكُم مُعَزِّيًا[2] آخَرَ يَبقى مَعكُم إلى الأبَدِ»[3]. وقال عليه السلام أيضًا: «صَدِّقوني، مِنَ الخَيرِ لكُم أنْ أذهَبَ، فإنْ كُنتُ لا أذهَبُ لا يَجيئُكُمُ المُعزِّي. أمَّا إذا ذَهَبتُ فأُرسِلُهُ إلَيكُم. ومتى جاءَ وَبَّخَ العالَمَ على الخَطيئَةِ والبِرِّ والدَّينونَةِ... عِندي كلامٌ كثيرٌ أقولُهُ لكُم بَعدُ، ولكنَّكُم لا تَقدِرونَ الآنَ

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) كلمة المعزِّي هي ترجمة بالمعنى للفظ اليوناني الحقيقي الذي ورد في الإنجيل وهو: البارقليط، ومعناها الوسيط أو الرسول. والمسيح عليه السلام يبشر هنا بشكل واضح بمجيء رسول وسيط آخر يأتي بعده، كائن بشري يسمع ويتكلم ويخبر بما سيحدث، وهذه البشارة قد تحققت بمجيء الرسول الجديد محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) يوحنا ١٤/١٥-١٦.

أنْ تَحتَملوهُ. فمَتى جاءَ رُوحُ الحقِّ أَرشَدَكُم إلى الحَقِّ كُلِّه، لأنَّهُ لا يتكلَّمُ بِشيءٍ مِنْ عِندِه، بل يتكَلَّمُ بِما يَسمَعُ ويُخْبِرُكُم بِما سيَحدُثُ. سيُمَجِّدُني لأنَّهُ يأخُذُ كلامي ويَقولُهُ لكُم»[1]. وسمَّاه: رسول الله، وقال عنه: «وسيأتي بعدي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية»[2].

أخبر عيسى عليه السلام تلاميذه والعالم من بعدهم، أنه بعد ذهابه سيأتيهم رسول آخر من عند الله، ويكون لكل الأمم، وأن هذا الرسول الجديد سيبقى إلى الأبد، أي؛ دينه سيبقى صالحًا ومستمرًا إلى الأبد، ولا يكون لهذا الدين نهاية. أما غيره من الأديان فستنتهي صلاحيتها ويبطل العمل بها بمجيء هذا الرسول الجديد، الذي لا يتكلم من عنده، بل بما يسمعه من الوحي المنزل من عند الله، وأنه يرشد إلى الحق كله، أي؛ بهذا الرسول الجديد سيكمل الله الدين كله الذي ارتضاه للناس أجمعين؛ وباكتمال الدين الماكث إلى الأبد لن يرسل بعد ذلك رسولاً جديداً، وسيختم الله بالرسول الجديد الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده ولا رسول من عند الله. وفي إنجيل برنابا قال عيسى عليه السلام: «وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله»[3]. وقال: «وقد جاء الأنبياء كلهم إلا رسول الله الذي سيأتي بعدي لأن الله يريد ذلك حتى أهيئ طريقه»[4]. وقال: «سيأتي بعدُ بهاء كل الأنبياء الأطهار فيشرق نورًا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله»[5].

---

(١) يوحنا ١٦/٧-١٤.

(٢) برنابا: البشرى ٤٢.

(٣) إبراهيم خليل أحمد: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ١٦٩ نقلاً عن إنجيل برنابا.

(٤) إنجيل برنابا ٣٦.

(٥) إنجيل برنابا ١٧.

لم يؤمن من اليهود إلا القليل:

لم يؤمن بدعوة رسول الله عيسى عليه السلام إلا أفراد قليلون من بني إسرائيل اليهود، مع أن عيسى عليه السلام منهم وفيهم، ورسول من الله إليهم خاصة دون سائر الأمم، مثل موسى وداود وسليمان وغيرهم كثير عليهم السلام. بل أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر، فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(١).

أما معظم اليهود فقد عصوا رسول الله عيسى عليه السلام، وتمردوا عليه، وحاربوه، وحاربوا دعوته، ورفضوا اتباع ما جاء به من عند الله من التشريعات الجديدة، وأصروا على ما لديهم من تشريعات في التوراة، التي نُسِخَ بعضها بالإنجيل فصارت حلالاً عليهم، بعدما كانت حرامًا، وهو ما أوضحه لهم عيسى عليه السلام، وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه. ولكن كيف سيتبعون عيسى عليه السلام وتعاليمه، وهم قد نقضوا عهود الله تعالى، وخالفوا مواثيقه، وعصوا كثيرًا مما فرضه عليهم في التوراة، وصاروا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، بل كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؟! قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾(٢). فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا؛ وها هو رسول الله عيسى عليه السلام قد جاءهم فاستكبروا، وكذبوه، وافتروا عليه، وسيخططون لقتله أيضًا...!.

بالرغم من معجزة كلام عيسى معهم وهو لا يزال في المهد، وكذلك معجزاته المتعددة الباهرة في شبابه، التي شاهدوها بأعينهم، إلا أن قلوبهم لم تؤمن، ولم

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٨٧-٨٨.

تُسلِم! فقلوبهم قاسية كما قال خالقهم عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1]. فهذا توبيخ لهم على قلوبهم التي قست من بعد ذلك كله، وصارت مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة، فهي كالحجارة التي لا تلين أبدًا، ولا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة! فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقَّق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله.

الحواريون يلبون دعوة عيسى عليه السلام:

لما دعا عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام اليهود إلى الله، وأقام عليهم الحجج والبراهين؛ استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة، فكانوا له أتباعًا وأنصارًا وأعوانًا. فلما أحس عيسى عليه السلام من اليهود الكفر قال للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[2]، أي؛ مَن يساعدني في الدعوة إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنا بالله واشهد بأنَّا مسلمون، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. وكان ذلك في قرية يقال لها: الناصرة. فسُمُّوا النصارى بذلك.

سمي أتباع عيسى عليه السلام بالحواريين، وأعلنوا أنهم أنصار الله، وأشهدوا نبيهم عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون. فقد أسلموا وجوههم لله، واتبعوا رسوله إليهم، وما أرسل معه من التعاليم الجديدة. وقد قام عيسى عليه السلام بتبليغ الإنجيل إلى قومه حسبما أمره الله. وقد أيد الله طائفة المؤمنين من بني إسرائيل على مَن كفر منهم، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم، بفضل الله ومنِّه وكرمه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.

عيسى عليه السلام يعلن انتهاء مهمته:

بعد أن بلغ رسول الله عيسى عليه السلام الرسالة، وأدى الأمانة، وانتهت المهمة التي أرسله الله بها إلى بني إسرائيل، وفي الليلة التي كان اليهود يخططون للإيقاع به فيها، طلب عيسى عليه السلام من التلاميذ أن يجلسوا حتى يمضي ويصلي بعيدًا عنهم، وابتدأ يدعو الله، ثم خرَّ على وجهه ساجدًا له، وأخذ يصلي ويدعو الله أن يبعد عنه الأذى والضرر الذي يخطط له أعداؤه لإنزاله به. ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نيامًا، وذكرت الأناجيل أنه قال لهم: «أهكذا لا تَقدِرونَ أنْ تَسهَروا مَعي ساعةً واحدةً؟ اسهَروا وصلُّوا لِئلاَّ تَقَعُوا في التَّجرِبَةِ»[1]. فعلَّمهم أن يقيموا الليل بالصلاة، واللجوء إلى الله، والدعاء لله أن يبعد عنهم البلاء والفتنة.

ثم مضى عيسى عليه السلام ثانية وصلى لله وخاطبه وناجاه، ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم أيضًا نيامًا، فتركهم ومضى أيضًا وصلى ثالثة، ورفع عينيه إلى السماء وأخذ يناجي الله معلنًا أنه قد أتم المهمة التي أرسله من أجلها، فقال عليه السلام: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته»[2]. وأعلن أنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وتوحيده، وأن تلاميذه قد حفظوا كلام الله الذي بلَّغهم إياه، وعلموا يقينًا أن هذا الكلام وهذا التعليم وكل ما كان له من معجزات وغيرها؛ هو من عند الله وليس من عنده هو، وآمنوا أنه رسول الله، فقال عليه السلام: «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. كانوا لك وأعطيتهم لي وقد حفظوا كلامك. والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك. لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم وهم قبلوا وعلموا يقينًا أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني»[3]. وهو إذ كان عليه السلام يعلن كل ذلك؛ فلأن مهمته قد انتهت الآن، وهذه هي آخر ليلة له على الأرض، وهو

---

(١) متى ٢٦/٤٠-٤١.

(٢) يوحنا ١٧/٤.

(٣) يوحنا ١٧/٦-٨.

قادم إلى الله، ولذلك قال في مناجاته لله: «ولست أنا بعد في العالم وأما هؤلاء فهم في العالم وأنا آتي إليك»[1].

لا إله إلا الله عيسى عبد الله ورسوله:

لأن صلاة عيسى عليه السلام ومناجاته هذه لله ستكون الأخيرة في هذه الليلة الأخيرة على الأرض، فقد أعلن في بداية هذه المناجاة الركن الأساسي للعقيدة، وهي أن الحياة الأبدية هي أن يعرف تلاميذه وأتباع دعوته من بعده أن الله هو الإله الحقيقي وحده، فقال عليه السلام مخاطبًا ربه: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»[2]، فوحَّد الله وأعلن أنه لا يوجد إله حقيقي إلا واحد هو الله تبارك وتعالى، وكل إله غيره هو إله مزيف باطل ليس حقيقيًا. ثم أعلن أنه رسول الله الذي أرسله.

اليهود يريدون قتل عيسى عليه السلام:

لقد نصت الأناجيل على أن اليهود كانوا يتعرضون باستمرار وفي كل مكان لرسول الله عيسى عليه السلام ليؤذوه. ففي إحدى المرات كان عيسى عليه السلام يتناقش معهم: «فرفعوا حجارةً ليرجموه. أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى هكذا»[3]. ومرة أخرى: «فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاؤوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيةً عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى»[4].

وفي المرة الأخيرة؛ همَّ اليهود بعيسى عليه السلام، ووشوا به إلى بعض الملوك، فعزموا على قتله وصلبه. ومكروا به ومكر الله بهم، والله خير الماكرين؛ فأنقذه سبحانه

(١) يوحنا ١١/١٧.

(٢) يوحنا ٣/١٧.

(٣) يوحنا ٥٩/٨.

(٤) لوقا ٢٩/٤-٣٠.

منهم. وقد ذكرت النصارى في أناجيلهم كيف خطط رؤساء اليهود للإمساك بعيسى عليه السلام وقتله فقالوا: «واَجتَمَعَ في ذلكَ الحينِ رُؤساءُ الكهَنةِ وشُيوخُ الشَّعبِ في دارِ قيافا رَئيسِ الكَهنَةِ، وتَشاوروا ليُمسِكوا يَسوعَ بحيلَةٍ ويقتُلوهُ»(١). وذكروا قصة القبض على عيسى عليه السلام من أجل صلبه، فقالوا: «وبَينَما يَسوعُ يتكَلَّمُ وصَلَ يَهوذا، أحدُ التَّلاميذِ الاثنَي عشَرَ، على رأسِ عِصابةٍ كبيرةٍ تَحمِلُ السُيوفَ والعِصيَّ، أرسلَها رُؤساءُ الكَهنَةِ وشُيوخُ الشَّعبِ. وكانَ الَّذي أسلَمَهُ أعطاهُم عَلامَةً، قالَ: «هوَ الَّذي أُقبِّلُهُ، فامسِكوهُ!» ودَنا يَهوذا في الحالِ إلى يَسوعَ وقالَ لَه: «السَّلامُ علَيكَ، يا مُعَلِّمُ!» وقَبَّلَهُ. فقالَ لَه يَسوعُ: «اَفعَلْ ما جِئتَ لَه. يا صاحِبي!» فتَقدَّموا وألقَوا علَيهِ الأيدي وأمسَكوهُ»(٢).

رفع عيسى عليه السلام:

تذكر الأناجيل أن يهوذا هو الذي خان عيسى عليه السلام وأسلمه لليهود، وأنه أعطاهم علامة، أن الذي يقبله يكون هو المسيح. وهنا يتم الفراق بين ما تذكره الأناجيل عن بقية قصة عيسى عليه السلام، وبين ما يعلمه الله عن بقية قصته، وهو الحق الذي لا جدال فيه؛ لأن الله سبحانه هو رب عيسى، ورب الأنبياء والرسل جميعًا، ورب العالمين، وهو أعلم بالحقيقة وبما جرى بعد ذلك لعبده ورسوله عيسى عليه السلام، وهي الحقيقة التي ذكرها سبحانه في آخر كتبه المقدسة، المنزلة على خاتم أنبيائه ورسله، وهو القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾(٣).

---

(١) متى ٢٦/٣-٤.

(٢) متى ٢٦/٤٧-٥٠.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧-١٥٨.

لقد حاصر اليهود عيسى عليه السلام، في دارٍ ببلدٍ ببيت المقدس، فلما حان وقت دخولهم ألقى الله شبه عبده عيسى على أحد أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى من كوة من ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشُّرَطُ فوجدوا ذلك الشاب الذي أُلقِيَ عليه شَبَهُه، فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانةً له، وسلَّم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى عليه السلام، وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا كثيرًا بعيدًا. وكلا الفريقين اليهود والنصارى في ذلك مخطئون.

نهاية اليهود في القدس:

قال عيسى عليه السلام لليهود: «الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيون المراؤون! أنتم كالقبور المبيضَّة، ظاهرها جميل وباطنها ممتلئ بعظام الموتى وبكل فسادٍ. وأنتم كذلك، تَظهرون للناس صالحين وباطنكم كله رياء وشر. الويل لكُم يا معلمي الشريعة والفريسيون المراؤون! تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأتقياء، وتقولون: لو عشنا في زمن آبائنا، لما شاركناهم في سفك دم الأنبياء. فتشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء الذين قتلوا الأنبياء. فتمموا أنتم ما بدأ به آباؤكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي! كيف ستهربون من عقاب جهنم؟ لذلك سأرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين، فمنهم من تقتلون وتصلبون، ومنهم من تجلدون في مجامعكم وتطاردون من مدينةٍ إلى مدينةٍ، حتى ينزل بكم العقاب على سفك كل دم بريءٍ على الأرض، من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين المذبح وبيت الله. الحق أقول لكم: هذا كله سيقع على هذا الجيل!»[1].

لقد باؤوا بغضب من الله، والله - عزَّ وجلَّ - يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[2].

(١) متى ٢٣/٢٧-٣٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٨.

فعيسى عليه السلام، قد نبأهم بخراب الهيكل، ونزول العذاب عليهم على ما اقترفوه في حق الله تعالى، وفي حق عيسى وأمه عليهما السلام، فليستعدوا للقتل والأسر والتشتت...! فعما قليل سينزل باليهود العقاب وسيقع على هذا الجيل، وتكون فيه نهايتهم في القدس بقتلهم وتشتيتهم في بلاد العالم؛ ذلك بما قدَّمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد.

وها هي سنوات قليلة قد مرت بعد رفع عيسى عليه السلام وجاء اليهود العذاب... فتعرضوا للقتل، والسبي والذل، وتفرقوا في البلدان. ها هي سنة ٧٠م، حيث سلَّط الله عليهم القائد الروماني (تيطس) عقابًا لهم على عصيانهم الله وقتلهم لأنبيائه، فدمر الهيكل[1]، وقتل بعضهم، وسبا بعضًا آخر وباعهم، وبذلك أزال الله وجودهم من بيت المقدس...! ولم يكن هذا هو كل شيء من العذاب، بل لحقهم عذاب الله تعالى إلى كل مكان أقاموا فيه، وسلط الله عليهم أتباع المسيح النصارى ليذوقوا مزيدًا من العذاب على أيديهم، وسيلاقون المزيد منهم في المستقبل...!. بل ومن

(١) لا يوجد أي دليل على أن الهيكل كان مقامًا في موقع المسجد الأقصى أو قبة الصخرة، بل كان في مكان آخر، ولهذا لم تسفر الحفريات الأثرية الصهيونية تحت المسجد إلا عن إلقاء الضوء على آثار من العهود الأموية والعباسية والعثمانية، ولم يجدوا أية أدلة تؤكد أن معبدًا أقيم في أي وقت في هذا المكان، وقد سألت جريس هالسل عالم الآثار الأميركي غوردن فرانز عن موقع الهيكل فقال: «إني لا أعرف. لا أحد يعرف. كل ما نعرفه هو أن كل أولئك الذين يقولون: إنهم يريدون الهيكل، يريدون في الدرجة الأولى تدمير المسجد»! النبوءة والسياسة ٨٢-٨٣. ومؤخرًا كشف عالم الآثار الإسرائيلي (مائير بن دوف) النقاب عن أنه لا يوجد آثار لما يسمى بجبل الهيكل تحت المسجد الأقصى، وقال: في أيام النبي سليمان عليه السلام كان في هذه المنطقة هيكل الملك الروماني هيرودوس وقد قام الرومان بهدمه، أما في العهد الإسلامي فلم يكن هناك أثر للهيكل. واستطرد يقول: جاء المسلمون إلى هذه الديار وبنوا على تلك الصخرة التي وجدت في تلك المنطقة التي ليس لها أي علاقة مع الهيكل، كما أن الصليبيين هم الذين أطلقوا على الصخرة المشرفة اسم صخرة الهيكل. وأضاف: إذا قمنا بإجراء حفريات أسفل تلك المنطقة فإننا سنجد آبار مياه متشعبة. وقد رأينا قنوات مائية خلال مسيرة الحفريات والدراسة التي أجريناها خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية. واستنتجنا من ذلك أنه لا يوجد هيكل هناك (أي لا توجد بقايا من ذلك الهيكل) وإذا قمت بالحفر فإنك لن تستطيع إطلاقًا أن تجد أية بقايا للهيكل تدل على تلك الفترة. صحيفة تشرين، العدد ٩٠٤٣، ٢٨ رجب ١٤٢٥هـ - ١٢ أيلول ٢٠٠٤م.

المسيح عليه السلام نفسه بعد نزوله مرة ثانية في آخر الزمان، الذي سوف تكون فيه نهايتهم...!.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع اليهود:

لقد انحرف اليهود عن طريق إبراهيم عليه السلام، الذي ﴿**قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1]. ولم يعملوا بوصيته التي وصَّى بها آباءهم من قبل ومنهم يعقوب وهو نفسه إسرائيل عليه السلام، ألاَّ يموتن إلا وهم مسلمون: ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[2].

لِم لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام ويسلموا معه، وهو الذي أرسله الله إليهم خاصة، شأنه شأن موسى عليه السلام رسول الله إليهم من قبل؟! لِم لم يتبعوا عيسى عليه السلام وهو الذي بعثه الله - عزَّ وجلَّ - مصدقًا لما بين يديه من التوراة، وليحل لهم بعض الذي حُرِّمَ عليهم؟!.

هل أيقنوا أن عيسى عليه السلام كان رسولاً من عند الله، وأنه كان صادقًا في كل ما بلغهم به عن الله...؟! لا شك أنهم قد عرفوا ذلك فعلاً بدليل قيامهم بحشر نصوص في كتابهم (التلمود) حملت في طياتها كل معاني الاستعلاء والعنصرية، والعداء بشكل خاص للنصرانية التي وجدوا فيها إلغاءً لهم، وحملت كذلك اتهامات وافتراءات على المسيح وأمه مريم عليهما السلام، وحملت كل معاني الرفض للنصرانية؛ مما حمل الملوك والباباوات على شن حملات شديدة ضد التلمود

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٢-١٣٣.

لاعتباره مصدر الشر الكامن لهم! فقاموا بحرق نسخ التلمود، وأمر ملك إنكلترا سنة ١٢٩٠م بطردهم عن البلاد، وفي سنة ١٥٦٥م أصدر البابا بيوس الرابع أمرًا: أنه يجب حرمان التلمود حتى من اسمه. كما قام باباوات آخرون بحملات جديدة ضد التلمود، وهاجم مجلس المدينة في بولندا عام ١٨٤٠م التلمود بأنه مصدر احتقار اليهودية للدين المسيحي.

وهكذا كان المسيحيون يرون أنه يحق لهم أن يفعلوا ذلك باليهود وأكثر؛ لأن اليهود قد ملؤوا تلمودهم بكلمات السب والشتم ضد المسيح عليه السلام وضد المسيحية! فكتبت أيديهم في التلمود بأن يسوع المسيح كان ابنًا غير شرعي، حملته أمه وهي حائض، وأنه مجنون مخبول، ساحر ومشعوذ، وثني مضلل، صُلِب ثم دُفِن في جهنم[١]. ويقولون عن المسيحيين: أسوأ نوع من الناس، القتلة، الحيوانات القذرة، كالغائط، بل إنهم لا يستحقون أن يسموا بشرًا. فهم بهائم بأشكال آدمية، بل إنهم أهل لتسميتهم ببهائم، بقر، حمير، خنازير، كلاب... لا بل إنهم أسوأ من الكلاب، يتناسلون بطريقة أردأ من البهائم، أصلهم شيطاني بهيمي، أرواحهم تولد من الشيطان وإلى الشيطان تعود في الجحيم بعد الممات، وإنه لا تختلف جثة مسيحي ميت عن حيوان.[٢] كما إنهم دعوا اليهود إلى قتل النصارى، والإضرار بهم، وعدم مساعدتهم...!.

إن الطبعات الأولى من التلمود شملت كثيرًا من كلمات السب والشتم ضد المسيح وضد المسيحية...! ولكن الطبعات الأخيرة لا تشمل إلا القليل جدًا من شتم المسيح بعد أن طهرتها الكنيسة. ويوجد في طبعة أمستردام لسنة ١٦٤٥م، شتائم كثيرة للمسيح عليه السلام، ومنها وصف اليهود إياه بأنه خائن، وأحمق، وغشاش بني إسرائيل، والمجذوم، والساحر، وابن الزنا...!.

(١) راجع: الأب آي. بي. برانايتس: فضح التلمود تعاليم الحاخامين السرية ٥٧. إعداد: زهدي الفاتح.
(٢) المصدر السابق ٨٦.

- قدرة الله تعالى:

لقد أنجى الله تعالى رسوله عيسى عليه السلام من مكر اليهود الذين أرادوا قتله على عادتهم في قتل الأنبياء...! وكان رفع الله إياه آية دالة على قدرته العظيمة...! لقد تركها الله آية للناس.. ليروا فيها أن عيسى عليه السلام ومن آمن معه من بني إسرائيل ممن يوحدون الله ويعبدونه وحده لا شريك له؛ كانوا هم أهل الخير، وكانوا هم المؤمنين المسلمين الأبرار الأخيار.. وأن اليهود الذين حاربوا عيسى كانوا هم أهل الشر، وكانوا هم الكفار الفجار الأشرار.

ولا حاجة للناس لكي ينتظروا النهاية ليكتشفوا مَن هم المؤمنون ومَن هم الكافرون، ومَن هم الأخيار ومَن هم الأشرار، فذلك يُعرَف يقينًا منذ البداية، من أول ظهور نبي من أنبياء الله، أو رسول من رسله، في أي زمنٍ من الأزمان، وفي أي بلدٍ من البلدان؛ فحتمًا سيكون نبي الله أو رسوله وأتباعه هم المؤمنون الأخيار، ومعارضوهم ومحاربوهم هم الكفار الأشرار.

لقد تبين في هذه الآية أيضًا؛ كيف ينجي الله وينصر عباده المؤمنين المسلمين، كما قال سبحانه: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[1]. وتبين كيف يُنزل سبحانه بأسه على الكفار الظالمين، الأشرار المجرمين، ولو بعد حين.

إن في ذلك لآية، فهل المتأخرون من اليهود الذين سيأتون من بعدهم سيتذكرون هذه الآية ويؤمنون بها، ويؤمنون أن عيسى عليه السلام كان رسول الله إليهم، وكان من الواجب عليهم أن يتبعوه، وأن يسلموا معه كما أسلم الحواريون...؟!. هل ستستفيد الأجيال القادمة من اليهود مما حصل لأسلافهم مع رسول الله عيسى عليه السلام، فلا

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٥٤-٥٥.

يرتكبون مرة أخرى الأخطاء نفسها مع مَن سيرسله الله من الرسل بعد عيسى ابن مريم عليه السلام فيصدقون رسله وأنبياءه، ويتبعون صراطه المستقيم، ويكونون من حزبه المؤمنين المسلمين، ويتجنبون أن يكونوا من حزب الشيطان الكافرين الظالمين؟ أم أنهم سيبقون على عادة أسلافهم ويتبعون طريقتهم في العتو والتمرد على الأنبياء، بل والتخطيط لقتلهم؟!.

الباب
الثالث

نهاية أمة المشركين أعداء محمد ﷺ
في الجزيرة العربية

رحمة الله بعباده:

سبحان الله رب العالمين وخالق الكون والناس أجمعين.. لا إله إلا هو، ولا معبود بحقٍ إلا هو.. مرسل الرسل ولا مرسل لهم غيره.. وكفى بذلك دليلاً على وحدانيته وتصرفه بالكون وبما فيه كما يشاء ومتى يشاء وأينما يشاء.. هو وحده سبحانه الذي يحدد متى يُبعَث كل رسول، وإلى مَن من الناس.. يبعث رسله لكي يكونوا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعدهم.. وهو وحده سبحانه الذي يقرر الشرائع والمناهج للناس، ولكل منهم جعل شرعةً ومنهاجًا.. ولو شاء لجعلهم أمةً واحدةً ولكن ليبلوهم فيما آتاهم.

اختبر الله خلقه منذ أول رسله وإلى آخرهم بتوحيده وشرائعه التي أرسلها لهم مع رسله؛ فمنهم مَن آمن بالله ووحده وعمل بشريعته، ومنهم مَن كفر به وأشرك معه وعصى شريعته! فانقسم الخلق إلى فريقين لا ثالث لهما وهما: المؤمنون والكفار. وخلق سبحانه مكانين ليكونا مستقرين يخلد فيه الفريقان وهما: الجنة والنار؛ فكانت الجنة للمؤمنين، وكانت النار للكفار. فمن اهتدى وكان من المؤمنين فقد اهتدى لنفسه، ومن ضل وكان من الكافرين فإنما يضل عليها. لا ينفع الله إيمان المؤمنين، ولا يضره كفر الكافرين. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

خلق سبحانه عباده حنفاء على الفطرة وهي توحيده والتسليم له، وهي دينه الذي بعث به رسله وأنبياءه.. فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم

ما أحل الله لهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله، وأن يغيروا خلق الله...! وهذا ما توعد به إبليس أن يفعله مع بني آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها. ومن رحمته سبحانه بعباده أنه لم يتركهم على الحالة التي أوصلتهم إليها الشياطين من الكفر والشرك والضلال المبين، بل من رحمته أن بعث لعباده الرسل والأنبياء لينقذوهم مما هم فيه، وليعيدوهم إلى الحنيفية والفطرة التي خلقهم الله عليها، فيوحدوه لا يشركوا به شيئًا، فيفوزوا بجنته ورضوانه.. لأنه سبحانه لا يغفر أن يُشرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ومن رحمة الله بعباده أنه سبحانه قد فرض عليهم طريقًا مستقيمًا إذا أطاعوه وساروا فيه فازوا بالنعيم في الآخرة، وإن عصوه وساروا في غيره وصلوا لإبليس ورافقوه إلى الجحيم في الآخرة.. هذا الطريق هو الشريعة التي يرسل الله بها كل رسول إلى قومه، وتتضمن ما وجب عليهم من الفرائض والسنن ليعبدوا الله.. وما خلق سبحانه الجن والإنس إلا ليعبدوه.. ومن رحمته بعباده أنه ما كان من أمة إلا كان فيها نذير ينذرهم عذاب الله إن أشركوا به وعبدوا غيره من الآلهة الباطلة، فيمكث فيهم ما قدَّر الله له، حتى إذا جاء وعد الله أنجى مَن آمن مع رسوله، وأهلك الكافرين فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأرى الناس فيهم عجائب قدرته، وجعل هلاكهم آية لمن خلفهم، وعبرةً لمن سيأتي بعدهم، حتى لا يحذون حذوهم، فيكون مصيرهم كمصيرهم.

النبي المنتظر:

إن آخر رسولين من أولي العزم أرسلهما الله تعالى فيما مضى كانا لبني إسرائيل، وأنزل معهما التوراة والإنجيل، وهما: كليمه موسى وكلمته عيسى عليهما السلام. وقد بشَّر أنبياء الله ورسله عليهم السلام بمجيء نبيٍّ ورسولٍ صفاته ودينه وشريعته وكتابه أعظم من كل مَن سبقه من الأنبياء والرسل والدين والشريعة.. تنبأ

ببعثته ومجيئه موسى وغيره عليهم السلام، وبشَّر به عيسى عليه السلام. وكلهم ذكروا أشياء محددةً، وحقائق معينةً عن هذا النبي والرسول ورسالته.

فسفر التكوين ذكر عنه الحقائق الآتية: إنه سليل إسماعيل، فيه يتحقق مواعيد الله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيه تتبارك كل شعوب الأرض، الوارث الحقيقي لإسماعيل، يتلقى الوحي مباشرة من الله. وسفر أشعياء نبي بني إسرائيل، ذكر عنه: إنه رسول الله للعالمين كافة. عهد للشعوب، نور لهداية الأمم، يأتي للأمم بالعدل، يقيم العدل في الأرض، شريعته رجاء الشعوب. متمكن رحيم، مؤسس لأمة على الحق والبر. وسفر حجي نبي بني إسرائيل، ذكر عنه: إنه لكل الأمم.

وإنجيل يوحنا يذكر عنه الحقائق الآتية: إنه يأتي على إثر اختتام رسالة المسيح عليه السلام، يعزِّي ويرشد جماعة المؤمنين من أتباع المسيح، أفعاله وخصاله تنبئ أنه المحمَّد، الصادق الأمين وشهرته ذائعة في العالمين بالصدق والأمانة، يتلقى الوحي مباشرة من الله، رسالته خالدة أبدية، يرشد إلى الحق.. إلى جميع الحق، ويدافع عن عيسى وأمه عليهما السلام ويدفع عنهما الشبهات. وخلاصة الحقائق والشواهد توضح أن هذا النبي الخاتم يختلف عن الآخرين من أنبياء العبرانيين في ثلاثة وجوه حيوية ورئيسة على الأقل، حيث إنه من ذرية إسماعيل وليس من ذرية إسحق، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبوة ولا رسالة بعده، وهو صاحب رسالة عالمية وليس لقومه العرب فحسب.

اليهود ينتظرون النبي ﷺ:

لقد بشَّر الله تعالى بإرسال خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ في كتابه التوراة ثم من بعده الإنجيل، لكي تستعد البشرية لاستقباله، وقد أمر الناس بالإيمان به واتباعه ليكونوا من المفلحين المهتدين، فقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ**

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

لم يبعث الله نبيًّا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعِث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعِث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. ولأجل ذلك كان اليهود ينتظرون مجيء نبي الله الجديد محمد ﷺ المكتوب عندهم في التوراة، حتى إن قبائل من اليهود جاءت وسكنت في المدينة لانتظار مبعثه، فقد كانوا يعرفون أيضًا المكان الذي سوف يهاجر إليه. وكانوا من قبل مجيء رسول الله ﷺ يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون إنه سيبعث نبي نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

النصارى ينتظرون النبي ﷺ:

وكان علماء النصارى أيضًا ينتظرون مجيء النبي الأمي المكتوب عندهم في الإنجيل، خاصة أن رسول الله عيسى عليه السلام، قد بشَّر بمجيئه وسمَّاه أحمد، كما أخبر الله عزَّ شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[2]. وقد قال رسول الله ﷺ: «**أنا دعوة إبراهيم، وكان آخر من بشر بي: عيسى ابن مريم**»[3]. بشَّر به عيسى عليه السلام قومه ليؤمنوا به عند مجيئه، أو ليكون معجزة لعيسى عند ظهوره.

فكان علماء النصارى يؤمنون بأن الله سيبعث نبيًّا ورسولاً بعد رسوله عيسى عليه السلام، وكانوا يوصون أتباعهم بالإيمان بالنبي الجديد واتباعه، وهذا سلمان الفارسي

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة الصف، الآية: ٦.

(٣) صحيح الجامع الصغير، رقم: ١٤٦٣.

صاحب رسول الله ﷺ، الذي كان قبل إسلامه مجوسيًا من أهل فارس، وكان من أولاد الملوك، ثم عشق الحق فصار يتنقل في أرض الله الواسعة باحثًا عن الهدى، وشاء الله له أن يتنقل من أسقف نصراني إلى آخر بعد وفاة الأسقف الذي قبله، حتى إذا كان عند آخر الأساقفة الذي حضره الموت أيضًا، قال له سلمان: إلى من توصي بي وما تأمرني؟ فقال الأسقف: أي بني، والله ما أعلم أحدًا من الناس قد أصبح على ما كنا عليه كي آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرضٍ بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

وهكذا... أصبح العالم بإنسه وجنه ينتظر ظهور نبي الله ورسوله الذي بشَّر به إخوانه الأنبياء والرسل من قبله.. لقد اشتاقوا لمجيئه ورؤيته لينالوا منه رحمة الله التي سيرسلها معه للعالمين..

حان زمن الرحمة العالمية:

ها هي رحمة الله للعالمين قد جاءت.. وها هو نبيه المنتظر قد أظهره في مكة المكرمة عند بيته المحرم.. فكان عربيًا من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، كما أخبر عنه إخوانه الأنبياء.. إنه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.. الذي بعثه الله لكافة الناس بعد رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام بستة قرون من الزمان.. وقد كان ما كان في هذه الفترة بعد عيسى عليه السلام من تحريف الإنجيل، وانتشار (المسيحية البولسية) الوثنية الحديثة بدلاً من دعوة عيسى الأصلية التي بلَّغها لقومه من بني إسرائيل...! وكان ما كان من اليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى، بل تآمروا على قتله، وكان ما كان منهم من تحريف التوراة وكتابة الكتب بأيديهم ثم قولهم بأنها من عند الله...! ومع ذلك كان اليهود والنصارى في مشارق الأرض ومغاربها يتوقعون مجيء هذا النبي الجديد.

وفي هذا الوقت أيضًا انتشر الشرك وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة الأسماء والأشكال في الجزيرة العربية، بل وعند بيت الله المحرم في مكة المكرمة، هذا البيت الذي قام ببنائه أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، والسابق إلى الإسلام، خليل الله إبراهيم عليه السلام، وساعده في بنائه ولده إسماعيل عليه السلام الذي جاء من ذريته نبي الله المنتظر محمد ﷺ. انتشرت الأصنام حول الكعبة وفي داخلها، فجعلوها آلهة تعبد من دون الله، وهم يظنون أنها تقربهم إلى الله زلفى...!.

جاء الحق وزهق الباطل:

لقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.. لقد جاء الحق الواضح الساطع سطوع الشمس في كبد السماء في أيام الصيف.. فبعث الله عبده ونبيه ورسوله محمدًا ﷺ وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾(١). وجعله سبحانه رسولاً ورحمةً للعالمين: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾(٢). فمَن قَبِلَ هذه الرحمة، وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة. لذا فإن البشرية جمعاء لن تكون بحاجةٍ إلى نبيٍ جديدٍ بعد محمد ﷺ؛ لأنه خاتم النبيين، وأي مدع للنبوة بعده فهو من الدجالين الكذبة الذين أخبر عنهم النبي ﷺ، فقال: «**لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون، قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله**»(٣).

لقد جاء الحق الذي يكشف كل باطل وكل تزييف، كل كفر وكل نفاق.. فأنزل الله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ كتابه الخالد القرآن الكريم، الخاتم والناسخ لما سبقه من كتبه المقدسة، الذي تكفل الله بحفظه دون غيره من كتبه؛ فقال عزَّ شأنه: ﴿**إِنَّا**

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام.

﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. لذا فإن البشرية جمعاء لن تكون بحاجة إلى كتابٍ سماويٍ جديد بعد القرآن؛ لأنه آخر الكتب السماوية وخاتمها، الذي لا يضل أبدًا مَن تمسك به، فهو غذاء الروح والقلب، وشفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمة للمؤمنين به والمصدقين الموقنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

وقد أيد الله رسوله محمدًا ﷺ بكتابه القرآن، وجعله الآية العظمى والمعجزة الكبرى له، إذ يستحيل أن يأتي أحد بمثله ولو اجتمع على ذلك الإنس والجن، بل تحدى الله - عزَّ وجلَّ - أن يأتوا بسورةٍ من مثله، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[2]. وبالرغم من أن قريشًا من أفصح الأمم وأعلمها بالعربية، وبالرغم من شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك، وقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾، أي؛ ولن تفعلوا ذلك أبدًا؛ وهذه أيضًا معجزة أُخرى؛ لأنه خبر جازم قاطع أنَّ هذا القرآن لا يؤتى بمثله أبد الآبدين، وكذلك وقع الأمر من زمن رسول الله ﷺ إلى زماننا هذا، ولا يمكن، وأنَّى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!.

كما أيد الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بآيات أخرى كثيرة، كان منها ما هو خاص به دون غيره من الأنبياء والرسل، كانشقاق القمر، والإسراء والمعراج. فأما انشقاق القمر، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما**»[3]. وأما الإسراء والمعراج؛ فكان ذلك

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: انشقاق القمر.

حين أسرى الله تعالى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِج به إلى السماء حتى جاء سدرة المنتهى، ليريه من آياته ما يريد، حتى عاين ما عاين من أمر الله وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وقد رأى في معراجه كثيرًا من الآيات والعجائب، والتقى بإخوانه الأنبياء والرسل الذين هم في السماوات، ورأى الجنة والنار وبعض مَن فيها، وأوحى الله إليه ما أوحى وفرض عليه الصلوات الخمس.

لقد بعث الله رسوله محمدًا ﷺ بخاتم الرسالات السماوية، والدين الذي أكمله ورضيه، دين الله الإسلام الخالد إلى آخر الزمان... ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[1]. وهو الدين الذي عند الله ولا دين غيره؛ ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[2]. وهو الدين المقبول من الله ولا يقبل غيره؛ ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[3]. وهو الدين الذي سيظهر على كل الأديان ولو كره الكافرون والمشركون؛ ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[4]. وهذا ما أوحاه الله إلى خاتم رسله محمد ﷺ، فقال: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر**»[5]. لذا فإن البشرية جمعاء لن تكون بحاجة إلى دينٍ جديد بعد الإسلام؛ لأنه الدين الخاتم ولا دين بعده. وبالإسلام والقرآن؛ صلح أمر الأوائل من هذه الأمة المسلمة، ولا يمكن أن يصلح أمر أواخرها

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٥) المسند، رقم: ١٦٨٩٤، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

إلا بما صلح أمر أوائلها، وأي اتباع أو جري خلف غير هذا الدين وهذا الكتاب فهو مضيعة للعمر وطلب للخسار والدمار، وعاقبة ذلك في الدنيا والآخرة البوار وبئس القرار في جهنم دار الكفار والأشرار.

بدء الدعوة إلى الإسلام:

بدأ رسول الله محمد ﷺ دعوته العالمية بإبلاغ الناس بما أمره الله: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[1]. فمحمد ﷺ رسول الله إلى الناس جميعًا، للأحمر والأسود، والعرب والعجم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلّ نَبِيَ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ...**»[2].

وقال ﷺ: «**وَالّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[3]. أي: لا يسمع برسول الله محمد ﷺ أحد ممن هو موجود في زمنه وبعده إلى يوم القيامة، إلا كان عليه اتباعه والدخول في طاعته، وإلا كان من أصحاب النار. وإذا كان أهل الكتاب اليهود والنصارى هذا شأنهم فغيرهم أولى. وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة النبي محمد ﷺ. وقد نصت التوراة على هذا الأمر الخاص بالنبي محمد ﷺ؛ وذلك في البشارة بمجيئه ﷺ: «سأُقيمُ لهم نبيًّا مِنْ بَينِ أخوتِهِم مِثْلَكَ وأُلقي كلامي في فمِهِ، فيَنقُلُ إليهِم جميعَ ما أُكَلِّمُهُ بهِ. وكُلُّ مَنْ لا يسمَعُ كلامي الذي يتكلَّمُ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

بهِ بأَسْمي أحاسِبُهُ علَيهِ»[1]. وقد نقل النبي ﷺ جميع ما كلمه الله به من الكلام الذي أوحاه إليه وهو القرآن، وبقي حساب الله وعقابه لكل مَن لا يؤمن ويتبع كلامه الذي تكلم به نبيه محمد ﷺ باسمه. وبيَّن ﷺ أن مَن يؤمن به من اليهود والنصارى فله أجران؛ لإيمانه بنبيه قبل النسخ، والثاني لإيمانه بخاتم النبيين محمد صلَّى الله عليه وسلَّم.

وبدأ رسول الله ﷺ كما بدأ الرسل من قبله، فدعا قومه المشركين من قريش في مكة إلى توحيد الله كما أمره تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[2]. ودعاهم إلى النطق بكلمة التوحيد: (**لا إله إلا الله**)؛ التي تهدم ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة، بل تبطل رئاستهم للعرب بسبب هذه الآلهة المتعددة التي يتاجرون بها؛ فلما سمع المشركون كلمة التوحيد جن جنونهم، وقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم! وقالوا: هذا ساحر كذَّاب، أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب، وانطلق سادتهم وكبراؤهم مسرعين وهم يقولون: امشوا واصبروا على آلهتكم ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، إن هذا لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه، ما سمعنا بهذا التوحيد في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق، أَأُنزِلَ عليه الذِّكْرُ من بيننا؟! فكذبهم أحدهم وقال لهم: والله لقد سمعت منه كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر.

فاحتار المشركون في أمر رسولهم، وضربوا كفًا بكف، وتناقشوا فيما يقولون عنه للوفود القادمين إلى مكة وقد سمعوا بأمر الرسول الجديد، فنصحهم أحدهم

(١) التثنية ١٨/١٨-١٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٨.

أن يتفقوا على أن يجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا يختلفوا فيكذب بعضهم بعضًا، فقالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فماذا تقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك! فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره.

أذى قريش لرسول الله ﷺ:

أخذ أذى قريش لرسول الله ﷺ يزداد يومًا بعد يوم، بانتشار دين الله الإسلام، وانتشار أمر رسوله ﷺ في العرب، حتى بلغ البلدان؛ وذُكر بالمدينة، ولم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ حين ذُكر وقبل أن يُذكر من هذا الحي من الأوس والخزرج؛ وذلك لما كانوا يسمعون عنه من أحبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء، ومعهم في بلادهم.

وتمادت قريش في أذاها لرسول الله ﷺ ولأصحابه، حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتنة، أما رسول الله ﷺ وقومه فقد ضربت عليهم قريش حصارًا اجتماعيًا واقتصاديًا حتى يسلموا رسول الله ﷺ لهم ليقتلوه! وقد تعاهدوا على ذلك وكتبوا صحيفة وعلقوها في الكعبة، فسلَّط الله على الصحيفة حشرة صغيرة فأكلتها، ورد كيد أعداء رسوله ﷺ إلى نحورهم.

فأقام الرسول الكريم ﷺ على أمر الله صابرًا محتسبًا، مؤديًا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله عليه: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾[1]. وقد كفاه الله هؤلاء المستهزئين فأهلكهم، وخلص رسوله ﷺ من أذاهم

(١) سورة الحجر، الآيات: ٩٤-٩٦.

كما وعد ووعده حق. بل إن الله تعالى حين كان رسوله ﷺ منطلقًا وهو مهموم على وجهه من شدة ما لقي من المشركين، أرسل له جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. فناداه ملك الجبال، فسلم عليه، ثم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟[1]. فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا**»[2]. فقد كان رحيمًا بقومه، وكيف لا يكون كذلك وقد أرسله الله رحمة للعالمين...؟!.

عرض الإسلام على القبائل:

ثم أخذ رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم رسالته. وكان ﷺ يقف على منازل القبائل، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أُبين عن الله ما بعثني به. وكان عمه أبو لهب يتبعه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال أبو لهب: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه.

فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده.

---

(١) الأخشبين: جبلا مكة، والمراد بإطباقهما أن يلتقيا على مَن بمكة، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقًا واحدًا.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: ذِكر الملائكة.

دخول الأنصار في الإسلام:

لما أراد الله تعالى إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فقال لهم: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم في المدينة، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قال اليهود لهم: إن نبيًا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا. حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة، فبايعوه على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الله عليهم الحرب، وإنما أمر الله نبيه بالدعاء إليه، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل. فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير إلى المدينة، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. وأخذ الناس في المدينة يدخلون في دين الله أفواجًا.

ثم تمت بيعة العقبة الثانية حين خرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم، واجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة، حين أراد الله بالأنصار ما أراد من

كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله. وبايعت الأنصار النبي ﷺ على الحرب. وبعد أن بايعه الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومَن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار. فخرجوا أرسالاً.

هجرة الرسول ﷺ:

أقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الخروج منها، والهجرة إلى المدينة. ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا، فيطمع أبو بكر أن يكونه.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيها ما يصنعون في أمره، حين خافوه، وانضم إليهم إبليس بهيئة شيخ، فلم يؤيد أي خطة طرحوها لمنع رسول الله من الدعوة إلى الله، حتى إذا طرح أبو جهل خطة لقتله، سارع إبليس لتأييدها فأقروها وقرروا تنفيذها. فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ من القرآن ما يعلمه به مما كانت قريش قد أجمعت له، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[1]. وعند ذلك أذن الله - عزَّ وجلَّ - لرسوله ﷺ في الهجرة.

---

١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

وهكذا بعد ثلاثة عشر عامًا من المواجهة بين رسول الله ﷺ وبين قومه قريش؛ هاجر ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر ﷺ من مكة متوجهًا إلى المدينة، وكان بعد خروجه من مكة قد دخل هو وصاحبه في غارٍ بجبل ثور القريب من مكة، ولما علمت قريش بخروجه من مكة طار صوابها ووضعت جائزة مئة ناقة لمن يرده عليهم. وطاردته بحثًا عنه، حتى إنهم وقفوا على الغار، ولكن الله أعمى أبصارهم عن رؤيته وصاحبه؛ فغادروا المكان وقد رد الله كيدهم إلى نحورهم. ثم أكمل رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر سفرهما إلى أن وصلا المدينة. وقد شُرِّفت المدينة بهجرة رسول الله ﷺ إليها، وصارت معقلاً وحصنًا منيعًا للمسلمين، ودار هدىً للعالمين، وفيها أسس رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية، وكان أول عمل له فيها حين دخلها أن بنى مسجدًا هو المسجد النبوي، ثاني الحرمين الشريفين بعد المسجد الحرام في مكة المكرمة، ثم آخى ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.

وفي المدينة النبوية ستبدأ مرحلة جديدة مدتها عشر سنوات، وطوال هذه المدة ستكون بين رسول الله ﷺ وبين اليهود والمنافقين مواجهة مستمرة مليئة باستهزاء اليهود وحقدهم وحسدهم وكيدهم ومكرهم وعداوتهم لنبي الله ﷺ ولدين الله ولكتابه العزيز القرآن ولعباده المسلمين، إضافة إلى الغزوات التي ستكون بين نبي الله ﷺ وأصحابه من جهة، وبين المشركين من جهة أخرى. وقد تهيأ رسول الله ﷺ للحرب، وقام فيما أمره الله به من جهاد عدوه، وقتال مَن أمره به ممن يليه من المشركين، وذلك بعد أن بعثه بثلاث عشرة سنة.

إذن الله في القتال:

نزل أمر الله لرسوله ﷺ في القتال، وذلك بعد أن كانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فمنهم مَن هاجر إلى أرض الحبشة، ومنهم مَن هاجر إلى المدينة، ومنهم مَن صبر على الأذى. فلما

عتت قريش على الله تعالى، وردوا أمره، وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من آمن به ووحَّده وعبده، وصدق نبيه ﷺ واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم.

وكانت أول آية أنزلت في إذن الله له في الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال، لمن بغى عليهم، قول الله عزَّ شأنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾[1]، أي: إنه تعالى إنما أحل لهم القتال لأنهم ظُلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله، ثم أنزل سبحانه عليه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[2]، أي: حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه، وحتى يُعبد الله وحده، لا يُعبد معه غيره.

وقعة بدر الكبرى سنة ٢هـ:

وبدأت الغزوات والجهاد في سبيل الله لنشر دينه ولإعلاء كلمته، فمن غزوة هنا وغزوة هناك، حتى حان موعد يوم الفرقان، يوم الغزوة الكبرى، والمعركة الفاصلة، التي سوف تفصل بين الحق والباطل، إنها وقعة بدر الكبرى. لم تكن هذه الوقعة شغلاً للبشر فحسب، بل إن الملائكة والشياطين وعلى رأسهم إبليس اللعين كان لهم شغل فيها أيضًا، وكيف لا يكون لهم فيها شغل وهي المعركة التي سيتحدد فيها النصر لأحد الفريقين؛ إما فريق الحق وإما فريق الباطل؟! ولهذا لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب، فقالوا: إنَّا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيءٍ تكرهونه، فخرجوا سراعًا.

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٩-٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

وخرج رسول الله ﷺ في ليالٍ مضت من شهر رمضان، في أصحابه، وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيرًا، فاعتقبوها. ثم أتى الخبر إلى رسول الله ﷺ عن مسير قريش إليهم لحربهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالا في الجهاد وأحسنا، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون). ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا أكثر الناس، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فأجاب ﷺ: أجل؛ فقال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنَّا لصُبرٌ في الحرب، صُدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد ودعا له وللمهاجرين والأنصار، ونشَّطه ذلك واطمأن إلى موقف جنده من اللقاء؛ ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾[1]. وسار رسول الله ﷺ وجيشه باتجاه بدر، وهو ﷺ موقن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.

بأنه سينال إحدى الطائفتين: عير قريش أو جيشها. وجاءت الأخبار إلى رسول الله ﷺ فتيقن أن المواجهة ستكون مع ذات الشوكة شجعان مكة وفرسانها.

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا؛ فأقسم أبو جهل بن هشام بأن لا يرجعوا حتى يردوا بدرًا فيقيموا عليه ثلاثًا، فيطعمون الطعام، ويُسقون الخمر، وتعزف عليهم المغنيات، وتسمع بهم العرب وأمرهم أن يمضوا. ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وبعث الله السماء، وكان الوادي دهسًا، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّد لهم الأرض، ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. فخرج رسول الله ﷺ يُبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به. وكان رسول الله ﷺ يخبر أصحابه بمصرع بعض زعماء مشركي قريش، ويريهم المواضع التي سيُصرَعون بها، مما زاد من يقينهم بنصر الله لهم.

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ، قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم[1] الغداة. وكانت قريش قد تشاورت ورأى بعض سادتهم الرجوع دون قتال، ولكن أبا جهل ركب رأسه وأصر على التحدي والكبر والخيلاء وأقسم ألاَّ يرجع حتى يحكم الله بينهم وبين النبي ﷺ. وبدأ القتال في يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة. وكان عدد المسلمين ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، في حين كان عدد المشركين بين التسع مئة والألف رجل، فكانوا أكثر عددًا وعدة.

(١) أحنهم: أهلكهم.

بات المسلمون ليلة بدر وهم يدعون الله ويتضرعون إليه بالنصر والفوز على الأعداء، وأنزل الله سكينته عليهم فكانوا هادئين وأصابهم النعاس أَمَنَةً من الله، وأنزل الله عليهم الماء ليطهرهم به ويُذهب عنهم رجز الشيطان وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام. وكان رسول الله ﷺ في هذه الليلة يصلي ويبكي متضرعًا إلى الله بالدعاء أن ينصر المؤمنين. أما مشركو قريش فقد باتوا يأكلون ويشربون الخمر وتعزف لهم القيان، ويفاخرون بقوتهم، ويصرون على كفرهم وشركهم ومعاندتهم لله ولرسوله ﷺ. وفي صبيحة يوم المعركة صلى المسلمون خلف رسول الله ﷺ، وبعدها خطبهم وحضهم على القتال والصبر.

أمر رسول الله ﷺ أصحابه ألاَّ يهجموا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل، وقد عدَّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، ورجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصديق، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد الله ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد، اللهم أنجز لي ما وعدتني. وأبو بكر يقول: يا نبي الله! بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك. وقد أخذتْ رسول الله ﷺ إغفاءة ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله. هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده. ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم على القتال وبشرهم بنزول الملائكة معهم، وقال: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة.

وبدأت المعركة بمبارزة بين ثلاثة من سادة قريش كان مصيرهم القتل على يد ثلاثة من الصحابة، ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشًا بها ورماها عليهم، وقال: شاهت الوجوه. وأمر أصحابه، فقال: شدوا؛ فالتحم الجمعان واشتد القتال بينهما، وكان رسول الله ﷺ في مقدمة الصفوف حتى إن أصحابه كانوا يحتمون به، وقد أبلى الصحابة بلاءً

حسنًا وكانت لكثير منهم مواقف بطولية، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، وكانت الهزيمة لقريش، فقتل الله عددًا من صناديد قريش وغيرهم من المشركين الذين بلغ عددهم سبعين رجلاً، وأسر من أسر من أشرافهم، وولى الباقون الأدبار منهزمين. وأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. وقد شهدت الملائكة هذه الوقعة وقاتلت مع المسلمين حتى نصرهم الله بإذنه وبفضله، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2].

وبذلك صدق الله وعده لرسوله ﷺ، ونصره، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. وبهذه الوقعة المباركة نصر الله تعالى الإيمان وهزم الشرك، ونصر الحق وهزم الباطل، وكانت أول انتصار للمسلمين على مشركي مكة، وقد انتشر خبرها بين العرب، وعلم الناس بعدها أن المسلمين أصبح لهم قوة يُحسب لها حسابها.

وكانت معركة بدر هي المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين، وأي معركة قادمة بينهما فهي لا تعدو أكثر من جولة، قد ينتصر فيها المسلمون، وقد ينتصر فيها الكفار المشركون، لحكمة لا يعلمها أحد سوى الله عزَّ وجلَّ، فهو المتصرف الوحيد في هذا الكون، لا يُسأل عما يفعل، ويفعل ما يشاء، فعال لما يريد، لا راد لحكمه ولا راد لقضائه. وقد قال عزَّ شأنه وتقدست أسماؤه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣-١٢٥.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

نعم...! وتلك الأيام يداولها الله تعالى بين الناس؛ فتكون مرة للمؤمنين لينصر دينه، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويمحص ذنوبهم؛ وإن كانت لهم العاقبة لما لله في ذلك من الحكمة، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون، ولولا المداولة ما أوذي المؤمنون. وقد يدال للكافر من المؤمن، ويُبتلى المؤمن بالكافر ليعلم سبحانه من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب. وليعلم الذين آمنوا في مثل هذا ليرى من يصبر على مناجزة الأعداء، ويتخذ منهم شهداء يُقتَلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته، وليكفِّر عن المؤمنين من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. ويمحق الكافرين؛ فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

وقد كانت وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة فتحًا مجيدًا سمع بها العرب ودخلوا في الإسلام أفواجًا، حتى ارتفع عدد المقاتلين المسلمين من حوالي الثلاث مئة الذين كانوا في بدر إلى حوالي العشرة آلاف الذين دخلوا مكة في يوم الفتح؛ وذلك بعد ست سنوات من وقعة بدر.

فتح مكة ونهاية المشركين:

إن الله - عزَّ وجلَّ - منجز وعده لرسوله ﷺ ومصدقه في رؤياه؛ فقد رأى ﷺ في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2]. بل وبشَّر الله المؤمنين بنصرة

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٠-١٤٢.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾[1]، أي: ليظهره على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وملیين ومشركين، وكفى بالله شهيدًا أنه رسول الله، وهو سبحانه ناصره.

وكان تحقيق هذه الرؤيا في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في جيش قوامه عشرة آلاف مجاهد، وإنه ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح، حتى إن لحيته الشريفة لتكاد تمس واسطة الرحل. وكان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على أن يكون دخوله إلى مكة سلميًا وألاَّ يُراق في ذلك دم، وقد عهد ﷺ إلى أمرائه من المسلمين، حين أمرهم أن يدخلوا مكة، ألاَّ يقاتلوا إلا مَن قاتلهم. وقد قسم جيشه إلى أربعة أقسام وجعلها تدخل من جهات مكة الأربع لكي يُسقط في أيدي أهل مكة ويستسلموا للأمر الواقع ويسلموا بسلام. وأعلن ﷺ خلال ذلك أنه: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن ألقى السلاح فهو آمن. ومن أغلق بابه فهو آمن**»[2]، فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان، وأغلق الناس أبوابهم، وأقبل رسول الله ﷺ إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت، وكان حول البيت ثلاث مئة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود كان في يده ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا. جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**»[3].

ثم دخل رسول الله ﷺ الكعبة، ثم خرج ووقف على بابها، وقد اجتمع له الناس في المسجد، فخطب وقال: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم**

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: فتح مكة.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: فتح مكة.

الأحزاب وحده»[1]. وكان مما قاله للناس: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فقد كان رسول الله ﷺ رحيمًا حتى بأعدائه من قريش الذين أُجلسوا بالمسجد الحرام، وصحبه ينتظرون أمره فيهم؛ من قتل أو غيره، ولكنه ﷺ عفا عنهم وأطلقهم. وأمر الرسول الكريم ﷺ مؤذنه بلالاً أن يؤذن فرفع الأذان من مسجد الله الحرام وعند بيته المحرم.

وهكذا نصر الله دولة الإسلام وهزم دولة المشركين، وتطهرت مكة من الشرك، وسقطت أقوى قوى الشرك المعادية للإسلام. وكُسِّرت الأصنام التي كانوا يتخذونها آلهة متعددة من دون الله، وبقي الله سبحانه وتعالى الإله الواحد الأحد المعبود بحق. وبدأ الناس يدخلون في الإسلام أفواجًا بعد أن كتب الله لهم الهداية، وأخذ الإسلام ينتشر في كل الاتجاهات في الجزيرة العربية، ويظهر على الأديان كلها ولو كره المشركون.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع قريش المشركين:

والآن ماذا عن قريش المشركين وغيرهم...؟! هل تيقنوا أنهم كانوا على باطل، وأن رسول الله ﷺ كان يدعوهم إلى الحق وإلى ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم؟! لقد كان عليهم أن يفرحوا أن خاتم النبيين ورسول رب العالمين كان واحدًا منهم فيتبعونه وينصرونه ويقاتلون معه أعداءه؛ لأن ملكه ملكهم، وعزه عزهم، ولكن أنانيتهم ورياستهم ومصالحهم الدنيوية جعلتهم يستكبرون عن الحق ويعادون رسول الله ﷺ، فكانوا أول من عاداه وحاربه وآذاه وأخرجه من بلده!.

لقد دعاهم إلى كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، فقالوا: نعطيك بدل الكلمة الواحدة عشر كلمات، فلما طلب منهم أن يقولوا:

---

(١) المسند، رقم: ٢٣٣٨٥، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

لا إله إلا الله؛ طار صوابهم، وقفزوا من أماكنهم، كما يقفز الذي يتخبطه الشيطان من المس، وهرولوا مدبرين كالمجانين وهم يتعجبون من جعله الآلهة إلهًا واحدًا...! وأخذوا يتهمون رسول الله ﷺ بالسحر والكذب، وأوصى بعضهم بعضًا ألاَّ يستجيبوا لما يدعوهم إليه من التوحيد، وأن يستمروا على ما هم عليه من الشرك؛ فليذوقوا العذاب بما كانوا يشركون من دون الله.. أليس هذا ما أصروا على الصبر عليه، وهو عبادة الآلهة المتعددة، حين قالوا: اصبروا على آلهتكم؟ فليدعوا هذه الآلهة لتنقذهم أو تخفف عنهم شيئًا من العذاب في مقابل عبادتهم لها، أو في مقابل محاربتهم وأذاهم لرسول الله ﷺ ولأتباعه المسلمين لأجلها.. فليدعوهم فليستجيبوا لهم إن كانوا صادقين...!.

لقد حاربوا رسول الله ﷺ بكل وسيلة تفتق عنها ذهنهم الضال، وآذوه بكل طريقة دلهم عليها الشيطان؛ فوضعوا على ظهره السَّلى[1] وهو يصلي، وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من شدة الضحك، فدعا عليهم وسمى بالاسم بعضًا منهم، فقُتِل هؤلاء جميعًا شر قتلة في غزوة بدر. وفي مرة أخرى وثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وأخذوا بمجامع ردائه وخنقوه خنقًا شديدًا حتى جاء أبو بكر وخلصه منهم. ثم اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ، سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به، مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

ثم أخذوا في التأليب عليه واجتمعوا بعمه أبي طالب، القائم في منعه ونصرته، وحرصوا عليه أن يسلمه إليهم ليقتلوه، فأبى عليهم ذلك بحول الله وقوته. ثم إنهم

(١) السَّلى: هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة.

تآمروا بينهم على مَن في القبائل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم.

فهكذا هم المشركون الضالون دائمًا؛ كلما هزم الحق الذي عند المسلمين باطلهم وضلالهم؛ وثبوا على المسلمين يعذبونهم ويقتلونهم ويسجنونهم دفاعًا عن باطلهم، بدلاً من الاستسلام أو ترك الباطل الذي لم يستطع نصرتهم...! ومع ذلك فإن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائلهم بين الرجال والنساء.

وهذا ديدنهم، إذا وجدوا أن كل الأساليب القمعية لم تنجح في إخماد الحق أو إسكاته عمدوا إلى المناورة والإغراء بالمال والجاه والنساء...! فقد جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وعرضوا عليه عروضًا دنيوية مغرية جدًا، وقالوا له: فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا[1] تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نُعذِر فيك؟.

فلما ردَّ عليهم بأنه ليس به ما يقولون، ولا جاءهم بما جاءهم به يطلب أموالهم، ولا الشرف فيهم، ولا المُلْكَ عليهم، ولكن الله بعثه إليهم رسولاً، وأنزل عليه كتابًا، وأمره أن يكون لهم بشيرًا ونذيرًا. ولما وجدوا أن عرضهم المغري قد فشل، رأوا أن يطلبوا منه أمورًا تعجيزية؛ فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يُسيِّرَ عنهم هذه الجبال، ويبسط لهم بلادهم، ويفجر لهم فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق... أو أن يبعث ربه معه ملَكًا يصدقه بما يقول، ويراجعهم عنه، وأن يسأل ربه أن يجعل له جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة، أو يسقط السماء عليهم كِسَفًا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يرقى في السماء ولن يؤمنوا لرقيه حتى يُنَزِّل عليهم كتابًا يقرؤونه...! سبحان

(١) كانوا يسمون التابع من الجن الرَّئِيَّ.

الله! هل كان إلا بشرًا رسولاً، فكيف يطلبون منه كل ذلك...؟! ولما لم يجبهم إلى أي شيء مما طلبوا؛ لأنه ليس بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعِث إليهم بهذا، هددوه بأنهم لن يتركوه حتى يهلكوه أو يهلكهم. وهذا المجلس الذي اجتمعوا عليه مجلس ظلم وعدوان وعناد، ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك، فيعاجلهم بالعذاب كما حصل مع ثمود الذين طلبوا من رسولهم أن يخرج لهم ناقة من الصخرة، فلما فعل، ظلموا بها وعقروها فعذبهم الله.

ثم إنهم لو كانوا يريدون الإيمان حقًّا لآمنوا بعدما أخبرهم عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، وذلك كما أشار عليهم اليهود بأنه لو أخبرهم عن هذه الثلاث فهو نبي مرسل، ولكنهم لم يؤمنوا بأنه نبي ورسول، بل لما جاءهم بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتِّباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانًا، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: لا تسمعوا لهذا القرآن واجعلوه لغوًا وباطلاً، واتخذوه هزوًا لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يومًا غلبكم.

ثم دفعهم الحسد إلى العدوان والقسوة على المستضعفين ممن أسلم مع رسول الله ﷺ واتبعه من أصحابه، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ويخرجونهم إلى الرمل الحار من الشمس فيضجعونهم على ظهورهم ويضعون الصخور على بطونهم، يفتنونهم عن دينهم، ويأمرونهم أن يفارقوا دين محمد ﷺ؛ فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصلُب لهم، ويعصمه الله منهم. وهكذا استمر عدوانهم وأذاهم على المسلمين الضعفاء حتى اضطروهم إلى ترك بلادهم والهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينهم. بل إنهم من قسوتهم وجبروتهم لم يتركوهم وشأنهم وقد غادروا بلادهم، فطاردوهم إلى الحبشة حقدًا

وحسدًا على المسلمين ليخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها...! ولكن الله تعالى قد هيأ لهم ملكًا هو النجاشي، فكان أرحم بهم من قومهم، فرفض طلب قريش بتسليمهم إليهم، بالرغم من محاولتهم التأثير عليه بالهدايا التي أغدقوها عليه وعلى بطانته لكي يضغطوا عليه لتسليمهم لهم، ورجعوا خاسئين خائبين، قد رد الله كيدهم إلى نحورهم. بل ما زاد الإسلام بفعلهم إلا انتشارًا، وما زاد إرهابهم للمسلمين إلا ثباتًا على الحق، بل ودخول الناس في الدين أفواجًا، حتى النصارى أخذوا يدخلون فيه... وأخذ الإسلام يقوى ويقوى أمام أعينهم وهم لا يستطيعون له منعًا كمن يريد أن يسد ماء الطوفان بكفيه، أو كمن يريد منع شعاع الشمس بالغربال، أو كناطح الصخرة يريد أن يحطمها فلم يحطم إلا رأسه....!

فكانوا بذلك لا يزدادون إلا غيظًا وحنقًا وحسدًا وحقدًا على الإسلام والمسلمين، حتى عضوا أصابعهم من الغيظ...! فليموتوا بغيظهم...! ولما لم يكن بوسعهم أن يفعلوا للإسلام شيئًا؛ فما كان أمامهم سوى أن يصبوا حقدهم على أتباعه المسلمين الضعفاء، واتهامهم بكل تهمة باطلة، بل وصل بهم المكر إلى أن قرروا قتل رسول الله ﷺ علانيةً، فلما عرفوا أن قومه قد منعوه منهم في شعبهم، قاموا بعقد تحالف مع القبائل الأخرى المنتشرة في الأرض لمحاربة المسلمين وقوم رسول الله ﷺ، وحصارهم اقتصاديًا واجتماعيًا.

وفي هذه الأثناء كان القرآن ينزل فيهم، وفيمن نصب لعداوته، منهم من سمَّى، ومنهم مَن نزل فيه القرآن في عامة مَن ذكر الله من الكفار؛ فنزلت في أبي لهب سورة المسد، ونزلت في أمية بن خلف سورة الهُمَزَة، ونزلت آيات في أبي جهل، والعاص بن وائل وغيرهم. وكانوا إذا رأوا رسول الله ﷺ يستهزئون به ويقولون على سبيل التنقص والازدراء: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟! فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ **وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا**

﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]. يعنون أنه ﷺ كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها، فما داموا قد صبروا وتجلدوا على عبادة الأصنام؛ إذًا فليصبروا ويتجلدوا فسيبين الله لهم حين يعاينون عذابه الذي قد حل بهم على عبادتهم الآلهة، وسيعلمون مَن أضل دينًا هم أم محمد صلَّى الله عليه وسلَّم؟!.

حقًّا، إنَّ من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2]، فمهما استحسنوا من شيء ورأوه حسنًا في هوى أنفسهم كان دينهم ومذهبهم؛ وقد كان الرجل منهم يعبد الحجر الأبيض زمانًا، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول! فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه، فهم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خُلِقت له، وهم خُلِقوا لعبادة الله وحده، فعبدوا غيره وأشركوا به، مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسول إليهم.

ثم لما هاجر رسول الله ﷺ من بلدهم إلى المدينة، وأسس فيها دولة الإسلام، أغواهم الشيطان إلى محاربته وقتاله وزين لهم أعمالهم، وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم. فخرجوا بكل قوتهم وعدتهم بطرًا وتكبرًا ورياءً لتسمع بهم العرب، فالتقوا في وقعة بدر التي كان عددهم فيها ثلاثة أضعاف المسلمين، وغرتهم قوتهم فظنوا أنها ستكون نزهة لهم يشربون فيها الخمور، ويدقون الطبول، وتغني لهم المطربات، وترقص لهم الراقصات...!. فهكذا هم المشركون دائمًا يظنون أن قتالهم للمسلمين نزهات، ولكن هيهات هيهات، فقد كان في نزهتهم هذه الموات

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٤١-٤٢.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٣- ٤٤.

الموات، فقد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ؛ فنصره وأعزه، وهزمهم وأذلهم وقتلهم وأخزاهم، فلم يبق بيت في مكة إلا وكان يلطم الخدود، ويشق الجيوب، على مَن هلك له في وقعة بدر التي قُتل فيها سادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم.

إن رسول الله ﷺ والمؤمنين قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا، فهل وجد المشركون ما وعد ربهم حقًّا؟! فأين هو الشيطان الذي وعدهم ومنَّاهم بأنه لن يغلبهم أحد؟! هل عرفوا ماذا حصل وماذا رأى الشيطان مما لم يرونه هم؟! قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾[1]، لقد رأى الشيطان جنود الله من الملائكة، قد أيد الله بهم رسوله ﷺ والمؤمنين على عدوهم، فعلم أنه لا قوة له ولا منعة؛ فنكص على عقبيه، فأوردهم ثم أسلمهم. وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه وانقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾[2].

ولم تنته الأمور بينهم وبين رسول الله ﷺ عند هذا الحد، بل إن الله تعالى صدق وعده، ونصر عبده محمدًا، وهزمهم وهزم الأحزاب وحده.. فقد أخرجوه منها وحيدًا متخفيًا ليس معه إلا صاحب واحد، فأدخله الله - عزَّ وجلَّ - مكة ظاهرًا على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مجاهد.. وخرج من مكة وهم يريدون قتله، فأعاده الله إليها فعفا عنهم وأطلقهم بعد أن نصره الله عليهم.

لقد خرج من مكة والدولة دولتهم، فأعاده الله إليها وقد أزال دولتهم وصارت الدولة دولة دين الله الإسلام الذي أظهره الله على شركهم وعلى الأديان جميعًا. فأين أصنامهم فلِم لم تنصرهم؟! بل لِم لم تنصر نفسها حين بدأ التكسير فيها يفعل

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦.

فعله؟! أرأوا كيف يكون النصر للحق في النهاية...؟! أرأوا كيف ينصر الله رسله والذين آمنوا...؟! أرأوا كيف أن الله مولى المسلمين ولا مولى لهم...؟! إذًا فليعلموا أن قتلى المسلمين في الجنة وقتلاهم في النار...! وكم هم أعداء أنفسهم مَن لا يتعظون بهم...! وكم هم يريدون الهلاك لأنفسهم في الدنيا والآخرة مَن لا يعتبرون بقصتهم وبما جرى بينهم وبين المسلمين، وأصروا على معاداة المسلمين ومحاربتهم ومطاردتهم وقتلهم...!.

- وقفة مع أبي لهب:

وماذا عن أبي لهب...؟! فكيف رأى الأمر بعدما مات وانكشف له الحق؟! هل وجد ما وعده ربه حقًا؟ لم يفرح ولم يفتخر أن ابن أخيه محمدًا ﷺ قد بعثه الله تعالى وجعله نبيًا ورسولاً للعالمين، ولم يرغب في أن يدخل في دينه ويعينه على أعدائه وينصره عليهم، بل كرهه وأخذ على عاتقه محاربته ومحاربة ما جاء به، وأخذ يمشي خلفه أينما ذهب ليتهمه أمام الناس بأنه كاذب...! فلما صعد ﷺ على الصفا ونادى الناس وأنذرهم عذاب الله الشديد، قال له: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله فيه: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾[1].

وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قول الله تعالى فيه وزوجته، وأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا لواحد منهما؛ لا باطنًا ولا ظاهرًا، لا سرًا ولا علنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة، على النبوة الظاهرة. تبت يدا أبي لهب وكذب وكفر وهلك وخسر، وسيصلى نارًا ذات لهب...!.

(١) سورة المسد.

- وقفة مع أبي جهل:

وماذا عن أبي جهلٍ...؟! لقد كانوا يسمونه أبا الحكم، وحتمًا قد عرف الآن أنه كان أبا الجهل...! لأنه كان مثل أبي لهب في محاربة محمد ﷺ بدلاً من الفرح والسرور والغبطة باصطفاء الله - عزَّ وجلَّ - له وإرساله للناس رسولاً...!. لقد منعه الشرف من أن يؤمن بالنبي ﷺ، إذ كيف يتنازع الشرف مع بني عبد مناف، فيطعموا كما أطعموا، ويعطوا كما أعطوا، حتى إذا كانوا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فهذه التي لا يستطيع إدراكها، فلم يكن أمامه إلا أن يرفض تصديق النبي ﷺ واتباعه، مع علمه بأن ما يقوله حق، وأنه نبي مرسل. وأخذ يستهزئ به في كل مناسبة. بل إنه لم يكتف بما يقول عن رسول الله ﷺ، فعقد العزم على أن يتبع القول بالفعل، وخطط لقتله، هذا وهو منهم وليس شخصًا غريبًا...!.

وذات يوم أخذ حجرًا، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منبهتًا ممتقعًا لونه مرعوبًا، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، فلما سأله رجال من قريش: ما بك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه؛ لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهَمَّ أن يأكلني. فهل اتعظ بما رأى من حماية الله تعالى لرسوله ﷺ...؟! لا...! لأن الحقد قد ملأ قلبه فلم يعد يرى الحق، ولم يعد يتعظ حتى بالآيات والمعجزات التي يراها من رسول الله ﷺ. ثم إنه في يوم آخر قال: لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه...! حقًّا إنه أبو الجهل والشرك، ولو فعل لرأى كيف أخذته الملائكة.

ثم إنه في يوم آخر مر برسول الله ﷺ وهو يصلي، فقال: ألم أنهك أن تصلي يا محمد؟ فانتهره النبي ﷺ، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر

هذا الوادي ناديًا. فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1]. والله لو دعا أبو جهل قومه وعشيرته وحزبه واستنصر بهم لأخذته زبانية العذاب من ساعته والناس ينظرون إليه.

وذات يوم قال وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

ولما ذكر الله - عزَّ وجلَّ - شجرة الزقوم تخويفًا بها لهم، قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا؛ قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنَّها تزقمًا. وكان يصف نفسه بأنه العزيز الكريم، وقد أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[3]، فكذب أبو جهل فإن شجرة الزقوم ليست كما قال، فليستمتع في تزقمها...!.

ثم إن العزة بالإثم ظلت تأخذه حتى آخر لحظة في حياته، فأخذته لفكرة شيطانية لقتل رسول الله ﷺ، وذلك حين اجتمعوا، بل حتى إبليس جاءهم في هيئة شيخ جليل من أهل نجد واجتمع معهم ما دام اجتماعًا للأشرار والجاحدين من أمثال أبي جهل. فتشاوروا في أمره، ثم أخذ كل منهم يعرض رأيًا في كيفية التخلص

(١) سورة العلق، الآيتان: ١٧-١٨.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٤٣-٤٩.

منه ومن دعوته، وكلما عرض أحدهم رأيًا، قال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي. حتى قال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد؛ قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. أرأى أبو الجهل؟! إبليس نفسه لم يملك سوى أن يؤيد فكرته الشيطانية لقتل النبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

ويوم بدر، وما أدرى أبو جهل ما يوم بدر...؟! فقد ظلت عزته بالإثم تجره حتى توصله إلى حتفه؛ فبالرغم من أن بعض سادتهم رأى الرجوع دون قتال في بدر، إلا أنه بسبب عزته بالإثم وكبره وزعمه بأنه العزيز الكريم، أبى إلا أن يركب رأسه وأقسم ألاَّ يرجع حتى يحكم الله بينهم وبين النبي ﷺ. ثم لما التقوا في المعركة، ودنا بعضهم من بعض، قال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة. فكان أبو جهل هو المستفتح الحاكم على نفسه بهذا الدعاء؛ فقد استجاب الله دعاءه وحكم بينه وبين رسوله ﷺ، فقتل الله - عزَّ وجلَّ - أبا جهل وأذلَّه، وعيَّره وأخزاه؛ لأنه هو الذي كان أقطع للرحم، والجاهل، والجاحد لنبوة محمد ﷺ!. فليبشر فقد انتصر النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، ووجدوا ما وعدهم ربهم حقًا، فهل وجد أبو جهل ما وعد ربه حقًا؟!.

- سنة الله:

قال الله تعالى، وقوله الحق: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾[1]. فسنة الله في خلقه في قديم الدهر، أنه سبحانه ينصر عباده

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم، ولهذا أهلك سبحانه الأمم والأقوام السابقة ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى من بينهم المؤمنين، فلم يُهلِك منهم أحدًا، وعذب الكافرين فلم يُفلِت منهم أحدًا. وهكذا نصر نبيه محمدًا ﷺ فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان.

فمن بعد ما أمر الله نبيه ﷺ بالهجرة إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده المشرف المعظم، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله إليه فأقام أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، حتى انتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة، ويوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، يوم لا يُقبل من الظالمين المشركين عذر ولا فدية، ولهم الإبعاد والطرد من الرحمة، ولهم سوء الدار وهي النار.

حقًا قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، فقد حكم الله وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة لله ولكُتُبه ولرسله ولعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، وأن الله هو القوي العزيز الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولكن المنافقين لا يفقهون، ولكن الكافرين لا يؤمنون...!.

لقد دلت الأحداث التي جرت بين رسول الله محمد ﷺ وبين قومه المشركين على أن المسلمين هم المؤمنون الأخيار الأبرار، وهم أهل الخير، وأن غيرهم هم الكفار الأشرار الفجار، وهم أهل الشر. والمسلمون في آخر الزمان هم الذين

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

سيكونون المنصورين، وإذا كانت البداية كذلك، والنهاية كذلك، فلا يضر ما بينهما من جولات للباطل والشر، ولا يضر ما بينهما ما تعرض ويتعرض له المسلمون من مذابح ومجازر وظلم وانتهاكات وغير ذلك من أفعال الشر على يد قوى الشر الكافرة في العالم...!.

نهاية أمة اليهود أعداء محمد ﷺ
في الجزيرة العربية

غضب الله على اليهود:

إن الله تعالى هو الخالق وأعلم بخلقه منهم بأنفسهم...! قال تعالى عن اليهود: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾[1]. لقد أخبر سبحانه بحقيقة اليهود، فلا حيرة ولا تردد ولا شك في حقيقتهم بعد ذلك...! لقد وصف الله - عزَّ وجلَّ - اليهود بأنهم أشد عداوة للمسلمين ومثلهم عبدة الأوثان، فقال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾[2]. وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهتة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء.

دعوة اليهود إلى الإسلام:

لقد هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان من بين الأعمال التي قام بها بعد استقراره فيها أن دعا اليهود إلى الإسلام فامتنعوا من اتباعه، فكتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة، فمنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، واستأصل بني قريظة.

ودخل رسول الله ﷺ بيت المدراس[3] على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله؛

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٣) بيت المدراس: هو بيت اليهود حيث يتدارسون فيه كتابهم.

فقالوا له: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه؛ قالوا: فإن إبراهيم كان يهوديًا؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: فهلم إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبوا عليه. فأنزل الله في ذلك قرآنًا. وفي يوم آخر كلَّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، فقال لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق، قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد: فجحدوا ما عرفوا، وأصروا على الكفر.

وذات مرة أتى رسول الله ﷺ اليهود، فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله، وحذَّرهم نقمته؛ فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن أبناء الله وأحباؤه. فقال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾[1]. أي؛ لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلِمَ أعد لكم نار جهنم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، ولكم أسوة أمثالكم من بني آدم.

وقد دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى دين الله في مناسبات كثيرة، فأبوا عليه، وكفروا بما جاءهم به. فالتوراة نفسها التي يتشبثون بها يكتمون ما فيها من الحق، فكيف سيؤمنون بدين الله الإسلام، وبرسوله محمد ﷺ، وبكتابه القرآن؟! وذات مرة دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ورغَّبهم فيه، وحذَّرهم عذاب الله، فقالوا له: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا، فأنزل تعالى في ذلك من قولهم: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ**﴾[2].

اليهود ينكرون النبي ﷺ:

لقد أعطى الله - عزَّ وجلَّ - اليهود علمًا وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة رسوله محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة. ولقد ذُكِر لليهود ما أخذ الله عليهم لنبيه محمد ﷺ من الميثاق بتصديقه إذ هو جاءهم، وإقرارهم، وما عهد سبحانه إليهم فيه، فقالوا: والله ما عُهد إلينا في محمد عهد، وما أُخذ له علينا من ميثاق. فأنزل عزَّ شأنه فيهم: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ودخلت جماعة من اليهود على رسول الله ﷺ، فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أني رسول من الله إليكم؛ قالوا: ما نعلمه، وما نشهد عليه. بل إنهم أنكروا ما أنزل الله على رسوله عيسى ﷺ ورسوله محمد ﷺ، وقالوا: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده. وحين ذكر لهم رسول الله ﷺ بأنه يؤمن بأنبياء الله ورسله، فلما ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به.

وحين ذُكِّروا بأنهم قبل بعثة النبي محمد ﷺ كانوا يستفتحون ويستنصرون به على المشركين، ويخبرونهم أنه مبعوث، ويصفونه لهم بصفته، أنكر اليهود ذلك وقالوا: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]. لقد كانوا يعرفونه، ولكن لما بعث الله نبيه ﷺ من العرب، ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه وجحدوا ما كانوا يقولون فيه[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٣) لقد ظهر فيما بعد شهود من اليهود أنفسهم ممن كانوا من كبار علمائهم فأسلموا، وألفوا الكتب في الرد على اليهود وكشف أكاذيبهم؛ ومنهم الحبر (شموائيل بن يهوذا بن آبوان) الذي صار اسمه السموأل بن يحيى المغربي=

فقد تعوَّد اليهود ألاَّ يكون نبي إلا منهم، وألاَّ يأتي رسول إلا إليهم، وهم ينتظرون النبي الجديد على هذا الظن، ولكن ماذا سيفعلون بهذا النبي ﷺ بعد أن خاب ظنهم خيبة عظيمة لكونه لم يكن منهم بل من العرب، ولا أُرسِل إليهم خاصة بل للعالمين؟! حتمًا ستمتلئ قلوبهم حقدًا وغيظًا عليه؛ مما سيدفعهم للتخلص منه بقتله كما هي عادتهم مع أنبياء الله ورسله...! هكذا كانوا مع آخر رسل الله إليهم وهو المسيح عيسى عليه السلام، الذي يظنون أنهم صلبوه بعد أن آذوه وحاولوا قتله مرات متعددة...! وهكذا سيكونون مع رسول الله الجديد محمد صلَّى الله عليه وسلَّم...![1].

= صاحب كتاب (إفحام اليهود)، وكذلك الحبر عبد الحق الإسلامي المغربي صاحب كتاب (الحسام المدود في الرد على اليهود) الذي قال في كتابه عن اليهود: «يزعمون أنهم متبعون لموسى عليه السلام، وقد أمرهم باتباع محمد ﷺ فلم يتبعوه بل كفروا، وأخلوا بما أمرهم به، وعصوا جميعًا لكونهم لم يتبعوا موسى عليه السلام فيما أمرهم به، ولا محمد ﷺ فيما أخبرهم ودعاهم إليه» الحسام المدود ١٢٤.

(١) يقول عبد الحق الإسلامي، في كتابه (الحسام المدود في الرد على اليهود) ١٧٥-١٨٦: «اعلم أن اليهود لعنهم الله تعالى زعموا أن هذه التوراة الموجودة بأيديهم هي المنزلة على موسى عليه السلام، وفيها ما أسرده الآن من سب الأنبياء، ونسبة الفواحش إليهم مما لا يخطر ببال ولا يعبر عنه مقال، ولا يتوهم على حال.. فالحمد لله الذي أدخلنا في زمرة المسلمين وأخرجنا من عصابة الكافرين». وذكر عبد الحق أن اليهود وقعوا في نبي الله لوط عليه السلام وقالوا: إنه شرب الخمر وسكر، ووقع على بناته، وحملن منه، وتزايد له منهن ابنان. اسم أحدهما عمون، واسم الآخر موآب.. ووقعوا في يهوذا بن يعقوب عليهما السلام وقالوا: إنه ضاجع كنته (ثامارا) وتزايد له منها ولدان، ووقعوا في عمران والد موسى عليه السلام وقالوا: إنه واقع عمته أخت أبيه وتزايد له منها موسى وهارون ومريم، وأنهم نسبوا لموسى وهارون عليهما السلام في توراتهم أنهما لم يؤمنا بالله عزَّ وجل، ووقعوا في هارون عليه السلام، وخصصوه بعمل العجل، وعبادته.. ثم قال عبد الحق عن اليهود: «فقد خرجوا - لعنهم الله - عن كل ملة، وامتازوا من كل أمة، وكفروا بالله ورسوله. وما حاشوا أحدًا منهم بتخصيص عدم إيمانهم بسيدنا محمد ﷺ، وهذا خطأ وغلط وجهل يكفي في كفرهم، وخداعهم» أي؛ لم يتركوا أحدًا من قومهم إلا وعملوا على تحريضه ضد محمد ﷺ، وعدم الإيمان به. وإضافة إلى هؤلاء الأنبياء فقد اتهم اليهود آدم عليه السلام بعدم الاستغفار من ذنبه، واتهموا نوحًا عليه السلام بشرب الخمر والتعري، واتهموا إبراهيم وولده إسحاق عليهما السلام بالكذب، واتهموا يعقوب عليه السلام بالكذب والخداع، واتهموا داود عليه السلام بالزنا، واتهموا سليمان عليه السلام بالارتداد عن الدين.. ورأيهم في يوسف وعيسى ومحمد عليهم السلام على هذا النمط من الإفك والزور والكذب والبهتان والعدوان والكفر.

فقد نصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة، بغيًا وحسدًا وضغنًا، لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم، فكانوا هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنَّتونه، ويأتونه باللَّبس، ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها.

لم يُسلِم من اليهود إلا قليل:

لم يدخل في الإسلام من اليهود إلا أفراد قليلون، فقد أخبر الله عنهم: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾(١). ﴿**فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾(٢). وكان من هذا القليل عبد الله بن سلام، الذي كان حبرًا عالمًا، عرف صفة النبي ﷺ واسمه وزمانه الذي كان اليهود يترقبونه. وكان قد كتم إسلامه من يهود، فلما سألهم النبي ﷺ عنه، قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم عبد الله من المكان الذي كان مختبئًا فيه، وقال لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا به، هذا وهم منذ قليل قد قالوا إنه حبرهم وعالمهم...! حتى إنه رضي الله عنه قال للنبي ﷺ عقب تكذيبهم له: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور! ثم أظهر إسلامه وإسلام أهل بيته.

كذلك أسلم مخيريق، وكان حبرًا عالمًا، وغنيًا، كثير الأموال من النخل. وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد، وكان يوم أُحُد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت؛

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥.

قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأُحُد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قُتِلت هذا اليوم، فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِل.

كذلك أسلم أفراد آخرون، منهم: ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد. وكان سبب إسلامهم أن رجلاً من يهود الشام، يقال له: ابن الهيبان، قدم إلى المدينة وأقام بها، ثم لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت، قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: إنك أعلم؛ قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه؛ وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يُبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه. فلما بُعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية: يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان؛ قالوا: ليس به؛ قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

وكذلك أسلمت صفية بنت حُيَي بن أخطب التي أصبحت زوجة النبي ﷺ وأم المؤمنين رضي الله عنها، وكانت قد سمعت الحديث الذي دار بين والدها وعمها عقب رجوعهما من لقاء النبي ﷺ، إذ سمعت عمها يسأل والدها عن النبي ﷺ: أهو هو؟ قال والدها: نعم والله؛ قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم؛ قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

وهذا هو موقف أحبار اليهود وعلمائهم من رسول الله محمد ﷺ ودينه الإسلام في كل زمان، وفي كل مكان، حتى آخر الزمان، عداوتهم لرسول الله ﷺ ولأتباعه المسلمين، حتى يحين موعد الفصل الأخير من المواجهة بين المسلمين واليهود، فينصر الله دينه وأتباعه من المسلمين على أعدائه اليهود.

تطاول اليهود على الله:

لقد بلغ اليهود مبلغًا عظيمًا في عداوة الأنبياء والرسل والأديان والمسلمين، ولم يكتفوا بذلك حتى تطاولوا على الله جلَّ جلاله، وتهجموا على ذاته...! هذا وهو سبحانه ربهم وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم...! بل هذا وهم يزعمون كذبًا وزورًا أنهم أبناؤه وأحباؤه، فكيف هم إذًا مع الرسل والأنبياء والناس! فقد أتى رهط من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا الله خلَق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انتُقع لونه، ثم ساورهم غضبًا لله. فجاءه جبريل عليه السلام فسكَّنه، فقال: خفِّض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[1]. فلما تلاها عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خَلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم. فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله بجواب ما سألوه. يقول تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[2].

وافتروا على الله بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، الذي يسمونه يوم الراحة! فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾[3]، أي: وما مس الله سبحانه من إعياء ولا تعب ولا نصب. وقالوا أيضًا: إن الله فقير ونحن أغنياء، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، فأنزل سبحانه: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ**

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٨.

ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[1]. وتمادوا في التطاول والجرأة على الله حتى وصفوه بالبخل، فرد سبحانه عليهم ما قالوه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2].

فضح الله لليهود:

لقد كانت يهود ومن انضم إليهم من المنافقين يستهزئون برسول الله ﷺ وبأصحابه كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، حتى إن بعضهم دخل في الإسلام نفاقًا ليمارس تخريبه من الداخل، وكانوا يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بدينهم. وقد أنزل الله في شأنهم كثيرًا من الآيات في سورة البقرة وغيرها، كشف فيها حقيقتهم، وما يقولونه فيما بينهم، وما يخططون في الخفاء من الكيد والمكر بالنبي ﷺ وبالمسلمين، بل وكشف الله للمسلمين ما يضمر اليهود في أنفسهم من الحقد والحسد والعداوة والبغضاء تجاه الإسلام والمسلمين. وكان كلما قال أحد أحبار اليهود قولاً ما، أو أنكر حقيقة ما، أنزل الله على نبيه ﷺ الآيات القرآنية التي فيها الرد عليهم، وفضحتهم بما أسروا وتآمروا فيما بينهم.

وهكذا كانوا في مواجهة مستمرة مع رسول الله ﷺ، والقرآن ينزل فيهم الآيات تلو الآيات، حتى إن من مكرهم بدين الله، ورغبة في صد الناس عنه، قال بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أُنزِل على محمد وأصحابه غُدوةً، ونكفر به عشيةً، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه، ففضحهم الله وأنزل بما أسروا فيما بينهم قرآنًا: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]. فقد أرادوا من هذه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

المكيدة أن يلبِّسوا على ضعفاء الإيمان أمر دينهم، بأن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، فيرجعون عن الإسلام.

فهكذا كان شأن اليهود مع دين الله ومع رسوله ﷺ، وكانوا كلما وجدوا أن طرقهم السابقة لم تفدهم، ولم تحقق لهم ما تصبو إليه أنفسهم من إطفاء نور الله ودينه، انتقلوا إلى طرق أخرى جديدة؛ وإذا وجدوا أن الكلام لا ينفع انتقلوا إلى الأفعال وهكذا ...! لتتكشف على أرض الواقع خبايا نفوسهم الخبيثة وما تنطوي عليه من حقد وبغض وحسد للمسلمين؛ كما أخبر رب العالمين عنهم، وهو سبحانه خالقهم وباريهم، ويعلم سرهم وجهرهم: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1]. أي؛ كلما عقدوا أسبابًا يكيدون بها رسول الله ﷺ، وكلما أبرموا أمورًا يحاربونه بها، أبطلها الله، ورد كيدهم عليهم، وحاق مكرهم السيئ بهم، وأن من سجيتهم أنهم دائمًا يسعون في الأرض فسادًا، والله سبحانه لا يحب مَن هذه صفته. وأعظم الفساد سعيهم في إبطال الإسلام.

فقد ضايقهم وأغاظهم أولاً حال القبيلتين: الأوس والخزرج، بعدما رأوا ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد العداوة والحروب التي وقعت بينهم عندما كانوا مشركين، فحاول اليهود إشعال الحرب مجددًا فيما بينهم، وكادوا ينجحون في الوقيعة بينهم لولا تدخل رسول الله ﷺ الذي أعاد الأمور إلى نصابها بين القبيلتين فندموا واعتذروا، وأطفأ الله نار الحرب التي أوقدها أعداؤهم اليهود، وخابت دسائسهم، وفشلوا في مسعاهم الشرير. وعرف الأنصار أنها نزغة من

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله فيما صنع اليهود قرآنًا، وفيما صنع الأنصار قرآنًا حذَّرهم فيه من طاعة أهل الكتاب الذين يرغبون في ردهم إلى الكفر بعد الإيمان، وأمرهم أن يتقوه حق تقاته، وألاَّ يموتن إلا وهم مسلمون، وأن يعتصموا جميعًا بحبله ولا يتفرقوا، وأن يكن منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ونهاهم أن يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، فأولئك لهم عذاب عظيم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . . .** ﴾[1]؛ الآيات.

وذات يوم قالت يهود لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[2]. نعم! فقد طلب أسلافهم من موسى عليه السلام مثل ذلك...!. وقالوا لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد؛ وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل تعالى في ذلك: ﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٠-١٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٣٥ - ١٣٧.

وزعم اليهود أن الله عهد إليهم في كتبهم، ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها، فكذبهم الله وقال: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1]. أي؛ قد جاءكم رسل من قبلي بالحجج والبراهين، وبنار تأكل القرابين المتقبلة، فلِم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم إن كنتم صادقين أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل...؟!.

وقد كشف الله - عزَّ وجلَّ - للمسلمين حال اليهود، فقال: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[2]. فأخبر سبحانه عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم، ثم قال - عزَّ شأنه - منكرًا عليهم: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾[3]، أي؛ تعلمون صدقها وتتحققون حقها، وتكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه.

وكشف الله سر اليهود وعقيدتهم في الحياة، ومبدأهم الذي لا يتخلوا عنه أبدًا، فأخبر تعالى المؤمنين عن تعليم اليهود الذي يعلمونه بعضهم ويلقنونه أولادهم، فحكى سبحانه قولهم: ﴿**وَلَا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾[4]، أي؛ لا تصدقوا إلا من تبع دينكم فكان يهوديًا، ولا تطمئنوا أو تظهروا سركم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساووكم فيه ويمتازوا به عليكم لشدة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

الإيمان به، أو يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة والحجة في الدنيا والآخرة.

لم يكتف اليهود بالمواجهات الكلامية المستمرة، والمماراة الجدلية التي لا تنتهي، مع رسول الله ﷺ، بل انتقلوا إلى مرحلة جديدة، هي مرحلة عملية خطيرة، حيث بدؤوا في التخطيط والعمل على الغدر برسول الله ﷺ ونقض العهود معه وقتاله وقتله، وهي مرحلة إعلان الحرب على رسول الله ﷺ ودينه وعباده المسلمين.

نقض بني قينقاع للعهد:

لقد كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من عهد، وكان سبب الحرب بينهم وبين المسلمين؛ أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. فحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة حتى أمكنه الله منهم، ونزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله ابن أبي بن سلول، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، فقال له الرسول الكريم ﷺ: هم لك. فوهبهم له.

بنو النضير يحاولون قتل النبي ﷺ:

وكان من مكر يهود لقتل رسول الله ﷺ غدرًا، أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى اليهود من بني النضير يستعينهم في دية شخصين، جلس إلى جنب جدار من بيوتهم، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمَن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن

كعب: أنا، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، فأطلع الله جلَّت قدرته رسوله ﷺ على ما هموا به من ذلك، فانصرف رسول الله ﷺ عنهم ورجع إلى المدينة، وأخبر ﷺ أصحابه الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. فحاصرهم ست ليالٍ، فتحصنوا منه في الحصون، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن العتبة التي بأعلى بابه، فيضعها على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم مَن سار إلى الشام.

وأنزل الله تعالى في بني النضير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم به من نقمته، وما سلط عليهم به رسوله ﷺ، وما عمل به فيهم؛ فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[1].

اليهود يحرضون لقتال النبي ﷺ:

سافر وفد من اليهود إلى مكة لتحريض قريش وليحزبوا الأحزاب والزحف إلى المدينة لقتال رسول الله ﷺ. فلما قدموا على قريش دعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنَّا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله؛ فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وهذا قول عجيب

(١) سورة الحشر، الآيات: ٢-٤.

منهم يدل على حجم كراهيتهم للإسلام وأهله، فالإسلام دين توحيد، وقريش عبَّاد أصنام، ولو أن اليهود يخلصون لله ويحترمون التعاليم التي ورثوها بينهم لقالوا: الإسلام أقرب إلينا من الوثنية، وعبادة الله أقرب إلى ديننا من عبادة الأصنام، ودين التوحيد خير من دين قريش الوثني. ولهذا أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[1].

وقد لعنهم الله تعالى وأخبر بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم: إنَّا سنكون معكم عليه؛ ليستميلوهم إلى نصرتهم، فلما قالوا ذلك لقريش، سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه، من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واستعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود، حتى جاؤوا غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فاستجابوا لهم أيضًا.

وقد أجاب اليهود إلى حرب رسول الله ﷺ عدد من القبائل وجاؤوا إلى المدينة في عشرة آلاف رجل، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق وجعله بينه وبين الأحزاب، واجتمع مع رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف من المسلمين. ثم كان من نعمة الله وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، أن صرف أعداءهم وهزمهم وكفى شرهم، فلم يكن بينهم قتال، فقد دبت الفرقة بين المشركين، وتوالت المصائب على الأحزاب، وأرسل الله عليهم الريح والملائكة؛ فاقتلعت خيامهم، فأسرعوا بالرجوع إلى بلادهم. ورجع رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح. وقد نصر الله المؤمنين وهزم الأحزاب ولم ينالوا من المسلمين كما تمنى اليهود الذين جعل الله هذه الغزوة سببًا في

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥١-٥٢.

إظهارهم على حقيقتهم. وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، فنقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فلما نقضت بنو قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدًا.

نهاية يهود بني قريظة:

لما أيد الله - جلَّ شأنه - عبده ونبيه محمدًا ﷺ ونصره، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسوله ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: «وقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: «**فإلى أين**»؟ قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم»[1]، فعلم رسول الله ﷺ أن قتال الخونة يهود بني قريظة هو أمر من الله عزَّ وجلَّ، فأمر رسول الله ﷺ الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم بضع عشرة ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وزلزل سبحانه قلوبهم واشتد عليهم الخوف، وأيقنوا أنه لا مفر من وقوعهم في أيدي المؤمنين. فلما طال عليهم الحال أعلنوا نزولهم واستسلامهم أولاً على حكم رسول الله ﷺ، ثم عادوا فنزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية. وظنوا أن سعدًا قد يسأل رسول الله ﷺ إياهم فيهبهم له، كما حدث مع إخوانهم اليهود من بني قينقاع من قبل. فعند ذلك استدعى رسول الله ﷺ سعدًا من المدينة ليحكم فيهم.. فلما جاء

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة.

وجلس قال له رسول الله ﷺ: «**هؤلاء نزلوا على حكمك**». فأعلن سعد رضي الله عنه الحكم الصارم في حق يهود الخونة ناقضي العهد وخائني الرسول ﷺ والمؤمنين وخائني موطنهم، فقال ﷺ: تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، فقال له رسول الله ﷺ: «**قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك**»(١).

ثم تم تنفيذ الحكم في يهود بني قريظة وهم يعلمون أنهم يستحقون هذه العقوبة، فضُربت أعناق عدد منهم وهم المقاتلة، وسبي من لم تنبت عانته منهم مع النساء، وأورث الله المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم. ولهذا قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾(٢). لقد أنزلهم الله من حصونهم، وقذف في قلوبهم الخوف لأنهم كانوا مالؤوا أحزاب المشركين وساعدوهم على حرب النبي ﷺ، وأخافوا المسلمين ورامو قتلهم، فانعكس عليهم الحال، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا.

غزوة خيبر:

كان وفد اليهود الذين حرضوا الأحزاب على غزو المدينة قد تحرك من خيبر، كما تأكدت المعلومات للمسلمين أن يهود خيبر كانوا يخططون لغزو المدينة، وأخذوا يعدون يهود خيبر ووادي القرى وتيماء وما جاورها لضرب المدينة، وعقدوا حلفًا مع قبيلة غطفان لهذا الغرض، وشكلوا أحزابًا جديدة، وأخذوا في بث الدعايات عن قوتهم التي لا تُقهر، وأشاعوا أن لديهم قرابة عشرة آلاف مقاتل، وأن لديهم حصونًا منيعة، كما أنهم أخذوا يهددون المسلمين ويتوعدونهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٦-٢٧.

فاستعد المسلمون لهم، وبادر رسول الله ﷺ والمؤمنون معه الأحزاب اليهودية في خيبر قبل أن تبادرهم، حيث توجه إليهم رسول الله ﷺ ومعه نحوًا من ألف وأربع مئة مقاتل.[1]

فجاءها ليلاً، وكان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا، لم يكن يغزو حتى يصبح وينظر: فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم. فبات رسول الله ﷺ ولم يتعرض لهم بأذى في الليل، حتى إذا أصبح لم يسمع أذانًا. وخرج المزارعون اليهود في الصباح إلى مزارعهم ففوجئوا بالمسلمين فأدبروا هُرَّابًا إلى حصونهم وهم يرددون: محمد والله، محمد والخميس![2]، فلما رآهم رسول الله ﷺ، قال: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين**»[3]. فخرجوا يسعون في السكك، فقتل النبي ﷺ المقاتلة وسبى الذرية، وكان في السبي صفية بنت حيي بن أخطب، فتزوجها النبي ﷺ، وجعل عتقها صداقها، ثم أسلمت وصارت أمًّا للمؤمنين رضي الله عنها.

وقد افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، واستعصى حصن (القموص) على المسلمين، ولكن رسول الله ﷺ بشَّرهم بفتحه، وأنه ﷺ سيعطي الراية رجلاً يفتح الله على يديه، فأعطى الراية لعلي بن أبي طالب وقال له: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**»[4]. وقد فتح الله تعالى على علي رضي الله عنه كما أخبر رسول الله ﷺ، وتساقطت بقية حصون خيبر واحدًا تلو الآخر، حتى إذا أيقن يهود خيبر بالهلاك

(١) انظر: عبد العزيز العُمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور ٦١-٦٢، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

(٢) الخميس: الجيش.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر.

استسلموا على أن تحقن دماؤهم ويُسمح لهم بالرحيل عن خيبر. وبعد أن وقع الصلح بينهم وبين المسلمين على رحيلهم، سأل أهل خيبر رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها؛ فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، وقال ﷺ: «**أقركم ما أقركم الله به**»[1]؛ نتركم ما قدَّر الله أن نترككم فيها؛ على أنَّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وتبين أن الله قدَّر إخراجكم.

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل. فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئًا بين المسلمين، وكانت فدك خالصةً لرسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

وخرج رسول الله ﷺ من خيبر بعد أن رتب أمورها، فمر بوادي القرى فاستقبله اليهود بالرمي بالسهام وهم يصيحون في حصونهم، فعبَّى رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم. ثم دعا اليهود إلى الإسلام وأخبرهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز للقتال رجال منهم واحدًا تلو الآخر فقُتِلوا على يد أصحاب رسول الله ﷺ، حتى قُتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قُتل منهم رجل، دعا من بقي منهم إلى الإسلام، ولقد كانت الصلاة تحضر ذلك اليوم، فيصلي رسول الله ﷺ بأصحابه، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، وقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنَّمهم الله أموالهم، فقسم رسول الله ﷺ ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخيل في أيديهم وعاملهم عليها، فلما بلغ يهود تيماء ما عامل به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، بادروا إلى مصالحة رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب: إخراج اليهود من جزيرة العرب.

تسميم النبي ﷺ:

لما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، شاة مشوية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها؛ فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ؛ فأما بشر فأساغها. وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، فاعترفت؛ فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًّا فسيخبر. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ؛ ومات صاحبه بشر من أكلته التي أكل.

وكان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»[1].

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- اليهود أعجب أمة:

لقد اتفقت الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن على وصف اليهود بما يؤكد بأنهم أعجب أمة وُجدت على ظهر الأرض منذ موسى ﷺ إلى آخر الزمان...! واتفقت على أن الله تعالى قد غضب عليهم غضبًا شديدًا بسبب عصيانهم لله ولرسله واعتدائهم واستكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حَمَلة الشرع وهم الأنبياء، وأتباعهم، وأفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم. فعلى سبيل المثال من التوراة: وقالَ الرّبُّ لِموسى: «رأيتُ هؤلاءِ الشَّعبَ، فإذا هُم شعبٌ قُساةُ الرِّقابِ. والآنَ دع غضَبي يشتَدُّ علَيهِم فأُفنيَهُم»[2]. ومثال من القرآن، قال الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٢) الخروج ٣٢/٩-١٠.

تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1]. لأجل ذلك أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرد، ووضع عليهم الذلة والمسكنة، وألزموا بها شرعًا وقدرًا، فلا يزالون مستذلين، مَن وَجَدهم استذلهم وأهانهم وضربَ عليهم الصغار، وتوعدهم تعالى بأن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم العذاب...!.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]. إن أحكم الحاكمين لم يكلف اليهود بحمل رسالة الإسلام آخر الرسالات السماوية وخاتم الأديان وكلف بها العرب[3]؛ لأن اليهود قد فقدوا صلاحيتهم لحمل الدين فقدانًا أبديًا لفقدانهم القدرة على الانتفاع بوحي الله وتهذيب أنفسهم به[4]، فكيف يقدرون على نفع غيرهم به وتهذيبهم وفاقد الشيء لا يعطيه؟! وقد وصف الله حالهم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[5]. كما أن اليهود غير مؤهلين للجهاد في سبيل الله ودعوة الناس إلى توحيده وعبادته ونشر دينه الإسلام في العالم، بل إن الله تعالى بعلمه الغيب يعلم أنهم سيكونون أعداء الإسلام ومحاربيه ومحاربي معتنقيه، وسيعملون جهدهم على إفساده وتدميره كما فعلوا بدعوة رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام من قبل، بل وبدعوة موسى عليه السلام من قبل ذلك.

لم يذكر الله تعالى أنواعًا متعددة مختلفة من العذاب أنزله في الدنيا وسينزله في الآخرة على أمة مثلما ذكر عن اليهود في كتبه المقدسة الثلاثة...! فقد أخبر عزَّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(٢)سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) المقصود أن الله تعالى قد كلف رسولاً من العرب لتبليغ رسالة الإسلام وليس من بني إسرائيل.

(٤) وقد أخبرهم عيسى عليه السلام بهذا الأمر وأن الدين والرسالة ستسلم إلى غيرهم: «إن ملكوت الله يُنزَع منكم، ويُسَلَّمُ إلى شعبٍ يجتني منه ثمارًا» (متى: ٢١/٤٣).

(٥) سورة الجمعة، الآية: ٥.

شأنه أنه قد سخط عليهم، وغضب عليهم، وباؤوا بغضب على غضب، ولعنهم، وقاتلهم، وحرمهم من الطيبات، وطبع على قلوبهم، وجعل قلوبهم قاسية، وغل أيديهم، ووصفهم بأنهم أعداؤه، وعاقبهم بقتل أنفسهم، وبالتيه في الصحراء أربعين سنة، وبالصاعقة، والموت، والهلاك والدمار، والنكال، والخزي، والرجز، وقردة خاسئين، وخنازير، والعداوة والبغضاء، ويوم القيامة لهم العذاب المهين والأليم، وعذاب الحريق، وأشد العذاب، والويل، وفي العذاب خالدون... إلخ.

إن الجزاء من جنس العمل، والثمار من جنس الشجر، فهذا يتناسب تمامًا مع ما ذكرته الكتب المقدسة من الصفات والأقوال والأفعال الخبيثة والسيئة والظالمة التي جمعها اليهود على مر الزمان والأيام من: جبن، وبخل، وغدر، ومكر، وخيانة، وعصيان، واحتيال، وظلم، وقتل، وفحش، وصلف، وتعسف، وعنجهية، وكبر، وبهتان، وتعنت، ونقض للعهود، وتخلص من المواثيق... وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى! وقد أثبتوا على مر التاريخ أنهم إذا كانوا في حال الضعف والهوان فمن أجبن الناس، وإذا كانت لهم قوة وسطوة فمن أجبر الناس، وأشدهم سفكًا للدماء، وأكثرهم إفسادًا في الأرض!.

لقد عذَّبوا أنبياءً ورسلاً، وقتلوا آخرين، لأنهم جاؤوهم بما لا تهوى أنفسهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾[1]. إنما لم يقل سبحانه وفريقًا قتلتم، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل، لأنهم حاولوا أيضًا قتل رسوله محمد ﷺ بالسحر والسم.

وبالرغم من تحريفهم للتوراة بالزيادة والنقصان، لتتوافق مع أهوائهم، إلا أنها أيضًا لم تعد تلبي مطالبهم، ولم تعد تتوافق مع الصفات والأقوال والأفعال الخبيثة

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

التي اكتسبوها على مر الزمان، فصنفوا كتابًا جديدًا بالكلية هو (التلمود-المشناه)، ما أنزل الله به من سلطان، ففي العهد القديم: «ويتكهَّنونَ للشَّعبِ بالكَذِبِ، فيقولونَ: هكذا قالَ السَّيِّدُ الرّبُّ، والرّبُّ ما قالَ شيئًا»[1]؛ وإنما سطره أحبارهم وعلماؤهم فضمنوه كل أهواء اليهود الضالة، وبرروا فيه كل صفاتهم الخبيثة، وأحلوا فيه كل أعمالهم المحرمة، فاتبعوهم واتخذوهم أربابًا من دون الله؛ لأنهم أعطوهم ودونوا لهم ما يريدون ويشتهون، أما ما أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام في التوراة فإنه لم يعد كافيًا لهم، وهو ما تنبأ به موسى عليه السلام بأنهم سيفعلونه بعد موته! ولهذا أكد عليهم وأوصاهم قائلاً: «لا تزيدوا كلمةً على ما آمركُم به ولا تُنقِصوا منه، واحفظوا وصايا الربِّ إلهِكُم التي أُوصيكُم بها»[2]؛ وهو عليه السلام ما قال لهم ذلك إلا لأنه يعلم الطبائع الخبيثة لنفوسهم؛ ولهذا أخبرهم قائلاً: «فأنا أعلَمُ تمَرُّدَكُم وعِنادَكُم لأنِّي، وأنا معكُم في الحياةِ، تمَرَّدتُم على الرّبِّ، فكيفَ بَعدَ موتي؟ اجمَعوا إليَ شُيوخ أسباطِكُم وقادَتَكُم حتى أتلوَ على مَسامِعِهِم هذا الكلامَ، وأُشهِدَ علَيهِمِ السَّماءَ والأرضَ. فأنا أعلَمُ أنَّكُم بعدَ موتي ستَفسِدونَ وتحيدونَ عَنِ الطَّريقِ التي أوصَيتُكُم بِها، فيَنزِلُ بِكُمُ الشَّرُّ في آخرِ الأيّامِ إذا فعَلتُم ما هوَ شَرٌّ في نظَرِ الرّبِّ حتى تُكدِّروهُ بأعمالِ أيديكُم»[3].

بل إن (التلمود-المشناه) نفسه ظلَّ قاصرًا عن تلبية تطلعاتهم وطموحاتهم فكان لا بد من إضافة المناقشات والشروح عليه (التلمود-الجمارة) التي أصبحت هي أيضًا مقدسة لديهم ويجب العمل بها وكأنها منزلة من رب العالمين. قال الله تعالى عنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[4]، أي: إنهم حرموا عليهم الحلال

(١) حزقيال ٢٢/٢٨.

(٢) التثنية ٤/٢.

(٣) التثنية ٣١/٢٧-٢٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣١.

وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فيما حللوا وحرموا؛ فذلك عبادتهم إياهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، أي: الذي ما شرَّعه الله اتبع، وما حكم به نفذ، تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

لقد صارت كل الأعمال المحرمة في حق الإنسانية من ظلم وسرقة وغصب وربا وعدوان وتدمير وقتل... حلال لهم بنصٍّ من علمائهم وحاخاماتهم. وأصبحت لديهم نصوص تبرر لهم عقيدتهم ونظرتهم إلى كل الشعوب غير اليهودية على أنهم ليسوا بشرًا وإنما حيوانات خلقهم الله على صورة آدميين ليخدموهم، ويسمونهم: (أغيار- غوييم)[2]؛ سواء أكانوا عربًا أم عجمًا، وسواء أكانوا مسلمين، أم نصارى، أم وثنيين أم غيرهم...! ومن ثَم معاملاتهم لهم وممارساتهم معهم هي على أساس هذه النصوص؛ حتى مع كون هذه النصوص المنحرفة شرعيًّا وإنسانيًا هي بخط أيديهم، ومن بنات أفكارهم.[3] فبحسب (الهالاخاه)، على اليهود، ألا يسمحوا (إذا كان بمقدورهم)، بتعيين أحد الأغيار في أي مركز ينطوي على سلطة على اليهود، ومهما كانت هذه السلطة صغيرة.. ويمنع التلمود بصورة فظة، تقديم هدية لغير اليهودي. حتى عبارات المديح للأغيار ولأعمالهم تُمنع بناء على سلسلة من القواعد، وتُسمح إذا كان مثل هذا المديح ينطوي على مديح أكبر منه لليهود والأشياء اليهودية.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) الأغيار؛ بالعبرية (غوييم): مصطلح يهودي يطلقه اليهود على كل البشر غير اليهود، فاليهود قد قسموا البشر إلى قسمين: يهود وغوييم؛ يهود هم: شعب الله المختار، وباقي الناس هم: غوييم أو الأمميون غير اليهود، وبات لهذه الكلمة تفسير يحمل منتهى الاحتقار لكل شخص غير يهودي، هذا التفسير هو أن الغوييم هم حيوانات خلقهم الله على صورة آدميين ليخدموا اليهود.

(٣) راجع نماذج من المعاملات التي شرَّعها لهم علماؤهم وأوجبوها عليهم لممارستها وتطبيقها مع الأغيار في كتاب الديانة اليهودية وتاريخ اليهود لإسرائيل شاحاك صفحة ١٣٠ وما بعدها.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من قواعد التعامل مع الأغيار، توجد قواعد كثيرة أخرى، يعمل تأثيرها على كبح قيام علاقة صداقة إنسانية بين اليهود والأغيار. وهكذا يتعلم اليهودي من مطلع شبابه، وكجزء من دراساته المقدسة، بأن الأغيار يضاهون الكلاب، وبأن مدحهم معصية من المعاصي، وبأن اليهود لا يتوجب عليهم (الابتعاد) عن الأغيار فحسب، ولكن يتوجب عليهم أيضًا، «الطعن بتصرفاتهم كافة، وحتى لباسهم»[1]؛ لأن الشعب اليهودي هو أفضل الأجناس البشرية. أما (الأغيار- الغوييم)، فهم «مخلوقات شيطانية كلية، (لا يوجد فيها ما هو خير إطلاقًا). حتى إن الجنين غير اليهودي يختلف نوعيًا عن الجنين اليهودي. كما أن وجود غير اليهودي، بحد ذاته، وجود (غير ضروري)، حيث إن كل الخليقة كانت من أجل اليهود وحدهم!»[2].

فاليهود في صلاة الصباح اليومية يوجهون الحمد لله لأنه لم يجعلهم من الأغيار! وفي صلاتهم أيضًا «لعنة خاصة موجهة بالأصل، ضد المسيحيين، وضد اليهود الذين تحولوا إلى اعتناق المسيحية، وغيرهم من اليهود المارقين عن الدين. «وليفقد المرتدون كل أمل، وليهلك جميع المسيحيين على الفور»[3]. ويوجبون على اليهودي التقي إطلاق اللعنة عندما يمر بالقرب من مقبرة للأغيار، وحمد الله عندما يمر بالقرب من مقبرة يهودية. وهناك قاعدة مماثلة تنطبق على الأحياء؛ وهكذا، عندما يشاهد يهودي تقي حشدًا من السكان اليهود عليه أن يحمد الله، ولكنه عندما يشاهد حشدًا من السكان الأغيار عليه أن يطلق لعنة. وحتى المباني ليست معفاة: فالتلمود يقضي على اليهودي الذي يمر بالقرب من مسكن يقطنه غير يهود، بأن يطلب إلى الله تدميره، أما إذا كان المبنى مدمرًا فعليه أن يشكر إله الانتقام. ولما

(١) إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود ١٥٨.

(٢) المصدر السابق ٥٥.

(٣) المصدر السابق ١٥٣.

أصبح التقيد بذلك متعذرًا حُصرت القاعدة بالكنائس وأماكن العبادة الخاصة بالديانات الأخرى... وأصبح مألوفًا أن يبصق اليهودي (ثلاث مرات عادة) لدى مشاهدته لكنيسة أو صليب[1].

وهكذا شرَّع لهم حاخاماتهم هذه التشريعات التي ميَّزوهم فيها عن باقي خلق الله أجمعين؛ فجعلوهم أفضل الأجناس البشرية، وبأنهم شعب الله المختار؟! أما الله عزَّ شأنه فيقول: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾[2]. فالله - جلَّ جلاله - كرَّم بني آدم جميعًا وفضَّلهم على كثير ممن خلق من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. ثم يكون الأكرم عنده من بني آدم هم أتقاهم له، وأكثرهم اتباعًا لدينه الإسلام، وأشدهم اقتداءً بخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾[4]. فالمفاضلة عند الله بالتقوى على أساس دين الإسلام لا بالجنس ولا بالأحساب. وتفضيل الله بني إسرائيل على العالمين إنما كان ذلك قبل بعثة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، أما بعد بعثته ﷺ فلا فضل لهم إطلاقًا إن لم يؤمنوا به ويدخلوا في دين الإسلام خاتم الأديان وناسخها.

وبسبب اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ زعموا أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، فرد الله عليهم: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً**

(١) المصدر السابق ١٥٤ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، أي: ظننتم أنكم تمكثون في النار أيامًا قليلة ثم تنجون منها، فهل اتخذتم عند الله عهدًا بذلك؟! فإن كان قد وقع عهد فالله - عزَّ وجلَّ - لا يَخلف عهده، ولكن هذا لا جرى ولا كان، بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. وليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته؛ فهذا من أهل النار.

وكقولهم: لن يدخل الجنة إلا مَن كان هودًا أو نصارى؛ أكذبهم الله، وألزمهم الحجة، فقال تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. أي: إن كنتم تعتقدون ما تدعونه من دعاوى، وإن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمدًا وأصحابه على ضلالة، وأن لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين فيما تزعمونه، وباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة، لما يعلمون من كذبهم وافترائهم، وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم. وقد قال بعضهم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف.

فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت بما يعملون من الكفر والظلم والفجور، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٨٠-٨١

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٦.

أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]. فهم حريصون على طول العمر؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو يتأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمنجيه من العذاب.

إن اليهود ملعونون على ألسنة أنبيائهم ورسلهم من بني إسرائيل، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[2]. لعنهم داود عليه السلام، ففي المزمور الثامن والسبعين: «وما كادوا يُشبِعونَ شهوتَهُم والطَّعامُ بَعْدُ في أفواهِهِم، حتى ثارَ علَيهِم غضَبُ الله وقضى على الأقوياءِ منهُم، وصَرعَ النُّخبةَ في بَني إسرائيلَ. معَ هذا كُلِّه عادوا يَخطَؤونَ ولا يُؤمِنونَ بمُعجزاتِه، فأفنى أيّامَهُم بنَفخةٍ وسنينَ حياتِهِم بلَعنَةٍ. كُلَّما فَتَكَ بِهِم طَلَبُوهُ وتابوا وبَكَّروا إليهِ وذكَروا أنَّ اللهَ هوَ خالِقُهُم وأنَّ الإلهَ العليَ هوَ فاديهِم. لكنَّهُم خادعوهُ بأفواهِهِم، وبألسنَتِهِم كذَبوا علَيهِ. فما ثبَتَت قلوبُهُم معَهُ ولا كانوا أُمناءَ لعَهدِه»[3].

وكذلك لعنهم عيسى عليه السلام، فقال مما ذُكر في الأناجيل الأربعة المختارة: «الويلُ لكُم يا مُعَلِّمي الشَّريعةِ والفَريسيونَ المُراؤونَ! أنتُم كالقُبورِ المبيَضَّةِ، ظاهرُها جميلٌ وباطنُها مُمتَلئ بعِظامِ الموتى وبكُل فسادٍ. وأنتُم كذلكَ، تَظهَرونَ للنّاسِ صالحينَ وباطنُكُم كُلُّهُ رياءٌ وشَرٌّ. الوَيلُ لكُم يا مُعَلِّمي الشَّريعةِ والفَريسيّونَ المُراؤونَ! تَبْنونَ قُبورَ الأنبياءِ وتُزَيِّنونَ مدافِنَ الأتقياءِ، وتَقولونَ: لو عِشنا في زَمَنِ آبائِنا، لما شارَكْناهُم

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٩٥-٩٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

(٣) المزمور ٧٨، العدد: ٣٠-٣٧.

في سَفْكِ دَمِ الأنبياءِ. فتَشهَدونَ على أنفُسِكُم بأنَّكُم أبناءُ الَّذينَ قَتلوا الأنبياءَ. فتَمِّموا أنتُم ما بَدأَ به آباؤُكُم. أيّها الحيّاتُ أولادَ الأفاعي! كيفَ ستَهرُبونَ مِنْ عِقابِ جَهنَّمَ؟ لذلكَ سأُرسِلُ إلَيكُم أنبياءَ وحُكَماءَ ومُعَلِّمينَ، فمِنهُم مَنْ تَقتُلونَ وتَصلِبونَ، ومِنهُم مَنْ تَجلِدونَ في مجامِعِكُم وتُطارِدونَ مِنْ مدينةٍ إلى مدينةٍ، حتَّى يَنزِلَ بِكُم العِقابُ على سَفكِ كُلِ دمٍ بريءٍ على الأرضِ، مِنْ دمِ هابيلَ الصِّدّيقِ إلى دمِ زكريّا بنِ بَرَخيّا الَّذي قتَلتُموهُ بَينَ المَذبحِ وبَيتِ الله»[1].

ولهذا فهم يعلمون في قرارة أنفسهم، أو يشعرون بأنهم قد خسروا الآخرة، فيريدون التعويض عنها بأقصى ما يمكن لهم تعويضه من الاستحواذ على الكرة الأرضية بما فيها من بشرٍ وجاهٍ وسلطةٍ وأموالٍ، ويحكمون العالم بأجمعه...! وسواء أكانوا يعلمون أم يشعرون أم غير ذلك، فهم قد خسروا الآخرة يوم أن أصبحوا كافرين بدعوة رسولهم عيسى عليه السلام، وقرروا قتله فأخزاهم الله، ورد كيدهم إلى نحورهم، ورفعه إليه لينزله في آخر الزمان مرة أخرى لينتقم به منهم ومن ملكهم الدجال. ثم أصروا على خسران الآخرة يوم أن أنكروا رسول الله محمدًا ﷺ، وحاولوا قتله أيضًا بعدة طرق، فأخزاهم الله مرة أخرى، وجعل الدائرة عليهم، فأجلاهم وقتلهم.

لم يعيشوا في بلد إلا وذاقوا من أهلها الذل والإهانة وأصناف الشر؛ سواء عاشوا بين أظهر النصارى، أو بين أظهر الوثنيين؛ فمن ظلم واضطهاد، وأسر وسبي، وتشريد وقتل بالجملة، حتى إذا بعث الله - عزَّ وجلَّ - رسوله محمدًا ﷺ بدين الإسلام، وهاجر إلى المدينة كما كانوا ينتظرون، والتقوا به، لم يروا منه ومن أتباعه المسلمين إلا الرحمة والرأفة، وعقب وصوله ﷺ إلى المدينة كتب كتابًا وادعهم فيه وعاهدهم على أنفسهم وأموالهم، ولكن السلام والأمان والعدل والرحمة هي أمور لا

(١) متى ٢٣/٢٥-٣٥.

تتفق مع طبعهم، فسرعان ما أخذوا في ممارسة ما هو راسخ في شخصيتهم، من الغدر والخيانة ونقض العهود، وإخلاف الوعود؛ فغدروا بالمسلمين ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، بل وخططوا لقتله كما هي سيرتهم مع مَن سبقه من الرسل والأنبياء، ومع مَن يخالف ما تهوى به أنفسهم ويوجه لهم النقد والاتهام، ومع مَن يحارب أباطيلهم وضلالاتهم!.

- اليهود ضيعوا فرصة الإسلام:

وماذا بعد عن يهود الجزيرة العربية...؟! إن أكثر الأنبياء والرسل قد أرسلهم الله تعالى إلى أمة اليهود دون غيرها من الأمم؛ فيُفترض أن تكون أمتهم أتقى أمة وأكثرها إيمانًا بالله لِما رأته من الآيات المعجزات التي لا تعد ولا تحصى...! كما أنهم بما عندهم من علم بكتب الله المقدسة فقد كان يُفترض بهم أن يكونوا أول المؤمنين برسول الله محمد ﷺ وأول الداخلين في الإسلام.. ولكن واقع أمتهم يدل على العكس من ذلك؛ لذا فهي أمة من أعجب الأمم...!.

لقد اختاروا الشدة والتعنت والغلو في الدين، وكبلوا أنفسهم بآصار وأغلال لا يستطيعون الفكاك منها، مع أن الله - عزَّ وجلَّ - قد منحهم فرصتين للفكاك منها، الأولى، وهي: دعوة عيسى المسيح عليه السلام، الذي لم يكن إلا واحدًا منهم، ولكنهم اختاروا الجمود على ما لديهم ولم يقبلوا دعوته التي أكد لهم بأن الله تعالى قد أرسله بها إليهم، وقال عليه السلام: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾[1]. فقد كان عيسى عليه السلام على شريعة موسى عليه السلام، وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس، وطمأنهم وقال لهم: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة، إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وأضع عنكم من الآصار. فرفضوا دعوته وحاربوه وافتروا عليه وعلى أمه، ولم يدعوه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

حتى اتفقوا على قتله؛ وباشروا التنفيذ! «فبحسب التلمود، أعدم السيد المسيح بحكم من محكمة حاخامية بتهمة عبادته للأصنام وتحريض اليهود الآخرين على عبادة الأصنام، واحتقاره السلطة الحاخامية، والمصادر اليهودية الكلاسيكية كافة التي تذكر إعدامه، سعيدة تمامًا بتحمل مسؤولية ذلك؛ حتى إن الرواية التلمودية لم تأت على ذكر الرومان.. ولقد كان اسم (يسوع) بحد ذاته، بالنسبة إلى اليهود، رمزًا لكل ما هو بغيض، وما زال هذا التقليد الشعبي مستمرًا»[1]. وهكذا رفضوا التخفيف من رب العالمين وأضاعوا الفرصة التي أرسلها الله إليهم، بل واتهموا عيسى عليه السلام بالتهم والافتراءات الجاهزة لديهم لأهل الدين الصحيح، وللذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ثم أتتهم الفرصة الثانية التي كانوا هم أنفسهم ينتظرونها منذ أمد بعيد، لأن الله تعالى يقول: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[2].

فهذا هو محمد ﷺ الرسول النبي الأمي الذي كانوا ينتظرون مبعثه بناء على ما لديهم من البشارة به في التوراة، وجاؤوا إلى المدينة لانتظاره لكونهم كانوا يعلمون أيضًا من كتبهم أنه مبعوث وأنه سيهاجر إلى المدينة ليقيم بها ويؤسس دولته التي كانوا يطمعون أن تكون دولتهم هم! فلما بعثه الله صُعقوا وأغمي عليهم عندما علموا أنه من غيرهم وأنه من (الأغيار- الغوييم)! فأنكروه لأنه لم يكن يهوديًا مثلهم ولا من بني إسرائيل عليه السلام، بل كان حنيفًا مسلمًا من العرب من بني إسماعيل عليه السلام. فموسى

(١) إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود ١٦٠-١٦١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

عليه السلام نفسه مع كونه منهم قد عانى الكثير من معاملتهم له، ولم يجد منهم إلا الجحود والعصيان المستمر، والتشكي الدائم، والندم على اتباعهم وطاعتهم له في الخروج من مصر والرحيل إلى بيت المقدس، ومع وجوده معهم وبين أظهرهم تركوا ربه وعبدوا العجل! حتى ألجؤوا موسى عليه السلام إلى التضرع إلى الله والشكوى إليه منهم، قائلاً: «ماذا أفعَلُ بهؤلاءِ الشَّعبِ؟ بعدَ قليلٍ يرجمونَني»[1]. وهكذا كفروا لمَّا جاءهم ما عرفوا، ولم يكونوا من حزب المفلحين الذين يؤمنون بالنبي الأمي محمد ﷺ وينصرونه ويتبعون النور الذي أُنزل معه، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن يُنزل الله من فضله على مَن يشاء من عباده، فباؤوا بغضب على غضب، ولعنهم الله...!.

فلما صُعقوا وأغمي عليهم من كون محمد ﷺ من الأغيار ومن العرب بالذات، لم يفيقوا من إغمائهم إلا ورسول الله ﷺ عندهم في المدينة، فما وجدوا معاملة أطيب وأرحم مما عاملهم بها رسول الله ﷺ والمسلمون، ولكنهم كما نصت التوراة: شعبٌ قُساةُ الرِّقابِ!. وصدق القرآن التوراة، فقال الله تعالى توبيخًا لهم وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آياته وإحيائه الموتى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾[2].

إن رقابهم وقلوبهم كالحجارة التي لا تلين أبدًا، ولا علاج للينها، أو هي أشدُّ قسوة من الحجارة. ومن قسوة رقابهم وقلوبهم لم يجد منهم رسول الله ﷺ بالمقابل إلا القسوة في المعاملة وفي الكلام وفي كل شيء! فبادروا إلى الكفر به وحسدوه، هذا مع معرفتهم به أنه النبي المنتظر، وعند اللحظات الحاسمة التي يتحدد فيها مصير واحد منهم، إما إلى الجنة وإما إلى النار، خاصة إذا كان فلذة كبد أحدهم،

(١) الخروج ١٧/٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

فإن والده يترك الحق يأخذ مجراه، وهذا ما حدث فقد (كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»)[1]. وقد قيل: إن الرجل منهم كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له: تمسك بدين محمد فإنه نبي حقًّا.

وقد جاء وفد من قريش من مكة إلى يهود المدينة ليستفتونهم في محمد ﷺ باعتبارهم أهل التوراة، وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عند قريش، فوصفوا لهم صفته، وأخبروهم ببعض قوله، فقال لهم أحبارهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل، فهو رجل متقول. وقد علموا أن النبي ﷺ قد أخبرهم بهذه الثلاث بعدما جاءه جبريل من الله - عزَّ وجلَّ - بسورة الكهف، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، والروح. ومع ذلك لم يؤمنوا هم بأنه نبي ويتبعوه كما أوصوا قريشًا وكما أفتوهم، وخالف فعلهم قولهم، فهكذا هم دائمًا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، أفلا يعقلون؟!.

فمنذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يكفوا عن الاستهزاء به، ووصفهم له بالصفات المبتذلة، ومجادلته ومماراته في المسائل الدينية، وحياكة المؤامرات ضده وضد دينه! لقد دعاهم ﷺ إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، ولو أجابوه ودخلوا في الإسلام لفازوا في الدنيا والآخرة، ولكنهم أبوا إلا البقاء على ما هم عليه، ولو كانوا يؤمنون بالتوراة حقيقة وفعلاً لاتبعوا الرسول النبي

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟...

الأمي المكتوب فيها، ولكنهم لا يؤمنون سوى بأهوائهم، ولا يؤمنون بالتوراة؛ ولهذا تنكروا لنصوص التوراة وتعاليمها التي توجب عليهم الإيمان بالنبي محمد ﷺ ونصرته، بل أنكروا وجود مثل هذه النصوص في التوراة لكي يبرروا عدم إيمانهم به وعدم اتباعهم له، بل وليبرروا عداوتهم له ما حيوا، كما صرح بذلك بعض الرؤساء والسادة منهم. ولكن المخلصين منهم أمثال: عبد الله بن سلام وهو من علمائهم وأحبارهم قد آمنوا برسول الله ﷺ الذي عرفوه بصفاته المذكورة في التوراة.

ولم يقتصر نكرانهم وبهتانهم على ذلك، بل إنهم بخلوا حتى بالسلام على النبي ﷺ، فكانوا بدلاً من قول: السلام عليكم، يقولون له: السام عليك، فيدعون عليه بالموت، بل إن خبثهم واستهزاءهم تعدى رسول الله ﷺ ليصل إلى الله تعالى نفسه، فتطاولوا على ربهم الذي خلقهم وأوجدهم ورزقهم وأغناهم...! هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى لهم: ﴿ **وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[1]. أي: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا.

فإن كانوا قد ضيعوا الفرصة العظيمة التي منحهم الله إياها لدخولهم جميعًا في الإسلام على عهد رسوله محمد ﷺ، فليبشروا...! فإن الفرص ظلت وستظل سانحة أمامهم إلى آخر الزمان لكي يدخلوا في الإسلام، وما عليهم سوى اغتنام هذه الفرص ليدخلوا في الإسلام أفواجًا، كما دخله من أسلافهم أفرادًا، وليعلموا أن باب التوبة من الكفر، والاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله سيظل مفتوحًا إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وما لم تبلغ روح كل منهم حلقومه فيتغرغر بها. فالبدار البدار إلى الإسلام.

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨١-١٨٢.

نهاية أمة اليهود في جزيرة العرب:

سبحان الله ما أعظم دينه الإسلام...! سبحانه قال وقوله الحق، ولا حاجة لأي دليل مع قوله ليُعرف أن المسلمين هم المؤمنون الأخيار الأبرار، وهم أهل الخير، وأن غيرهم هم الكفار الأشرار الفجار، وهم أهل الشر.

إن رسول الله ﷺ قد أوصى قبل وفاته بألاَّ يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يُجلى اليهود والنصارى منها، وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بُعِث فيها ﷺ إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدُّوا عنه. فقد أمر رسول الله ﷺ: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[1]، وقال ﷺ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلمًا**»[2]. ولكن الرسول الكريم ﷺ لم يعش حتى يخرجهم بنفسه، ولم يكن قد بقي من اليهود سوى الذين في خيبر التي افتتحها ﷺ عنوة بعد القتال، وكانت خيبر مما أفاء الله على رسوله ﷺ، خمسها رسول الله ﷺ، وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال. فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها، وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وأقركم ما أقركم الله، فقبلوا، فكانوا على ذلك يعملونها. وكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة، فيقسم ثمرها، ويعدل عليهم في الخرص.

فلما توفي النبي ﷺ، أقرها أبو بكر ﷺ بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله ﷺ، حتى توفي؛ ثم أقرها عمر ﷺ صدرًا من إمارته. ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب

---

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٢٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

دينان؛ ففحص عمر ذلك، حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود، فقال: إن الله - عزَّ وجلَّ - قد أذن في جلائكم، قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان؛ فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به، أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود، فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر، مالاً وإبلاً وعروضًا من أقتاب وحبال وغير ذلك.

نهاية أمة الروم أعداء محمد ﷺ
في الشام

دعوة الروم إلى الإسلام:

لقد أمر الله - عزَّ وجلَّ - رسوله محمدًا ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[1]. فأطاع رسول الله ﷺ أمر ربه وأرسل كتبًا إلى ملوك الأمم الأخرى يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان من بين تلك الكتب كتاب إلى هرقل ملك الروم في بلاد الشام، وهي فلسطين والأردن وسوريا ولبنان، وجاء في الكتاب: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[2]»[3].

ففي هذا الكتاب جمل من القواعد وأنواع من الفوائد، منها: الملاطفة فقال ﷺ: عظيم الروم، أي الذي يعظمونه ويقدمونه. وقد أمر الله تعالى باستعمال الحكمة والموعظة الحسنة وإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام. ومنها دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم. وهذا الدعاء واجب. والقتال قبله حرام إن لم تكن بلغتهم دعوة الإسلام. فالإسلام لا يُفرض فرضًا على الناس، ولا يُجبرون على الدخول فيه بقوة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.

السلاح؛ لأنه لا إكراه في الدين، وإنما ذلك يعود لهم، فإن رفضوا الإسلام فعليهم الجزية، فإن رفضوا الجزية أيضًا، فعندها لا بد من القتال الذي لا مفر للمسلمين من أن يخوضوه. ومنها: أن من أدرك من أهل الكتاب نبينا ﷺ فآمن به فله أجران. ومنها البيان الواضح: أن من كان سببًا لضلالة، أو سبب منع من هداية كان آثمًا.

بعد أن تسلم هرقل كتاب رسول الله ﷺ أراد أن يتحقق من أمر النبي ﷺ فسأل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم. فأتوا بأبي سفيان بن حرب الذي كان في غزة في ركب من قريش في تجارة بالشام، «فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه...». فأخذ يسأل أبا سفيان سؤالاً بعد آخر حتى إذا فرغ من أسئلته قال: «سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم حتى أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه». لما تأكد هرقل من

أمر النبي ﷺ، وأنه النبي المنتظر قال: «هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يروم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي. فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي. وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل»[1].

لقد كان لهرقل هذا فراسة وبعد نظر، ولعل قناعته بأن هذا النبي حق وأنه النبي المنتظر؛ هي التي جعلته يطلب من قومه أن يوافقوه ويبايعوا النبي ﷺ، ولكن قومه هاجوا وماجوا وغلبوه. أما قول هرقل: فسيملك موضع قدمي هاتين. فقد صدق، فما كان بين قوله هذا وبين تحقق ما قال بامتلاك المسلمين ما تحت قدميه من القدس وفلسطين وبقية الشام إلا نحوًا من تسع سنوات.

غزوة تبوك سنة ٩هـ:

لقد نصر الله دينه الحق الإسلام، وأعلى كلمته: لا إله إلا الله، على كامل الجزيرة العربية، وإنفاذًا لوعده: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[2]. وكذلك وعده باستخلاف المؤمنين في الأرض، وبإظهار الإسلام على الأديان كلها ولو كره المشركون؛ وكذلك أمره: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ**

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1]؛ فقد عزم رسوله الكريم محمد ﷺ على قتال الروم، إذا لم يسلموا ولم يوافقوا على دفع الجزية؛ لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق؛ لقربهم إلى الإسلام وأهله. وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2].

فلما عزم رسول الله ﷺ على غزو الروم عام تبوك، وكان ذلك في حر شديد وضيق من الحال، أبلغ للناس بذلك ودعا من حوله من أحياء الأعراب للخروج معه، فخرج إلى الغزو بشر كثير، قريبًا من ثلاثين ألفًا، وتخلف ثلاثة، فعاتب الله جلَّ شأنه مَن تخلف منهم لغير عذر من المنافقين والمقصرين، ولامهم ووبخهم وقرعهم أشد التقريع، وفضحهم أشد الفضيحة، وأنزل فيهم قرآنًا يُتلى وبيَّن أمرهم في سورة براءة. وأمر المؤمنين بالنفر على كل حال، فقال تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[3].

فلما نزل رسول الله ﷺ وجيشه في تبوك، «**بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرِ دومة**[4]، **فأُخذ، فأتوه به، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية**»[5]. وكان رسول الله ﷺ قد نهى خالدًا عن قتل أكيدر وهو من النصارى العرب وأمره أن يحضره إليه، فلما أحضره حقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته. وقد بلغ ملوك الروم نزول رسول الله ﷺ وجيشه في تبوك، فأتاه يوحنا بن رؤبة، صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح،

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٤) هي دومة الجندل قرب تبوك.

(٥) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٢٦٢١.

فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً فهو عندهم أمَّنهم فيه وعقد لهم الذمة.

أما هرقل فقد «دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليَّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن ما تحت قدمي، فهلم نتبعه على دينه أو نعطيه مالنا على أرضنا. فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟ فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم ولم يكد، وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم. ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه»[1].

وقد سأل هرقل رسول الله ﷺ في كتابه عن بعض المسائل، وأوصى حامل كتابه بأن يتأكد له عن ثلاثة أشياء من النبي ﷺ، ومنها أن ينظر في ظهر النبي ﷺ ليرى إن كان به شيء يريبه، فهو يريد أن يتأكد من وجود ختم النبوة في ظهر النبي ﷺ. ولما جاء الرجل إلى النبي ﷺ، قال له النبي الكريم ﷺ: «**هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم**»[2]، قال: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك صاحب الخُلُق العظيم ﷺ وقال: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[3]. وقد تأكد الرجل من

(١) مسند أحمد، رقم: ١٥٥٩٢، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٢) مسند أحمد، رقم: ١٥٥٩٢، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.

الأشياء التي أوصاه هرقل بها إلا الختم فلم يطلب من النبي ﷺ أن يكشف له عن ظهره، ولكنه حين خرج من المجلس ناداه رسول الله ﷺ، فأقبل الرجل يهوي إلى مجلسه الذي كان فيه بين يدي النبي ﷺ، فحل النبي ﷺ حبوته عن ظهره، وقال: «**ههنا امض لما أمرت له**»[1]. فرأى الرجل خاتم النبوة في ظهر النبي ﷺ في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة. وهكذا كفى الله - عزَّ وجلَّ - رسوله ﷺ والمؤمنين القتال، وجاء بملوك الروم إليه لدفع الجزية عن يد وهم صاغرون. وبعدها عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة.

ثم جهز رسول الله ﷺ جيشًا وأمَّر عليه أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين. فتوفي رسول الله ﷺ قبل أن ينفذ هذا الجيش، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق ﷺ، فوجه أسامة للقاء الروم في البلقاء، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين. ثم جهَّز الخليفة الصديق ﷺ الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم. وانطلق المسلمون خارج الجزيرة العربية للدعوة إلى الله، ودعوة الناس إلى توحيده وإفراده بالعبادة، ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم.

وقعة اليرموك سنة ١٣هـ:

إنفاذًا لأمر الله - عزَّ وجلَّ - بالجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته لتكون هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وطاعة لله بقتال الكفار الذين لا يدينون دين الحق من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون؛ توجهت الجيوش الإسلامية نحو الشام بقيادة أربعة أمراء هم: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم، فأفزع ذلك الروم

(١) مسند أحمد، رقم: ١٥٥٩٢، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

وخافوا خوفًا شديدًا، وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بما كان من الأمر. فلما انتهى إليه الخبر قال لهم: ويحكم! إن هؤلاء أهل دين جديد، وإنهم لا قِبَلَ لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام، ويبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك، أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم. فنخروا من ذلك، كما هي عاداتهم في قلة المعرفة والرأي بالحرب والنصرة في الدين والدنيا. فعند ذلك سار إلى حمص، وأمر هرقل بخروج الجيوش الرومية، صحبة الأمراء في مقابلة كل أمير من المسلمين جيش كثيف. وجميع عساكر المسلمين واحد وعشرون ألفًا سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبي جهل، وكان واقفًا في طرف الشام ردءًا للناس في ستة آلاف، فكتب الأمراء إلى أبي بكر وعمر يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم، فكتب إليهم أن اجتمعوا فتكونوا جندًا واحدًا، والقوا جنود المشركين، فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها، وليُصلِّ كل رجل منكم بأصحابه.

ولما بلغ هرقل ما أمر به الصديق أمراءه من الاجتماع، بعث إلى أمرائه أن يجتمعوا أيضًا، وأن ينزلوا بالجيش منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب. وكان عدد هذا الجيش أكثر من مئة ألف، وقيل: مئة وعشرون ألفًا، وقيل: مئتا ألف. فسارت الروم فنزلوا قريبًا من اليرموك، وبعث الصحابة إلى الصديق يستمدونه، ويعلمونه بما اجتمع من جيش الروم، فكتب الصديق إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق، وأن يقفل بمن معه إلى الشام، فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم. فسار خالد مسرعًا، ووصل في خمسة أيام، فخرج على الروم من حيث لم يتوقعوا، ثم سار حتى التقى مع بقية جيوش المسلمين بالقرب من اليرموك. وقد تمكن في طريقه من فتح (تدمر) و(حوران) و(بصرى).

وكان قائد الروم قد بعث رجلاً من نصارى العرب ليتجسس على المسلمين ويعرف أحوالهم المختلفة، فلما رجع إليه وصف له حال المسلمين فقال: وجدت قومًا رهبانًا

بالليل فرسانًا بالنهار، والله لو سرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنا لرجموه. فقال له القائد: والله لئن كنت صادقًا لبطن الأرض خير من ظهرها لمن يريد قتالهم ولقاءهم.

وأقبل ماهان مددًا للروم، ومعه القساوسة، والشمامسة والرهبان، يحرضونهم على القتال لنصر دين النصرانية، فتكامل جيش الروم أربعين ومئتي ألف؛ ثمانون ألفَ مسلسل بالحديد والحبال، وثمانون ألفَ فارس، وثمانون ألفَ راجل. وقدم عكرمة بمن معه من الجيوش فتكامل جيش الصحابة ستة وثلاثين ألفًا إلى الأربعين ألفًا. ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها، كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم على القتال. وقد اختاروا موقعًا ضيقًا حشرهم الله فيه بأيديهم وهم يظنون أنهم قد أحسنوا صنعًا، فكان ذلك لمصلحة المسلمين وتيسيرًا لهم، وقد اختار المسلمون موقعًا مفتوحًا ييسر لهم الحركة. ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان، توزع القراء بين المسلمين وهم يقرؤون سورة الأنفال، ويردد المجاهدون وراءهم، وأخذ الوعاظ يحثون المسلمين على الصبر والثبات أمام الأعداء.

وبدأت المعركة، وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحى. ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب، فقتل في حملته هذه ستة آلاف منهم، ثم قال: والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم. ثم اعترضهم فحمل بمئة فارس معه على نحوٍ من مئة ألف، فما وصل إليهم حتى انفض جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فانكشفوا وحاولوا الفرار من المعركة مذعورين، وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم.

وعند ذلك تضعضعت الروم وهرب فرسانهم، واشتدت بهم في تلك الصحراء، وأفرج المسلمون لهم فرجة ليفروا منها، ففروا منهزمين طالبين النجاة لأنفسهم،

وعمد المسلمون إلى رجالة الروم فشدوا عليهم بالسيوف، فتراجعوا إلى الوراء حتى وصلوا إلى حافة الجبل، فجعل الذين تسلسلوا وقيدوا بعضهم ببعض - حتى يثبتوا ولا يفروا - إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه في السلسلة. فسقط في الوادي الكثير منهم وهلكوا دون قتال، وانتصر المسلمون في هذه المعركة التي دامت يومًا وبعض اليوم. وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم. وقد استشهد في هذه المعركة نحوًا من ثلاثة آلاف من المسلمين فيهم جمع من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وقُتِل من الروم قرابة مئة ألف مقاتل.

فلما كان الصباح حاز المسلمون ما كان هنالك من الغنائم، وما فرحوا بما وجدوا بقدر حزنهم على الصديق حين علموا بوفاته، ولكن الله تعالى عوضهم بالفاروق رضي الله عنه. وقد تولى أبو عبيدة قيادة جيوش المسلمين بعد ذلك. وكانت وقعة اليرموك معركة فاصلة بين المسلمين والروم، مهدت لفتح كامل الشام. ولما وصل خبر نتيجة هذه المعركة إلى هرقل ارتحل من حمص باتجاه الشمال وهو يشعر باليأس والحسرة، وقال: سلام عليك يا سورية سلام مودع لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا.

فتح الشام:

- فتح دمشق:

بعد معركة اليرموك سار الجيش الإسلامي باتجاه دمشق المحصنة بالأسوار والمياه من جوانبها المختلفة، وحاصروها حصارًا شديدًا نحوًا من سبعين ليلة. وأهل دمشق ممتنعون منهم غاية الامتناع، ويرسلون إلى ملكهم هرقل وهو مقيم بحمص، يطلبون منه المدد، فلا يمكن وصول المدد إليهم؛ لأن الجيش الإسلامي قد قطع خط الإمداد من هذه الجهة. فلما أيقن أهل دمشق أنه لا يصل إليهم مدد تحيروا وفشلوا وضعفوا، وقوي المسلمون واشتد حصارهم.

وجاء فصل الشتاء واشتد البرد وعسر الحال وعسر القتال وعانى المسلمون أشد المعاناة، وقد أعدوا السلالم والحبال لتسلق الأسوار. فقدَّر الله جلَّ جلاله، أن ينشغل

أهل دمشق باحتفال لهم، فناموا عن مواقعهم، واشتغلوا عن أماكنهم، وفطن لذلك أمير الحرب خالد بن الوليد، فإنه كان لا ينام ولا يترك أحدًا ينام، بل مُراصِد لهم ليلاً ونهارًا، وله عيون وقُصَّاد يرفعون إليه أحوال المقاتلة صباحًا ومساءً، فلما رأى خمدة تلك الليلة، وأنه لا يقاتل على السور أحد، وكان قد أعد سلالم من حبال، فجاء هو وأصحابه من الصناديد الأبطال، وقد أحضر جيشه عند الباب، وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق السور فارقوا إلينا. ثم نهد هو وأصحابه فقطعوا الخندق سباحة، فنصبوا تلك السلالم وثبتوها على الأسوار، وصعدوا عليها، فلما استووا على السور رفعوا أصواتهم بالتكبير، وجاء المسلمون فصعدوا في تلك السلالم وانحدر خالد وأصحابه الشجعان إلى داخل السور وقاتلوا حتى فتحوا الباب، فاندفع جيش المسلمين إلى داخل دمشق، ولما سمع أهل البلد التكبير ذهلوا، واتجه زعماؤهم إلى الأبواب الأخرى وصالحوا أبا عبيدة رضي الله عنه على التسليم. وكان بعض دمشق قد فُتِح صلحًا وبعضها عنوة، فاتفق الصحابة فيما بينهم على أن يجعلوا نصفها صلحًا ونصفها عنوة، فملك أهلها نصف ما كان بأيديهم وأُقِروا عليه، واستقرت يد الصحابة على النصف.

وبعد فتح دمشق سار أبو عبيدة بن الجراح بمن معه من المسلمين إلى جنود الروم في فحل، وكانوا قرابة ثمانين ألفًا، وقام الروم بتفجير المياه حول فحل، حيث كانت بها مستنقعات تمنع تقدم المسلمين، فأخذ المسلمون يحاصرونهم، فخرج الروم للإغارة على المسلمين ليلاً، ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، حيث استعدوا لهذه المفاجأة، واشتبك المسلمون مع الروم في موقعة كبيرة، وأخذ الروم ينهزمون، وحاولوا العودة إلى فحل، ولكنهم أخطؤوا الطريق فوقعوا في المستنقعات التي أعدوها للمسلمين، وجعل الله الوحل الذي كرهه المسلمون معينًا لهم على النصر، فلم يفلت من الروم إلا الشريد، وكانت هذه المعركة من أكبر الانتصارات المهمة على الروم في الشام.[1]

(١) راجع: عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور ١٣٥، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

- فتح حمص وقنسرين:

بعد فتح دمشق اتجه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ومعه جموع من المسلمين إلى حمص لفتحها، فأعد هرقل ملك الروم جيشًا لإعاقتهم عن هدفهم، فانتصر المسلمون على هذا الجيش. وواصل المسلمون زحفهم حتى وصلوا إلى حمص فحاصروها، وكان الجو شديد البرودة، ولذلك توقع الروم انسحاب المسلمين سريعًا، ولكنهم صمدوا وظلوا محاصرين للمدينة بالرغم من قسوة الشتاء. وكان الروم يحتمون بأسوار وحصون المدينة، فلجأ المسلمون إلى حيلة يستدرجون بها عدوهم خارج تحصيناته، ففي إحدى المناوشات تظاهر المسلمون بالانسحاب والهزيمة أمام الروم، وتركوا متاعهم وإبلهم، فخرج الروم وراءهم حتى ابتعدوا عن أسوار حصونهم، فالتف عليهم المسلمون وانقضوا عليهم وأنزلوا بهم ضربة قاصمة، وقتل معظم جند حمص، وقتل قائدهم وهزم البقية، فاضطر قساوسة حمص وكبار أهلها إلى طلب الصلح من المسلمين، وأعلنوا استسلامهم وفق شروط متفق عليها، وأقروا بدفع الجزية. وبعد أن استقر الأمر في حمص بعث أبو عبيدة رضي الله عنه جيشًا بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قنسرين، فلجأ أهلها إلى حصونهم ليحتموا بها فخاطبهم خالد قائلاً لهم: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا. وأحس أهل قنسرين بتصميم المسلمين على فتح المدينة فأصابهم الله بالرعب، فوافقوا على الاستسلام ودفع الجزية، ووقع الصلح بينهم وبين المسلمين.[1]

ثم بعد ذلك أخذ الجيش الإسلامي يفتح مدن الشام الواحدة تلو الأخرى، التي أصبحت جميعها تحت أيدي المسلمين. وكان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة[2] عند اللقاء. فقال هرقل وهو على إنطاكية لما قدمت الروم المنهزمة إليه: ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا هم بشرًا

(١) راجع: المصدر السابق ١٣٥-١٣٧، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

(٢) ما بين الحلبتين من الوقت.

مثلكم؟! قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟! فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني.

وقد تقهقر هرقل بجنوده وارتحل عن بلاد الشام إلى بلاد الروم، فلما وصل إلى شمشاط وعلا على شرف هنالك، التفت وقال: عليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعده، إلا أن أسلم عليك تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لم يولد، ما أحلى فعله، وأمَرَّ عاقبته على الروم!. ثم سار هرقل حتى نزل القسطنطينية، واستقر بها ملكه. وقد سأل رجلاً ممن اتبعه كان قد أُسِر مع المسلمين، فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم. فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم؛ هم فرسان بالنهار، رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوه حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليملكُنَّ موضع قدميَّ هاتين.

فتح بيت المقدس سنة ١٦هـ:[1]

بعد فتح دمشق أخذ عمرو بن العاص رضي الله عنه يفتح بجيشه في نواحي فلسطين، ووقعت معركة أجنادين بينه وبين جنود الروم بقيادة أرطبون، وكانت معركة قوية انتصر فيها المسلمون واستولوا بعدها على مدن فلسطين الشمالية. ثم توجه إلى بيت المقدس وحاصره، ودافع عنه الروم بقيادة أرطبون دفاعًا مستميتًا، واستعملوا المنجنيق في ضرب المسلمين، الذين تضرروا من ذلك، فكتب عمرو إلى عمر بن

(١) راجع: المصدر السابق ١٣٧-١٤٠، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

الخطاب رضي الله عنه يطلب منه المدد، فأصدر عمر أمرًا إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ليكون مددًا لعمرو في حصاره لبيت المقدس، فساعد وصول أبي عبيدة إلى بيت المقدس في تقوية عزائم المسلمين، وفت في عضد الروم، فأخذوا يفكرون في الصلح والاستسلام، خصوصًا بعد ما شاهدوا من وفاء المسلمين وعدلهم في المدن المفتوحة. وبدأ بطريرك القدس بنفسه مفاوضة المسلمين في الصلح، مما أغضب قائد الروم أرطبون، فترك القدس واتجه إلى مصر. واستمرت المفاوضات بين المسلمين وبطاركة وقساوسة بيت المقدس، حتى وافق أهلها وزعماؤها على التسليم والمصالحة واشترطوا أن يتولى الصلح عمر بن الخطاب بنفسه، وأن يسلموا مدينتهم له شخصيًا، فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فاستخلف عمر على المدينة وكتب إلى أجناد الشام بالتجمع في الجابية ليلتقي بهم.

وصل عمر رضي الله عنه إلى الشام والتقى بالأمراء، ثم التقى بمندوبي بيت المقدس، وكتب لهم عهدًا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وألاَّ يُجبَروا على ترك دينهم، وأنهم بالخيار من شاء منهم البقاء في ذمة المسلمين، ومن شاء اللحاق بالروم، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، واشترط أهل بيت المقدس ألاَّ يسكن معهم أحد من اليهود. وبعد ذلك توجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بيت المقدس، واستقبله أهلها وبطاركتها، ودخل بيت المقدس وأمر ببناء مسجد، وهو المسجد العُمَري اليوم. وأقام عمر رضي الله عنه بضعة أيام في بيت المقدس ثم ارتحل. وبفتح بيت المقدس يكون المسلمون قد فتحوا معظم بلاد الشام، وأصبحت لهم السيطرة الفعلية عليه دون منازع.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع نهاية عظيم الروم:

وماذا بعد عن هرقل عظيم الروم في الشام...؟! لقد كان بفراسته يتوقع كل الذي حصل، أليس هو الذي قال بأن أتباع النبي الجديد سيملكون ما تحت قدميه من البلاد التي كان يحكمها؟! فما هو رأيه بعد أن تحقق ذلك للمسلمين وملكوا بلادهم كما قال؟! لقد كان يعلم أن النبي الجديد خارج، ولكنه لم يكن يظن أنه من العرب، وهذا ما حدث لليهود أيضًا الذين ظنوا أنه سيكون يهوديًا من بني إسرائيل بن إسحاق فكان من العرب من بني إسماعيل!.

لقد أقيمت على هرقل الحجة بتسلمه لكتاب النبي ﷺ، وسيتحمل إثم قومه كما جاء فيه بسبب توليه عن الإسلام. لقد قال عن النبي ﷺ: فلو أني أعلم حتى أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. ليته فعل وجاء إلى النبي ﷺ، فلو فعل ودخل الإسلام لتغيرت أمور كثيرة، ولكان قدوة ومثلاً لمن جاء بعده من القياصرة، وعلى الأقل لكان نجا بنفسه من النار التي هي مأوى المنافقين والكفار.

فقد ظهر من كلام هرقل مع أبي سفيان أو مع قومه حين نصحهم بمبايعة النبي ﷺ، أنه كان عاقلاً وحكيمًا وذا فراسة، وقد كان يعلم صفات النبي ﷺ، وفعل ما عليه من نصح قومه، ولكنه أضاع فرصةً لا يعلم قدرها إلا الذي خلقه، وهي دخوله في الإسلام وإعلان ذلك على الملأ مهما حصل؛ فيُسن بذلك سُنَّةً حسنةً للقياصرة والزعماء الذين سيحكمون العالم النصراني من بعده، فيقتدي كلهم أو بعضهم، أو حتى أفراد منهم به، فيكون له أجر هذه السُنَّة، ولكنه أضاع هذه الفرصة واتبع أهواء قومه خوفًا على منصبه، وكان ينقصه أن يعلم أن سلامته في الآخرة والحصول على درجة رفيعة فيها خير له من مُلك الدنيا كلها، وليس مجرد حكم بعض بلاد الشام، فكان عليه أن يختار الدار الآخرة التي سيكون إليها منقلبه لا محالة مهما عاش وحكم وملك، وإذا كان قد خاف أن يقتله قومه إذا أسلم فكان عليه أن يعرف كم هي

عالية درجة الشهيد في الآخرة؟ ولكنه اتبع ما تريده النصارى فأرسل جيوشه لقتال المسلمين بالرغم من علمه وتيقنه أكثر من مرة بأن المسلمين على حق، ونبيهم حق، ودينهم حق، وأن قومه على خطأ وكفر وضلال.

فماذا أفاد هرقل اتباعه لأهواء قومه والعمل على إرضائهم بقتال المسلمين، بالرغم من قناعته بأن المسلمين أصحاب دين حق وأتباع نبي حق؟! إنه كرسي الحكم...! ولكنه أضاع هذا الكرسي، بل أضاع بلاده جميعًا بقتاله للمسلمين ولم يفده السير وراء أهواء قومه في المحافظة على الكرسي! بل إن اتباعه لقومه الضالين عن الحق، الرافضين الدخول في دين الله الإسلام أدى به إلى أن يفر هاربًا عن كرسيه بملء إرادته، وخرج مذمومًا مدحورًا من البلاد التي كان يحكمها، فلا هرقل ولا قيصر بعد في الشام التي اختارها خالق السماوات والأرض لتكون بلادًا إسلامية. فإن كانت الفرصة قد فاتته ليكون مسلمًا، فلينصح مَن بعده من القياصرة وحكام الروم بألاَّ يجربوا أخذ الشام مرة أخرى، وإلا فالدائرة ستكون عليهم، وسيرد الله كيدهم في نحورهم، ويخرجون منها وهم يجرون أذيال الهزيمة؛ لأن الله تعالى قد فصل بين العباد وبين البلاد، وجعل الشام فسطاط المسلمين في آخر الزمان، وبعبارة أخرى لا أمل لهم بالشام بعد اليوم، فليوفروا أموالهم، ويحقنوا دماء شعوبهم التي سوف تضيع هدرًا دون تحقيق ما تصبو إليه نفوس قياصرتهم وحكامهم.

حبذا لو يعتبر بهرقل حكام النصارى أو بعضهم أو حتى واحدًا منهم فيقف موقفًا شجاعًا لم يقدر هرقل أن يقفه، فيعلن على الملأ الدخول في الإسلام؛ فلعل كثيرًا من قومه يقتدون به ويدخلون مثله في الإسلام فيفوزوا بخير الدنيا والآخرة، ما دام أنه عن قريب سيرحل عن الحكم ويموت، وشتان بين أن يموت مسلمًا وله الجنة، وبين أن يموت كافرًا وله النار خالدًا فيها!.

حبذا لو يعتبر الحكام بمن مات منهم، ويتفكروا فيمن كان قبلهم أين كانوا أمس وأين هم اليوم؟! أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن

الحروب؟! قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميمًا. وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟! قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كأنهم لم يكونوا، إلا أن الله -عزَّ وجلَّ- قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبُعث غيرهم خلفًا بعدهم، فإن هم اعتبروا بهم نجوا، وإن انحدروا كانوا مثلهم.. أين الذين بنوا القصور وحصنوها بالأسوار وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟ ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف به عنه سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره، وليعلموا أنهم عبيد مدينون، وأن ما عند الله - عزَّ وجلَّ - لا يُدرك إلا بطاعته. أما آن لأحدهم أن تحسر عنه النار ولا تبعد عنه الجنة؟![1].

فالله تعالى حين جعل داود عليه السلام ملكًا أمره أن يحكم بالحق وعدم اتباع الهوى الذي يضل عن سبيل الله، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[2]. وهي وصية من الله للملوك والحكام وولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد الله - عزَّ وجلَّ - مَن ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. وليس هناك ملك أو حاكم أكرم على الله من داود عليه السلام، الذي جمع الله تعالى له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه، فبداود فليعتبر الملوك والحكام.

---

(١) من خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بتصرف.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

- وقفة مع نهاية دولة الروم في الشام:

وماذا عن روم الشام...؟! ألم يسعهم أن يطيعوا ملكهم هرقل الذي كان أبعد منهم نظرًا بأنه لن يقف أحد أمام أهل هذا الدين الجديد، فدعاهم إلى ما فيه خير لهم وهو مبايعة النبي ﷺ، ولكنهم نخروا وحاصوا حيصة حمر الوحش، وسارعوا إلى الأبواب للخروج لولا أن كذب هرقل عليهم بأنه يختبر دينهم، فسجدوا له! أيرضون بالبقاء على دين يكلفهم بالسجود إلى مخلوق مثلهم، وينفرون من دين جاء ليخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله خالق الأرض والسماوات؟! أيرفضون قبول دعوة من جاء يخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؟! ألم يعلموا أنه مَن قبِل ذلك قبلوا منه ورجعوا عنه، ومن أبى قاتلوه؛ فإما نصر وإما شهادة؟!.

لقد أبوا واختاروا القتال فماذا كانت النتيجة؟! لقد أخبرهم ملكهم هرقل بالنتيجة سلفًا، ولكن آذانهم قد صمَّت عن سماع الحق! لقد قال لهم هرقل بأنهم إن هم أبوا الصلح أخذوا منهم الشام وضيقوا عليهم جبال الروم، أليست هذه هي تمامًا النتيجة التي انتهى إليها أمرهم؟!.

لقد دفعوا ثمن عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق والدخول في الإسلام مئات الآلاف من قتلاهم، وبضعة آلاف من قتلى المسلمين، ثم ماذا؟! ثم قتلاهم في النار! وقتلى المسلمين في الجنة. فإياهم ثم إياهم أن يفكروا في العودة إلى الشام لأخذها أو احتلالها؛ لأنهم بذلك يريدون تغيير ما قدَّر الله للمسلمين بأن تكون الشام لهم، ولن ينالوا مرادهم أبدًا، حتى لو مكثوا زمنًا طال أم قصر، فإن مصيرهم هو الرحيل عن الشام لكونها لم تعد مستقرًا لهم في أي زمن من الأزمان حتى آخر الزمان.

- الحمد لله:

الحمد لله على ما أنعم به على عباده المسلمين الذين أطاعوا أمره، فقاتلوا المشركين النصارى الذين لم يؤمنوا به وبرسوله محمد ﷺ، ولم يحرموا ما حرَّم الله

وحرَّمه رسوله ﷺ، ولم يدينوا دين الحق، فقاتلوهم حتى أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فأنجز الله وعده، ونصر جنده المسلمين ومنحهم أكتاف المشركين، حتى أزالوا ملكهم وأنهوا دولة الروم في الشام، فلا دولة لروم ولا لقيصر في الشام بعد اليوم.

فقد حرم الله تعالى على الروم أن يملكوا بلاد الشام برمتها إلى آخر الدهر، وبذلك حقق سبحانه قول نبيه ﷺ: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده، لتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله**»[1]. فقد وقع ما أخبر به، صلوات الله وسلامه عليه، وسيكون ما أخبر به جزمًا، لا يعود مُلكُ القياصرة إلى الشام أبدًا؛ لأن (قيصر) علم جنس عند العرب يُطلق على كل مَن ملك الشام مع بلاد الروم. فهذا لا يعود لهم أبدًا. وهذا ما توقعه هرقل نفسه بفراسته. وقد حصل وملك المسلمون البلاد التي كانت للروم في الشام، وأصبحت هذه البلاد بلادًا إسلامية ولله الحمد والفضل والمنة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ.

نهاية أمة الفرس أعداء محمد ﷺ في فارس

دعوة الفرس إلى الإسلام:

لقد أمر الله - عزَّ وجلَّ - رسوله محمداً ﷺ بأن يبلغ رسالة الإسلام إلى العالمين؛ لأنه تعالى بعثه رسولاً للعالمين وليس لقومه العرب فحسب. فأطاع رسول الله ﷺ أمر الله فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده. وها هو ﷺ يرسل كتاباً إلى كسرى عظيم الفرس لدعوته إلى الإسلام، وقد جاء في الكتاب: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فإن تسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك**». وعلى العكس من قيصر الذي أكرم كتاب النبي ﷺ ووضعه في مسك، وسأل عن صفات النبي الجديد التي علم منها أنه النبي المنتظر، فإن كسرى لما قرأ كتاب رسول الله ﷺ مزقه...!.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده، لتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله**»[1]. فأما قيصر؛ فقد أنهى الله تعالى أمته الرومية في الشام على أيدي عباده المسلمين، وتحقق ما قاله نبيه ﷺ، وأما كسرى الذي مزق كتاب رسول الله ﷺ فسوف يتحقق حتمًا ما قاله ﷺ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ.

وسيتمزق مُلكه بإذن الله - عزَّ شأنه - على أيدي عباده المسلمين أيضًا، وسيتحقق قول النبي ﷺ: «**لتفتحن عصابة من المسلمين كنوز كسرى في القصر الأبيض**»(١).

لقد كان للفرس دولة قوية مترامية الأطراف تشمل فارس وخراسان والعراق وأذربيجان وطبرستان وغيرها من المناطق. وكان لهذه الدولة قوات عسكرية كبيرة وقوية ومنظمة، ولديها خبرة قتالية كبيرة اكتسبتها من المعارك التي كانت تخوضها ضد الروم وتنتصر عليهم أحيانًا. ولكن كل هذه الميزات التي تتمتع بها أمة الفرس المجوسية لم تكن لتخيف عباد الله المسلمين الذين وعدهم الله بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

لقد بدأت حركة الجهاد ضد الفرس على يد القائد المثنى بن حارثة الشيباني الذي انتصر على الفرس وأتباعهم من نصارى العرب في معارك متعددة بالرغم من قلة جيشه من المسلمين. ثم طلب المثنى المدد من أبي بكر الصديق ﷺ خليفة رسول الله ﷺ؛ فأرسل أبو بكر رضي الله عنه، سيف الله المسلول على أعداء الله، خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى العراق في السنة الثانية عشرة للهجرة، وأوصاه بأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله تعالى، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا من ذلك كله قاتلهم في الله، وأمره ألاَّ يُكره أحدًا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام، وإن كان قد عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين، وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمدادًا لخالد رضي الله عنه.

وقد دخل خالد رضي الله عنه إلى العراق من الجنوب ونجح في إخضاع عدد من القرى التي استسلمت له، وخاض سلسلة من المعارك انتصر فيها جميعًا وقتل من الفرس ومَن عاونهم من نصارى العرب مقتلة عظيمة. وكان خالد يقول لهم قبل القتال:

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.

أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة؛ جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم. وكانوا يعجبون من جرأة خالد وشجاعته، ويسخرون من ذلك لحماقتهم ورعونتهم في أنفسهم.

ثم جرت أمور طويلة لخالد في أماكن متعددة في البلاد التي يحكمها الفرس، فدخل بعض هذه البلاد في الإسلام، وصالح بعضها ودفعوا الجزية، وقاتل بعضها، حتى فتح خالد معظم العراق، وهو مع ذلك لا يكل ولا يمل ولا يهن ولا يحزن، بل ما يزال يزداد قوة وصرامة وشدة وشهامة، ومثل هذا إنما خلقه الله عزًّا للإسلام وأهله، وذُلاً للكفر وشتات شمله. حتى قال عنه الصديق رضي الله عنه: عجزت النساء أن تلدن مثل خالد بن الوليد.

وقد أقام خالد هنالك سنة يتردد في بلاد فارس ههنا وههنا، ويوقع بأهلها من البأس الشديد، والسطوة الباهرة، ما يُبهر الأبصار لمن شاهد ذلك، ويُشنِّف أسماع مَن بلغه ذلك، ويُحيِّر العقول لمن تدبره، حتى استدعاه الخليفة الصديق رضي الله عنه وأمره بالتوجه إلى الشام لقيادة المعركة في اليرموك ضد الروم. فلما سار خالد إلى الشام استناب على العراق المثنى بن حارثة، الذي واصل قتال الفرس وأبلى بلاءً حسنًا، وانتصر عليهم في المعارك التي خاضها ضدهم، وقد شهد مواقف مشهورة، وله أيام مذكورة، ولا سيما يوم وقعة البويب التي قُتِل فيه من الفرس وغرق بالفرات قريب من مئة ألف.

معركة القادسية سنة ١٤هـ:

إن الكبرياء رداء الله، والعظمة إزاره، فمن نازعه عليهما قصمه وجعله عبرة لغيره...! وهذا ما فعله سبحانه بكسرى الفرس المجوس...! فقد تولى يزدجرد المُلك على الفرس، واستفحل أمره فيهم، وقويت شوكتهم به، وبعثوا إلى الأقاليم والمناطق،

فخلعوا الطاعة للصحابة، ونقضوا عهودهم وذممهم، وبعث الصحابة إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخبر، فأمرهم عمر أن يخرجوا من بين ظهرانيهم وليكونوا على أطراف البلاد حولهم على المياه، وأن تكون كل قبيلة تنظر إلى الأخرى بحيث إذا حدثَ حدثٌ على قبيلة لا يخفى أمرها على جيرانهم. وتفاقم الحال جدًا، وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة. وأخذ عمر رضي الله عنه يحث الناس ويحرضهم على جهاد أهل العراق، وذلك لما بلغه من نقضهم عهودهم، ونبذهم المواثيق التي كانت عليهم، وآذوا المسلمين وأخرجوا العمال من بين أظهرهم.

وفي سنة أربع عشرة من الهجرة، ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الجيوش من المدينة عازمًا على غزو العراق بنفسه، ولكن بعض الصحابة أقنعوه بأن يبعث رجلاً ويرجع هو إلى المدينة لما في ذلك من المصلحة للمسلمين، وبعد المشاورة تم تكليف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بقيادة قوات المجاهدين المتجهة إلى العراق، وصدر أمر الخليفة عمر للمجاهدين في العراق بالانضمام تحت قيادة سعد رضي الله عنه. فسار سعد إلى العراق في أربعة آلاف مجاهد، ولما وصل إلى محلة الجيوش في العراق انتهت إليه رياستها وإمرتها، ولم يبق بالعراق أمير من سادات العرب إلا تحت أمره، حتى اجتمع معه يوم القادسية ثلاثون ألفًا. وبعث عمر كتابه إلى سعد يأمره بالمبادرة إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وأن يكون بين الحجر والمدر، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس، وأن يبدروهم بالضرب والشدة، وألاَّ يهولنَّه كثرة عددهم وعُدَدهم، فإنهم قوم خَدَعة مكرة. وأمره بمحاسبة نفسه وموعظة جيشه، وأن يكثروا من قول (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، وأن يوافيه بجميع أحواله وتفاصيلها كأنه ينظر إليه. فأطاع سعد أمر عمر، ونفَّذ كل ما أمره به، وكتب إليه يخبره بأن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأمثاله. وكتب إليه عمر بأنه قد ألقي في روعه أنهم سيهزمون الفرس، فإذا هزمتهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله. وجعل عمر يدعو لسعد خاصة وللمسلمين عامة.

ولما بلغ سعد العذيب اعترض للمسلمين جيش للفرس، فغنموا مما معه شيئًا كثيرًا، واستبشر الناس بذلك وفرحوا وتفاءلوا. ثم سار سعد فنزل القادسية، وبعد حوالي الشهر جاءه رستم ومعه جيش كثيف يقدر بمئة وعشرين ألفًا، وكان معه ثلاثة وثلاثون فيلاً. ولما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما يسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجاركم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنَّا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على مَن لم يَدِن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز. فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به، فشهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله. فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضًا؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضًا، وأي شيء أيضًا؟ قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم. قال: وحسن أيضًا. ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم، أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضًا. ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام، فأنفوا من ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه.

ثم بعث سعد رسولاً آخر إلى رستم بناء على طلبه، وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس رستم على سرير من ذهب وعليه تاجه، ودخل ربعي بثياب بالية مرقعة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم،

وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق معظمها، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قَبِل ذلك قَبِلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله. قال رستم: وما موعود الله؟ قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال مَن أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال ربعي: نعم، كم أحب إليكم؟ أيومًا أو يومين؟ قال رستم: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال ربعي: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال رستم: أسيدهم أنت؟ قال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه وقواده، وتدارسوا الأمر؛ فقرروا رفض عرض المسلمين لهم بالإسلام أو الجزية، واختاروا القتال، واستعد الطرفان للقتال.

وهكذا تكرر طلب رستم من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بإرسال الرسل إليه ليحاورهم ويستمع إليهم، وفي كل مرة يسأل رستم رسول سعد عن سبب قدومهم وعما يطلبونه، ويحاول إغراء المسلمين بالمال ليعودوا من حيث أتوا، فلم ينفع كل هذا، بل كان ذلك يزيد المسلمين إصرارًا على قتال الفرس. فكانت وقعة القادسية المشهورة التي كانت بداية لتمزيق ملك كسرى والفرس كما مزق كسرى كتاب رسول الله ﷺ إليه. وكان سعد رضي الله عنه قد بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى يزدجرد يدعونه إلى الله قبل الوقعة؛ فلم يزد ذلك يزدجرد إلا كبرًا وعتوًا، وتوعدهم بأنه سيرسل رستم إلى سعد حتى يدفنه وجنده في خندق القادسية ويُنكِّل به وبهم، ثم قال: ائتوني بوقر من تراب، فاحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من

أبيات المدائن. فخرجوا من الإيوان ووضعوا التراب على الراحلة، وأسرعوا في العودة إلى سعد حتى دخلوا عليه وأخبروه بالخبر، فقال: أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد مُلكهم. وتفاءلوا بذلك أخذ بلادهم، ثم لم يزل أمر الصحابة يزداد في كل يوم علوًا وشرفًا ورفعة، وينحط أمر الفرس سُفلاً وذُلاً ووهنًا.

وكانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجب منها، وذلك أنه لما تواجه الصفان كان سعد رضي الله عنه قد أصابه عرق النسا، ودمامل في جسده تمنعه من ركوب الخيل، وإنما هو في قصر متكئ على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره ويدير المعركة، وكان مع ذلك لا يغلق عليه باب القصر لشجاعته، ولو فر الناس لأخذته الفرس قبضًا باليد، لا يمتنع منهم. وقد صلى سعد بالناس الظهر ثم خطب فوعظهم وحثهم وتلا قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[1]. وقرأ القراء آيات الجهاد وسوره، ثم كبَّر سعد أربعًا، ثم حملوا بعد الرابعة، فاقتتلوا حتى كان الليل، فتحاجزوا، وقد قُتِل من الفريقين بشر كثير. وقد استخدم الفرس مجموعة من الفيلة نفرت منها خيول المسلمين وخافت منها، وأحجمت عن التقدم، فتقدمت جماعة من المسلمين الشجعان الراجلين وهاجموا الفيلة وقلعوا عيونها وأوقعوا مَن عليها من الجنود الفرس؛ فتشردت الفيلة وخف أثرها على خيول المسلمين.

ثم أصبحوا فاقتتلوا يومهم ذلك وعامة ليلتهم، وقد وصلت إلى الجيش الإسلامي إمدادات بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقويت عزائم المسلمين وخارت عزائم الفرس، ووقع الرعب في نفوسهم. ثم أصبحوا كما أمسوا على مواقفهم، فاقتتلوا حتى أمسوا، ثم اقتتلوا في اليوم الثالث كذلك، واستخدم الفرس الفيلة مرة أخرى فصمد لها المجاهدون المسلمون وأصابوها في عيونها وخراطيمها؛ ففرت من

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

المعركة، ولاح النصر للمسلمين، ورجحت كفتهم بعد أن أبلوا بلاءً حسنًا وصمدوا صمود الأبطال في هذا اليوم. وأقبل الليل والقتال مستمر على أشده، ولم يكن يُسمع في الظلام إلا صليل السيوف، فسُميت ليلة الهرير، فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالاً شديدًا، حتى انتصف النهار، فبدأ الفرس ينهزمون من المعركة، وحاول قائد الفرس رستم نفسه الفرار والنجاة بنفسه، فلحق به أحد المجاهدين فقتله، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وهكذا نصر الله - عزَّ وجلَّ - عباده المسلمين، وهزم الفرس المجوس الكافرين في هذه المعركة الفاصلة بينهما، التي أدت إلى تحطيم الروح المعنوية لدى الفرس -لكون جيشهم المهزوم في القادسية كان يضم أفضل فصائل الجيش الفارسي- ومهدت لفتح بلاد فارس. وقد غنم المسلمون من وقعة القادسية هذه من الأموال والسلاح ما لا يحد ولا يوصف كثرة، وبُعِث بالخُمُس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد تمكن المسلمون بعد هذه الوقعة من إعادة فتح المناطق التي أخذها الفرس منهم، بعد أن كان المسلمون قد فتحوها في السابق. وبدأت الاستعدادات لفتح المدائن وهي التي فيها إيوان كسرى المشهور.

فتح بلاد فارس:

لقد وعد الله - جلَّت قدرته - عباده المسلمين بالنصر فأنجز وعده، ونصر جنده، وهزم الأحزاب وحده. وها هم الفرس المجوس الوثنيون الكافرون، يفرون منهزمين من أمام عباده المسلمين. وقد سار المسلمون خلف الفرس فكلما تواجه الفريقان نصر الله حزب الرحمن، وخذل حزب الشيطان وعبدة النيران، وحاز المسلمون من الأموال ما يعجز عن حصره ميزان وقبان، ولم يزالوا يتبعونهم حتى جازوا الفرات وراءهم، وفتحوا عددًا من المدن.

فقام سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمحاصرة مدينة نهرشير، وهي إحدى مدينتي كسرى مما يلي دجلة من الغرب، ثم فتحها الله على المسلمين فدخلوها في الليل،

فلاح لهم القصر الأبيض من المدائن، وهو قصر الملك الذي ذكره رسول الله ﷺ وبشَّر به المسلمين بأن الله تعالى سيفتحه عليهم، وذلك قريب من الصباح، فقالوا: الله أكبر، أبيض كسرى، هذا ما وعدنا الله ورسوله. ونظر الناس إليه فتابعوا التكبير إلى الصبح. ولما دخل سعد المدينة وجد أهلها من الفرس قد هربوا جميعًا إلى المدائن التي هي مستقر مُلك كسرى، وركبوا السفن وضموها إليهم، وحطموا الجسور التي على نهر دجلة الذي كان يفصل المسلمين عنهم، ولم يجد سعد رضي الله عنه شيئًا من السفن ليعبر إليهم، وقد زاد نهر دجلة زيادة عظيمة، وأُخبِر سعد، بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حُلوان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث، فات عليك.

فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة، وندبهم إلى عبور نهر دجلة على الخيل، والفرس واقفون صفوفًا من الجانب الآخر، فانتدب له عاصم بن عمرو وذو البأس من الناس، قريب من ست مئة، فأمَّر سعد عليهم عاصمًا، ثم ندب عاصم الناس ليكونوا قبل الناس دخولاً في هذا النهر، ليحموا الجانب الآخر، فانتدب له ستون من الشجعان؛ واقتحموا النهر على خيولهم فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء فزعوا، ثم أرسلوا فرسانًا منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفُرس فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين حتى خرجوا من الماء، واتبعهم المسلمون فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب الآخر، ووقفوا على حافة دجلة من الجانب الآخر، ونزل بقية الست مئة فخاضوا في دجلة، حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر، فقاتلوا معهم الفرس حتى نفوهم عن ذلك الجانب.

هذا كله وسعد والمسلمون واقفون على شاطئ دجلة ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس. ثم نزل سعد ببقية الجيش، فاقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس

لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرجَّالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض؛ وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده؛ ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ودعا له، فقال ﷺ: «**اللهم استجب لسعد إذا دعاك**»[1]؛ فكان سعد رضي الله عنه مجاب الدعوة؛ لا يكاد يدعو بدعاء إلا استجيب له. وقد دعا سعد لجيشه في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا النهر فسددهم الله وسلَّمهم، فلم يُفقد للمسلمين رجل واحد، ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم، وكان يومًا عظيمًا، وأمرًا هائلاً، وخطبًا جليلاً، وخارقًا باهرًا، ومعجزة لرسول الله ﷺ، خلقها الله لأصحابه، لم يُر مثلها في تلك البلاد، ولا بقعة من البقاع.

ودخل المسلمون المدائن، فلم يجدوا بها أحدًا، بل قد هرب كسرى وأخذ معه أهله وما قدروا عليه من الكنوز والأموال والأمتعة، وتركوا ما عجزوا عنه، وجاء سعد بالجيش إلى القصر الأبيض فوجد فيه مقاتلة، فدعاهم ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه، فدخله متواضعًا متذللاً لله وهو يتلو قول الله عزَّ شأنه: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾[2]. وقد أخمد سعد رضي الله عنه نيران المجوسية، ورفع الأذان معلنًا كلمة التوحيد في هذا القصر، وتقدم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح. وسكنه وأقام صلاة الجمعة فيه، واتخذ الإيوان مصلى.

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٩٥٠.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٢٥-٢٨.

وشرع سعد في تحصيل ما هنالك من الكنوز والأموال والذهب والفضة والتحف، مما لا يُقوَّم ولا يحد ولا يوصف؛ كثرة وعظمة. واستحوذ المسلمون على ما هنالك أجمع، مما لم ير أحد في الدنيا أعجب منه. وكان في جملة ذلك تاج كسرى المكلل بالجواهر النفيسة التي تحير الأبصار، ومِنطقته، وسيفه وسواراه وقباؤه، وبساط إيوانه، وكان مربعًا، ستون ذراعًا في مثلها، والبساط مثله سواء، وهو منسوج بالذهب واللآلئ والجواهر الثمينة، وفيه مصور جميع ممالك كسرى؛ وغير ذلك من الأشياء العجيبة، وقد بعث سعد خمس الغنائم إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في المدينة، فلما رآها قال: إن قومًا أدوا هذا لأمناء. وبعد المدائن اختار المسلمون موقعين أنشؤوا فيهما الكوفة والبصرة للإقامة بهما في العراق، وبدؤوا ينطلقون منهما في فتح بقية بلاد فارس.

- وقعة جلولاء سنة ١٦هـ:

لما هرب كسرى يزدجرد من المدائن، جمع في طريقه حشدًا من الجنود، وجعله في جَلولاء بينه وبين المسلمين، وحفروا حولها خندقًا عظيمًا. فسار المسلمون إلى جلولاء وحاصروا الفرس المجوس فيها، وكان الفرس يخرجون للقتال في كل وقت، فيقاتلون قتالاً شديدًا، وكان المدد يصل لكلا الفريقين. وحمي القتال، واشتد النزال، واضطرمت نار الحرب، فلما كان الموقف الأخير، وهو الفيصل والفرقان، تواجهوا من أول النهار، فاقتتلوا قتالاً شديدًا لم يُعهد مثله، وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماءً، ثم حمل المسلمون على الفرس حملة رجل واحد حتى خالطوهم، فهربت الفرس كل مهرب، وأخذهم المسلمون من كل وجه، وقعدوا لهم كل مرصد، فقُتِل منهم في ذلك الموقف مقتلة عظيمة، حتى جلَّلوا وجه الأرض بالقتلى، فلذلك سُمِّيت جَلولاء. وغنموا من الأموال والسلاح والذهب والفضة قريبًا مما غنموا من المدائن قبلها.

ولما علم كسرى بما كان من أمر جلولاء، وما جرى على الفرس بعده، هرب من حلوان إلى الري. وتقدم المسلمون إلى حلوان، فبرز إليهم جيش الفرس إلى مكان خارج من حلوان، فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً، ثم فتح الله على المسلمين ونصرهم، وانهزم جيش الفرس، وتقدم المسلمون فدخلوا حلوان، وغنموا وسبوا، وأقاموا بها، وضربوا الجزية على مَن حولها من المناطق والقرى والأقاليم، بعدما دُعُوا إلى الدخول في الإسلام، فأبوا إلا الجزية.

وبعد ذلك تم أيضًا فتح تكريت والموصل والأهواز ورامهرمز، وفُتِحت مدن وبلاد كثيرة غير ذلك من بلاد فارس. وفي أثناء ذلك كان كسرى يزدجرد يتقهقر من بلد إلى بلد، كلما افتتح المسلمون بلدًا فر إلى غيره. هذا كله، والنار التي يعبدها من دون الله يسير بها معه من بلد إلى بلد، ويُبنى لها في كل بيت توقد فيه على عادتهم. وكان قد صرف طائفة من أشراف أصحابه قريبًا من ثلاث مئة من العظماء عليهم رجل يقال له: سياه. فكانوا يفرون من المسلمين من بلد إلى بلد، حتى فتح المسلمون تُستَر وإصطخر، فقال سياه لأصحابه: إن هؤلاء بعد الشقاء والذلة ملكوا أماكن الملوك الأقدمين، ولا يلقون جندًا إلا كسروه، والله ما هذا عن باطل. ودخل في قلبه الإسلام وعظمته، فقال له أصحابه: نحن تبع لك. فأسلموا وأمر عمر رضي الله عنه أن يُفرض لهم في ألفين ألفين، وفرض لستة منهم في ألفين وخمس مئة، وحسن إسلامهم. وكان لهم نكاية عظيمة في قتال قومهم، والله - جلَّ جلاله - يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

- فتح نهاوند سنة ٢١هـ:

واصل كسرى يزدجرد فراره من بلد إلى بلد، وظل يحاول حشد الجنود لطرد المسلمين من البلاد التي ملكوها وسيطروا عليها سيطرة تامة، حتى استطاع أن يجمع جيشًا كبيرًا بلغ تعداده نحوًا من مئة وخمسين ألف مقاتل بقيادة الفيرزان،

وتجمع هذا الجيش الضخم في مدينة نهاوند. وتعاهد الفرس وتعاقدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة ثم يشغلوا عمر رضي الله عنه عن بلاده.

وجاء الخبر إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فبدأ يعد المسلمين لقتالهم، وعزم على المسير بنفسه قائدًا للجيش، فتكلم رجال من الصحابة من أهل الرأي، واتفق رأيهم على ألاَّ يسير من المدينة ولكن يبعث البعوث ويحضرهم برأيه ودعائه.

وكان من كلام علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، هو دينه الذي أظهر، وجنده الذي أعز، وأمده بالملائكة، حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكانك منهم يا أمير المؤمنين مكان النِّظام[1] من الخرز يجمعه ويمسكه، فإذا انحل تفرق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدًا، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام، فأقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، فليذهب منهم الثلثان ويقيم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة يمدونهم أيضًا. فأعجب عمر قول علي وسُرَّ به. ثم ولَّى عمر رضي الله عنه النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه أمر الحرب، وكتب عمر رضي الله عنه للنعمان كتابًا جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسِر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله، وبمن معك من المسلمين، ولا تُوطِئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتُكفِرَهم، ولا تُدخِلهم غيضةً، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليَّ من مئة ألف دينار، والسلام عليك، فسِر في وجهك ذلك حتى تأتي ماهَ، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك

(١) النظام: الخيط ينظم فيه الخرز وغيره.

جنودك فسِر إلى الفيرُزان ومَن يجتمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا الله، وأكثروا من: لا حول ولا قوة إلا بالله.

اجتمع قريب من ثلاثين ألفًا من المجاهدين المسلمين بقيادة النعمان رضي الله عنه، وكان في هذا الجيش كثير من سادات الصحابة ورؤوس العرب. ولم ينتظر المسلمون زحف جيوش الفرس إليهم ومهاجمتهم، بل ساروا هم إلى الفرس، فلما وصل الجيش إلى نهاوند وتواجه الجمعان كبَّر النعمان وكبَّر المسلمون ثلاث تكبيرات، فزُلزِلت الأعاجم ورُعِبوا من ذلك رعبًا شديدًا، ثم أمر النعمان بحط الأثقال وهو واقف، فحط الناس أثقالهم، وتركوا رحالهم، وضربوا خيامهم وقبابهم. ثم أمر النعمان بالقتال، وكان يوم الأربعاء، فاقتتلوا ذلك اليوم والذي بعده والحرب سجال، فلما كان يوم الجمعة انحجز الفرس في حصنهم، وحاصرهم المسلمون شهرين دون قتال يحسم المعركة. وقد بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة، فذكر المغيرة من عظمة ما رآه عليه في لبسه ومجلسه، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهانته بهم.. وقال المغيرة: فتشهدت وحمدت الله، وقلت: لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت، حتى بعث الله رسوله فوعدنا النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، وما زلنا نتعرف من ربنا النصر منذ بعث الله رسوله إلينا، وقد جئناكم في بلادكم، وإنا لن نرجع إلى ذلك الشقاء أبدًا حتى نغلبكم على بلادكم وما في أيديكم، أو نُقتل بأرضكم.

تشاور القواد المسلمون فيما بينهم وناقشوا الخطط الحربية الممكنة للتغلب على الفرس الذين بقوا في حصونهم ولم يخرجوا، وأعدوا خطة يحسمون بها المعركة، وهي أن يرسلوا سرية فتناوش الفرس، ثم تتظاهر بالهزيمة وتفر هاربة نحو معسكر المسلمين، فإذا وصلت إلى المعسكر ورآها مَن فيه من المسلمين، يتظاهرون أيضًا بالفرار كلهم، فإن الفرس حينئذ لا يشكون في الهزيمة، فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم، فإذا تكامل خروج الفرس من خنادقهم وحصونهم، رجع المسلمون إليهم

والتفوا حولهم وقاتلوهم. ونفَّذ المسلمون الخطة ففعل الفرس كما توقع المسلمون، فخرجوا بأجمعهم ولم يبق بالبلد من المقاتلة إلا من يحفظ لهم الأبواب، حتى انتهوا إلى الجيش، والنعمان بن مقرن على تعبئته، وذلك في صدر نهار جمعة. ثم إن النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كبَّر الأولى وهز الراية فتأهب الناس للحملة، ثم كبر الثانية وهز الراية فتأهبوا أيضًا، ثم كبر الثالثة وحمل وحمل الناس على الفرس المجوس، وجعلت راية النعمان تنقض نحو الفرس كانقضاض العُقاب على الفريسة حتى تصافحوا بالسيوف، فاقتتلوا قتالاً لم يُعهد مثله في موقف من المواقف المتقدمة، ولا سمع السامعون بوقعة مثلها، وقُتِل من المشركين الفرس ما بين الزوال إلى الظلام من القتلى ما طبق وجه الأرض دمًا. فلما أظلم الليل انهزم المشركون وهربوا وتبعهم المسلمون، وأخذ الفرس المجوس يتساقطون في الأودية، فهلك منهم بشر كثير سوى من قُتِل في المعركة، ولم يفلت منهم إلا الشريد.

وقد دخل المسلمون بعد الوقعة نهاوند، وفر يزدجرد ملك الفرس باتجاه الشرق. ولما سمعت بعض المدن القريبة بما جرى في نهاوند بعثوا إلى المسلمين وصالحوهم وأخذوا لهم منهم الأمان. كان لهذه الوقعة العظيمة شأن رفيع ونبأ عجيب، وكان المسلمون يسمونها (فتح الفتوح)؛ لأنه لم تقم للفرس بعد هذه الوقعة قائمة، فكانت خاتمة المعارك الفاصلة في فتوح بلاد فارس. وقد افتتح المسلمون بعدها مدينة أصبهان وهمذان وكرمان وقم وقاشان والديلم والري وقومس وجرجان وأذربيجان وغيرها من بلاد الدولة الفارسية المجوسية. وفي أثناء كل ذلك واصل يزدجرد ملك الفرس فراره من بلد إلى بلد، حتى انتهى أمره في خراسان (أفغانستان).

- غزو خراسان:

فلما استقر كسرى يزدجرد في خراسان، وأخذ يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين، مثلما فعل في كل مكان هرب إليه، أذن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالتوسع بالفتوحات في بلاد العجم، ويضيقوا على كسرى يزدجرد، وأمَّر الأحنف بن قيس،

وأمره بغزو بلاد خراسان. فركب الأحنف في جيش كثيف إلى خراسان قاصدًا حرب يزدجرد، فدخل خراسان فافتتح هيرات، ثم سار إلى مرو الشاهجان وفيها يزدجرد، ولما اقترب الأحنف من مرو الشاهجان، ترحل منها يزدجرد إلى مرو الروذ، فافتتح الأحنف مرو الشاهجان فنزلها، وكتب يزدجرد حين نزل مرو الروذ إلى خاقان ملك الترك يستمده، وكتب إلى ملك الصُّغد يستمده، وكتب إلى ملك الصين يستعينه. وقصده الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ، فلما علم يزدجرد بمسيره إليه، ترحَّل إلى بلخ، وجاء الأحنف، فافتتح مرو الروذ، ثم سار وراء يزدجرد إلى بلخ فالتقى معه ببلخ فهزمه، وهرب يزدجرد هو ومن بقي معه من جيشه، فعبر النهر. واستوثق مُلك خراسان على يدي الأحنف بن قيس، واستخلف في كل بلدة أميرًا، ورجع الأحنف فنزل مرو الروذ، وكتب إلى عمر بما فتح الله عليه من بلاد خراسان بكمالها.

ولما وصل رسولا يزدجرد إلى الملكين اللذين استنجد بهما لم يحتفلا بأمره، فلما عبر يزدجرد النهر، ودخل في بلادهما تعين عليهما نجدته بحسب شرع الملوك، فرجع يزدجرد بجنود عظيمة فيهم خاقان ملك الترك، فوصل إلى بلخ واسترجعها، وفر عمال الأحنف إليه إلى مرو الروذ، وخرج المشركون من بلخ حتى نزلوا على الأحنف بمرو الروذ، فبرز الأحنف بمن معه من أهل البصرة، وأهل الكوفة. وجاءت الأتراك والفرس في جمع عظيم هائل مزعج، فقام الأحنف في الناس خطيبًا فقال: إنكم قليل وعدوكم كثير، فلا يهولنكم، فـ ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[1].

فكانت الترك يقاتلون بالنهار، ولا يدري الأحنف أين يذهبون في الليل. وكان من عادتهم أنهم لا يخرجون من مبيتهم، حتى يخرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم؛ يضرب الأول بطبله، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم يخرجون بعد الثالث، فسار الأحنف ليلة مع

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

طليعة من أصحابه نحو جيش خاقان، فلما كان قريب الصبح، خرج فارس من الترك طليعة، وضرب بطبله، فتقدم إليه الأحنف وقتله، ثم خرج الثاني فقتله، ثم خرج الثالث فقتله، ثم أسرع الأحنف الرجوع إلى جيشه ولا يعلم بذلك أحد من الترك بالكلية. فلما خرجت الترك بعد الثالث، فوجدوا فرسانهم قد قتلوا، تشاءم بذلك الملك خاقان وتطير، وقال لعسكره: قد طال مقامنا، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم نُصب بمثله، ما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا. فرجعوا إلى بلادهم وانتظرهم المسلمون يومهم ذلك؛ ليخرجوا إليهم من شِعبهم، فلم يروا أحدًا منهم، ثم بلغهم انصرافهم إلى بلادهم راجعين عنهم. وقد رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًّا عزيزًا. ورجع كسرى خاسرًا الصفقة لم يُشف له غليل، ولا حصل على خير، ولا انتصر كما كان في زعمه، بل تخلى عنه من كان يرجو النصر منه، وتنحى عنه وتبرأ منه أحوج ما كان إليه، وبقي مذبذبًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن يجد أحد له سبيلاً.

وتحير يزدجرد في أمره ماذا يصنع؟ وإلى أين يذهب؟ وقد أشار عليه بعض أولي النهى من قومه حين قال: قد عزمت أن أذهب إلى بلاد الصين أو أكون مع خاقان في بلاده. فقالوا: إنَّا نرى أن نصانع هؤلاء القوم، فإن لهم ذمة ودينًا يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورينا، فهم خير لنا من غيرهم. فأبى عليهم كسرى ذلك، ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به ويستنجده، فجعل ملك الصين يسأل الرسول عن صفة هؤلاء القوم الذين قد فتحوا البلاد وقهروا رقاب العباد، فجعل يخبره عن صفتهم، وكيف يركبون الخيل والإبل، وماذا يصنعون، وكيف يصلون. فكتب معه إلى يزدجرد، إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليَّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم؛ لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو جئت لنصرك، أزالوني ماداموا على ما وصف لي رسولك، فسالمهم وارض منهم بالمسالمة. فأقام كسرى في بعض البلاد

مقهورًا، ولم يزل ذلك دأبه حتى قُتِل بعد سنتين من إمارة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وكان مُلك يزدجرد عشرين سنة؛ منها أربع سنين في دعة، وباقي ذلك هاربًا من بلد إلى بلد، خوفًا من الإسلام وأهله.

ولما بعث الأحنف بكتاب الفتح، وما أفاء الله عليهم من أموال الترك ومن كان معهم، وأنهم قتلوا منهم مع ذلك مقتلة عظيمة، ثم ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرًا؛ قام عمر على المنبر وقُرِئ الكتاب بين يديه، ثم قال عمر: إن الله بعث محمدًا بالهدى، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]. فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر جنده، ألا وإن الله قد أهلك مُلك المجوسية وفرَّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم؛ لينظر كيف تعملون، فقوموا في أمره على وجل، يُوفِّ لكم بعهده، ويؤتكم وعده، ولا تغيروا فيستبدل قومًا غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلكم.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع نهاية كسرى فارس:

وماذا بعد عن كسرى عظيم فارس...؟! لقد خُيِّر كسرى بين أن يدخل في الإسلام ويبقى له مُلكه، وبين أن يقاتل المسلمين، فاختار القتال وهو موقن من هزيمة هؤلاء الأعراب الفقراء الذين طالما كانوا لهم عبيدًا وأتباعًا، ولكنه لم يقدِّر أبدًا ما حدث لهم من التغيير الذي غيَّر كيانهم وجعلهم أمة جديدة بالكلية، مع أن وفودهم إليه قد شرحوا له جيدًا ما الذي بدَّلهم وجعلهم يهددونه في عقر داره. كما إنهم أخبروه بالوظيفة التي كلفهم بها رب العالمين الذي خلقهم فعبدوه ووحدوه، وانطلقوا

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

في الأرض يدعون إليه وإلى الدخول في دينه الإسلام، أما هو فقد خلقه الله فكفر به وعبد النار، التي سيحشره الله - عزَّ وجلَّ - إليها يوم القيامة فيعرف أهي إله يُعبد أم عذاب يعذب الله بها الكافرين من أمثاله!.

كذلك نسي كسرى، أن من سُنَّة الله تعالى في خلقه، أنه سبحانه يهلك أقوى خلقه إذا كفر به، بأضعف خلقه إذا آمن به أو اختاره الله ليعذب به الكافر ولو لم يؤمن، ليعلم هو وأمثاله أن الله وحده هو القادر على كل شيء، وأنه وحده ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، وأن من نازعه على شيء منها قصمه قصمًا، وأنه وحده المتصرف في هذا الكون، وأنه ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وأنه هو المحيي المميت، المعز المذل، الجبار القهار..

وهذه الحقيقة لم تخف على كسرى فحسب، بل خفيت وتخفى على معظم الحكام والجبابرة الذين يظنون أنهم بالقوة وحدها يستطيعون العيش والحكم والتسلط على الناس! مع أنهم يكفيهم الملك النمرود مثلاً وعبرة وهو الذي ملَكَ الدنيا، الذي حارب خليل الله إبراهيم عليه السلام، وحارب دعوته، وهو الذي وصل به الكبر والغطرسة والاستعلاء إلى أن ادعى الألوهية وأنه يحيي ويميت، فسلط الله على هذا الذي ظنَّ أنه الأقوى، البعوضة، وهي الحشرة الصغيرة الضعيفة فأهلكه الله رب العالمين بها.

إن كسرى لم يحسبها جيدًا، ولو حسبها جيدًا لما فعل كل الذي فعل، بل لكان بادر إلى الدخول في الإسلام، أو على الأقل الصلح مع المسلمين ودفع الجزية لهم. لقد حسبها بحساب القوة والعدد والعدة، ولم يحسبها بحساب الإيمان بالله ونصره تعالى لعباده المؤمنين به، مهما كانوا في قلة من القوة أو العدد والعدة، على الكافرين بالله مهما كانوا في كثرة من القوة أو العدد والعدة، وقد قال الله جلَّ جلاله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

لقد بلغت بكسرى بلاهته وخفة عقله وطيشه ورعونته أنه حمَّل التراب على أعناق الوفد الإسلامي الذي جاء ليدعوه إلى الله وإلى ما فيه خير له في الدنيا والآخرة، بل إنه لم يرض حتى سألهم عن أشرفهم فحمَّله التراب، وظن أنه بتحميلهم التراب فإنه يذلهم ويهينهم، ولكن قائدهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حسبها حسابًا مختلفًا، فقد تفاءل بذلك، وبشَّر المسلمين بأخذ بلاد كسرى، وكأن كسرى بذلك كان يسلمه أراضيه، وهذا بالضبط ما أخبره به رستم قائد جيشه، فجعله ذلك يدرك كم كان غبيًّا ومتهورًا إلى الحد الذي يجعله يحسب أنه قد أحسن صنعًا، وفي الحقيقة فإن سعيه قد ضلَّ وجلب لنفسه ما يريد أن يتجنبه من الهزيمة والخسران، وأصبح أكبر همه أن يستعيد التراب؛ ولهذا أمر جنده بالإسراع خلف المسلمين وإعادة التراب. ولكن الأوان قد فاته، وتسلم القائد المسلم تراب أرض كسرى وبلاده. فمن كان المصيب منهما، هو أم سعد؟! أرأى كسرى ذلك...؟! إنه لم يحسبها جيدًا!.

والآن بعد أن قاتل كسرى المسلمين، وظل حتى آخر يوم في حياته يحث قومه الفرس على قتال المسلمين وطردهم من بلاده التي افتتحوها عنوة أو صُلحًا أو دخولاً في الإسلام، فماذا كانت النتيجة؟! وما الذي حققته جهوده في محاربة المسلمين؟! لقد أصبح وحيدًا طريدًا شريدًا في البلاد، لا يكاد يستقر في بلد حتى يصل إليه المسلمون فيهرب إلى بلد غيره، حتى ألجؤوه إلى الصين والتتار الذين استنجد بملوكهم ليعيدوا له مُلكه وبلاده. ثم كانت نهايته على يد رجل مجهول لجأ كسرى إليه ليجلس عنده، فرأى ما عليه من الجواهر واللآلئ التي لم يقدر على التخلي عنها حتى وهو هارب، فطمع به الرجل وقتله وأخذ ما عليه من حطام الدنيا الفانية. وكونه قُتِل على يد مجهول فهذا أنكى له وأذل وأخزى مما لو كان قتله على يد أمير من أمراء الإسلام أو بطل من أبطاله.

لقد كان بوسع كسرى أن يتعظ بما جرى للملوك والأمم الكافرة من قبله على أيدي عباد الله المسلمين المؤمنين. إن كون كسرى ملكًا وحاكمًا لدولة كبرى لا يعني أن

كل ما يفكر به فهو تفكير صائب، وأن كل ما يقوله فهو قول صحيح، وكل ما يفعله فهو فعل حق! بل إن غروره ورعونته قد يدفعانه إلى ارتكاب ما لا يرتكبه أحمق الناس، وهذا ما ارتكبه بالفعل، وذاق كسرى في الدنيا ما جنته يداه، ولا يزال أمامه أن يتذوق العذاب الأليم، عندما يُجَر ويساق إلى سواء الجحيم، ويصب فوق رأسه من عذاب الحميم، ويقال له: ذق إنك أنت العزيز الكريم، إن هذا ما كنت تشك فيه في الدنيا.

- وقفة مع نهاية الفرس:

وماذا بعد عن الفرس الطغاة...؟! لقد استخف بهم كسرى فأطاعوه؛ فدفعوا حياتهم ثمنًا لهذه الطاعة! لقد دعاهم المسلمون إلى دين الله الإسلام؛ فمنهم من أسلم وحسن إسلامه، وأكثرهم أبى إلا البقاء على المجوسية وعبادة النار، وطاعة كسرى يزدجرد المجرم الكفَّار، صاحب المُلك المنهار، على أيدي عباد الله العزيز الجبار القهار.

لقد حاربوا المسلمين في معارك لا تعد ولا تحصى، فلم يكن نصيبهم منها إلا الهزيمة والخسران، وقُتِل منهم مئات الآلاف، وأُخذت منهم الأموال والأراضي، فماذا جنوا بعد كل هذا وماذا ربحوا؟! لعلهم الآن قد عرفوا الجواب، وهو أنهم جنوا العذاب وربحوا جهنم، وهي نار تلظى ليست كالنار التي كانوا يعبدونها، ولن يغني كسرى يزدجرد ولا غيره من الأكاسرة عنهم من الله شيئًا، بل سوف يتبرؤون منهم؛ فيتمنون لو تتاح لهم فرصة ليتبرؤوا هم أيضًا منهم كما تبرؤوا منهم، ومهما فعلوا وتجادلوا وتمنوا، فسوف تظل أعمالهم حسرات عليهم، ولن يخرجوا من النار.

- الحمد لله:

لقد كانت فارس دولة كبرى في زمانها، ولكنها كفرت بالله وعبدت النار، وها هو ملكها كسرى، الذي هو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق، قد مزقه الله ومُلكه كما مزق هو كتاب رسوله ﷺ، وجعل الله زوال مُلكه إلى الأبد على أيدي عباده المؤمنين، وتحققت أقوال رسوله صلَّى الله عليه وسلم.

فلله الحمد والشكر على ما أنعم به على عباده المسلمين، الذين أطاعوه بقتال أعدائه من الفرس. وله الحمد والشكر على إنجاز وعده، ونصره لجنده المسلمين، الذين كان قدرهم أن يقاتلوا هذه الدولة الكبرى وهم لا يعلمون أن الله تعالى قد قدَّر زوالها بأيديهم. فلا دولة لفارس ولا لكسرى بعد اليوم.

الباب
الرابع

نهاية دولة الروم والقبط في مصر[1]

دعوة القبط إلى الإسلام:

لقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمسلمين من بعده بنشر دينه الإسلام في جميع البلدان، وقد اتجه دين الله إلى شمال الكرة الأرضية وانتشر في بلاد الشام وفي شمالها من البلدان، واتجه إلى شرقها وانتشر في بلاد فارس وآسيا، واتجه إلى الجنوب وانتشر في اليمن. وها هو دين الله يتجه إلى غرب الكرة الأرضية، وها هو رسول الله ﷺ يبعث صاحبه حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس جريج بن مينا القبطي، صاحب مدينة الإسكندرية، لدعوته وقومه من أهل مصر إلى الله وإلى دينه الإسلام.

وقد تسلم المقوقس الكتاب وقبله، وأكرم حاطبًا وأحسن نزله، وأنزله في منزله وأقام عنده. ثم بعث المقوقس إلى حاطب وقد جمع بطارقته، وقال: إني سائلك عن كلام، فأحب أن تفهم عني. قال: هلم. قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبي؟ قال: بلى، هو رسول الله. قال: فما له حيث كان هكذا، لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: عيسى ابن مريم، أليس تشهد أنه رسول الله؟ قال: بلى، قال: فما له حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يصلبوه، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ قال: أنت حكيم، قد جاء من عند حكيم. ثم قال له حاطب: إنه كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى؛ فانتقم الله منه،

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، أحداث سنة ثمان وسنة عشرين، وفتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري ١٣٥، والإصابة لابن حجر ٣١٩/٦، والفتوح الإسلامية لعبد العزيز إبراهيم العمري ١٤٢-١٤٥، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

فاعتبر به، وإن لك دينًا لن تدعه إلا إلى دين هو خير منه وهو الإسلام، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارته بمحمد. فقرأ الكتاب فإذا فيه: من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. فذكر مثل الكتاب إلى هرقل، فلما فرغ أخذه فجعله في حق من عاج وختم عليه.

وأرسل المقوقس أيضًا إلى حاطب فقال: أسألك عن ثلاث؛ فقال: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك. قال: إلام يدعو محمد؟ قال: إلى أن يُعبد الله وحده، ويأمر بالصلاة خمس صلوات في اليوم والليلة، ويأمر بصيام رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم، إلى أن قال: صفه لي. فوصف حاطب رسول الله ﷺ فأوجز. قال المقوقس: قد بقيت أشياء لم تذكرها؛ في عينيه حمرة قلما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالتمرات والكسر، ولا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم، هذه صفته، وقد كنت أظن أن مخرجه بالشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله فأراه قد خرج في أرض العرب، في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ها هنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفًا، ولا أحب أن يعلم بمحادثتي إياك أحد.

وقال المقوقس لحاطب: هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك ببذرقة[1] يبذرقونك إلى مأمنك. فأهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ ثلاث جوار، منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وهدايا أخرى كثيرة.

وكان بعض المشركين قبل ذلك قد خرجوا من الطائف إلى المقوقس، فلما دخلوا عليه قال لهم: كيف خلصتم إليَّ ومحمد وأصحابه بيني وبينكم؟ قالوا: لصقنا بالبحر، قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد، قال:

(١) البذرقة هي الخفارة، أي؛ الحراس.

فكيف صنع قومه؟ قالوا: تبعه أحداثهم، وقد لاقاه من خالفه في مواطن كثيرة، قال: فإلى ماذا يدعو؟ قالوا: إلى أن نعبد الله وحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعو إلى الصلاة والزكاة، ويأمر بصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا والربا والخمر. فقال المقوقس: هذا نبي مرسل إلى الناس كافة، ولو أصاب القبط والروم لاتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى، وهذا الذي تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر. ثم سألهم عن نحو ما وقع لهم في قصة هرقل وفي آخره: فما فعلت يهود يثرب؟ قالوا: خالفوه فأوقع بهم، قال: هم قوم حسد، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف.

فتح مصر:

بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشًا من المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ﷺ إلى مصر لفتحها، فدخلها المسلمون عن طريق (العريش)، ثم توجهوا منها إلى (الفرما) وهي أحد أهم المواقع العسكرية للروم شرقي مصر، وقد فتحها المسلمون بعد نحو شهر من قتال الروم. ثم توجهوا بعدها إلى (بلبيس) ففتحوها أيضًا بعد حوالي شهر من القتال، ثم تابعوا المسير وفتحوا عددًا من المواقع والتحصينات الرومية. وقد لقيهم أبو مريم ومعه الأسقف أبو مريام، بعثه المقوقس صاحب إسكندرية للدفاع عن بلادهم، فلما تصافوا قال عمرو بن العاص: لا تعجلوا حتى نُعذِر إليكم، ليبرز إليَّ أبو مريم وأبو مريام راهبا هذه البلاد. فبرزا إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدى إلينا كل الذي أُمِر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنَّا مفتتحوكم، وأوصانا بكم؛ حفظًا لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيرًا، فإن رسول الله ﷺ

أوصانا بالقبطيين خيرًا؛ لأن لهم رحمًا وذمة. فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، معروفة شريفة، كانت ابنة ملكنا، وكانت من أهل منف والمُلك فيهم، فأُديل عليهم أهل عين شمس، فقتلوهم وسلبوهم مُلكهم واغتربوا، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام، مرحبًا به وأهلاً، أمِّنا حتى نرجع إليك. فقال عمرو: إن مثلي لا يُخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثًا لتنظرا ولتناظرا قومكما، وإلا ناجزتكم. قالا: زدنا. فزادهم يومًا، فقالا: زدنا. فزادهم يومًا.

فرجعا إلى المقوقس فأبى الروم أن يجيبوهما وأمروا بقتالهم، وقالوا لأهل مصر: أما نحن فنجتهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم، وقد بقيت أربعة أيام. وأشاروا عليهم بأن يُبيتوا المسلمين. فقال الملأ منهم: ما تقاتلون من قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم؟! فألحوا في أن يبيتوا المسلمين، ففعلوا فلم يظفروا بشيء بل قُتِل منهم طائفة. وحاصر جيش عمرو بن العاص حصن (بابليون) الذي كان حصنًا منيعًا ومحاطًا بخنادق المياه، واستمروا على حصاره عدة أشهر، وقد جاءهم مدد من أمير المؤمنين، قوامه عشرة آلاف رجل عليهم الزبير ابن العوام رضي الله عنه.

وفي أثناء الحصار دارت المراسلات بين المسلمين وبين الروم، وكذلك بين المقوقس ملك القبط في مصر من قِبل الروم، الذي كان قد أرسل رجالاً له ليقيموا بين المسلمين لمعرفة أحوالهم، فلما أخبروه عن تواضعهم وخشوعهم في الصلاة، وأن الموت أحب إليهم من الحياة، قال المقوقس: لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها. وطلب من المسلمين أن يبعثوا إليه وفدًا ليفاوضهم، فحضر وفد على رأسه عبادة بن الصامت، ودار حديث بينه وبين المقوقس هدد فيه المقوقس بقوات الروم وشدتها، وضعف المسلمين وقلة عددهم وسلاحهم، فرد عليه عبادة بموعظة عظيمة ذكر فيها أن المسلمين لا يخافون من قوة الروم، بل ذلك يرغبهم أكثر في قتالهم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وأنه ما منهم أحد إلا ويدعو ربه صباح مساء أن

يرزقه الشهادة. فأُعجب المقوقس بكلام عبادة، وأحس بقوة المسلمين ونصر الله لهم، فعزم على مصالحتهم ودفع الجزية لهم، إلا أن الروم رفضوا ذلك.

فواصل المسلمون حصار الحصن، ثم تمكن الزبير بن العوام رضي الله عنه مع بعض شجعان المسلمين من تسلق أسوار الحصن بالسلالم، فلما أصبحوا أعلاه كبَّروا وكبَّر المسلمون خارج الحصن معهم، فارتج الأعداء، ثم نزل الزبير داخل الحصن، وتمكن من فتح بابه للمسلمين، فأسرع مَن فيه من الروم بمصالحة المسلمين، وأعلنوا استسلامهم وخضوعهم، وأقروا بدفع الجزية، وكتب لهم عمرو كتاب أمان. فدخل في ذلك أهل مصر كلهم، وقبلوا الصلح، واجتمعت الخيول بمصر، وعمروا الفسطاط، وظهر أبو مريم وأبو مريام فكَلَّما عمرًا في السبايا التي أُصيبت بعد المعركة، فرأى المسلمون أن يُخيِّروا مَن في أيديهم من السبي بين الإسلام وبين أن يرجع إلى أهله، فمن اختار الإسلام فلا يردوه إليهم، ومَن اختارهم ردوه عليهم وأخذوا منه الجزية، فجمع عمرو السبايا وعرضوهم وخيروهم، فمنهم مَن اختار الإسلام، ومنهم مَن عاد إلى دينه، وانعقد الصلح بينهم. وكان من نتيجة الاستيلاء على الحصن أن أصبح المسلمون يسيطرون على معظم مصر ويتحكمون في وسطها وجنوبها، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام المسلمين لفتح الإسكندرية.

فتح الإسكندرية:

استأذن عمرو بن العاص رضي الله عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فتح الإسكندرية؛ فأذن له. فأرسل عمرو جيشًا باتجاه الشمال لفتح الإسكندرية التي كانت أكبر المدن المصرية ومحصنة بالأسوار والقلاع من الجنوب، ويحميها البحر من الشمال، ويقيم بها مجموعة عظيمة من الروم، يبلغ المقاتلة منهم أكثر من خمسين ألفًا، فواجه المسلمون في أثناء زحفهم جموعًا كبيرة من الروم، كانت قد تجمعت لمنع وصولهم إلى الإسكندرية، بل أرادوا غزو عمرو في الفسطاط قبل أن يأتي إلى

الإسكندرية؛ فرد الله كيدهم إلى نحرهم، ونصر المسلمين عليهم، إذ لقوهم في الطريق، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

ثم سار عمرو حتى انتهى إلى أسوار الإسكندرية فوجد أهلها مستعدين لقتاله، فحاصرها ثلاثة أشهر، وقع خلالها كثير من المعارك بين الطرفين، وكانت سفن الروم تمد أهل الإسكندرية بالسلاح والرجال من البحر طوال مدة الحصار. وقد جمع المقوقس صاحب إسكندرية أساقفته وأكابر دولته، وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن مُلكهم، ولا طاقة لنا بهم، والرأي عندي أن نؤدي الجزية إليهم. فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة.

وفي آخر أيام الحصار أمر عمرو بن العاص الناس بالتطهر والصلاة والدعاء، ثم خاض المسلمون معركة قوية ضد جيش الروم، تمكنوا بعدها من فتح الإسكندرية عنوة، وفرضوا الجزية على أهلها وأحكموا سيطرتهم عليها. وبعد ذلك أتم المسلمون فتح مصر وأصبحت لهم السيطرة التامة عليها، بعد أن فتحوا مدنًا أخرى، ومدنًا رضيت بالتسليم وأقر أهلها بدفع الجزية.

وسميت ديار مصر بالفسطاط نسبة إلى فُسطاط عمرو بن العاص، وذلك أنه نصب خيمته - وهي الفُسطاط - موضع مصر اليوم، وبنى الناس حوله، وتُرِكت مصر القديمة من زمان عمرو، ثم رُفِع الفسطاط وبُني موضعه جامع وهو المنسوب إليه اليوم.

وقفات مع نهاية دولة القبط في مصر:

حسنًا فعل المقوقس عظيم القبط في مصر من مبادرته إلى الصلح مع المسلمين، إنه فعلاً قد اتعظ بما جرى لمن قبله من عظماء الأمم الأخرى التي أزال الإسلام دولها ومُلكها، ومنهم: قيصر الروم وكسرى فارس. حسنًا فعل عندما لم يصر على مواجهة طوفان الإسلام الجارف لكل ما هو باطل وضلال من دين وغيره، ولم يفعل كما فعل هرقل الذي كان يعلم الحق مثله إلا أنه لم يجنح إلى الصلح

والسلم فكان نصيبه الخروج من الشام وإزالة مُلكه نهائيًا. كذلك لم يفعل المقوقس كما فعل كسرى الذي أصر على مواجهة هذا الطوفان الهائل فانتهى أمره وحيدًا شريدًا طريدًا وقد أُزيل مُلكه ودولته. أما المقوقس فقد صالح المسلمين وحافظ على مُلكه فكان ذلك خيرًا لقومه القبط من أهل مصر الذين دخل معظمهم في الإسلام.

هنيئًا لأمة القبط المصريين الذين أراد الله تعالى لهم الخير فدخلوا في الإسلام، فهنيئًا لهم على إسلامهم. لقد كانوا وملكهم المقوقس أول أمة تتعظ وتعتبر بما جرى لمن قبلها أو لمن عاصرها من الأمم التي اختارت البقاء على كفرها ومحاربة الرسالة الإلهية الجديدة والرسول الجديد. لقد علموا أنه من الجهل بل من الخطورة تقليدهم بما فعلوا من قتال المسلمين فيقتضي ذلك إزالة ملكهم والقضاء عليهم كما حدث لأولئك، فاختاروا الصلح ودخول الإسلام، بل أصبحوا يفخرون باسم الصحابي الذي فتح بلادهم مصر، ولهذا هم أكثر الناس على الإطلاق تسمية لأولادهم باسم (عمرو)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حبهم للإسلام وأهله.

لقد صار أهل مصر - فيما بعد - قوة للإسلام والمسلمين، وشوكة في حلق الكفار المحاربين، ومن بلادهم خرجت الجيوش الإسلامية التي هزمت المغول والصليبيين، وغيرهم من الكفار الطامعين في بلادهم وبلاد المسلمين.

أما أولئك القلة الذين أصروا على دينهم ولم يدخلوا في الإسلام، فسيأتي اليوم الذي سيندمون فيه، ولكن ساعتها لن ينفعهم الندم؛ لأن ذلك اليوم هو يوم الحساب الذي لا عمل فيه ولا رجعة منه إلى الدنيا لتعويض ما فات، وإنما هو العذاب والخلود في النار؛ لأن الدين عند الله الإسلام وهم قد ابتغوا دينًا غيره، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[1]. بل إن الندم سيحصل لكل فرد منهم قبل يوم الحساب؛ وذلك حين يموت ويكتشف أنه لا دخَل في الإسلام

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

ولا كان على الدين الصحيح للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الذي جاء به إلى بني إسرائيل خاصة دون غيرهم من الأمم؛ ولهذا فهو خاسر من الجهتين؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومهما قال: رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت. فلن ينفعه ذلك؛ لأن الأوان قد فات، وحان وقت الحساب والعذاب.

تحقق وعد الله لنسل إبراهيم:

وهكذا... بدخول أرض مصر ونهرها النيل ضمن أراضي المسلمين وتحت حكم الإسلام، بعدما يسر الله ذلك من قبل لأراضي نهر الفرات، يكون قد تحقق وعد الله لخليله إبراهيم عليه السلام بأن يهب لنسله هذه الأرض، كما ورد ذكره في التوراة: «في ذلكَ اليومِ قطَعَ الرّبُّ معَ أبرامَ عَهدًا قالَ: «لنَسلِكَ أهَبُ هذِهِ الأرضَ، مِنْ نهرِ مِصْرَ إلى النَّهرِ الكبيرِ، نهرِ الفُراتِ»[1]. فها هم العرب المسلمون من نسل إبراهيم من ابنه إسماعيل عليهما السلام قد ورثوا هذه المنطقة تحقيقًا لوعد الله، وستبقى هذه المنطقة لهم إلى آخر الزمان بإذن الله الكريم المنان.

(١) التكوين ١٨/١٥.

نهاية دولة الروم والبربر
في شمال إفريقيا[1]

واصل جند الله المسلمون فتح البلدان، وتطهير أرض الله من دول الكفر وحكمهم، ليظهر دين الله الإسلام على الدين كله، ويكون هو الحاكم الأعلى على الناس.

فقد زحف المجاهدون المسلمون إلى شمال إفريقيا يفتحونها بلدًا بلدًا، لا يقدر على الوقوف أمامهم أحد، ولا تستطيع أن تصدهم قوة. فبعد فتحهم لمصر وإزالة دولة الروم والقبط منها، ها هم قد بدؤوا في إزالة دولة الروم والبربر من شمال إفريقيا التي كانت تابعة مع مصر لمملكة الروم، وبدؤوا بالبلاد التي تلي مصر من الغرب.

فتح ليبيا:

أذن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه لعبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه في الفتوح في إفريقيا، وأرسل له مددًا فيهم جمع من الصحابة، منهم الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير وغيرهم ممن رضي الله عنهم، وقد سار عبد الله بن سعد بالجيوش الإسلامية حتى وصل إلى برقة ومنها إلى طرابلس.

التقى المسلمون بجيش أعده الروم بقيادة (جريجوري)، يصل عدده إلى مئة ألف مقاتل، حيث خاض المسلمون معهم عدة معارك، كانت تنتهي دون حسم لأحد

(١) الفتوح الإسلامية لعبد العزيز العمري ١٤٩-١٥٠، ١٧٣-١٧٩، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

الفريقين، فأشار عبد الله بن الزبير على عبد الله بن سعد أن يقسم الجيش إلى نصفين، يقاتل بالأول طوال النهار، فإذا أرهق الروم جميعهم ونصف المسلمين وذهبوا للراحة فاجأ النصف الثاني من المسلمين الروم وهم مرهقون وعلى غير أهبة للحرب وقاتلوهم، ونجحت تلك الخطة، وتمكن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه من قتل (جريجوري) قائد الروم، فانهزموا، ولما شاهد زعماء المدن المجاورة انتصار المسلمين رضوا بأن يدفعوا الجزية للمسلمين على أن يكفوا عنهم، وتمت بذلك سيطرة المسلمين على جزء كبير من شمال إفريقيا، وخصوصًا ما عُرف بـ (ليبيا).

فتح تونس:

انطلقت جيوش المسلمين بقيادة عقبة بن نافع لاستكمال فتح شمال إفريقيا، وقد تمكن من فتح الكثير من المواقع. وكان عقبة من المجاهدين في الشمال الإفريقي منذ أن بدأ المسلمون في فتحها. وقد شرع عقبة في بداية ولايته بتأسيس مدينة إسلامية تكون قاعدة ثابتة لجند المسلمين، فأنشأ مدينة القيروان بعيدًا عن البحر حتى تكون في مأمن من أساطيل الروم، فكانت هذه المدينة حلقة اتصال بين المسلمين والبربر الذين أقبلوا على تلك المدينة وخالطوا المسلمين وكثر فيهم الإسلام.

وقد عُيِّن فيما بعد (أبو المهاجر بن دينار) على ولاية إفريقيا بدلاً عن عقبة بن نافع، وأخذ أبو المهاجر يحارب البربر بقيادة (كسيلة) الذي تمكن المسلمون من أسره، فاستبقاه أبو المهاجر، ثم لم يلبث أن أعلن إسلامه واشترك مع أبي المهاجر في حرب البيزنطيين في (قرطاج) وما جاورها، حيث تمكن المسلمون من فتح الكثير من المواقع والمدن في سواحل إفريقيا في منطقة تونس.

فتح الجزائر والمغرب:

عاد عقبة بن نافع مرة أخرى لولاية شمال إفريقيا، فوصل إلى (القيروان) وأعاد ترتيبها واستخلف عليها، ثم قال: إني قد بعت نفسي لله عزَّ وجلَّ فلا أزال مجاهدًا

حتى أخلص إفريقيا من الكفر، وأدخلها في دار الإسلام، أو أقضي دون ذلك. وخرج في جيش المسلمين فاتحًا في إفريقيا فتمكن من فتح بجاية وقسنطينة وتلمسان وتاهرت، ثم توجه إلى المغرب الأقصى حيث فتح مدنه الواحدة تلو الأخرى، رغم المقاومة الشديدة التي جوبه بها من قبل قوى البربر والروم المتحدة، حتى وصل عقبة في مسيره إلى ساحل (المحيط الأطلسي) في بلاد المغرب فأقحم فرسه فيه، وأخذ يناجي الله - عزَّ وجلَّ - في دعاء، مما قال فيه: اللهم إنك تعلم أني لا أريد أن يُعبد على وجه الأرض أحد سواك، ولو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لوطئتها أذكر فيها اسمك العلي العظيم، اللهم اشهد أني قد بلغت عذرًا.

وقد أسلمت فيما بعد جموع كبيرة من البربر، وأخذوا يغزون مع المسلمين حتى وصلوا إلى نواحي (موريتانيا)، واستمر المسلمون في تعليم البربر الإسلام وفتحوا لهم المساجد، فأقبلوا على الإسلام بصدق وحماس. وعُيِّن موسى بن نصير فيما بعد، وفي أيامه حاولت جماعات من البربر الخروج عن الطاعة، فتمكن من تأديبهم وأعاد تنظيم البلاد، وزاد دخول البربر عن ذي قبل في الإسلام، فاستفاد منهم في الإدارة وعين بعضهم أمراء على قومهم، وأسكن جماعة من العرب في المغرب الأقصى، وعين مولاه طارق بن زياد على طنجة، وأوكل إليه إدارة ما جاورها من الغرب، وأصبحت الأوضاع في أيام موسى مستقرة، وأصبح المسلمون في المنطقة من العرب أو البربر يتطلعون إلى فتوح جديدة.

نهاية أمة القوط في الأندلس[1]

إن دين الله الإسلام ليس لجنس دون آخر، وليس لعرب دون عجم. فبعد أن فتح عباد الله المسلمون شمال إفريقيا وأنهوا دولة الروم والبربر فيها، وطهروا تلك البلاد من الكفر وأدخلوها في الإسلام، ودخل في دين الله معظم البربر الذين صاروا جزءًا لا يتجزأ من الجيش الإسلامي، ها هم المسلمون يريدون العبور إلى قارة أوروبا لفتح الأندلس في جزيرة (إيبيريا) وإنهاء دولة القوط التي تحكم تلك البلاد.

ويعد فتح الأندلس امتدادًا لحركة الفتوح العامة التي كان باعثها الأول نشر الإسلام وتبليغه للناس. وكانت بلاد الأندلس محكومة من قِبل (القوط) الغربيين وملكهم (رودريك)، وقد عانى أهل الأندلس من (الوندال) الإسبان ظلمًا شديدًا من حكم القوط الذين كانوا يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، يليهم طبقة رجال الدين، حيث كانوا يتمتعون بأعظم قسط من السلطان والنفوذ الذي استغلوه في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزراع والأرقاء. وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجتمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين. أما سواد الشعب فكان يرزح تحت شقاء الحياة وبؤسها وهو يتكون من ثلاث طبقات: متوسطة وزراع وأرقاء. وفي الوقت الذي كانت فيه شبه الجزيرة الإسبانية تضطرم فيها حوادث المؤامرات والأزمات الخطيرة، كان المسلمون قد أتموا فتح المغرب الأقصى باستيلائهم على ثغر (طنجة)، وأشرفوا بذلك على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر.

---

(١) راجع: عبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية ١٧٩-١٨٥، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه، ومحمد شامة: مقدمة كتاب بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي ١٠-١٤.

وسمع الشعب المظلوم في الأندلس بما قام به المسلمون من تنظيم لإفريقيا، وحسن معاملة وعدل بين الناس؛ ولذلك تطلعوا إلى الدخول تحت حكم الإسلام، وأحسوا أن في ذلك إنقاذًا لهم من الظلم الذي كانوا يعيشونه، كما أن المسلمين كانوا يفكرون في فتح الأندلس منذ أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث وصلت إليها أساطيل المسلمين في تلك المدة، يضاف إلى ذلك أن الكثير من البربر قد دخلوا في الإسلام عن اقتناع، وتولى بعض منهم مهمات إدارية وعسكرية في شمال أفريقيا، فتحمسوا لنشر الإسلام ولفتح مناطق جديدة، فكانت الأندلس هي أقرب ما يمكن فتحه من البلدان بالنسبة لهم.

وقد بدأ موسى بن نصير والي إفريقيا التفكير عمليًا بفتح الأندلس فأرسل سنة ٩١هـ حملة صغيرة قوامها ٥٠٠ رجل بقيادة (طريف بن مالك) عبرت إلى الأندلس ونجحت في ضرب بعض المواقع جنوبيها وتمكنت من العودة بسلام محملة بالغنائم، كان ذلك حافزًا لموسى لإعداد حملة كبرى لمباشرة الفتح.

فتح الأندلس:

كان (طارق بن زياد) أحد قواد البربر الذين يعتمد عليهم والي إفريقيا موسى بن نصير في إدارة شؤون شمال إفريقيا، وكان معروفًا بالشجاعة والديانة وحسن الإسلام، فأسند إليه موسى بن نصير قيادة حملة عسكرية لمباشرة الفتح في الأندلس، وقد عبر طارق بمن معه من الجند إلى الأندلس بمساعدة (يوليان) حاكم (سبتة)، فنزل هو وجنوده على تلك الجزيرة، وغادرت السفن، فخطب طارق في جنوده حاثًا لهم على الجهاد وابتغاء ما عند الله تعالى، ثم باشروا فتح المواقع، والتقوا بجنود القوط في عدة معارك، وفي هذا الوقت تحرك ملك الإسبان (رودريك) متجهًا إلى الجنوب على رأس جيش كثيف عرمرم، والتقى مع المسلمين يقودهم طارق بن زياد.

كان معظم جيش طارق من البربر ومعه ثلاث مئة فقط من العرب، وقد بعث (رودريك) أحد جواسيسه ليتوغل في صفوف المسلمين ويأتيه بالأخبار، وبعد مدة عاد إليه وقدم تقريرًا قال فيه: «لقد جاءك من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، حطوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات، ليس لهم في أرضنا مهرب ولا سفن يتعلقون بها». وقد انزعج (رودريك) من التقرير وعبأ قواته لمقاومة المسلمين، مما اضطر طارق بن زياد لطلب النجدة من موسى بن نصير فأمده بخمسة آلاف مقاتل فأصبح جيش المسلمين اثني عشر ألفًا، مقابل أربعين ألفًا من الإسبان الذين غرتهم أنفسهم واستعدادهم، وكانوا متأكدين من تغلبهم لدرجة أنهم قد أعدوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين، حيث كان مع رودريك عربات تحمل الأموال وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات، وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت، وعلى جسمه حلة لؤلؤ، ومعهم عدد من الدواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى المسلمين، إذ لم يشكوا في انتصارهم على المسلمين وأسرهم أو قتلهم، حيث كان جيش الإسبان أقوى تنظيمًا وأكثر عدة واستعدادًا، وأعلم منهم بالأرض ومسلكها، وأقرب إلى مصادر التموين، وكانت كل العوامل المادية في صالحه.

وقد تجمع الجيشان في وادي لكة قرب شذونة جنوب غرب الأندلس، وبدأت المعركة في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ - ١٧ يوليو ٧١١م، واستمرت سبعة أيام أبلى المسلمون فيها بلاءً حسنًا، وقدموا فيها ثلاثة آلاف شهيد، أي؛ قرابة ربع الجيش، وصبروا وصابروا. كان الجيش الإسلامي في هذه المعركة يتفوق بقوة العقيدة وحب الموت وطلب الشهادة والتماسك والثبات وإعداد ما استطاعوا من قوة مادية، وهذه الصفات تغلبت على كل القوى المادية التي كانت في ظاهرها في صالح الإسبان، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ومقتل (رودريك) ملك الإسبان، وأسر الألوف منهم في الحبال التي أعدوها للمسلمين. وكان من نتيجة المعركة أن أصبح الطريق سالكًا للمسلمين لفتح بقية الأندلس ونشر الإسلام فيها. والملاحظ أن

المسلمين كانوا يجدون التعاون والتشجيع من أهل البلاد الأصليين من الإسبان ضد حكامهم الأصليين، لما يعلمونه من عدل الإسلام وسماحة المسلمين.

نهاية أمة القوط في الأندلس:

كانت معركة وادي لكة بين جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد والجيش القوطي بقيادة رودريك من أهم المعارك بين الإسلام والنصرانية في الأندلس، وكانت معركة فاصلة بينهما، حيث مزق جيش المسلمين جيش القوط شر ممزق، وألحق به هزيمة ساحقة، فتشتت القوط في كل صوب، وفروا في كل اتجاه. لم يكتف طارق بهذا النصر، بل سارع إلى فتح المدن الإسبانية بالرغم من مقاومتها الشديدة للمسلمين، فتمكن من فتح إشبيلية وقرطبة، وانقسم جيش طارق إلى فريقين اتجه كل واحد منهما لفتح بعض المناطق والتقى الفريقان عند طليطلة، حيث تمكن المسلمون من فتحها.

وفي هذه الأثناء كان طارق يكتب إلى موسى بأخبار الفتح، فرأى موسى أن يشارك في ذلك الفتح بنفسه لينال الأجر والثواب ويساعد طارق في مهمته، خصوصًا أن بلاد الأندلس كانت واسعة وتحتاج إلى قوات أكبر لفتح المواقع المتعددة المنتشرة في أنحائها ولتثبيت فتوح طارق في المواقع التي حاول أهلها الانتقاض. فاستخلف موسى أحد الأمراء على إفريقيا، وعبر إلى بلاد الأندلس ومعه عشرة آلاف مقاتل، وكان ذلك في رجب سنة ٩٣هـ، وبعث الرسل يطلب من طارق التريث في الفتح وعدم العجلة فيه نظرًا لانتقاض بعض البلاد المفتوحة. وعمد موسى إلى سلوك طرق أخرى لم يسلكها طارق، حتى يتشرف بفتح مواقع جديدة. وقد عمل موسى على إعادة فتح إشبيلية بعد أن انتقضت، ثم سار إلى (ماردة) حيث تمكن من فتحها بعد حصار دام عدة أشهر، ذهب فيه الكثير من شهداء المسلمين، ثم نكث أهل إشبيلية العهد، فاضطر موسى إلى فتحها للمرة الثالثة، ثم اتجه إلى طليطلة، حيث التقى مع طارق بالقرب منها، ودار نقاش بين القائدين حول تفاصيل الفتوح القادمة، واتفقا على خطة معينة، ثم تابع القائدان فتوحهما في شمال إسبانيا، وأخذت المدن

تتساقط تباعًا، ومنها سرقسطة ووشقة ولاردة في الشمال حتى وصل المسلمون (جبال البرانس) في شمال الأندلس عند الطرف الجنوبي لفرنسا، وهكذا تمكن المسلمون من فتح معظم إسبانيا.

وحين اضطر القائدان سنة ٩٥هـ لمغادرة الأندلس إلى بلاد الشام بناء على طلب الخليفة الوليد بن عبد الملك، خلَّف موسى ابنه عبد العزيز على ولاية الأندلس، فقام باستكمال الفتح في بعض المواقع شرق الأندلس. وقد بقيت بعض المواقع الجبلية في الركن الشمالي الغربي لم يفتحها المسلمون، مما جعل النصارى الإسبان يتجمعون فيها، ويُكَونون مع مرور الزمن قوة نصرانية أخذت تحارب المسلمين، وتعمل على طردهم من الأندلس. وقد حاول المسلمون بعد فتح إسبانيا التقدم في فرنسا وغرب أوروبا.

نعمة الإسلام على الإسبان:

وهكذا بسط عباد الله المسلمون سلطتهم على بلاد الأندلس وأنهوا أمة القوط ودولتهم فيها، وأقاموا حكم الإسلام وشريعة الله الغراء السمحة في هذه البلاد، اتباعًا لأمر الله بنشر دينه والدعوة إليه وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له. وها هي راية التوحيد قد رُفعت على أرض الأندلس، ودُعي الناس فيها إلى الله وإلى دينه؛ فمنهم من أسلم ومنهم من بقي على كفره وشركه.

وفي ظل الإسلام بعد الفتح انهار سلطان الطبقات الممتازة، فتنفس الشعب الصعداء، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم. كذلك أمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم إذ ترك الفاتحون لهم حق تطبيق قوانينهم، واتباع تقاليدهم، والخضوع لقضائهم وقضاتهم، بل عينوا أيضًا عليهم -في معظم الأحوال- حكامًا من أبناء جنسهم، وعهد إلى هؤلاء الحكام الإشراف على النظام والأمن.

أما مسألة الدين والعقيدة، فقد تُرِك الناس فيها أحرارًا يعتقدون ما شاؤوا ويؤمنون بعقيدتهم التي يختارونها من غير إكراه ولا اضطهاد، وقد ضربت السياسة

الإسلامية بهذا مثلاً أعلى للتسامح الديني؛ مما جعل العلماء النصارى يشيدون بالفتح الإسلامي لإسبانيا ويعدونه نعمة أنعم الله بها على أهلها من الإسبان. فهذا المستشرق (دوزي) يقول: «لم يكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل. أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح. فلم يرهقوا أحدًا في شؤون الدين... كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا، فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية مهمة، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون... وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تُمحى، ووزعت الأراضي توزيعًا كبيرًا، فكان ذلك حسنة سابغة، وعاملاً في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي، ثم كان الفتح عاملاً في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة، إذ كان الإسلام أكثر تعضيدًا لتحرير الرقيق من النصرانية، كما فهمها أحبار المملكة القوطية، وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع، إذ غدوا من الزراع تقريبًا، وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية».

ويقول (لابن بول): «أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة القرون الوسطى في حين كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية». ويقول المستشرق الإسباني (جاينجوس): «لقد سطعت في إسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية، وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء، وحفظت بعناية. وإلى حكمة العرب وذكائهم، ونشاطهم، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها».

فهذا غيض من فيض مما قيل عن فضل الإسلام وتعاليمه وأحكامه بعد فتح إسبانيا وخضوعها لحكم الإسلام، ولا غرو في ذلك فهو دين الله الذي أكمله وارتضاه للناس أجمعين، ولا يمكن لمنصف - وإن لم يكن من المسلمين - أن يجد في دين الله وشريعته عيبًا واحدًا أو نقصًا أو فسادًا.

نهاية أمة الوثنيين في آسيا الوسطى[1]

دعوة أهل آسيا الوسطى إلى الإسلام:

إن الله - جلَّ جلاله - أهل للتعظيم والتسبيح من كل مخلوقاته أينما كانوا ...! ودينه أهل للاتباع من كل البشر أينما خلقهم وأينما أوجدهم؛ لأنه رحمة لهم ووقاية لهم من عذاب النار، ولهذا أمر الله تعالى خاتم أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ بنشر دينه في أرجاء الأرض، وبين جميع البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأماكن وجودهم...!.

وها هم حملة الرسالة بعد رسول الله ﷺ، قد ساحوا في الأرض بعيدًا جدًا عن ديارهم لنشر دين الله، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فوصلوا إلى آسيا الوسطى والصين، وهي بلاد الترك الوثنيين، عبدة الأصنام والأوثان من كل الأشكال والألوان...! فبدأ جند الله المسلمون المجاهدون يكتسحون بلاد الترك الأشداء، ويفتحونها مدينة بعد مدينة، وبلدًا بعد بلد في تلك البلاد ذات الأرجاء الشاسعة والمسافات الطويلة.

فقد كانت الجيوش الإسلامية تنطلق باستمرار باتجاه شرق وشمال الكرة الأرضية؛ إما لتثبيت الفتوحات السابقة وتأديب العصاة ومَن ينقضون الصلح والمعاهدات من أهل البلاد المفتوحة، أو لفتح بلدان جديدة ودعوة أهلها إلى الإسلام، وقد غزا المسلمون كلاً من أذربيجان وأرمينية والديلم حتى وصلوا إلى بحر قزوين. وكذلك فتحوا خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان ونيسابور، ووصلوا إلى

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير ٤٠٧/١٢ وما بعدها، والفتوح الإسلامية لعبد العزيز العمري، ١٥٦ وما بعدها، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

خوارزم. وعبرت الجيوش الإسلامية إلى ما وراء النهر، وتمكنوا من فتح بعض مدن تلك البلاد ومنها: ترمذ وبخارى وبيكند وسمرقند. ولكن أهل بعض المناطق في تلك البلاد كانوا يحاولون الانتقاض على المسلمين والامتناع عن دفع الجزية، فيعود المسلمون إلى إعادة فتحها وبذل الجهود في تثبيت أقدامهم والقضاء على الخوارج في تلك المناطق.

نهاية أمة الوثنيين في آسيا الوسطى:

لقد تم تعيين سيف من سيوف الله المسلولة على الكفرة الوثنيين، وهو قتيبة بن مسلم على خراسان سنة ٨٦هـ؛ فبدأت الفتوحات في بلاد ما وراء النهر تأخذ طابعًا جديدًا يدفعها الحماس لنشر الإسلام، والجهاد الصادق من قتيبة وجنده لتثبيت أركان الدولة الإسلامية في تلك البقاع. وقد عمد قتيبة إلى الفتح المنظم الثابت، واتخذ من (مرو) قاعدة له.

- فتح بيكند:

وقد بدأ قتيبة وجنده بفتح مدينة بلخ التي تقع على مفترق الطرق المؤدية إلى الصغد والصين، ومنها تقدم حتى عبر نهر جيحون، وخضعت له معظم القبائل الموجودة في المنطقة، وتمكن من الاستيلاء على بيكند سنة ٨٧هـ، فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غفير، وهي من المدن المهمة في طريق بخارى، فلما نزل بأرضهم غدروا واستنجدوا عليه بأهل الصغد ومن حولهم من الأتراك، فأتوهم في جمع عظيم فأخذوا على قتيبة الطرق والمضايق، فتواقف هو وهم قريبًا من شهرين، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك في كل يوم.

ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب، ووقف على أصحاب الرايات يحرضهم، فاقتتل الناس قتالاً شديدًا، وأنزل الله تعالى على المسلمين الصبر فما انتصف النهار حتى أنزل - عزَّ شأنه - عليهم النصر، فهُزمت الترك هزيمة عظيمة،

واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ما شاؤوا، واعتصم من بقي منهم بالمدينة، فأمر قتيبة الفعلة بهدمها، فسألوه الصلح على مال عظيم فصالحهم، وجعل عليهم رجلاً من أهله وعنده طائفة من الجيش ثم سار راجعًا، فما ابتعد قليلاً حتى نقضوا العهد، وقتلوا الأمير، وجدعوا أنوف من كان معه، فرجع قتيبة إليها، وحاصرها شهرًا. وأمر النقابين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب، وهو يريد أن يضرم النار فيها، فسألوه الصلح فأبى، ولم يزل حتى افتتحها، فقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم الأموال.

وقد غنم المسلمون من بيكند شيئًا كثيرًا من آنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب، وكان فيها صنم سُبِكَ فخرج منه مئة وخمسون ألف دينار من الذهب، ووجدوا في خزائن المُلك أموالاً كثيرة وسلاحًا كثيرًا وعُددًا متنوعة وجواهر نفيسة، وأخذوا من السبي شيئًا كثيرًا، فتمول المسلمون مالاً كثيرًا جدًا، وصارت لهم أسلحة وعُدد وخيول، وتقووا على الأعداء قوة عظيمة.

- فتح بخارى:

وبعد ذلك قام قتيبة بفتح مدن أخرى في بلاد الصغد. وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك فظفر بهم فقتلهم، وسار إلى بخارى فلقيه دونها خلق كثير من الترك فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له: خرقان، وظفر بهم، ثم قصد قتيبة ملك بخارى فقاتله قتالاً شديدًا. ورغم محاولة القبائل التركمانية القضاء على جيش المسلمين فقد تمكن قتيبة سنة ٩٠هـ من فتح مدينة بخارى وفر منها ملكها.

قام (نيزك) ملك الترك بالكتابة إلى ملوك ما وراء النهر؛ منهم ملك الطالقان، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذي كان بينه وبين قتيبة، واستجاش عليه بالملوك كلها، فأتاه ملوك كثير كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح، فنقضوا كلهم وصاروا يدًا واحدة على قتيبة، وتعاهدوا وتعاقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم في فصل الربيع من السنة الآتية، وألاَّ يولُّوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم.

فاجتمعوا اجتماعًا هائلاً لم يجتمعوا مثله في موقف، فكسرهم قتيبة في قتال شديد وحرب يشيب لها الوليد، وقتل منهم أممًا كثيرة، ورد الأمور إلى ما كانت عليه، واتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم، ومن منطقة إلى منطقة، ومن مدينة إلى مدينة، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه حتى حصره في قلعة هنالك شهرين متتابعين، حتى نفد ما عند نيزك خان من الأطعمة، وأشرف هو ومن معه على الهلاك، فبعث إليه قتيبة مَن جاء به مستأمَنًا مذمومًا مخذولاً، فسجنه عنده، ثم كتب إلى الحجاج في أمره فجاء الكتاب بعد أربعين يومًا بقتله، فقُتِل هو ومئات من أصحابه في يوم واحد، وأخذ قتيبة من أموالهم وخيولهم وثيابهم وأبنائهم ونسائهم شيئًا كثيرًا، وفتح في هذا العام ٩١هـ مدنًا كثيرة، وقرر ممالك كثيرة.

- فتح بلاد عديدة:

وفي عام ٩٢هـ فتح قتيبة شومان، وكش، ونسف، وجهز أخاه عبد الرحمن إلى الصغد إلى طرخون خان ملك تلك البلاد، فصالحه عبد الرحمن وأعطاه طرخون خان أموالاً كثيرة. ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورحل عنه، اجتمعت الصغد وقالوا لطرخون: إنك قد بوئت بالذل وأديت الجزية، وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا فيك، ثم عزلوه وولَّوا عليهم غوزك خان أخا طرخون خان، ثم إنهم عصوا ونقضوا العهد. وفي هذا العام غزا قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة؛ خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك، يُحمل ذلك إليه، فصالحه.

- فتح سمرقند:

وفي سنة ٩٣هـ قام قتيبة بغزو مناطق خوارزم على مصب نهر جيحون بالقرب من بحيرة خوارزم، ثم غزا سمرقند، وكانت قد خلعت الطاعة، فبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفًا فسبقه إلى سمرقند، ولحقه قتيبة في بقية الجيش، فلما سمعت الأتراك بقدومهم إليهم، انتخبوا من بينهم كل شديد

السطوة من أبناء الملوك والأمراء، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة في الليل، فيكبسوا جيش المسلمين. وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك، فجرد أخاه صالحًا في ست مئة فارس من الأبطال الذين لا يُطاقون، وقال: خذوا عليهم الطريق. فساروا فوقفوا لهم في أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق، فلما اجتازوا بهم بالليل - وهم لا يشعرون بأمرهم - ثاروا عليهم فاقتتلوا هم وإياهم، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا النفر اليسير، وقتلوهم، وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المحلاة بالذهب، والأمتعة، وقال لهم بعض أولئك الأتراك: تعلمون أنكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلا ابن ملك، أو بطلاً من الأبطال المعدودين بمئة فارس أو بألف فارس. فنفل قتيبة هؤلاء الأبطال جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح.

واقترب قتيبة من المدينة العظمى التي بالصغد، وهي سمرقند، فنصب عليها المجانيق فرماها بها، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم، وكان معه مقاتلون من أهل بخارى وخوارزم، فقاتلوا أهل الصغد قتالاً شديدًا، فأرسل إليه غوزك ملك الصغد: إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي، فأخرج إليَّ العرب. فغضب عند ذلك قتيبة، وميَّز العرب من العجم وأمر العجم باعتزالهم، وقدم الشجعان من العرب، وأعطاهم جيد السلاح، وزحف بالأبطال على المدينة، ورماها بالمجانيق، فثلم فيها ثلمة، فسدها الترك بغرائر الدُّخن. ثم دخل الليل، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضًا ثلمة وصعد المسلمون فوقها، وتراموا هم وأهل البلد بالنشاب، فقالت الترك لقتيبة: ارجع عنا يومك هذا، ونحن نصالحك غدًا. فرجع عنهم وصالحوه من الغد على مليونين ومئتي ألف يحملونها إليه في كل عام، وعلى أن يعطوه في هذه السنة عدة آلاف رأس من الرقيق، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب، وعلى أن يأخذ حلية الأصنام وما في بيوت النيران، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبني فيها قتيبة مسجدًا، ويوضع له فيه منبرًا يخطب عليه، ويتغدَّى ويخرج، فأجابوه إلى ذلك. فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال، وذلك بعد أن بُني المسجد ووُضِع

فيه المنبر، فصلى في المسجد، وخطب وتغدَّى، وأُتِي بالأصنام التي لهم فسُلبت بين يديه، وأُلقيت بعضها فوق بعض، ثم أمر بتحريقها، فتصارخ المجوس وتباكوا وقالوا: إن فيها أصنامًا قديمة مَن أحرقها هلك. وجاء الملك غوزك، فنهى عن ذلك، وقال لقتيبة: إني لك ناصح. فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار، وقال: أنا أحرقها بيدي. فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون. ثم قام إليها وهو يكبِّر: الله أكبر، وألقى فيها النار فاحترقت، فوجد من بقايا ما كان فيها من الذهب خمسين ألف مثقال من ذهب.

ثم استدعى قتيبة بأهل سمرقند فقال لهم: إني لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه، ولكن لا بد من جند يقيمون عندكم من جهتنا. فانتقل عنها ملكها غوزك خان. ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم، وقال له: لا تدعنَّ مشركًا يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تجف طينة ختمه، فإن جفت وهو بها فاقتله، ومن رأيته منهم ومعه حديدة أو سكينة فاقتله بها، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحدًا فاقتله.

- فتح بلاد ما وراء النهر:

وفي سنة ٩٤هـ غزا قتيبة بلاد ما وراء النهر: الشاش وفرغانة حتى بلغ خُجَندة، وكاشان مدينتي فرغانة، وذلك بعد فراغه من الصغد وفتح سمرقند، ثم خاض تلك البلاد، يفتح فيها حتى وصل إلى كابل، فحاصرها وافتتحها، وقد لقيه المشركون في جموع هائلة من الترك فقاتلهم قتيبة عند خجندة فكسرهم مرارًا، وظفر بهم، وأخذ البلاد منهم، وقتل منهم خلقًا وأسر آخرين، وغنم أموالاً كثيرة جدًا.

- فتح كاشغر في الصين:

وفي سنة ٩٦هـ فتح قتيبة كاشغر من أرض الصين، وبعث إلى ملك الصين رسلاً يتهدده ويتوعده، ويقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده، ويختم ملوكهم وأشرافهم، ويأخذ الجزية منهم، أو يدخلوا في الإسلام، فدخل الرسل على الملك الأعظم فيهم،

وهو في مدينة عظيمة يقال لها: خان بالق. من أعظم المدن، وأكثرها ريعًا، ومعاملات وأموالاً. والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا في ملك غيرهم؛ لكثرة أموالهم ومتاعهم، وغيرهم محتاج إليهم؛ لما عندهم من المتاع والدنيا المتسعة، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج؛ لقهره، وكثرة جنده وعُدده.

فلما دخل الرسل على ملك الصين وجدوه في قلعة عظيمة حصينة، بقدر مدينة كبيرة، وكانوا ثلاث مئة رسول عليهم هبيرة، فقال ملك الصين لترجمانه: قل لهم: ما أنتم وما تريدون؟ فقالوا: نحن رسل قتيبة بن مسلم، وهو يدعوك إلى الإسلام، فإن لم تفعل فالجزية، فإن لم تفعل فالحرب. فغضب الملك وأمر بهم إلى دار.

ثم بعث إليهم الملك؛ أن ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلكم. فبعثوا إليه هبيرة، فقال له الملك حين دخل عليه: قد رأيتم عظم ملكي، وليس أحد يمنعكم مني، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي. انصرفوا إلى صاحبكم وقولوا له ينصرف راجعًا عن بلادي؛ فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم. فقال له هبيرة: تقول لقتيبة هذا؟ فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟! وكيف يكون حريصًا من خلَّف الدنيا قادرًا عليها، وغزاك في بلادك؟! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنَّا نعلم أن لنا أجلاً إذا حضر فأكرمها عندنا القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فقال الملك: فما الذي يرضي صاحبكم؟ فقال: قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك، ويختم ملوكك ويجبي الجزية من بلادك. فقال الملك: أنا أبر يمينه وأخرجه منها؛ أرسل إليه بتراب من أرضي، وأربع غلمان من أبناء الملوك، وأرسل إليه ذهبًا كثيرًا وحريرًا وثيابًا صينية لا تُقوَّم، ولا يدري أحد قدرها.

ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة، ثم شرع يتهددهم فتهددوه، ويتوعدهم فتوعدوه، ثم اتفق الحال على أنه بعث صحافًا من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه

ليطأه قتيبة، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم، وبعث بمال جزيل ليبر يمين قتيبة. فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبِل ذلك منه؛ وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين، فانكسرت همته لذلك. فقبِل الجزية والهدايا، ووطئ التراب، وختم الغلمان، ثم عاد إلى خراسان.

آسيا الوسطى المسلمة:

وهكذا تمكن المسلمون من فتح بلاد آسيا الوسطى، وتمكنوا أن يمدوا فيها نفوذ الدولة الإسلامية إلى حدود الصين، وكان لهم دور كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد، حيث شجعوا الناس على اعتناقه، واعتنوا بنشر المساجد، وتوزيع العلماء في الشرق، حتى غدا أهل تلك المنطقة جلهم مسلمين، وهي البلاد التي سُمِّيت فيما بعد بأسماء هي: تركستان، قيرغيزستان، طاجيكستان، قازاخستان، أوزباكستان، تركمانستان.

وقد برز من تلك البلاد علماء فطاحل، أمثال البخاري والترمذي والنسائي وغيرهم من علماء الإسلام الكبار، الذين لا تزال تصنيفاتهم وكتبهم حية يعتمد عليها المسلمون في جميع أنشطتهم الدعوية إلى الإسلام.

نهاية أمة البوذيين في السند[1]

سوق الجهاد:

لا معبود بحق إلا الله... وكل معبود غيره باطل، وكل العابدين لتلك المعبودات الباطلة هم كافرون بالله وبرسله، ولهذا وجب دعوتهم إلى الله وإلى دينه، لتشملهم رحمة الله التي وسعت كل شيء، فإن أبوا ورفضوا هذه الرحمة التي يُدعَون إليها، فعليهم أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا فالحرب والقتال، فالله سبحانه يريد أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

وقد كان سوق الجهاد في سبيل الله قائم في هذه المدة، ليس للمسلمين شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبًا، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم طائفة عظيمة ينصر الله بهم دينه.

دعوة أهل السند إلى الإسلام:[1]

انطلق عباد الله المسلمين نحو بلاد السند والهند ليقوموا بما أوجبه الله عليهم من الجهاد في سبيله، لنشر دينه الحق الذي أراد سبحانه أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ولفتح البلاد الكافرة لضمها إلى الدولة الإسلامية، وإخضاعها

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير ٤٤٥/١٢، وفتوح البلدان لأبي الحسن أحمد البلاذري٢٦٢، والفتوح الإسلامية لعبد العزيز العمري ١٧٠-١٧٢، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

لحكم الإسلام. وقد غزا المسلمون أطراف بلاد السند مرات كثيرة، ودعوا أهلها إلى الإسلام، وتمكنوا من فتح مكران، كما غزا المسلمون حوض نهر السند من سجستان، وتمكنوا من فتح بعض المواقع مثل كش وقصدار وغيرها. على أن هذه المناطق المفتوحة لم تضم إداريًا إلى الدولة الإسلامية في تلك المدة، بل بقيت السيطرة فيها لغير المسلمين إلى وقت فتوح محمد بن القاسم الثقفي.

وفي عام ٩١هـ تحركت الجيوش الإسلامية من بلاد فارس عن طريق الساحل، وفي الوقت نفسه تحركت السفن من البصرة تحمل العتاد والرجال، وقد اكتمل وصول الجيوش البرية والبحرية إلى (الديبل)، وعسكر محمد بن القاسم وقواته على أسوارها وحاصرها، ودعا أهلها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، فأبوا إلا القتال، فضربها بالمنجنيقات، وأتلف أسوارها، وهدم المعبد البوذي فيها، وتمكن من دخولها عنوة، فهرب أميرها فبنى المسلمون بها مسجدًا وأقام بها جماعة منهم.

ثم تقدم المسلمون شمالاً في بلاد السند وتمكنوا من فتح العديد من المواقع، ثم لقوا ملك السند (داهر) بالقرب من نهر السند في جمع عظيم، فدارت معركة شديدة بين الطرفين، فهزم الله - عزَّ وجلَّ - البوذيين، وهرب الملك داهر، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جدًا، فأحاطوا بالمسلمين، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتِل الملك داهر ومعظم مَن معه من قواته، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه.

ثم سار المسلمون يفتحون في بلاد السند، فافتتحوا مدينة الكيرج، وبرها، ثم ساروا حتى وصلوا إلى الملتان، وتمكنوا من فتحها عنوة، وكان بها معبد للبوذية يحج إليه أهل السند فهدمه المسلمون وحطموا أصنامه، واستقر ابن القاسم في الملتان، وصارت مركزًا رئيسًا للمسلمين، وأخذ ينظم الحاميات الإسلامية ويبني المساجد بمختلف أنحائها، كما نظم أمورها الإدارية والمالية والحربية، وتمكن من تأمين سفن

المسلمين في البحر، وبدأ الإسلام ينتشر في تلك المناطق. واستمر المسلمون بعد ذلك في دعوة أهل السند والهند إلى الإسلام، وافتتحوا مدنًا كثيرة في بلاد الهند.

وقد اضطربت أحوال السند في سنة ٩٦هـ، ولكن في أيام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أسلم معظم أهلها وأمرائها عن طريق الدعوة، إذ كتب عمر إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم الملوك وتسموا بأسماء العرب.

وانطلق المسلمون من السند لغزو بلاد الهند مرات كثيرة، ففتحوا عددًا من المدن التي صار معظم سكانها من المسلمين. وهكذا صارت تلك البلاد التي عُرفت فيما بعد باسم: الباكستان، وبنغلاديش، وكشمير وغيرها، كلها بلادًا إسلامية، ولله الحمد والمنة.

نهاية أمة البوذيين في السند:

فهكذا أدى المسلمون واجبهم في الجهاد في سبيل الله ونشر دينه في بلاد السند والهند.. وبذلك كانت نهاية أمة البوذيين في هذه البلاد، وتحولهم إلى أمة مسلمة لله، وتحول بلادهم من بلاد تدين لبوذا إلى بلاد تدين لله وحده لا شريك له.. فلله الحمد والشكر على نصره للمسلمين في هذه البلاد، وله الحمد والشكر على هزيمته لأحزاب بوذا والبوذيين، وإزالتهم وإزالة ديانتهم الكفرية الشركية عن تلك البلاد، وجعل كلمته هي العليا وكلمة البوذيين السفلى، وبذلك تم رفع راية التوحيد على تلك البلاد.

أما الذين رفضوا دين الله وتوحيده، وأبوا إلا الكفر والشرك بالله، وأبوا أن يعبدوا الله وهو سبحانه خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم، وأبوا إلا أن يعبدوا ما هب ودب من الآلهة الباطلة؛ من بشر مثلهم، أو أوثان، أو حيوانات مثل: البقر والقرود وغير ذلك مما تأباه الحيوانات نفسها التي تسبح بحمد الله، فهؤلاء

سيعرفون مصيرهم عما قريب، بل كل واحد منهم حين يعاين الموت سيعلم كم كان ساذجًا وكم كان يشبه الحيوانات بل هو أضل منها حين كان يعبد الأصنام أو الحيوانات! وإن من العجب العجاب كيف يصبح الواحد منهم وهو يتعامل بأنواع التقنية المتقدمة، ثم يمسي وهو يعبد ويصلي لصنم، أو بقرة، أو قرد، أو غير ذلك من البهائم! ولهذا فقد تحقق عليهم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[1].

إن هؤلاء لم يسمعوا بما جرى للأمم الكافرة أمثالهم، وإذا سمعوا لم يعتبروا بهم ولا هم يريدون أن يتجنبوا ما وقعت به تلك الأمم من الكفر بالله وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة فوقع عليهم عذاب الله وبأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين، فاستحق هؤلاء مثل ما استحق أولئك من العذاب والخلود في جهنم.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

نهاية أمم الصليبيين في بلاد المسلمين

الصليبيون قوم لا يتعظون:

ها هي أمة الروم الذين أخرجهم الله من الشام، وأزال دولتهم فيها، وقضى ألاَّ يكون لهم دولة فيها حتى ولو عادوا ومكثوا فيها مهما مكثوا. ها هم قد عادوا بعد مرور خمسة قرون، ربما لأنهم جيل قد نسي أو لم يعلم بما جرى من أحداث لأجيالهم السابقة، فلم يجدوا طريقًا إلى الاتعاظ أو الاعتبار ليكفوا أنفسهم عن الدخول في البلاد الإسلامية، فجاؤوا لاحتلال هذه البلاد على أمل البقاء فيها أبد الدهر. أو ربما لأنهم أرادوا استغلال حالة الضعف العام الذي أصاب العالم الإسلامي نتيجة الانقسامات والتفرق إلى دويلات صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها بمفردها ضد أي غازٍ، وكذلك وجود القواد والزعماء الذين اهتموا بأنانية بالغة بمصالحهم الشخصية، وقدموها على مصالح المسلمين العامة، حيث ساد بين كثير منهم الترف وحب الشهوة واللهو وضعف الأخلاق وفقدان الشجاعة، كما كثرت البدع بين الناس وضعفت أخلاقهم ومعنوياتهم، والأهم من ذلك كله وهو السبب الذي جعل الأعداء يطمعون بهم؛ هو أنهم أحبوا الدنيا وكرهوا الموت وتركوا الجهاد؛ فضعفت بذلك قوتهم وشوكتهم.

الحروب الصليبية واحتلال القدس:

لا تكتفي الأمم الصليبية برفض آخر رسل الله وهو محمد ﷺ والرسالة الأخيرة التي بلغها عن الله وهي الإسلام، بل تصر حتى على مخالفة تعاليم الرسول الذي تزعم حبه واتباعه وشن الحروب باسمه ولأجله وهو المسيح عليه السلام، وتعمل بضد تعاليمه فيعود وبال ذلك عليها، ويحيق المكر السيئ بها.. ولا تتعظ بما يجري لها، ولا تعتبر بمن سبقها من أسلافها...!.

فقد زحف الصليبيون إلى بلاد المسلمين تحت راية الصليب، وتحت راية (الله محبة)، والمسيح عليه السلام الذي يقول: «أحِبّوا أَعداءَكُم»[1]؛ ترجموها إلى أعمال قتل ومجازر في حق المسلمين...! وأمره عليه السلام: «مَنْ لطَمَكَ على خَدِّكَ الأيْمنِ، فحَوِّلْ لَه الآخَرَ»[2]؛ نفذوه بقتل المسلمين حيثما كانوا ولم يفلت منهم حتى المسنين والنساء والأطفال الذين اختبؤوا في بيوتهم أملاً في النجاة من مجازر الصليبيين...! أما أمره عليه السلام: «مَنْ أرادَ أنْ يُخاصِمَكَ ليأخُذَ ثَوبَكَ، فاتْرُكْ لَه رِداءَكَ أيضًا»[3]؛ فقد طبقوه باقتحام مدن المسلمين وبيوتهم ليسرقوا وينهبوا، ليس الثوب والرداء فحسب، بل كل ما تقع عليه أيديهم وتحت أرجلهم أيضًا؛ فصادروا البيوت من أصحابها بعد أن ذبحوهم ذبح الخراف، ثم توجهوا إلى كنيسة القيامة لشكر الله على ما أنعم عليهم...! كأنهم تعلموا أن المؤمن الحقيقي بالمسيح عليه السلام هو مَن يعمل بضد تعاليمه وبضد الطريقة التي عاشها المسيح نفسه على الأرض، فجاؤوا لكي يترجموا إيمانهم هذا إلى أفعال بالمسلمين...!.

لقد جاؤوا بغية القضاء على المسلمين وعلى دولتهم وحكمهم وإعادة حكم النصارى لبلاد الشام وخاصة فلسطين والقدس. وقد ارتكبت الحملات الصليبية ما تعجز الكلمات عن وصفه من المذابح الرهيبة في حق المسلمين، وشهد شهود منهم من المؤرخين الصليبيين فقاموا بوصف بشاعة هذه المذابح مع محاولتهم التخفيف مما حدث إلى أدنى حد من التخفيف.

ففي طريق الصليبيين إلى القدس أعملوا القتل والنهب في كل مدينة أو بلدة مروا بها واستولوا عليها مثل: الرها وإنطاكية ومعرة النعمان التي قتلوا جميع سكانها

(١) متى ٥/٤٤.

(٢) متى ٥/٣٩.

(٣) متى ٥/٤٠.

في مذبحة همجية. ثم واصلوا مسيرتهم ومروا على طرابلس وبيروت وصور، وغيرها من المواقع، وقد كان نصارى الشام يستقبلون الصليبيين مرحبين بهم ومهنئين لهم ومثنين عليهم، كما كانوا أدلاءهم ومرشديهم في طريقهم إلى بيت المقدس، وكان الصليبيون يسمونهم المؤمنين من أهل المنطقة[1] حتى أوصلوهم إلى القدس.

فلما دخلوا مدينة القدس في نهار يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ (يونيو (حزيران) ١٠٩٩م)، اندفعوا يذبحون مَن فيها من المسلمين، قال المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور: «اندفعوا هنا وهناك خلال شوارع ومساحات المدينة مستلين سيوفهم، وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودون تمييز، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان، وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذر الانتقال على الفور من مكان لآخر إلا على جثث المقتولين، وكان القادة قد شقوا في وقت سابق طريقًا لهم بواسطة مسالك متنوعة إلى مركز المدينة تقريبًا وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لا يوصف. وتبع موكبهم حشد من الناس متعطش لدماء الأعداء ومصمم تصميمًا كاملاً على إبادتهم.. ولقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جدًا، وكان سفك الدماء رهيبًا جدًا لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز»[2].

فهذا المؤرخ الصليبي نفسه قد عجز عن وصف القتل الذي حصل للمسلمين وصفًا دقيقًا! ويحاول أن يصور في موضع آخر بشاعة الصليبيين وجرائمهم، فيقول

(١) عبد العزيز إبراهيم العمري، الفتوح الإسلامية ٢١٤، نقلاً عن وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ٣٩٨/١ وانظر ص: ٤١٧.

(٢) المصدر السابق ٢١٤-٢١٥، نقلاً عن وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ٤٣٥/١-٤٣٦.

بأن المسلمين لجؤوا إلى المسجد الأقصى، ولكن هروبهم لم ينقذهم، إذ «دخلت مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة فقتلت جميع الذين كانوا قد التجؤوا إلى هناك، ولم تظهر أي شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بدم الضحايا.. وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى، ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الاتجاهات هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم. إنه منظر مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجهوهم.. وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثًا عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسُحِب هؤلاء على مرأى الجميع وذُبِحوا كالأغنام، وتشكل بعضهم في زمر واقتحموا المنازل، حتى قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم، وجميع أسرهم وقُتِلت هذه الضحايا، أو قُذِفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي، وادعى كل واحد من المغيرين ملكية دائمة للمنزل الذي كان قد اقتحمه، وذلك بالإضافة إلى تملك كل ما كان موجودًا فيه؛ لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة أن كل رجل يحصل على شيء بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يكون حقًا له ومُلكًا إلى الأبد دون إزعاج، ونتيجة لهذا فتش الحجاج المدينة بدقة قصوى وقتلوا سكانها بجرأة وتغلغلوا في أكثر الأماكن عزلة وبعدًا، واقتحموا غرف الأعداء الخاصة جدًا، وعلَّق كل منتصر درعه وأسلحته عند مدخل البيت الذي استولى عليه كإشارة لكل من يقترب منه حتى لا يتوقف عنده بل ليتجاوز ذلك المكان؛ لأنه أصبح ملكية لشخص آخر»[1].

(١) المصدر السابق ٢١٦-٢١٧، نقلاً عن وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ٤٣٦/١-٤٣٧.

ووصف مؤرخ آخر شيئًا من فظائع النصارى في بيت المقدس فقال: «وبعد فوزهم بالنصر العظيم وبعد الحرارة والخوف وسفك الدماء في اليومين أو الثلاثة الأخيرة في حالة شعور مفرط هستيري تقريبًا، وبعد ذلك لم يشكوا لحظة في أن المسلمين المدافعين عن القدس كانوا كارهين للرب ومدنسين للأماكن المقدسة وعاملين لدى أعداء المسيح، وعابدين لشيء بغيض في مكان مهجور ذُكِر في الإنجيل؛ ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح واطمئنان تامين، وهم يرون أنهم كانوا ينفذون إرادة الرب»، وذكر هذا المؤرخ أن المسجد الأقصى وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين، الذين وصلت دماؤهم لمستوى الركب.. وأن اليهود أيضًا قد تعرضوا للذبح عندما «حُشِدوا في معبدهم الرئيس ثم أُضرِمت النار في المبنى وهم أحياء، وعندما لم يبق مَن يقتلونه سار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي لا تزال مفروشة بالجثث وتفوح منها رائحة الموت، إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر للرب لرحمته العظيمة المتنوعة، ومن أجل انتصار الصليب الذي فازوا بها باسمه»[1].

وقد قتل الصليبيون في المدينة والمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا من المسلمين، منهم جماعة كثيرة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وكذلك ذبحوا الآلاف منهم في مسجد عمر القريب من المسجد الأقصى، وقد افتخر بعض الصليبيين بما ارتكبوا في المسجد الأقصى من قتل المسلمين في مذبحة وحشية رهيبة، وقالوا: «حتى إن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين»[2]! وكانوا لا يفرقون بين المقاتلين والعزل من النساء والشيوخ والأطفال، فقد خرجوا عن طورهم الآدمي «وكان من أحب ضروب اللهو إليهم قتل من يلاقون من الأطفال وتقطيعهم إربًا إربًا وشيهم كما روت (آن

(١) المصدر السابق ٢١٧-٢١٨، نقلاً عن أنتوني برج: تاريخ الحروب الصليبية ١٠٤-١٠٥.

(٢) فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ١١٣، نقلاً عن: Gesta Francorun, pp: ٢٠٣-٢٠٥.

كومنين) بنت قيصر الروم»[1]، وهذا يدل دلالة واضحة ويقدم برهانًا ساطعًا على ما تكنه صدور الصليبيين من الحقد الديني الصليبي على المسلمين فيجعلهم ينتقمون من المسلمين أشد الانتقام، ويعلنونها حربًا صليبية عليهم عند أول فرصة بالشعور بالمقدرة والغلبة عليهم!.

وقد وُجد بين الصليبيين أنفسهم الذين دخلوا القدس، مَن تعجب واستغرب من هذه المذابح والفظائع، حتى إن المؤرخ الراهب (روبرت) وصف ذلك بقوله: «كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خُطفت صغارها، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربًا إربًا، وكانوا لا يستبقون إنسانًا، وكانوا يشنقون أناسًا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، فيا للعجب ويا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم، وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعًا ذهبية، فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث، فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية دينًا، ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى إنطاكية لكي يباعوا فيها»[2].

وقال كاهن مدينة لوبوي (ريموند داجيل): «حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم وبُقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحُرِق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل،

(١) المصدر السابق ١١٤، نقلاً عن: غوستاف لوبون: حضارة العرب ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق ١١٤، نقلاً عن: غوستاف لوبون: حضارة العرب ٣٢٥.

وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا..»[1].

لماذا كل هذا التعطش لدماء المسلمين كأن المسلمين فعلوا مثلهم من المجازر عند فتحهم للقدس؟! أين هذا الدخول الصليبي للقدس من الدخول الإسلامي إليها حين فتحها المسلمون؟! لقد أجاب أهل القدس إلى الصلح بعد تيقنهم من وفاء المسلمين وعدلهم في المدن المفتوحة، واشترطوا أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعقد الصلح معه، فلبى عمر رضي الله عنه طلبهم، وصالح النصارى دون إراقة دماء. كما أن المسلمين لم يعتدوا على كنائسهم، ولا على حقوقهم، بل ضمنوها لهم، واستمر المسلمون يراعون معاهدة عمر بن الخطاب حتى لحظة استيلاء الصليبيين على بيت المقدس.

ونتيجة لما ارتكب الصليبيون في هذه الحملة الصليبية من قتل وحرق وإرهاب للمسلمين كافة في القدس، فقد عم الخوف والرعب في نفوس أهالي المدن والقرى المجاورة؛ مما سهل على الصليبيين مهمة الاستيلاء عليها دون مقاومة. ولم يقف التوسع الصليبي عند هذا الحد، فكلما اطمأن الصليبيون إلى ضعف الجبهة الإسلامية شرعوا في الزحف والاستيلاء على مزيد من الأراضي والبلدان الإسلامية، حتى جاء وقت استولوا فيه على معظم مدن لبنان وفلسطين الساحلية، مستغلين بذلك اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضًا، وتفرق آراء المسلمين، واختلاف أهوائهم! وهكذا استمرت الجبهة الصليبية في زيادة قوتها وتوسعها في حين لم تفعل القوى الإسلامية شيئًا جادًا لمواجهة العدوان الصليبي[2]؛ لأنهم قد صاروا كما أخبر النبي ﷺ غثاءً كغثاء السيل، لا قوة لهم ولا مهابة في

(١) المصدر السابق ١١٥، نقلاً عن: غوستاف لوبون: حضارة العرب ٣٢٦.

(٢) انظر: فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ١١٦-١٢١.

صدور أعدائهم؛ لكونهم تركوا الجهاد ورضوا بحطام الدنيا، فلا خيار أمامهم سوى خيار الاستسلام للعدو؛ فتعرضوا لذل لا ينزعه الله حتى يرجعوا إلى دينهم وجهادهم.

ولم تكن كل البلاد الإسلامية تخلو ممن لم يسقط خيار الجهاد، إذ لا يزال في كل عصر تلك الطائفة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق. لا يضرهم من خذلهم. حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[1]. وهذا أمر مستمر في كل عصر إلى ما شاء الله تعالى. فقد انزعج العالم الإسلامي وهاج لكارثة سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين، وكان لسقوطه أبلغ الأثر على نفوس المسلمين، وظلت المعارك والمناوشات واسترداد الأراضي والمدن سجال بين المسلمين والصليبيين، ولكن الهزائم في صفوف المسلمين كانت أكثر، مما جعل عامة المسلمين ينزعجون لما حل بأرض الإسلام من هزائم واحتلال الصليبيين لبيت المقدس وأجزاء واسعة من بلاد الشام، حتى كثر انتقاد المسلمين لموقف الخلافة العباسية وعدم جدية الخليفة العباسي المستظهر والسلطان محمد السلجوقي، فهبت ثورة من المسلمين في بغداد اجتمع فيها أيضًا خلق كثير من الفقهاء فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا، وحثوا الخليفة والسلطان على القتال وألزموهم بالجهاد ضد أعداء الإسلام، فأرسل الخليفة إلى السلطان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه، فوعد السلطان المسلمين بإنفاذ العساكر للجهاد.

كسر الصليبيين في حطين:[2]

لقد جرت مواجهات كثيرة بين المسلمين والصليبيين على مدى قرنٍ من الزمان استعاد فيها المسلمون أراضيهم تدريجيًّا وظهر فيها أبطال من المجاهدين، حتى كانت

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...

(٢) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، والفتوح الإسلامية عبر العصور لعبد العزيز إبراهيم العمري ٢٧٦-٢٧٩، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

وقعة حطين في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) التي انتصر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، واختلف ميزان القوى ورجحت كفة المسلمين. حيث كانت هذه الوقعة أهم الوقعات التي خاضها المسلمون مع الصليبيين، وكانت المقدمة المباشرة لاستعادة بيت المقدس.

فقد جاء السلطان صلاح الدين وقواته الإسلامية إلى طبرية، وتمكنوا من فتحها واستعادتها بالقوة في اليوم نفسه، فعلم الصليبيون بذلك وأحسوا أن الهدف القادم سيكون بيت المقدس، فتصالحوا فيما بينهم، واجتمعت قواتهم من مختلف الممالك النصرانية، وبعضهم كان في صلح مع صلاح الدين فنقضوا عهدهم وانضموا إلى بني ملتهم، وجاؤوا بحدهم وحديدهم، واستصحبوا معهم (صليب الصلبوت) الذي يعتقدون أنه بقايا الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام، وخروج هذا الرمز يعني عندهم أنها معركة حاسمة، إذ إنه لا يخرج لكل المعارك.

جاء الصليبيون إلى حطين حيث عسكر جيش صلاح الدين، وما إن ظهروا حتى أسرع المسلمون بالاصطدام بهم، فبادروا إلى التحصن وباتوا ليلتهم تلك، فلما أصبح صباح يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ، اكتشف الصليبيون أنهم بعيدون عن المياه، وأنهم محاصرون بالمسلمين من كل جانب، وبدأ القتال واستمر طوال النهار وتوقف في المساء، فلما أصبح الفريقان في يوم السبت، كان الماء قد قل لدى الصليبيين وأصابهم العطش، فحملوا على المسلمين حملات شجاعة ليصلوا إلى الماء، ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد فردوهم، وقتلوا منهم وأسروا، وتجمع بقيتهم في جبل حطين، ليحتموا به وهرب بعض قوادهم.

وكانت الأرض التي تحت أقدامهم ومن حول معسكرهم مليئة بحشيش قد صار هشيمًا، فأشعل المسلمون النار فيها، فتأجج نارًا عليهم من كل جانب، واجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش وحر النار وحر السلاح وحر رشق النبال، فحملوا على المسلمين وهم مستميتون، ولكن الله ثبت أقدام المسلمين ومكنهم منهم، ثم أمر

السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحملوا، وكان النصر من الله فمنحهم أكتافهم، فقتلوا جموعًا كبيرة منهم وأسروا جموعًا أخرى. وحاول الصليبيون تجميع أنفسهم حول ملكهم أكثر من مرة، ونصبوا لذلك خيمة واستماتوا في الدفاع عنه وعنها، ولكن المسلمين صدقوا العزم فلم يتركوهم حتى أزالوا خيمتهم، وأسروا ملكهم، واستولوا على صليبهم المزعوم (صليب الصلبوت) الذي أحضروه معهم لينصرهم على المسلمين! فنصر الله سبحانه عباده المسلمين الموحدين له، وهزم المشركين الذين جعلوا معه شريكًا وصليبًا! ففتَّ ذلك في عضدهم، وكثر الأسر فيهم، ولم يبق لهم أي مقاومة، حتى إن الجندي الواحد من المسلمين كان يسير وقد قرن معه مجموعة من الأسرى تقارب الثلاثين! وكان ضمن الأسرى (أرناط) صاحب الكرك وخائن العهود والمواثيق، وملك بيت المقدس (غي لوزنجان) وأخوه، وعدد من أمراء المدن والبارونات، ولم ينج من تلك الألوف إلا آحاد من الناس.

وبعد أن ظهر نصر المسلمين نزل صلاح الدين على الأرض وصلى لله شكرًا على نصره إياه على هؤلاء الأعداء، وكانت أصوات المسلمين عالية بالحمد والتكبير والصلاة شكرًا لله على نصره. ثم أُحضر الأسرى بين يدي صلاح الدين، وفي مقدمتهم ملك بيت المقدس (غي) وأُجلِس إلى جانب صلاح الدين، كما أُحضر (أرناط) صاحب الكرك الذي غدر بالمسلمين العزَّل في وقت هدنة، وحاول صلاح الدين أن يُذهب الروع عن ملك بيت المقدس، فطلب شرابًا من الجلاب فشرب ثم ناول الملك فشرب حتى ارتوى، وبعد ذلك أخذ صلاح الدين يؤنب (أرناط) على ما فعله بالمسلمين من غدر، وكان حينما غدر بالمسلمين وأسر وقتل منهم قال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، فقام صلاح الدين وقال له: ها أنا ذا أنتصر لمحمد، فعرض عليه الإسلام فأبى ثم ضربه بنفسه بالسيف فقتله، فلما رأى الملك مقتل أرناط ظن أنه سيُقتل من بعده، فخاف وارتاع فطيب صلاح الدين خاطره وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فتجاوز حده فجرى عليه ما جرى.

وعن وقعة حطين يقول أنتوني برج: «وكانت معركة حطين نكبة لا مثيل لها بالنسبة للمسيحيين في الممالك الصليبية، فقد هُزم جيشهم، ولم يترك من الرجال المقاتلين سوى أولئك المنتشرين فوق الأرض في الحاميات وفي المدن والقلاع».

استرداد المدن الإسلامية:[1]

بعد الانتصار في وقعة حطين، أصبح الطريق ممهداً أمام صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس وتخليصه من أيدي الصليبيين، خاصة أن ملك بيت المقدس ومعظم قواده أسرى لديه، ومع ذلك لم يتوجه صلاح الدين إلى بيت المقدس مباشرة، وإنما آثر أن يستعيد عدداً من المناطق الأخرى ويطهرها من الصليبيين، فبذل جهده أولاً في استعادة عدد من المواقع القريبة من بيت المقدس، حيث توجه يوم الأحد ٢٦ ربيع الآخر، - أي؛ بعد يوم واحد من نهاية وقعة حطين - إلى طبرية وحاصر حصنها، واستسلم أهله فأمنهم المسلمون وسمحوا لهم بالرحيل إلى طرابلس.

وبعد ذلك بأربعة أيام حاصر المسلمون عكا، فخرج أهلها إلى صلاح الدين وهم يتضرعون ويطلبون الأمان لأنفسهم، فأمنهم وخيرهم بين الإقامة تحت حكمه أو الرحيل، فاختاروا الرحيل وحملوا ما يستطيعون من أموالهم، وأقام المسلمون أول جمعة بعد حطين. وتوجهت بعض جيوش صلاح الدين في الوقت نفسه إلى نابلس، وكان معظم أهلها مسلمين والسيطرة فيها للصليبيين فتمكن المسلمون من تخليصها منهم وأمنوهم على أن يكونوا أهل ذمة. وقد وجه صلاح الدين في الوقت نفسه همه إلى الساحل حيث عمل على تطهيره من الصليبيين، فاستعاد تبنين وصيدا وبيروت واستسلم أهلها وعاملهم المسلمون معاملة حسنة، وسمحوا لمن أراد منهم بالرحيل، كما اعتبروا من بقي منهم أهل ذمة، واستعاد صلاح الدين تلك النواحي من السواحل

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، والفتوح الإسلامية عبر العصور لعبد العزيز إبراهيم العمري ٢٨٠-٢٨٣ وما بعدها، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

يأخذها بلدًا بلدًا، وأطلق في هذه الفتوح جموعًا كبيرة من المسلمين الذين كانوا أسرى في أيدي الصليبيين، وقد زادت أعدادهم على عشرين ألف أسير، قام صلاح الدين بكسوتهم وترحيلهم إلى أهلهم.

ثم رجع صلاح الدين سائرًا نحو عسقلان فحاصرها، وكانت من أهم وأقوى المراكز العسكرية الصليبية، وقد اهتم صلاح الدين بفتحها واستعادتها لأجل موقعها العسكري المهم على طريق مصر الشام، وقد رفض أهلها التسليم في بادئ الأمر، ولكنهم أمام قلة الجند ونقص الإمدادات اقتنعوا بتسليم البلد وذلك في نهاية جمادى الآخرة، وطلبوا أن يسمح لهم بالرحيل إلى بيت المقدس فسمح لهم بذلك. وباستسلام عسقلان سلَّمت غزة والحصون المجاورة لها، فاستدعى صلاح الدين الأساطيل الإسلامية من مصر للمحافظة على تلك المواقع الساحلية المهمة. وقد استعاد السلطان صلاح الدين في هذه المدة القريبة عشرات المدن الكبيرة منها والصغيرة.

استرداد القدس:[1]

عندما ضمن صلاح الدين حماية السواحل بالأساطيل الإسلامية ضد أي هجوم بحري متوقع، توجه إلى بيت المقدس، وقد تجمع بها بقايا الصليبيين ممن سلم من حطين، وممن هاجر إليها من البلاد والحصون التي استعادها المسلمون وأمنوا على أهلها الرحيل، يقودهم بطريرك بيت المقدس، وصاحب الرملة، فكانت القدس مزدحمة بالمدافعين عنها، والذين يرون أن الموت أهون عليهم من استعادة المسلمين لبيت المقدس، نظرًا لشأنها الكبير عند جميع الفرق النصرانية. وقد كمن النصارى للطلائع الأولى من قوات صلاح الدين فأوقعوا بهم وقتلوا قائدًا من أعظم قواده فأهم المسلمين أمره، ولكنهم مع ذلك أصروا على التقدم إلى القدس.

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، والفتوح الإسلامية عبر العصور لعبد العزيز العمري ٢٨٣-٢٨٧، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

وصل المسلمون إلى الأسوار الغربية للقدس يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣هـ، وكانت القدس مدينة محصنة تحصينًا عاليًا، وبها من المقاتلين ما يزيدون عن الستين ألفًا، معظمهم أهل خبرة ومدافعة، مارسوا هذا الأمر في الحصون التي سقطت في يد المسلمين قبل ذلك، وقد بقي صلاح الدين وجنده خمسة أيام وهم يدورون بالمدينة يتحسسونها كالصقور، ويتسقطون أخبارها ويراقبون مواقعها العسكرية الدفاعية ليختاروا المكان المناسب للهجوم، وقد وقع اختيار المختصين العسكريين المسلمين على الجهة الشمالية من المدينة، فلم يصبح الناس يوم الجمعة العشرين من رجب إلا وقد نُصبت المنجنيقات على ذلك الجانب، وفي المقابل نصب الصليبيون منجنيقات داخل أسوار القدس كانوا يرمون بها المسلمين، وتقاتل الفريقان قتالاً شديدًا، والحماس شديد بين الطرفين، فبقدر ما كان الصليبيون حريصين على الاحتفاظ بالقدس لوازع ديني عندهم، كان المسلمون أشد حرصًا منهم على استرداد المدينة لوازع ديني أقوى وأعظم، واستمات كثير من المسلمين في القتال طلبًا للشهادة عند أسوار القدس.

وقاتل الصليبيون دون البلد قتالاً هائلاً، واستُشهِد في الحصار بعض أمراء المسلمين، فحنق عند ذلك كثير من أمراء الإسلام، وتحمس المسلمون في القتال واجتهدوا والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران، وفوق قبة الصخرة صليب كبير، فزاد ذلك أهل الإيمان الحنق الكثير وشدة التشمير، فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها وعلَّقها وحشاها بالنيران وأحرقها، فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته، فلما شاهد الصليبيون ذلك الحادث المقطع، والخطب المؤلم الموجع، أيسوا من جدوى دفاعهم، وأحسوا أن القدس مأخوذة منهم وأن المسلمين لن يدعوها، فقصد أكابرهم السلطان وطلبوا أن يعطيهم الأمان، وبدؤوا التفاوض معه على تسليم البلد، وهنا ذكَّرهم صلاح الدين بما فعلوه بأهلها عندما احتلوها قبل تسعين عامًا تقريبًا، فخشي الصليبيون أن يُقتلوا كلهم كما فعلوا

بالمسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان الأمان من صلاح الدين ليحضر عنده فأمَّنه، فلما حضر ترقق له، وتشفَّع إليه بكل ما أمكنه أن يعطيهم الأمان، وهدد بقتل من عندهم من أسرى المسلمين، وتخريب الصخرة وما بقي من المسجد الأقصى، وإتلاف ما بأيديهم من الأموال والدور والأماكن الحسنة، وقتل أهلهم، والخروج على المسلمين مستميتين للقتال، فاستشار صلاح الدين العلماء والقواد، فأشاروا عليه بتأمين الناس على أن يدفع كل واحد منهم مقدارًا محددًا من المال ويُسمح له بالخروج، ويُعطى الناس مهلة أربعين يومًا لمن أراد الخروج منهم بهذه الشروط.

وتم تسليم المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ، (١١٨٧/١١/٢م)، وكان يومًا مشهودًا علا فيه صوت التكبير والتهليل والتحميد في مختلف أنحاء القدس، وتوجه المسلمون إلى المسجد الأقصى وطهروه من بقايا عبث النصارى، وكانوا قد أقاموا في محرابه الخنازير، وتم تنظيف ما حوله وأزيلت الأبنية التي قسموا بها المسجد، وأعاده المسلمون إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية، وقاموا بإنزال الصليب الذهبي الكبير الذي وضعه الصليبيون على رأس قبة الصخرة! وتم تجهيز المسجد للصلاة في أول جمعة، أي بعد قرابة أسبوع من تسلم المدينة، وكان يومًا مشهودًا حضره المسلمون من مختلف بلاد الشام القريبة ليشهدوا أول جمعة في الأقصى بعد تطهيره من شرك الصليبيين وشرهم، وذرفت دموع المسلمين وهم يشهدون هذا التجمع المهيب، ويهللون ويكبرون ولربهم يتواضعون، وصعد خطيب المسلمين منبر الأقصى الذي أُعد لهذا الأمر مسبقًا منذ أيام نور الدين محمود الذي كان يُؤمِّل أن يكون فتح بيت المقدس على يديه، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه بعد وفاته، وبحضور صلاح الدين بدأ الخطيب خطبته بقوله تعالى: ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

وبعد هذا الفتح وفَّى المسلمون للنصارى بعهودهم فأخرجوا من أراد الخروج بالمبلغ المتفق عليه، وبقيت كنائسهم على ما هي عليه سوى ما أخذوه من مساجد المسلمين، وقد خرج كثير من كبرائهم بأموالهم ولم يدفعوا عن ضعفائهم. وقد كان صلاح الدين رحيمًا بالضعفاء والأرامل وأعزة القوم الذين ذلوا، وأطلق عددًا من الأسرى منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان والرجال، وسامح كثيرًا منهم، وعفا عن آخرين، وفرَّق جميع ما قُبِض منهم من الذهب في العسكر، ولم يدع منه شيئًا مما يُقتنى ويُدَّخر، وكان حليمًا كريمًا شجاعًا رحيمًا.

نهاية الصليبيين في بلاد الشام:[1]

بعد أن استرد صلاح الدين بين المقدس من أيدي الصليبيين، واصل حملته لاسترداد المناطق الأخرى في الدولة الإسلامية وإخراج الصليبيين المحتلين، حتى إذا توفاه الله تعالى، جاء بعده عدد من أبطال المسلمين الذين أكملوا مسيرة تطهير الأراضي الإسلامية من المشركين الصليبيين.

لقد أحدث استرداد المسلمين للقدس ردة فعل كبيرة لدى الصليبيين في أوروبا، ونتج عن ذلك قيامهم بحملات صليبية متكررة على بلاد الإسلام، حتى بلغ عدد هذه الحملات ثماني حملات، منها ما يتسلل من جهة الشام، ومنها ما يتسلل من جهة مصر، ومنها ما تفشل وتنحرف عن أهدافها فتعيث في الأرض فسادًا ونهبًا وقتلاً للنصارى بدلاً من المسلمين كما حدث في القسطنطينية، ومنها ما تنجح في احتلال بعض الأراضي الإسلامية ثم يقوم المسلمون بطردهم منها ولو بعد حين. وظلت حركة الاحتلال الصليبي والطرد الإسلامي لهم نحوًا من مئتي سنة منذ الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٦م)، حتى تم القضاء على آخر معاقل الصليبيين في طرابلس وعكا سنة ٦٩٠هـ.

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، سنة ثمان وثمانين وست مئة، وسنة تسعين وست مئة، والفتوح الإسلامية عبر العصور لعبد العزيز العمري ٣٢٧-٣٣٠، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

- استرداد طرابلس:

فقد أعد السلطان قلاوون سنة ٦٨٨هـ حملة كبرى لمجاهدة الصليبيين في طرابلس، إذ قدم بالجيوش المنصورة المصرية إلى دمشق، ثم سار بهم وبجيش دمشق وفيهم كثير من العلماء والقضاة والمتطوعة، حتى وصل إلى طرابلس فحاصرها بالمجانيق حصارًا شديدًا، وضيق على أهلها تضييقًا عظيمًا، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقًا، وقد حاولت بعض السفن القبرصية مساندة المحاصرين ولكنها فشلت في ذلك، واستمر الحصار ما يزيد على الشهر، تمكن المسلمون في نهايته من اقتحام طرابلس ودخولها عنوة وفرض سيطرتهم عليها، وقد وقع كثير من أهلها قتلى أو أسرى بأيدي المسلمين.

ثم أمر المنصور قلاوون أن تُهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها، وأن يُبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن، فـفُعِل ذلك، فهي الآن مدينة طرابلس، وكانت قبل ذلك في المحلة المسماة الآن (الميناء).

ويعد فتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ واستعادتها من الصليبيين من أهم أعمال السلطان قلاوون، حيث دام احتلال الصليبيين لها نحوًا من مئة وخمسة وثمانين عامًا. وقد بادر قلاوون بعد الاستيلاء على طرابلس بفتح بعض المواقع المهمة في ساحل لبنان ومنها جبلة وبيروت وما حولها من الحصون. وقبل وفاته في السنة التالية ٦٨٩هـ كانت معظم بلاد الشام قد تطهرت من الصليبيين، ولم يبق من معاقلهم الرئيسة سوى عكا في فلسطين، وقد تولى الأمر من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، الذي ركز جهوده بالدرجة الأولى على إمارة عكا التي أصبحت أكبر معاقل الصليبيين في أيامه.

- استرداد عكا:

كانت عكا ترتبط مع المسلمين بمعاهدة منذ أيام السلطان بيبرس، لكنها حينما أحست بالخطر بعد فتح المسلمين لطرابلس استنجدت بأوروبا، فأخذت تصل إليها الإمدادات من مختلف أنحاء أوروبا، في محاولة مستميتة للصمود في وجه المسلمين، وفي هذه الأثناء عدا أهل عكا على مَن عندهم من تجار المسلمين فقتلوهم وأخذوا أموالهم، وهاجموا القرى الإسلامية القريبة من عكا، فقتلوا الكثير من أهلها وعاثوا في الأرض فسادًا؛ فأخذ السلطان الأشرف خليل يعد العدة ويجيش الجيوش، ونودي في البلاد الإسلامية: الغزاة في سبيل الله إلى عكا. فخرجت العامة والمتطوعة والفقهاء والمدرسون والصلحاء، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر، وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصدًا عكا، وكان قبل مسيره إلى عكا قد جمع العلماء والفقهاء في القاهرة وطلب من الناس الدعاء بنصر المسلمين، وأخرج الكثير من الصدقات على الفقراء والمحتاجين.

وصل السلطان إلى عكا وعسكر قربها، ووصلت الجيوش من مختلف بلاد الشام ومعهم آلات الحصار، فنُصبت عشرات المنجنيقات، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها، في الوقت الذي استمر فيه تدفق الإمدادات من أوروبا على عكا في محاولة لإنقاذها. وحرص السلطان على أن يشرف بنفسه على القتال، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت الرايات الإسلامية فوق أسوار البلد، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على عكا في اليوم السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ بعد حصار استمر أربعين يومًا، وأسروا وقتلوا مَن فيها من الصليبيين، وهرب الناجون منهم في البحر متوجهين إلى أوروبا، وغرق منهم خلق كثير.

وبعد فتح عكا أخذ المسلمون يطهرون المواقع الصليبية الأخرى في الشام، فتمكنوا من تطهير بيروت وصيدا وصور وحيفا وعثليث وانطرطوس وجبيل، وقاموا بهدم وتخريب الحصون والأسوار في عكا وغيرها من المواقع التي استردوها لمنع عودة الصليبيين إليها عن طريق البحر وتحصنهم بها، ولم يبق بالسواحل معقل للصليبيين إلا بأيدي المسلمين. ولم يمض شهران من استرداد عكا حتى كانت الشام كاملة قد تطهرت من أرجاس الصليبيين الفرنجة، ولم يبق منهم أحد، وتم طردهم نهائيًا من الشام، وأراح الله منهم البلاد والعباد، وقُطِع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع الصليبيين الأوروبيين:

وماذا بعد عن الصليبيين الأوروبيين، ألا يتعظون ويعتبرون...؟! إن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى إليه من الله عزَّ وجلَّ، وقد بيَّن ﷺ أنه لا أمل لهم في الشام بعد زوال دولة قيصر منها: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده**»[1]. إذا لم يكن ذلك واضحًا لهم أو لا يريدون التسليم بقول رسول لا يتبعونه، أفلا يتعظون بكلام هرقل على الأقل وهو الذي كان يحكم الشام، ويملك بعد نظر، وفراسة، وحسن استنباط، حتى قال لأسلافهم: «يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي»؟ وقال لأبي سفيان عن النبي ﷺ: «فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم حتى أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»؟![2].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

فالمسلمون لا يريدون منهم أن يغسلوا قدم النبي ﷺ كما تمنى هرقل؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد مات، ولكن يريدون منهم على الأقل أن يقتنعوا بكلام هرقل أن النبي ﷺ سيملك البلاد التي كان يحكمها، وهو يعني: الإسلام دين النبي ﷺ، ولقد نصح هرقل أسلافهم أكثر من مرة بمبايعة النبي ﷺ فرفضوا، فماذا كانت نتيجة رفضهم؟! وهل أفادهم رفضهم في الاحتفاظ ببلاد الشام ومنع حدوث ما توقعه هرقل من امتلاك المسلمين للشام؟! كم من حملة صليبية قاموا بها، وماذا كانت نتيجة كل واحدة منها؟! ثم ماذا كانت النتيجة النهائية بعد كل هذه الحملات؟!.

إنه لمن الواضح جدًا أنهم لم يستفيدوا مما تعلموه من الدروس السابقة على أيدي المسلمين، وأصروا على المعاندة وعدم التسليم بما جرى من تقدير الله تعالى ببقاء الشام بأيدي المسلمين، وأنه لا حكم لهم فيها، وأنه مهما حاولوا وعملوا على احتلال أراضٍ في الشام أو احتلال القدس، ومهما أقاموا فيما يحتلونه من الأراضي من زمن قصر أو طال، فهم لا بد لهم أن يُطردوا منها في النهاية، فلا يتجاهلوا التاريخ وحركته، وقبل ذلك عليهم ألاَّ يتجاهلوا أن الله تعالى هو المتصرف في هذا الكون وفي هذه الكرة الأرضية التي هي جزء صغير جدًا منه، وليعلموا أن الأرض لله يورثها من يشاء، وقد أورث المسلمين العرب الشام وغيرها من البلاد، بعد أن كانت في قديم الزمان للعرب الأوائل الذين هاجروا إليها من الجزيرة العربية وعمروها وأقاموا فيها.

فنصيحة المسلمين لهم ألاَّ يحاولوا مرة أخرى احتلال بلاد الشام أو غيرها من البلاد الإسلامية؛ لأنهم إن فعلوا فهم بذلك سيعملون ضد السُّنَّة الإلهية التي قضت أن تكون الشام فسطاط المسلمين، وسيواجهون المصير نفسه من الطرد بالقوة إن لم يرحلوا بسلام، ولن ينال الصليبيون من ذلك سوى خسران الأنفس والأموال بلا فائدة، بل سيعرف المسلمون كيف سيمتصون الفوائد منهم ثم يلفظونهم خارج أراضيهم؛ وهو ما حدث لهؤلاء الصليبيين الغازين المحتلين الجدد الذين لم يعتبروا

ولم يستفيدوا مما حصل مع أسلافهم قبل خمسة قرون، وأصروا على احتلال بضع مدن في الشام وظنوا أنهم ماكثون فيها أبد الدهر، ولكن هيهات! فما هي إلا مدة مرت ثم طُرِدوا خارج الأراضي الإسلامية، فضاعت أموالهم وأنفسهم وجهودهم سدىً! وبقيت قصص مجازرهم في حق المسلمين التي ألصقها التاريخ بهم فلا فكاك لهم منها. فيا ليت النصارى يتعظون بذلك ويحذرون ما يسجله التاريخ عليهم كوصمة عار دائمة في جبينهم، حتى من قِبل مؤرخيهم أنفسهم. فماذا تستفيد الأمة وماذا يستفيد الفرد إذا فعل الأفاعيل السيئة المذمومة لأجل مكسب دنيوي مؤقت قصير الأمد، ثم يموت ويتركه وراءه، وربما لا يحصل عليه بالكامل؛ فيذمه التاريخ مذمة دائمة، فضلاً عن تسجيل ذلك في صحيفة سيئاته التي سوف يحاسبه الله عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم.. أفلا يعقلون؟!.

وليعتبروا بما جرى لأسلافهم من الروم وعلى رأسهم هرقل في المرة الأولى، وبما جرى لحملاتهم الصليبية المتعددة في هذه المرة، وليحقنوا دماء أبنائهم، وليوفروا ضحاياهم، وليكفوا عن الزعم بأنهم يفعلون ذلك لأجل المسيح، وإلا فسوف يأتي اليوم الذي سيوقن فيه النصارى بأن حملاتهم الصليبية على المسلمين وقتلهم وارتكاب المجازر في حقهم وظلمهم واستمرار العدوان عليهم... لم يكن الدافع وراءه دين المسيح الحقيقي، وإنما دافعه عقائد باطلة وسياسات فاسدة من اختراع البشر ولا علاقة لها برب العالمين ولا برسوله عيسى عليه السلام.. ذلك اليوم هو يوم يأذن الله لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام بالنزول إلى الأرض ليفصل بين جميع الأطراف.. يومئذ سيعرف النصارى الذين يسمون أنفسهم (مسيحيين) أنهم كانوا أبعد الناس عن المسيح عليه السلام وعن دينه، وأن المسلمين هم أقرب الناس إليه بل هم أتباعه - على الإسلام - في ذلك الوقت، فهم الأمة الوحيدة التي تقدِّر عيسى عليه السلام حق قدره، وتوقره وتعرف فضله وحقيقته، على عكس النصارى الذين يزعمون حبه واتباعه، فكانوا أكثر الناس إهانة له بما ادعوه زوراً وبهتانًا أنه ابن الله...! ﴿ **وَقَالُوا**

﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، فهم بهذا الادعاء شتموا الله شتيمة لم يشتمه إياها أحد من قبلهم...! وكذلك أهانوا عيسى عليه السلام بما افترت كل طائفة منهم عن حقيقة شخصيته؛ فاختارت كل واحدة منهم مواصفات مسيح خاصة بها ومختلفة عن مواصفات مسيح الطائفة الأخرى، فأي إهانة أكبر من هذه الإهانة للمسيح عيسى عليه السلام البريء مما يقولونه عنه، ويفترونه عليه، والبريء من قتلهم ومذابحهم الجماعية التي يرتكبونها باسمه، لا... بل باسم الصليب، ويسمون حروبهم على المسلمين بفخر واعتزاز: «الحملات الصليبية»...؟!.

إنهم سيعرفون ذلك يقينًا حين يرون المسيح عليه السلام يكسر الصليب ويبطل دينهم الوثني الذي لا يعرف المسيح عنه شيئًا؛ لأنه كان من اختراع بولس (شاول اليهودي) وغيره ممن جاء بعده من الملوك مثل: قسطنطين الذي قرر التثليث واعتمده وفرضه على أتباع المسيح سياسة لا تدينًا، وكذلك من اختراع مَن جاء بعد بولس من القسيسين والرهبان الذين أخذوا يزيدون وينقصون حتى صارت دعوة المسيح لعبة بأيديهم كما صارت شخصيته عندهم، وهو ما أثبته جميعه علماء المسيحية أنفسهم.. سيعلمون ذلك يقينًا حين يرون أن المسيح عليه السلام لن يقبل إلا الإسلام، وكل دين أو عقيدة أو مذهب غيره فباطل مرفوض، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وكما قال رسول الله ﷺ: «**إن الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية، ولا النصرانية، ولا المجوسية**»[٣].

إنهم سيعرفون ذلك حين يكتشفون أن عقولهم قد انتكست انتكاسة فظيعة...! وسيكتشفون إلى أي مدى كانت عقولهم منتكسة حين يكتشفون أنهم كانوا يعادون

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٣٠٥٨.

المسلمين الذين يعترفون بالمسيح عليه السلام، فالمسلمون يشهدون أن المسيح رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ومَن لا يقر بذلك فهو من الكافرين...! في حين كان النصارى بعيدين عن دعوة المسيح وعما جاء به من تعاليم...! نعم سيكتشفون هذه الانتكاسة في عقولهم وتدينهم حين يقول لهم المسيح عليه السلام: «ما عَرَفتُكُم مرَّةً. اَبتَعِدوا عنِّي يا أشرارُ!»[1]. وليس ضروريًا أن ينتظروا إلى وقت نزول المسيح عليه السلام حتى يعرفوا هذه الحقائق عن أنفسهم وعن المسلمين، بل كل فرد منهم سيعرف هذه الحقائق ويعلمها علم اليقين وذلك عند موته...!.

ليست العلة في أنهم نصارى فيُطردون من الشام أو غيرها من بلاد المسلمين، فها هم النصارى العرب بأعداد كبيرة يعيشون بين المسلمين في بلاد الشام وغيرها من البلاد العربية المسلمة، حقوقهم محفوظة قد حفظها لهم الإسلام، وكذلك الأمر بالنسبة لليهود العرب، الذين كانوا يعيشون مع رسول الله عليه السلام في المدينة نفسها، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ألا مَن ظلم معاهداً[2] أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه[3] يوم القيامة**»[4]. وقال ﷺ: «**مَن قتل معاهداً لم يرح[5] رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة[6] أربعين عاماً**»[7]. إذًا، فالنصرانية كملَّة ليست هي العلة، وإنما العلة في أن جنسهم غرباء أوروبيون محتلون، مقاتلون في الدين، ومخرجون للمسلمين من ديارهم، والأرض العربية لا تتقبل المحتلين الدخيلين الغريبين عنها من غير العرب مهما كان جنسهم إذا كانوا

(١) متى: ٧/٢٣.

(٢) معاهدًا: ذميًا من أهل العهد، أي: الأمان والميثاق.

(٣) حجيجه أي: أنا الذي أخاصمه وأحاجه.

(٤) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٢٦٢٦.

(٥) لم يرح: لم يجد ريحها ولم يشمها.

(٦) مسيرة: مسافة يستغرق سيرها هذه المدة.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب: إثم مَن قتل معاهدًا بغير جرم.

غير مسلمين، بل تلفظهم وتطردهم منها ولو بعد حين؛ سواء أكانوا من ملة النصارى، أو اليهود، أو الوثنيين، أو أي ملة أخرى من الملل غير ملة الإسلام، وعليهم بالتاريخ ففيه ما يشفي الغليل[1]. وها هم قد جربوا حظهم في احتلال أرض عربية أخرى هي مصر، فلم يكن حظهم فيها بأفضل من حظهم في الشام، ولفظتهم مصر أيضًا وطردتهم كما فعلت الشام.

أما إذا كان مسلمًا فمهما كان جنسه ولونه فهو أخ في الإسلام، فها هو البطل صلاح الدين الأيوبي الذي حرر القدس واستردها منهم لم يكن عربيًا. أرأوا ذلك؟! فهذا ما كان المسلمون يحاولون أن يوضحوه لهم، وهو أن الإسلام يلغي الأجناس، ويوحد الناس، ويجعلهم إخوة وأمة واحدة مهما اختلفت أجناسهم، وهي واحدة من عجائب الإسلام وأسراره.

- وقفة مع السلطان صلاح الدين:

بارك الله في السلطان صلاح الدين الأيوبي وفي أمثاله من الأبطال المجاهدين الذين يرفع الله بهم راية الإسلام خفاقة...! لقد أعز الله به الإسلام وأهله، واسترد به وبجيوشه المسلمة كرامة المسلمين وعزتهم، وأرغم به أنوف الصليبيين وأذلهم، وشفى به صدور قوم مؤمنين كثيرين مما ابتلوا بالصليبيين الجزارين...! لقد أدخله الله -عزَّ وجلَّ- من أوسع أبواب التاريخ، كيف لا وقد اختاره الله ليكون هو مَن يسترد القدس والمسجد الأقصى العزيز على قلوب المسلمين جميعًا أينما كانوا، فهنيئًا له ذلك، فقد عُدَّ هذا الفتح نعمة كبيرة من الله على المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث عمت به البشرى ودعا الناس لصلاح الدين، وأنشده الشعراء قصائد عُرفِت بالقدسيات، وتكلم الأدباء في هذه المناسبة التي أفرحت المسلمين في كل مكان.

---

(١) وهو أمر طبيعي لا يقتصر على البلاد العربية، وإنما على كل البلاد الآسيوية والإفريقية وغيرها، التي احتلها جنس غريب عنها ثم طُرِد منها ولو بعد حين من احتلالها.

هنيئًا لصلاح الدين...! فقد جعله الله تعالى عبرة لخلقه أجمعين، إنه ليس لديه جنس من خلقه مفضل على جنس آخر، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وبالشروط التي أوجبها الله على مَن يريد أن يستخلفه في الأرض ويورثه منها ما يشاء.. فقد كان صلاح الدين من الأكراد، وقدَّر الله تعالى أن يكون هو من يسترد القدس والأقصى؛ لأنهم نصروا الله فنصرهم وأعزهم، وحملوا لواء نشر الإسلام في الوقت الذي تخلى فيه العرب عن حمل هذا اللواء وأداء هذا الواجب ومالوا إلى الدنيا فتنافسوها إلا مَن رحم الله، ولم يوجد منهم القائد الذي يأخذ على عاتقه محاربة الصليبيين كما فعل صلاح الدين والزنكيون الأكراد من قبلهم، الذين حاربوا الصليبيين في كل مكان احتلوه من البلاد الإسلامية، فرفعوا بذلك اسم الإسلام عاليًا، وكلمة الله عالية، وهذا ما يريده الله من عباده المسلمين من أي جنس كانوا.

فعباد الله المقربين عنده هم من يعبدونه ويوحدونه ويعلون كلمته وينشرون دينه ويجاهدون في سبيله؛ فمن فعل ذلك تحققت فيه شروط الله للاستخلاف في الأرض مهما كان جنسه ولونه، كما قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1]. وقد حقق الأيوبيون الأكراد هذه الشروط أو معظمها فاستخلفهم الله في مساحة كبيرة من أرضه، وأزال بهم أمة الصليبيين ودولتهم في الشام. فهنيئًا للسلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهنيئًا للأيوبيين المجاهدين.

وحسنًا فعل السلطان صلاح الدين بالنصارى الصليبيين بعد انتصاره عليهم واسترداده لبيت المقدس، فقد أكرم ملوكهم، وقبل بالصلح معهم وبخروجهم آمنين مع

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

مَن يريد الخروج من النصارى والتوجه إلى أي مكان يشاؤون، مع مرافقة جنوده لهم لحمايتهم إلى أن يصلوا إلى المكان الذي يريدونه، بل وقام المسلمون بما لم يقم به بطريرك القدس الذي خرج ومعه الصناديق المملوءة بالذهب والجواهر والمال ولم يقبل بدفع الفدية عن فقراء النصارى وضعفائهم الذين خرجوا معهم، فبذل بعض المسلمين من أموالهم فدية عن هؤلاء النصارى. وحسنًا فعل صلاح الدين حين لم يعرض لهذا البطريرك، حتى لما قيل له: خذ ما معه لتقوي المسلمين، قال: لا أغدر به. ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير المفروضة عليه. فأين دخوله الشريف هذا إلى القدس، وأين أفعاله الحميدة الكريمة هذه مع النصارى الصليبيين من دخول النصارى أنفسهم وأفعالهم الذميمة مع المسلمين، حين دخلوا إلى القدس واحتلوها قبل تسعين عامًا؟! فشتان بين معاملة المسلمين لغيرهم ومعاملة غيرهم لهم.

فها هم المؤرخون النصارى المنصفون يشيدون بمعاملة المسلمين لأعدائهم معاملة حسنة، ويثنون على السلطان صلاح الدين وعلى الموقف النبيل الذي وقفه في أثناء فتح بيت المقدس، ويتحدثون بإعجاب شديد عن توزيعه للمال والدواب على المرضى والمسنين، والمحتاجين من الفرنجة الصليبيين، وعن إكرامه النساء ورأفته بالأطفال ورعايته للضعفاء منهم، ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير أي أمر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على أيدي الجنود المنتصرين، التي وقع كثير منها لما احتل الصليبيون القدس.

فجزى الله السلطان صلاح الدين وجزى جنوده عن المسلمين كل خير. لقد كان صلاح الدين في مقدمة المسلمين في الجهاد، وضرب لهم مثالاً لا يُنسى على مر التاريخ، واستحق ثناء المسلمين عليه والدعاء له جيلاً بعد جيل.

- الله أكبر:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات...! سبحانه هو معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومستدرج الكافرين بمكره. لقد قدَّر الأيام دُوَلاً بعدله، وجعل

العاقبة للمتقين بفضله، وأظهر دينه على الدين كله. الحمد لله والشكر على ما يسره من استرداد بيت المقدس على أيدي هؤلاء المسلمين وقائدهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، فالمسجد الأقصى هو أول القبلتين، وثاني المسجدين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، والصلاة فيه بخمس مئة صلاة.

فها هم عباد الله المسلمون المجاهدون قد طهروا المسجد الأقصى من الشرك والتثليث، وارتفع الأذان: الله أكبر الله أكبر بدلاً من الأجراس والنواقيس، والمكان الذي كان يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة! صار يقال فيه: لا إله إلا الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، محمد رسول الله، الصادق الأمين، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ها هم عباد الله المسلمون المجاهدون قد قاموا مرة أخرى بتحقيق قول رسوله محمد ﷺ بأنه إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، ولا حكم للروم والصليبيين بعده في بلاد الشام وغيرها من بلاد المسلمين؛ فطهروا البلاد الإسلامية من الصليبيين الأوروبيين الغرباء الذين جاؤوا من بعيد. وإذا كان لا بد من فوائد للمسلمين عقب أي محاولة للصليبيين من هذا النوع، وأنه لا بد أن تكون العاقبة والنصر والفوز للمسلمين؛ فإن المسلمين قد طاردوا هؤلاء الغزاة الأوروبيين إلى أراضي الأناضول التي يسكنها البيزنطيون الصليبيون الذين شاركوا الأوربيين أيضًا في حملاتهم الصليبية، وأخذ المسلمون يغزون مدنهم وقراهم في تلك البلاد حتى وصلوا إلى عاصمتهم القسطنطينية نفسها في عدد من المرات وحاولوا فتحها، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، وسيتمكنون بإذن الله تعالى في المستقبل متى أذن الله في ذلك؛ لأنه سبحانه قد أخبر المسلمين على لسان خاتم رسله محمد ﷺ أنهم سيفتحون القسطنطينية، فلا بد إذًا أن ذلك كائن لا محالة إن عاجلاً أم آجلاً؛ لأن وعد الله حق، ولا يخلف الله الميعاد.

نهاية أمة المغول في بلاد المسلمين

قضاء الله وقدره:

إن لله تعالى في كل شيء حكمة...! حتى الأعمال التي تظهر لنا بأنها مأساة وفيها شر للمسلمين يكون لله فيها حِكَم عظيمة تقصر عقولنا عن فهمها وعن إدراك كنهها. فإذا نزلت بالمسلمين نازلة أو مصيبة عظيمة فيها قَتْل لهم، كان من نتائجها أيضًا فوائد للإسلام والمسلمين لا يحصيها إلا الله، ولا تظهر هذه النتائج إلا بعد زمن من وقوع النازلة؛ فالخير كله في يدي الله، والشر ليس إليه؛ فليس الشر شرًا بالنسبة إليه، فإنه خلقه لحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين. وها نحن أمام نازلة عظيمة نزلت بالمسلمين من قِبل التتار المغول الذين غزوا بلاد المسلمين، وفعلوا فيها الأعاجيب.

لم يكف المسلمون أنهم قد ابتلوا بصليبيين لا يتعظون ولا يعتبرون، فيجددون احتلال البلاد الإسلامية كل عدة قرون، ثم يُطردون منها ويُخرجون، ثم مرة أخرى يطلون برؤوسهم بعد عدة قرون، وهكذا فهم قوم لا يعون ولا يفقهون أن الله - عزَّ وجلَّ - قد قدَّر أنه لا قيصر في الشام، مهما يفعلون للبقاء ومهما يجتهدون.. حتى طلع لهم قوم التتار المغول الوثنيون، الذين جاؤوا واجتاحوا البلاد الإسلامية، لا لأجل بيت المقدس كما يعلن الصليبيون في حملاتهم الصليبية، بل لأجل السرقة وجمع الغنائم ومصادرة الأراضي واحتلالها! فهذا هو نصيب المسلمين أن يصبحوا ملطشة لكل عابر سبيل في منطقتهم، وما ذلك إلا بسبب تنافسهم على الدنيا، وخلافاتهم وتفرقهم وانقسامهم إلى مجموعات ودويلات صغيرة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، مع أن الله تعالى قد نهاهم عن الاختلاف والتنازع حتى لا يصيبهم الفشل

وتذهب قوتهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1]. وكذلك بسبب بُعْد كثير منهم عن الدين القويم والعقيدة الصحيحة، وانتشار البدع والمذاهب الباطنية في عدد من البلاد في العالم الإسلامي.

الغزو المغولي للعالم الإسلامي:[2]

في سنة ٦١٧هـ وفي زمن الخلافة العباسية في بغداد، التي كانت تعاني من ضعف شديد، حيث إنها تحتضر في آخر أيامها، وقعت الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عمت الخلائق، وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى زمان هذه الحادثة، لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها...! فهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- اجتياح المغول لآسيا الوسطى والقوقاز:

في عام ٦١٥هـ تحركت مجموعة من القبائل المغولية المشركة بقيادة جنكيز خان، من موطنها الأصلي في هضبة منغوليا وما جاورها في وسط آسيا مشكلة موجات عسكرية شرسة متجهة إلى الغرب محطمة كل مظاهر الحياة في البلاد الإسلامية الواقعة في طريقها مع بداية الحملة الصليبية الرابعة، فقصدوا بلاد تركستان مثل: كاشغر وغيرها، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل: سمرقند وبخارى وترمذ وبلخ وغيرها، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما لا يوصف من المذابح الوحشية، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها تخريبًا وقتلاً ونهبًا، ثم يجاوزونها إلى

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) راجع: ابن كثير: البداية والنهاية، سنة ٦١٦، ٦١٧، ٦٥٦، ٦٥٨، عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور ٣٣٣ وما بعدها، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرمينية، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها.

ساروا إلى دربند شروان، فملكوا مدنه، وعبروا إلى بلد اللان واللكز، ومَن في تلك الأصقاع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلاً ونهبًا وتخريبًا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عددًا، فقتلوا كل من وقف لهم. وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد. هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملَك الدنيا، لم يملكها في سنة واحدة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة وأكثره أهلاً، وأعدلهم أخلاقًا وسيرة في نحو سنة. وبقي أهل البلاد التي لم يطرقوها خائفين مترقبين وصولهم، وهم مع ذلك وثنيون ويسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئًا...[1].

وإنما استقام لهم هذا الأمر لعدم وجود مَن يمنعهم. وقد وصف المؤرخون بعض ما جرى لأهل بخارى عند سقوطها في يد المغول، وهو ما فعلوه أيضًا في غيرها من المدن التي سقطت في أيديهم، فقالوا: أقبل جنكيز خان، فحاصر بخارى، فطلب منه أهلها الأمان فأمَّنهم، وامتنعت عليه القلعة، فحاصرها واستعمل أهل البلد في طمِّ خندقها، ففتحها قسرًا في عشرة أيام، فقتل كل مَن كان بها، ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها، وأباحها لجنده، فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلا الله تعالى، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا بهن الفواحش بحضرة أهليهن، ولا يستطيعون أن يدفعوا شيئًا مما نزل بهم، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قُتِل، ومنهم من أُسِر فعُذِّب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، فاحترقت وصارت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل، فلم يُغنِ عنهم شيئًا. ووصف المؤرخون

الذلة التي أصابت المسلمين؛ أنهم كانوا يُجمعون جموعًا كبيرة في مكان فسيح ثم يكتف بعضهم بعضًا، حتى إذا انتهوا من ذلك مرَّ عليهم الذباحون من المغول فذبحوهم ذبح النعاج دون مقاومة تذكر من المذبوحين. وارتكبوا مثل هذه المجازر في مرو وهيرات وغيرها.

وقد أقام جنكيز خان في سمرقند بعد أن حاصرها، ثم استباحها، وأرسل السرايا إلى البلدان، فأرسل سرية إلى بلاد خراسان، وتسميها التتار المُغرِّبة، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه. ثم ساروا إلى مازندران، وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتتحوها إلا في سنة تسعين في أيام سليمان بن عبد الملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة، ثم ترحلوا عنها نحو الري، ثم ساروا إلى همذان، وزنجان، وقزوين، وموقان، ثم قصدوا تفليس وهي أكبر مدن الكرج. وكانوا يرتكبون في هذه المدن ما لا يُحد ولا يوصف من القتل والأسر والسبي والفجور...!.

وانقضت سنة ٦١٧هـ وهم في بلاد الكرج، ثم ساروا إلى تبريز، فصالحهم أهلها بمال. ثم ساروا إلى مراغة، فحصروها ونصبوا عليها المجانيق، وتترسوا بالأسارى من المسلمين، ففتحوا البلد بعد أيام، وقتلوا من أهله خلقًا لا يعلم عدتهم إلا الله، وغنموا منه شيئًا كثيرًا، وسبوا وأسروا على عادتهم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفًا عظيمًا جدًا حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذا البلد وبه مئة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحدًا بعد واحدٍ حتى قتل الجميع، ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب ذلك الدرب وحده. ثم قصدوا مدينة إربل، فضاق المسلمون لذلك ذرعًا، وقالوا: هذا أمر عصيب. فأرسل لهم الخليفة عشرة آلاف مقاتل، فلم يقدم عليهم منهم غير ثمان مئة فارس، ثم تفرقوا قبل أن يجتمعوا، ولكن الله سلَّم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان، فصالحهم أهلها، وترك عندهم التتار شحنة من الجند، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم، فرجعوا إليهم، فحاصروهم حتى فتحوها قسرًا، وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان،

ففتحوا أردبيل، ثم تبريز، ثم إلى بيلقان، فقتلوا من أهلها خلقًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، وحرَّقوها، وكانوا يفجرون بالنساء، ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة.

ثم عادوا إلى بلاد الكرج فاقتتلوا معهم، فكسروهم أيضًا كسرة فظيعة، ثم فتحوا بلدانًا كثيرة يقتلون أهلها، ويسبون نساءها، ويأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترسًا يتقون بهم الرمي وغيره، ومَن سَلِم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلاد اللان والقفجاق، فاقتتلوا معهم قتالاً عظيمًا، فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القفجاق، وهي مدينة سوداق، ولجأت القفجاق إلى بلاد الروس، وكانوا نصارى، فاتفقوا معهم على قتال التتار، فالتقوا معهم، فكسرتهم التتار كسرة فظيعة منكرة جدًا، ثم ساروا نحو بلغار في حدود سنة ٦٢٠هـ، ففرغوا من ذلك كله، ثم عادوا إلى نحو ملكهم جنكيز خان. هذا ما فعلته هذه السرية المغربة، وكان جنكيز خان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى ترمذ فأخذتها، وأخرى إلى كلانة، وثالثة إلى فرغانة فملكوها، وجهز جيشًا آخر نحو خراسان، فحاصروا بلخ، فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدنًا كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان، فأعجزتهم قلعتها، وكانت حصينة، فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا، فكتبوا إلى جنكيز خان، فقدم بنفسه، فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهرًا، ثم قتلوا مَن فيها ومَن في البلد بكماله من الخاصة والعامة، ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكيز خان، وقد عسكر بظاهرها نحو من مئتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم، فاقتتلوا معهم قتالاً عظيمًا حتى انكسر المسلمون، ثم حصروا البلد خمسة أيام، واستنزلوا نائبها خديعة، ثم غدروا به وبأهل البلد، فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم، وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد مئات الآلاف، ثم ساروا إلى نيسابور، ففعلوا فيها قريبًا مما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس، ثم إلى هيرات ثم إلى غزنة، فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم، فعادوا إلى هيرات، فإذا أهلها قد نقضوا، فقتلوهم عن آخرهم، ثم عادوا إلى ملكهم جنكيز

خان. وأرسل جنكيز خان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم، فحاصروها حتى فتحوا البلد قهرًا، فقتلوا من فيها قتلاً ذريعًا، ونهبوها وسبوا أهلها، وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون عنها، فغرقت دورها، وهلك جميع أهلها. ثم عادوا إلى ملكهم جنكيز خان وهو مخيم على الطالقان، فجهز منهم طائفة إلى غزنة، فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه، فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقًا من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكيز خان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله، فقصده جنكيز خان فتواجها، وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه، ولم يبق بد من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يُعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعف أصحاب جلال الدين بن خوارزم شاه، فذهبوا فركبوا في بحر الهند، فسارت التتار إلى غزنة، فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة.

وهكذا تمكنت التتار من الناس في سائر البلاد، لا يجدون من يمنعهم ولا من يردعهم، وألقى الله - عزَّ وجلَّ - الوهن والضعف في قلوب الناس. وقد سرت أخبار قوة المغول ووحشيتهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، مما أوقع الرعب في صفوف القوى الأخرى القريبة من مناطق المغول، وجعل بعض منهم يهادن المغول بل ويبعث أحيانًا بالجنود من قبله لمشاركتهم في حرب المواقع الأخرى اتقاءً لشرهم وعلى حساب إخوانهم المسلمين.

- سقوط بغداد والخلافة:

وفي سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، أخذت التتار بغداد، وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس منها. فقد جاء جنود التتار إلى بغداد بقيادة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار هولاكو خان وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل وميرته وهداياه وتحفه، يساعدونهم على البغداديين، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار، ومصانعة لهم، وقد سُتِرت بغداد، ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الدفاع التي لا ترد من قدر الله شيئًا.

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنشاب من كل جانب، فانزعج الخليفة المستعصم بالله من ذلك، وفزع فزعًا شديدًا، وأمر بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة. وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها - وكانوا نحوًا من مئتي ألف مقاتل، كان من بينهم نسبة كبيرة من النصارى - إلى بغداد في المحرم من عام ٦٥٦هـ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذِّلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم في غاية الضعف، وبقية الجيش كلهم قد صُرِفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء القصائد يرثون لهم، ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، الذي دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أشنع منه منذ بنيت بغداد، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبع مئة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حُجِبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأُنزِل الباقون عن مراكبهم ونُهِبت، وقُتِلوا عن آخرهم، وأُحضِر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال: إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، فباؤوا بإثمه وإثم مَن كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء

والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاد بغداد. ومالوا على البلد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش قضاء الحاجة وقُنيِّ الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون في الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر أو بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي المكان، فيقتلونهم في الأسطح، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، وكذلك في المساجد والجوامع والرُّبُط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلِموا وسلِمت أموالهم. كما أفسدوا مساجدها ومنازلها، وأُحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا. وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها أحد إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة. وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط أسهمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مئة ألف مقاتل، فيهم من الأمراء مَن هو كالملوك الأكابر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق إلا عشرة آلاف، ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهَّل عليهم ذلك، وجلَّى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال. وقد رد الله كيده في نحره، وأذله بعد العزة الممتنعة الثابتة، وجعله خادمًا وعميلاً للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، فالحكم لله تعالى وهو العلي الكبير.

وقد اختلف الناس في كمية مَن قُتِل ببغداد من المسلمين فقيل: ثمان مئة ألف. وقيل: أكثر من ذلك. وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا، وكان النصارى الذين زحفوا مع هولاكو على بغداد لا يقلون عنفًا عن المغول أنفسهم في تصرفاتهم تجاه أهل بغداد عند سقوطها في أيديهم. أما أهل بغداد من النصارى فقد تمتعوا بالأمان

الشامل وقامت برعايتهم زوجة هولاكو النصرانية. ولما انقضى أمد الأمر المقدور، وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت البلد من جيفهم، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون. ولما نودي ببغداد بالأمان خرج مَن كان تحت الأرض بالمطامير والقني والمغاير كأنهم الموتى إذا نُبِشوا من القبور، وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا ولحقوا بمن سلف من القتلى.

وكان لسقوط بغداد أثر كبير بين المسلمين وغير المسلمين، فقد صاحب سقوطها سقوط الخلافة الإسلامية الممثلة بالعباسيين الذين حكموا ما يزيد على خمس مئة سنة، ومع ما كان في فتراتهم من ضعف وذلة للمسلمين في كثير من الأحيان إلا أنه كان يُنظَر لإقامة الخلافة الإسلامية كشعيرة ورمز للمسلمين، كما أن مقتل هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين قد أثر كثيرًا في المسلمين في مختلف المناطق، يضاف إلى ذلك أن بغداد كانت طيلة خمسة قرون هي حاضرة العالم الإسلامي، وموطن العلماء والأدباء والمفكرين. ومما زاد المصيبة أن ما حدث كان على يد شعب وثني غير متحضر لم يرع لأحد من الناس حرمة، وفي الوقت نفسه لم يتعرض لليهود والنصارى بشيء. وقد فرح النصارى في مختلف أنحاء العالم بما حدث للمسلمين في بغداد، وعدُّوا ذلك جزءًا من حربهم ضد المسلمين. حيث كان ما حدث في أواخر الحروب الصليبية، كما أن وجود زوجات لبعض خانات المغول من النصارى دفع الصليبيين لعدِّ ما جرى جزءًا من عملهم وتخطيطهم خصوصًا أن المبعوثين كانوا يترددون بين بلاط هولاكو وملوك الصليبيين.

- الهجوم على الشام:

وبعد سنتين من أخذ التتار لبغداد جاؤوا إلى حلب، فحاصروها سبعة أيام، ثم افتتحوها بالأمان، وغدروا بهم، فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلا الله تعالى، ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وامتنعت عليهم قلعتها شهرًا، ثم تسلموها بالأمان، وخربوا أسوار البلد وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب.

ثم أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشًا مع أمير من كبار دولته يقال له: كتبغا نوين. فوردوا دمشق فأخذوها سريعًا من غير ممانعة ولا مدافعة، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة، وقد كتب معهم السلطان هولاكو فرمان أمان لأهل البلد، فقرئ بالميدان الأخضر، ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل أن يغدروا كما فُعِل بأهل حلب. وقد فتحوا القلعة وسلموها إلى أمير منهم يقال له: إيل سبان. وكان معظِّمًا لدين النصارى، فاجتمع به أساقفتهم وقساوستهم، فعظَّمهم جدًا وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهبت طائفة من النصارى إلى هولاكو بهدايا وتحف، وقدموا من عنده ومعهم أمان؛ فرمان من جهته، ودخلوا البلد من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم، ويقولون: ظهر الدين الصحيح، دين المسيح. ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، وقماقم ملآنة خمرًا يرشون منها على وجوه الناس، ويأمرون كل مَن يجتازون به في الأسواق والطرقات أن يقوم لصليبهم، ودخلوا من درب الحجر، فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان، ورشوا هنالك خمرًا، وكذلك على باب مسجدَي درب الحجر الصغير والكبير، واجتازوا في السوق حتى وصلوا إلى درب الريحان أو قريب منه، فتكاثر عليهم المسلمون، فردوهم إلى سوق كنيسة مريم، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة

السوق هنالك، فذكر في خطبته مدح دين النصارى، وذم دين الإسلام وأهله، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وذُكِر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر، وكان من نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخربوا كثيرًا من المساجد وغيرها، فكفى الله شرهم. ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها إيل سبان، فأُهينوا وطُردوا، وقُدِّم كلام رؤساء النصارى عليهم. واتفق وقوع هذا كله في العشر الأخير من رمضان من سنة ٦٥٨هـ.

نهاية التتار في بلاد الشام:[1]

لما بلغ المظفر قطز صاحب مصر أن التتار قد فعلوا بالشام ما فعلوا، وقد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة، وقد عزموا على الدخول إلى الديار المصرية بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم هو قبل أن يبادروه، وأقدم عليهم قبل أن يُقْدِموا عليه، فخرج بالجيش المصري، وقد اجتمعت الكلمة عليه، حتى انتهى بمن معه من العساكر المنصورة إلى الشام، واستيقظ له عسكر المغول، وعليهم كتبغا نائبًا عن هولاكو، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان من سنة ثمان وخمسين وست مئة. وكان بعض الأمراء مترددين في قتال التتار فقال قطز: أنا ألقى التتار بنفسي، فتشجع أمراء المماليك وبقية القوات، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا شديدًا حتى إن الأعداء كادوا يزيلون المسلمين عن مواقعهم، وكان قطز يثبت الناس وينحاز إلى بعض نواحي الجيش حينما يحس ضعفًا منهم حتى يقوي من عزيمتهم ويشجعهم، وكان له عدة مواقف شجاعة في أثناء المعركة؛ من ذلك: أنه قُتِل جواده فترجل وبقي واقفًا على الأرض ثابتًا والقتال على أشده في المعركة، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه، وحلف

(١) راجع: ابن كثير: البداية والنهاية، سنة ٦٥٨، عبد العزيز إبراهيم العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور ٣٤٦-٣٤٩، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

عليه ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك. ولم يزل كذلك حتى جاؤوه بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو كان رآك بعض الأعداء لقتلك وهلك الإسلام بسببك. فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قُتِل فلان وفلان وفلان - وعدَّد خلقًا من الملوك - فلم يُضيِّع الله الإسلام.

كان قطز يقاتل بنفسه ببسالة وشجاعة نادرة وكان يسمع صوته وهو يتضرع إلى الله - عزَّ وجلَّ - باستمرار: يا الله انصر عبدك قطز. وكان ينادي في المعركة: واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه، فكانت النصرة للإسلام وأهله، ولله الحمد، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة، وقُتِل قائد التتار كتبغا وجماعة من بنيه، ولما لاحت الهزيمة في صفوف التتار نزل السلطان قطز عن فرسه ومرَّغ وجهه على التراب تواضعًا لله - جلَّ جلاله - وصلى ركعتين في أرض المعركة شكرًا لله على نصره للمؤمنين. واتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان اتبعوا التتار يُقتِّلونهم في كل موضع وفي كل مأزق، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب مَن بدمشق منهم، وكان هربهم منها يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان، فتبعهم المسلمون من دمشق يُقتِّلون ويأسرون، ويحررون الأسارى من أيديهم. وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحًا شديدًا، وأيد الله الإسلام وأهله تأييدًا، وكبت عزَّ شأنه النصارى واليهود والمنافقين، وأظهر دينه وهم كارهون، ونصر دينه ونبيه ولو كره الكافرون. فتبادر عند ذلك المسلمون إلى النصارى يعاقبونهم ويؤدبونهم على استطالتهم على المسلمين والاستهزاء بدينهم في ظل التتار في الأيام الماضية. وقتلت العامة في وسط الجامع شيخًا رافضيًّا كان مصانعًا للتتار على أموال الناس، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

وقد استرد الملك المظفر قطز حلب من يد التتار، وعاد الحق إلى نصابه، ومهد القواعد، وكان قد أرسل بين يديه الأسد الضاري الأمير ركن الدين بيبرس ليطرد التتار عن حلب، فطردهم منها وتسلمها المسلمون. ثم رجع المظفر إلى الديار المصرية، والعساكر الإسلامية في خدمته.

وقد كان السلطان هولاكو خان لما بلغه ما جرى على جيشه بعين جالوت أرسل جماعة كثيرة من جيشه إلى بلاد الشام ليستعيدوه من أيدي جيش الإسلام، فحيل بينهم وبين ما يشتهون، ورجعوا وهم خائبون خاسرون، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر السلطان المؤيد الظاهر بيبرس، فقدم إلى دمشق، وأرسل الجيوش من كل جانب؛ لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة التامة والجحافل، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ووجدوا الدولة قد تغيرت، وعناية الله بأهل الشام قد تنزلت، ورحمته بهم قد تداركت، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم، وكرَّت راجعة القهقرى على أذنابها، والحمد لله فبنعمته تتم الصالحات، وتكمل المسرات، في هذه الحياة الدنيا وبعد الممات.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع المسلمين:

هل عرف المسلمون سبب الذل والهوان الذي تعرضوا له؟! إنه ترك الجهاد في سبيل الله، فهل نسوا ذلك؟! قال الله تعالى: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1]. ماذا جرى للمسلمين، هل نسوا أنهم إذا رضوا بالدنيا وتركوا الجهاد سلط الله عليهم ذلاً لا ينزعه حتى يرجعوا إلى دينهم، وسلَّط عليهم عدوًا أدبهم وقوَّم اعوجاجهم به، وعاقبهم على تقصيرهم في الجهاد وبعدهم عن الدين وقربهم من الشيطان

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

وارتكابهم الفواحش والمحرمات ما ظهر منها وما بطن، ليثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى طاعته، أو يستبدل قومًا غيرهم ثم لا يكونون أمثالهم؟ قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1]. أليس هذا ما حصل لهم؟!.

لم يتقاعس المسلمون عن الجهاد وفتح البلاد لنشر دين الله وإعلاء كلمته فحسب، بل وصلت بهم الأمور إلى التقاعس عن اتخاذ الأسباب لوقف زحف التتار، وتهاونوا في هذا الأمر، فكان لتقاعسهم وتهاونهم دور كبير فيما حدث، ودفعوا الثمن غاليًا مئات الآلاف من القتلى منهم! هذا عدا ما تعرضوا له من الذل والإهانة على يد التتار، بل حتى النصارى في دمشق انتهزوا فرصة تعرض المسلمين للذل؛ فتجرؤوا عليهم ورشوا وجوههم ومساجدهم بالخمر، وذموا دين الإسلام وأهله، وأمروهم بالقيام للصليب! وليحمد المسلمون ربهم أن مدة التتار لم تطل؛ وإلا لرأوا من النصارى ما لا يخطر على بالهم من الفظائع، فهذه فرصة لهم وعليهم أن ينتهزوها فلعلها لا تسنح لهم مرة أخرى!. وليحمد المسلمون الله تعالى وليسجدوا له أن ذلك لم يدم سوى ثلاثة أيام، فما مضت حتى جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت ولله الحمد.

فسنة الله تعالى ماضية أنه لن تخلو الأرض في زمن من الأزمان من طائفة من أمة محمد ﷺ يقاتلون على الحق، ظاهرين على مَن ناوأهم، إلى يوم القيامة، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، ولن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة. فكان أن سخر الله - عزَّ وجلَّ - لهذا الدين، ولإنقاذ المسلمين مما تعرضوا له على أيد التتار الوثنيين؛ هذه العصابة بقيادة المظفر سيف الدين قطز، الذي لم يضره مَن خذله أو خالفه أو خوفه من قوة التتار وبطشهم

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٢٩٥٦.

وانتصارهم على كل مَن كان قبله، بل شرح الله صدره لقتال التتار؛ فأصر على ذلك وأعلن أنه متوجه بنفسه لجهاد التتار، فكانت معركة عين جالوت التي كتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين، وانكسرت شوكة التتار، وبدأ حكامهم ينظرون إلى المسلمين نظرة أخرى جديدة، وبدأ بعض زعمائهم محاولة إقامة علاقات جيدة مع المسلمين واسترضائهم بدلاً من مصادمتهم، وتمكن المسلمون مرة أخرى من فرض سيطرتهم على بلادهم وقمع النصارى الذين استطالوا عليهم في ظل المغول في دمشق وغيرها، وعمل سيف الدين قطز على ترتيب بلاد الشام وتعبئتها بالأجناد، وأقام بها العدل ونشر الأمن، وأعادت هذه المعركة الوحدة مرة أخرى بين الشام ومصر، وأسقطت الأمراء المستسلمين للمغول والانفصاليين الباحثين عن مصالحهم الخاصة بعيداً من مصالح المسلمين العامة.

لقد جعل الله المسلمين خير أمة للناس بشرط أن يقوموا بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله حق الإيمان، ويتطلب ذلك منهم ألاَّ يركنوا إلى الدنيا، بل أن يشتغلوا في أمور الجهاد ودعوة البلاد إلى الله وإلى دين الإسلام، وإلا لجاؤوا هم لغزوهم وفتح بلادهم، وعندها لا يرون منهم إلا ما يشيب له الولدان، فهم لا يرعون حرمة لشيخ ولا لامرأة ولا لطفل، ولا يبالون في هذا بسفك دماء المسلمين مهما غزرت، وإتلاف نفوسهم مهما كثرت، ولا يفهمون إلا لغة المجازر والمذابح لتفريغ غلهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، فهم معهم لا يعرفون للحرب أدبًا، ولا للرحمة موقعًا، إلا إذا تكافأت قوى المسلمين وقواهم، وخافوا ثأر المسلمين العاجل، فهم عندئذ يعاملون المسلمين بحذر، اتقاء للعقوبة لا اتقاء لله، أما إذا أمنوا الثأر والعقوبة فلا يتوقع المسلمون منهم إلا بطش الجبابرة.

وهذا ما سوف يستمر بين المسلمين وبين الكفار إلى آخر الزمان، فهل نسي المسلمون أنها مسألة حرب دائمة مستمرة بين الإيمان والكفر؟! فليتيقنوا أنه ليس للحرب والتدافع بين الإيمان والكفر من توقف، فإما أن يكونوا هم المجاهدون الغازون

الفاتحون الداعون إلى الله الناشرون لدين الإسلام، وعندها فليبشروا بإحدى الحسنيين، إما نصر وإما شهادة، وإما أن يصبحوا المغزوِّين المفتوحين بأي شكل من أشكال الغزو والفتح الكفري والشركي المناسب لكل زمن ولكل بلد، والمكرَهين على تبني مبادئ الكفار وتنفيذ مطالبهم المخالفة لربهم ولدينهم، وعندها فلا يلوموا إلا أنفسهم، وقد رأوا كيف أن النصارى في دمشق ما إن أحسوا بأنه يمكن أن تكون لهم صولة وجولة حتى استغلوها في إذلالهم وإهانتهم على قصر مدتها إلى ثلاثة أيام فقط، فلا يكن الكفار أحذق منهم وأدرى بحقيقة دوام الحرب بين الإيمان والكفر.

إن الجهاد الإسلامي ليس مرتبطًا بقوم دون قوم، وها هم العرب فلينظروا ماذا حدث لهم حينما تركوا الجهاد وقعدوا عنه! فقد استبدل الله بهم قومًا ليسوا عربًا، حملوا راية الجهاد الإسلامي وقاموا بما قام به أسلاف العرب من فتح البلاد أو استردادها من أيدي الكفار، كما فعل الأكراد ومنهم الزنكيون وصلاح الدين الأيوبي الذي حارب الصليبيين واسترد القدس وغيرها من بلاد المسلمين، وها هو السلطان المظفر سيف الدين قطز وهو من المماليك الشركس القوقازيين الذي هزم التتار وأعاد للمسلمين العزة والكرامة بعد أن فقدوهما بترك الجهاد.

- وقفة مع الخليفة:

أما الخليفة...! فهل عرف سبب الذل والهوان الذي تعرض له هو شخصيًا وكانت نتيجته قتله بطريقة وحشية مهينة؟! أيحسب الخلافة منصبًا وكرسيًا، وقصورًا وجواري، ومغنيات وراقصات...؟! لقد أصبح خليفة للإسلام ووليًّا لأمر المسلمين لا ليقضي أوقاته في الاستمتاع بمباهج الحياة والغرق في زينة الدنيا وشهواتها، وإنما جُعِل خليفة ليقود المسلمين فيما خلقهم الله لأجله، وفيما أوجب عليهم من نشر الإسلام، وبعث الجيوش لفتح البلاد ودعوة أهلها إلى الله تعالى وإلى عبادته وتوحيده.. ألا يتذكر سيرة الخلفاء الأوائل - رضي الله عنهم - الذين بعثوا الجيوش في كل اتجاهات الأرض حتى تحولت بلاد كثيرة إلى الإسلام؟! وهكذا يكون

كل خليفة راشد مخلص للإسلام وأهله، وهذه هي وظيفة الخليفة وولي أمر المسلمين في كل مكان وفي كل زمان حتى يرث الله الأرض ومَن عليها.

- السنن الإلهية:

ليس لله أبناء ولا شعب مختار...! إنما له سنة كونية وهي أن عبيده وأحبابه هم الذين يطيعونه ويتبعون دينه ويعملون بالأسباب التي تجعلهم خيرًا وأحب إليه من غيرهم. ومن ذلك أن من ينصرونه، ويعلون كلمته، وينشرون دينه، ويجاهدون في سبيله، فإنه سبحانه ينصرهم على عدوه وعدوهم ويثبت أقدامهم عند القتال، بل ويستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ويمكِّن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنًا إن آمنوا به وعملوا الصالحات وعبدوه ولم يشركوا به شيئًا.. ومَن لم يكن كذلك فلن ينصره الله وإن نسب نفسه إلى الإسلام، حتى وإن كان خليفة للمسلمين أو حاكمًا من حكامهم.

إن مَن يتخذ أسباب الحرب ويعمل بحسب سنن الله الكونية انتصر حتى وإن كان من غير المسلمين، ولو كان عدوًا للمسلمين وظهيرًا للمشركين المجرمين، وهكذا كان التتار الذين اتخذوا أسباب الحروب فاكتسحوا بلاد المسلمين الذين تركوا ما أوجبه الله عليهم من إعداد القوة للجهاد في سبيله لإعلاء كلمته، وانغمسوا في ملذات الدنيا الحلال منها والمحرم حتى ذهبت قوتهم وضعفوا وأصبحوا لقمة سائغة لكل جائع. وإن مما يدل على فارق الاهتمام بين المغول والخلافة العباسية، أن صاحب الموصل الذي كان قد أقام علاقة قوية مع هولاكو اتقاءً لشره، وفي الوقت نفسه كان لا يزال على علاقته بالخلافة العباسية، وصلته رسل من هولاكو يطلبون منه إمدادهم بالأسلحة والمنجنيقات، وما يلزم فتح الأسوار استعدادًا للهجوم على بغداد، وفي الوقت نفسه وصلته رسل من الخليفة يطلبون مغنية عنده قد ذُكِرت بجمال الصوت، فقال صاحب الموصل: انظروا إلى هذين الرسولين وابكوا على الإسلام وأهله. ولذلك كان من الطبيعي أن تكون النتيجة ما حدث لبغداد وللخليفة.

فتأخر الدولة العباسية في اتخاذ الأسباب لوقف زحف المغول كان له دور كبير فيما حدث، حتى إن هولاكو حينما احتل بغداد ذكَّر الخليفة المستعصم بما كان يجب أن يفعله في هذه المرحلة، حيث شاهد هولاكو الأموال الكثيرة في خزينة الخليفة بعد أسره فقدَّم للخليفة طبقًا مملوءًا بالذهب وطلب منه أن يأكله، فقال المستعصم: كيف آكل الذهب؟ فقال هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا حفظته، ولم توزعه على جندك حتى يصونوا مُلكك من هجمات جيشنا، ولِمَ لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبوري؟ فقال الخليفة: هكذا كان تقدير الله. وإذا كان الخليفة قد فسر عجزه وتقاعسه عن الواجب بتقدير الله سبحانه، فإن ما أصابه أيضًا هو تقدير الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فسبحان الله كيف يكون عقابه لمن عصاه، وإذلاله لمن ترك الجهاد والدعوة إليه وإلى دينه...! وسبحانه كيف يكون نصره لمن نصره وأعلى كلمته، وأخلص النية في ذلك...! فهذا السلطان قطز الذي كان معروفًا بالتقوى والصلاح، كان إعلانه خروجه بنفسه لقتال المغول أكبر دليل على صدقه في نية القتال، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم المصرية بالخروج للجهاد. ولما التقى جيش المسلمين وجيش المغول في عين جالوت، قاتل قطز بنفسه، وبالوقت نفسه كان يتضرع إلى الله ويدعوه أن ينصره، وكان همه أن ينتصر الإسلام حتى وإن قُتِل؛ فنصره الله ونصر المسلمين، وأظهر الله دينه على دين الوثنيين، وهزمهم شر هزيمة، وهم الذين لم يُهزموا من قبل. وقد كسر - عزَّ شأنه - شوكة التتار في هذه المعركة المباركة وبدد قوتهم، فلم يكونوا بعدها مثلما كانوا قبلها، بل لم يزل أمرهم في انحدار حتى لم يعودوا شيئًا، بل ودخل كثير منهم الإسلام، وعادت بغداد ودمشق وغيرها من البلاد إلى المسلمين.

سبحان الله...! فحتى هذا البلاء فإنه - عزَّ وجلَّ - يحيله إلى ما هو خير للإسلام والمسلمين...! فإن هؤلاء المغول التتار بعد كل الذي فعلوه بالمسلمين، أخذوا يدخلون في الإسلام بما في ذلك ملوكهم وأمراؤهم، وصارت قوتهم قوة مضافة إلى

قوة المسلمين. فسبحان الله كيف ينشر دينه وييسر للناس الدخول فيه، فلا يكون ذلك عن طريق جهاد المسلمين وفتحهم لبلاد الكفار ودعوة أممها إلى دين الله فحسب، بل حتى عندما يقصَّر المسلمون في هذا الواجب، ويغزو الكفار بلاد المسلمين ويختلطون بهم؛ فإن الله - جلَّ وعلا - ييسر لمن كتب لهم الهداية منهم الدخول في الإسلام أيضًا، ولو كان غزوهم دافعه القتل والنهب والاحتلال وغير ذلك؛ لأنهم بداية لن يتركوا بلادهم ويأتوا إلى بلاد المسلمين إذا كان الغرض من ذلك الدخول في الإسلام. فهذا دين الله، وقد تكفل سبحانه بإظهاره على الأديان كلها ولو كره المشركون.

فهذا أبو المعالي ناصر الدين بركة خان، أول من أسلم من أبناء جنكيز خان، وقد تولى خانية المغول في صحراء القفقاس عام ٦٥٣هـ، وأسلم معه عدد كبير من قومه، وعدَّ نفسه حامي القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والدين، وراسل الخليفة المستعصم في بغداد وبايعه وهاداه. ودعا العلماء من كل جهة ليفقهوا الناس في الدين، وأغدق عليهم المال الكثير. وقد حارب بركة خان ابن عمه هولاكو الوثني، الذي كان ألد أعداء المسلمين، وأكبر خصومهم، وأصعب من نال من حضارتهم. وقد انتصر بركة خان على هولاكو، ولم يكن عمل بركة خان مقتصرًا على قتال هولاكو بل أراد عملاً أوسع من هذا بكثير، إذ رغب في إنهاء دولة المغول الوثنية ونشر الإسلام فيها.[1] بل إن هولاكو نفسه، الذي كان قد خضع لتأثير النصرانية، حيث كانت زوجته نصرانية وتحرضه على الإسلام باستمرار، يقال: إن عداوته للإسلام قد خفت في أواخر حياته، وقد عهد إلى أحد المربين المسلمين بتنشئة ابنه الثاني يكودار الذي أسلم فيما بعد وتسمى باسم أحمد[2].

(١) انظر: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ١٣٧/٧-١٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٧٥/٧-١٧٨.

أما ملك التتار قازان الذي نشأ على البوذية، فقد أسلم وأظهر الإسلام عام ٦٩٤هـ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام، وكان عدد من أسلم معه سبعين ألفًا من التتار، وغدت الدولة الإيلخانية المجاورة لبلاد المسلمين مسلمة كلها. وقد نثر قازان الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وضرب الجزية على النصارى، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد. وهذا ملك التتار أبو سعيد بهادور خان بن خربندا، الذي تولى حكم الدولة الإيلخانية، كان من خيار ملوك التتار، وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها، وقد عزَّ أهل السنة بزمانه، وعادت السُنَّة إلى الدولة بعد أن اتخذ أبوه الرفض مذهبًا له[1].

وقد دخل كثير من ملوك وأمراء التتار في الإسلام، فنصروا الإسلام وأهله في كثير من البلاد التي غزوها أو هاجروا إليها، حتى صار لهم بلد باسمهم وهي (تتارستان) في شمال البحر الأسود، وهم مسلمون إلى اليوم، وكذلك في القرم إضافة إلى البلاد الأخرى الكثيرة التي لا زال فيها بقايا منهم.

فقد كان اجتياح المغول التتار لبلاد المسلمين لغير الدين، فأبى الله -جلَّ جلاله- إلا أن ينتهي لصالح الدين وما ذلك عليه بعزيز، إنه على كل شيء قدير.

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، سنة ٦٩٤، ٧٣٦، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ١٧٩/٧، ١٨٢.

نهاية أمة البيزنطيين في القسطنطينية

الأرض لله يورثها من يشاء:

إن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده، أراد الله - عزَّ وجلَّ - أن يورث المسلمين أرض الأناضول والقسطنطينية.. وقد كانت للبيزنطيين الروم، فمنحها الله للمسلمين؛ لتصبح تلك الأرض مسلمة موحِدة بعد أن كانت صليبية مشركة...! فلله الحمد على ما أراد، وله الشكر على ما منح.

لقد أخبر رسول الله ﷺ وهو الذي لا يتكلم إلا عن وحي من الله تعالى، بأن المسلمين سيفتحون القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية، وهي من أجمل مدن العالم، قال عليه الصلاة والسلام: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[1]. وقد ذكرها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، وأن المسلمين سيعيدون فتحها مرة أخرى، ويستفيؤون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًا لم ير الناس مثلها، ولا يرون بعدها نظيرها، وسيكون هذا الفتح علامة من علامات آخر الزمان والملحمة الكبرى وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، ويأجوج ومأجوج وغيرها من علامات الساعة الكبرى.

ولهذه الأسباب كان للقسطنطينية شأن كبير في قلوب المسلمين وأذهانهم خصوصًا الأبطال الشجعان من فاتحي بلدان الكفار؛ فكان الخلفاء والأمراء والقادة والمسلمون المجاهدون لا يتوقفون صيفًا ولا شتاءً عن غزو بلاد الأناضول (تركيا) والوصول إلى عاصمتها القسطنطينية (إسطنبول)، وقد فتحوا مدنًا وحصونًا كثيرة في تلك البلاد، وحاصروا القسطنطينية كثيرًا من المرات، كلهم يرغب أن يكون هو

(١) مسند أحمد، رقم: ١٨٨٥٩، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

ذلك الأمير الفاتح للقسطنطينية، ولكنهم لم يقدروا على فتحها. كما أنه لم يكن هناك تثبيت لهذه الفتوحات في تلك البلاد من قبل العرب، ولهذا كان الروم البيزنطيون يستعيدون تلك المدن والحصون باستمرار منهم، حتى حان زمان ظهور الذين قدَّر الله لهم أن يرثوا تلك البلاد من أمة البيزنطيين النصارى ويزيلوهم عنها، ويزيلوا دولتهم منها لتكون للمسلمين خالصة من دون البيزنطيين إلى يوم الدين.

السلاجقة التركستانيون:

إن دين الإسلام هو للعالمين ولخلق الله أجمعين في مشارق الأرض ومغاربها، ليس لجنس من الناس دون جنس، ولا لعرب دون عجم، فإن ترك جنس من الناس الجهاد في سبيل الله ونشر دينه، أو ضعفت قوتهم عن هذا الواجب، أو انقرضوا؛ أقام الله قومًا غيرهم أقوى منهم ليقوموا بأعباء هذه الرسالة، ويكونون سامعين مطيعين له ولأوامره، وقد أشار النبي ﷺ إلى أنهم من العجم بدلاً من العرب، وهو ما تحقق فعلاً...!.

فقد كان العرب هم الفاتحون الأوائل في بداية انتشار الإسلام، ثم بعد الفتوحات الكبيرة التي قاموا بها ركنوا إلى الدنيا وتنافسوا فيها، وقعدوا عن الجهاد والقتال في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وهذا ما كان يخشاه رسول الله ﷺ على المسلمين أن يقعوا فيه، وهو أن تُبسَط عليهم الدنيا، كما بُسطت على مَن كان قبلهم، فيتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيهم كما ألهتهم، وتهلكهم كما أهلكتهم؛ وهو ما وقع للمسلمين إلا مَن رحم الله منهم، فلما فعلوا ذلك أقام الله قومًا مسلمين من آخر الدنيا من غير العرب، بل من قبائل الغز العجمية التركستانية، الذين اعتنقوا المذهب السني، وأخذوا على عاتقهم أداء الرسالة التي تخلى عنها العرب، وتحملوا مسؤولية مقارعة العدو الأول للمسلمين وهم الروم البيزنطيون ومَن جاورهم من نصارى أرمينيا وجيورجيا وما حول تلك المناطق في بلاد الأناضول.

نهاية أمة البيزنطيين في الأناضول:[1]

منذ الفتوح الأولى في زمن أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، كان المسلمون يضربون الحدود الرومية، وكانت جيوش المسلمين تخرج كل عام في الصيف أو الشتاء لقتال الروم البيزنطيين، وقد نجحت هذه الحملات في إرباك الروم وإضعافهم باستمرار، كما أنها كانت تعد المسلمين لفتح القسطنطينية وإزالة دولة البيزنطيين منها ومن بلاد الأناضول (آسيا الصغرى). وقد تمكنت بعض الحملات في العصر الأموي من الوصول إلى أسوار القسطنطينية من البر والبحر، ولكنها فشلت. واستطاع المسلمون من الاستيلاء على بعض المدن، وكذلك بعض الجزر المجاورة للقسطنطينية، واتخذوها قواعد عسكرية أخذت تشن منها الحملات على القسطنطينية، وتمكنوا من حصارها أكثر من مرة، فلم ينجحوا في فتحها. وكانت القسطنطينية ذات موقع جغرافي أعطاها حصانة طبيعية تمنع محاصرتها بالكامل، حيث كان البحر يمنع ذلك في جوانب مختلفة من المدينة.

وفي العصر العباسي استمرت حملات الصيف والشتاء إلى بلاد الروم، وعاشت الدولة العباسية في عصرها الأول حروبًا مختلفة مع الروم، ومن أهمها ما جرى في أيام هارون الرشيد، الذي خرج بنفسه لقتال الروم في سنة ١٨١هـ، فصالحته ملكتهم (إيرين) ودفعت الجزية، فلما عُيِّن (نقفور) مكانها، نقض الصلح وبعث إلى الرشيد كتاب تهديد ووعيد؛ فلما قرأ الرشيد كتابه استشاط غضبًا وكتب على ظهر كتاب نقفور: «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه» ثم خرج الرشيد بالجيش لقتال الروم في اليوم الذي وصل فيه الكتاب. وقصد (هرقلة) وهي

(١) راجع: ابن كثير: البداية والنهاية، سنة ٤٦٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٨٨/٨-٣٨٩، عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور ١٦٣-١٦٥، ١٩١-٢٠٠، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

أعز مدن الروم عليهم ومسقط رأس نقفور، ففتحها وصال وجال في بلاد الروم حتى اضطر نقفور صاغرًا أن يعقد معه معاهدة جديدة، فلما كان الرشيد في طريق العودة نقض نقفور المعاهدة؛ فعاد الرشيد أدراجه وفتح عدة مواقع. واستمرت جيوش المسلمين في فتح نواحي بلاد الروم حتى عاد الرشيد بنفسه مرة أخرى سنة ١٩٠هـ وتمكن من فتح هرقلة؛ مما دفع نقفور إلى التذلل والخضوع للمسلمين وأقر بدفع الجزية عن نفسه وأهل بيته أولاً، وعن جميع أهل مملكته ثانيًا. وخرج المأمون بنفسه أيضًا لقتال الروم سنة ٢١٥هـ، وفتح كثيرًا من الحصون، وكذلك فعل سنة ٢١٨هـ بعد أن رد على رسالة ملكهم فوعظه فيها وعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، فرفض ملك الروم الاستجابة مما دفع المأمون للاستمرار في الفتوح في بلادهم، وعزم على فتح القسطنطينية إلا أنه توفي في هذه الحملة قبل أن يحقق أمنيته.

ولما بويع المعتصم بالخلافة من بعده، وانشغلت قواته في القضاء على فتنة داخل دولته؛ استغل الروم الفرصة فهاجموا شمال الشام والجزيرة واستولوا على بعض مدنها وسبوا من نسائها، فصاحت امرأة ممن وقعن في الأسر: وامعتصماه...! وامعتصماه...! فلما بلغ المعتصم هذا النبأ استعظمه، وصاح من فوره قائلاً: لبيك. ونهض من ساعته ونادى في جنده بالنفير، وغادر بعد أيام بصحبته ما يزيد على مئة ألف جندي، قادهم بنفسه لقتال الروم، حيث أوقع الهزائم في جيوشهم، وتمكن من فتح الكثير من المواقع، وعلى رأسها (عمورية) مسقط رأس ملك الروم، التي فتحها في رمضان سنة ٢٢٣هـ بعد حصار دام ستة أشهر.

وبعد عصر المعتصم استمرت الحروب بين المسلمين والروم، غير أن هذه الحروب لم تكن ذات تأثير كبير على أراضي الروم في آسيا الصغرى، بالرغم من أهميتها في المحافظة على الأراضي الإسلامية. وفي منتصف القرن الرابع الهجري، قام الروم بالإغارة على بلاد الشام والتخريب فيها عدة مرات فيما بين ٣٤٩-٣٥٨هـ،

إلى أن ظهر السلاجقة الذين هاجروا من تركستان، وتكونت لديهم قوة عسكرية كبيرة وسيطروا على أفغانستان وإيران والعراق، ولقوا قبولاً من الخلافة العباسية لاعتناقهم المذهب السني واحترامهم الظاهر للخلفاء، واعترفت الدولة العباسية بهم، وأصبح اسم سلطانهم يُذكَر مقرونًا مع الخليفة العباسي، وقاموا بتحمل مسؤولية قتال الروم الذين كانوا لا يتوقفون عن الإغارة على بلاد المسلمين. لقد ظهر السلاجقة على مسرح الأحداث في القرن الخامس الهجري بعد دخولهم بغداد في رمضان سنة ٤٤٧هـ، فتمكنوا من تطهير بلاد الشام من الروم، وأخذوا يفتحون في بلاد الروم ويستوطنون بها.

- موقعة ملازكرد سنة ٤٦٣هـ:

قام السلطان السلجوقي ألب أرسلان في سنة ٤٦٣هـ بالجهاد في نواحي بلاد الروم وما جاورها إلى الشرق، فتمكن من فتح الكثير من المناطق ومهد للإسلام في أرمينية وجيورجيا؛ مما أغضب الإمبراطور البيزنطي (رومانوس) فخرج في جحافل أمثال الجبال من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية، حتى قُدِّر ذلك الجمع بنحو ثلاث مئة ألف جندي، أعدهم الإمبراطور لملاقاة السلطان السلجوقي، وكان من عزم الإمبراطور أن يبيد الإسلام، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم يميلون على الشام وأهله ميلة واحدة فيأخذونها من أيدي المسلمين، والقدر يقول: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون، فما إن علم ألب أرسلان باقتراب هذه الجيش حتى استعد للأمر واحتسب نفسه ومن معه، ولم يكن معه إلا القليل من أصحابه وهم قريب من خمسة عشر ألفًا، ولم يكن لديه وقت لاستدعاء مدد من المناطق التابعة له لبعدها وقرب العدو، وكان في مدينة خوى من أذربيجان، فجدَّ في السير، فلما قارب العدو جعل له مقدمة فالتقت مقدمته بمقدمة العدو وكان فيها نحوًا من عشرين ألفًا معظمهم من الروس، فاقتتلوا فأحرز المسلمون عليهم انتصارًا عظيمًا وتمكنوا من أسر معظم قوادهم.

ثم التقى الطرفان في ملازكرد من أعمال خلاط في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ، ولما تقارب الجيشان أرسل السلطان ألب أرسلان وفدًا إلى إمبراطور الروم وعرض عليه المصالحة، ولكنه تكبر وطغى ولم يقبل ذلك العرض، وقال: هيهات! لا هدنة ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فُعِل ببلاد الروم. فانزعج السلطان لذلك فقال له إمامه وفقيهه: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط استعدادًا للموت وقال: إن قُتِلت فهذا كفني. وزحف إلى الروم وزحفوا إليه فلما قاربهم ترجَّل وعفر وجهه على التراب وبكى وأظهر الخضوع لله وأكثر من الدعاء، ثم ركب وحمل على الأعداء وحملت العساكر معه، وصدق المسلمون القتال وصبروا وصابروا حتى زلزل الله تعالى الأعداء وقذف الرعب في قلوبهم، فدخل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، ونصر الله المسلمين عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فانهزم الروم، وأسر المسلمون منهم جموعًا كبيرة، كان على رأسهم ملك الروم نفسه الذي أسره أحد غلمان المسلمين، فأُحضِر ذليلاً إلى السلطان، فقرعه وذكَّره بما كان عرضه عليه من صلح وبرده القبيح على المسلمين، ثم إن السلطان أطلقه مقابل فكاك جميع أسرى المسلمين لدى الروم، ودفع مقدار من الأموال جزية عن إطلاق الملك ومبلغ سنوي ثابت للمسلمين على الروم، وأن يرد الروم بعض ما أخذوه من أراضي المسلمين في الشام.

وكان هذا الانتصار الإسلامي من أهم الانتصارات على الروم، وكسر فيه شوكتهم، وفرق قوتهم، وحطم كبرياءهم، ودفعهم إلى أن يأخذوا الحساب للمسلمين، وتمت بعده سيطرة السلاجقة على أجزاء كبيرة من بلاد الأناضول وأنهوا البيزنطيين ودولتهم منها ودفعوهم إلى التجمع في مدينة القسطنطينية وما جاورها من المدن.

الأتراك العثمانيون:

لما ضعف السلاجقة التركستانيين، الذين انهوا أمة البيزنطيين ودولتهم في كثير من أجزاء آسيا الصغرى، أقام الله الأتراك العثمانيين فحملوا على عاتقهم الجهاد في سبيل الله ونشر دينه في بلاد الأناضول، واختار الله أن يكون فاتح القسطنطينية رجلاً منهم هو السلطان محمد بن مراد الثاني الذي لُقِّب بالفاتح، وفتح العثمانيون الأتراك كثيرًا من بلاد أوروبا، وصاروا أيضًا حكامًا على العرب وغيرهم من المسلمين، وانتقلت الخلافة إليهم من العباسيين.

نهاية أمة البيزنطيين وفتح القسطنطينية:[1]

في الوقت الذي كان فيه المسلمون بقيادة السلاجقة يقاتلون جحافل الصليبيين التي خرجت من أوروبا باتجاه بلاد المسلمين لأخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين، كانت موجة أخرى من قبائل المغول المتوحشة تتجه نحو البلاد الإسلامية. وما إن أخذ مد الغزو الصليبي بالانحسار والتراجع إثر انتصارات المسلمين المتتالية عليهم إلى أن كسرهم صلاح الدين في معركة حطين واسترد بيت المقدس منهم عام ٥٨٣هـ، حتى قام الصليبيون المهزومون بتحريض المغول على غزو العالم الإسلامي، وكانت إحدى نساء جنكيز خان من النصارى وهي التي قامت بالدور الأول للتحريض؛ فغيَّر المغول وجهتهم التي كانت إلى الصين في البداية، واتجهوا غربًا نحو

(١) راجع: علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ١١-١٣، ٣٥-٣٩، وعبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور ٣٥٤ وما بعدها، نقلاً عن المراجع المشار إليها فيه.

البلاد الإسلامية فزرعوا الموت والدمار في ربوع العالم الإسلامي، فدمروا معالم الحضارة فيه لمدة خمس سنين خاصة في منطقة شمال العراق. ثم قام هولاكو حفيد جنكيز خان بالاستيلاء على بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين في سنة ٦٥٦هـ؛ فنهبها وأحرقها وقتل معظم سكانها الذين بلغوا في ذلك الزمن قرابة الثماني مئة ألف نسمة بما فيهم الخليفة وحاشيته.

وفي زحمة تلك الأحداث الرهيبة التي لم يشهد لها المسلمون مثيلاً، رحم الله المسلمين فشاء سبحانه أن تنبت البذرة الأولى لدولة إسلامية جديدة سينتقم الله بها من أعداء الإسلام الذين ارتكبوا المجازر والآثام في حق المسلمين، ويعذبهم بيديها ويزيل دولهم ويورث أراضيهم نهائيًا للمسلمين. هذه الدولة هي الدولة العثمانية الإسلامية التي أسسها عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه (كوندوز آلب) بن قيا آلب رئيس قبيلة قايي إحدى قبائل الغز التركية المعروفة جيدًا بين الأربع والعشرين قبيلة.

ففي أوائل القرن السابع الهجري وبالتحديد سنة ٦١٧هـ تحركت بعض العشائر من القبائل التركمانية في وسط آسيا متجهة نحو الغرب فرارًا من غزو القبائل المغولية التي أخذت تقتل وتفسد في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، وقد عادت كثير من هذه العشائر إلى مواطنها الأصلية بعد أن أحست بشيء من الأمان في تلك الأماكن، وبقي قسم منها يقوده (أرطغرل بن سليمان) في مناطق السلاجقة في (الأناضول)، وأخذ يراسل الأمير علاء الدين السلجوقي في (قرمان) للحصول منه على إذن للإقامة في أراضيه، وفي هذه الأثناء كان أرطغرل يتجول بمن معه من عشيرته في بعض السهول فإذا به بالقرب من معركة تدور بين جيش سلجوقي يقوده علاء الدين نفسه، وبين أحد الجيوش البيزنطية، فبادر أرطغرل بمساعدة الجيش السلجوقي المسلم ضد البيزنطيين، فكان لتلك المساعدة دور كبير في انتصار السلاجقة المسلمين على البيزنطيين، ومن ثَم فإن السلاجقة بقيادة علاء الدين

قدروا هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعوهم أرضًا في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور مع الروم، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفًا قويًا ومشاركًا في الجهاد ضد عدوهم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة، نتيجة وجود عدو مشترك، بالإضافة لبعض الأمور الأخرى، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩م، خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسيع في أراضي الروم، وتمكن من فتح قلاع مهمة من قلاعهم مما أعجب السلطان السلجوقي علاء الدين الثالث مما دفعه إلى إكرام عثمان وخلع عليه ألقابًا سلطانية خاصة، ثم أخذ الضعف يسيطر على السلاجقة نتيجة عوامل مختلفة ومن ذلك هجوم المغول عليهم، ومات السلطان علاء الدين الثالث سنة ٦٩٩هـ، ونتيجة لانحلال الدولة بعد وفاته من جراء الفتن والاضطرابات، ونظرًا لعدم وجود خليفة له فقد قام عثمان بالاستئثار بالمقاطعات التي كانت تحت حكم علاء الدين وجعل مدينة (يني شهر) عاصمة له، كما اتخذ الراية نفسها التي لا تزال حتى اليوم تشكل العلم التركي المؤلف من الهلال والنجمة، واتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين، وبذلك ظهرت البداية الحقيقة للدولة العثمانية التي ظهرت مستقلة على مسرح الأحداث، واعتُبر عثمان بحق مؤسس الدولة العثمانية. وقد أخذ أبناء السلطان من بعده يتوسعون في الأراضي الإسلامية وفي الأراضي الأوروبية، وواجهوا قوات معادية كبيرة من داخل البلاد الإسلامية ومن خارجها، وخصوصًا في أوروبا، وقد أزالوا البيزنطيين من جميع أرض الأناضول وأنهوا دولتهم وأي سلطة لهم فيها، ولم يبق أمام الجيش العثماني سوى مدينة القسطنطينية.

- محاولات فتح القسطنطينية:

تعد القسطنطينية من أكبر المدن في العالم وأهمها، وقد أسسها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول في عام ٣٣٠م، وهي ذات موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها». ولهذا السبب اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم. وحينما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة في هذا الصراع لما لها من أهمية في نفوس المسلمين، إذ بشَّر رسول الله ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف؛ فكانت الدوافع الحقيقية وراء محاولات فتحها: ديني إسلامي، حافزها بشارة النبي ﷺ وثناؤه على الفاتح وجيشه، وغايتها إعلاء كلمة الله في الأرض والجهاد في سبيله.

حاول المسلمون فتحها في العهد الأموي فلم ينجحوا في ذلك، وقد ضمت الحملة الأولى إليها عدداً من الصحابة - رضوان الله عليهم - أمثال أبي أيوب الأنصاري وغيره، الذي توفي ودُفن قرب أسوارها. واستمرت محاولات فتحها في العهد العباسي من خلال حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، فلم يتحقق ذلك أيضًا، حتى جاء العهد العثماني فتجددت المحاولات لفتحها، وكانت البداية في أيام السلطان بايزيد (الصاعقة) الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلمًا إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فساداً، فاضطر السلطان بايزيد إلى سحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول، فدارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة التي أُسِر فيها بايزيد ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة ١٤٠٢م، ونتيجة لذلك تفككت الدولة العثمانية مؤقتًا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما إن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في سنة ٨٢٤هـ - ١٤٢١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء هذه المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم بعض الخارجين على السلطان، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله عن هدفه الذي حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

فقد كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه، ومنذ ذلك الوقت وهو يعايش صراع الدولة مع البيزنطيين في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات المتكررة لفتح القسطنطينية في العصور الإسلامية المختلفة وآخرها محاولات العثمانيين السابقة، فلما ولي السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ-١٤٥١م أخذ يفكر في فتحها ويطمح في أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»، الذي تعلمه من العلماء الذين كانوا محبوبين عنده ومقربين إليه، وتعلم منهم أيضًا أحاديث نبوية أخرى تثني على فاتح القسطنطينية.

- الإعداد لفتح القسطنطينية:

أخذ السلطان محمد الفاتح يبذل جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، ورفع تعداد جيشه إلى قرابة ربع مليون مجاهد، وعني بتدريبهم على فنون القتال المختلفة، إلى جانب إعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا، وغرس فيهم روح الجهاد، وذكَّرهم بثناء النبي ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش الذي قصده النبي ﷺ، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء في صفوف الجيش دور كبير في تقوية عزائمهم وربطهم بالجهاد المؤصل وفق أوامر الله تبارك وتعالى.

كما اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لهذا الفتح، ومن أهمها المدافع التي اهتم بها اهتمامًا خاصًا، وقد أحضر مهندسًا مجريًا بارعًا في صناعة المدافع يدعى (أوربان)، فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ الكثير من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجربتها. واعتنى السلطان كذلك بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة، لكون القسطنطينية مدينة بحرية لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة.

كان السلطان محمد الفاتح عازمًا على تنفيذ مخططه، فاستمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه بتقديم الأموال والهدايا ومحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره، فلما باءت محاولات الإمبراطور بالفشل، سارع إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية، وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي.

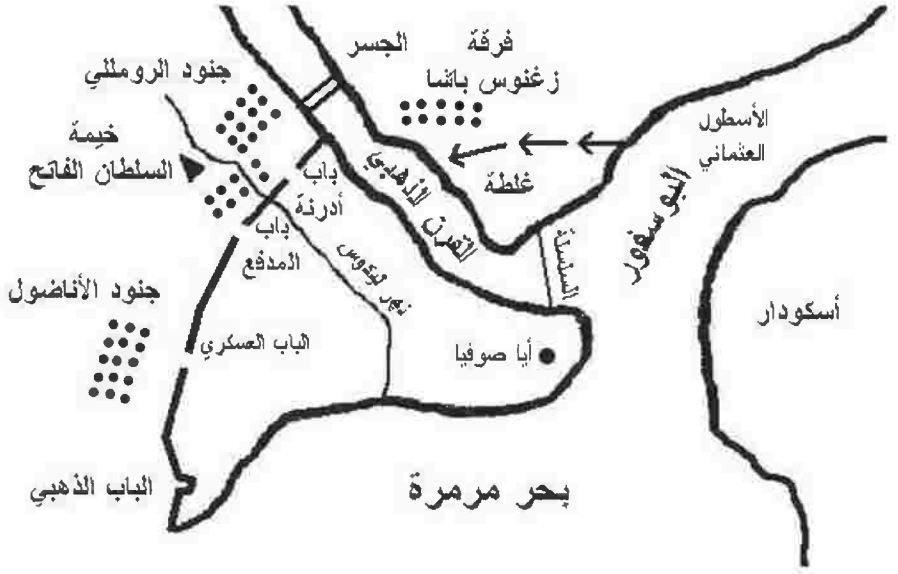

الجيوش العثمانية تحاصر القسطنطينية

- بدء الهجوم:

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جهات، مضيق البوسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محميًّا بسلسلة ضخمة جدًا تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فراغ يبلغ عرضه ٦٠ قدمًا، ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدمًا وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ستين قدمًا، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدمًا وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند، وبذلك فهي من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصينًا، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، ومن ثَم فإنه يصعب اختراقها، وهذا ما جعلها تستعصي على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

بدأ الزحف الإسلامي نحو القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح نفسه وكان في طليعة الجنود، ووصلت الأجناد العثمانية إلى مشارف القسطنطينية في ٢٦ ربيع الأول من العام ٨٥٧ هـ (٦ إبريل ١٤٥٣م)، فجمع الجند وكانوا قرابة مئتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء، وكان العلماء ينبثون في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسة تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشًا احتياطية خلف الجيوش الرئيسة، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طوب قابي، كما وضع فرقًا للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي الوقت نفسه انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها في البداية عجزت عن الوصول إلى القرن الذهبي حيث كانت السلسلة العملاقة تمنع أي سفينة من دخوله وتحطم كل سفينة تحاول الاقتراب، كما قامت السفن العثمانية بالاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمرة. وفي الوقت نفسه كان البيزنطيون بقيادة الإمبراطور (قسطنطين الحادي عشر) ينتشرون على الأسوار ويبذلون كل الجهود المتوفرة لديهم في تحصين مدينتهم والدفاع عنها، وكان عدد الجنود ٨٠٠ ألف مقاتل.

شدد الجيش العثماني الحصار على المدينة وجرت مناوشات مختلفة بين القوات المهاجمة والمدافعة منذ الأيام الأولى للحصار، واستشهد عدد كبير من الجيش العثماني من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب، وفي الوقت نفسه كانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من المواقع المختلفة نحو المدينة المحاصرة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في البيزنط داخل المدينة، كما تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يبادرون لحمايتها وإعادة ترميمها، كما كانت هناك بعض المساعدات التي وصلت من أوروبا وحاولت مساندة المدينة في هذا الموقف العصيب، ومنها القوة الجنوية المكونة من خمس سفن التي رأسها القائد الجنوي جستنيان يرافقه سبع مئة مقاتل متطوع من مختلف أنحاء أوروبا، وتمكنت سفنهم من الوصول إلى القسطنطينية بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة، وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في

رفع معنويات البيزنطيين، وقد عُين قائدها جستنيان المتسم بالذكاء والشجاعة قائداً للقوات المدافعة عن المدينة.

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن البيزنطية والأوروبية في المنطقة ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق هدفهم في البداية، مما رفع الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة، وكان القسس ورجال الدين النصارى يجوبون المدينة ويحرضون المدافعين عنها على الثبات والصبر، ويحثون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الغرض. وقد استبسل الفريقان، المهاجمون للمدينة وعلى رأسهم الفاتح، والمدافعون عنها وعلى رأسهم قسطنطين الحادي عشر، الذي قدم عروضًا مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها، ولكن الفاتح كان يرد بالمقابل طالبًا تسليم المدينة سلميًا، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى.

كان الحصار لا يزال ناقصًا ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمرًا دون هوادة، وقد تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الجزء الغربي من الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بشجاعة عجيبة وببسالة نادرة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول

الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية الواقعة خلف السلسلة من المدافعين عن مدخل الخليج، تمكنوا مجتمعين من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها حيث استشهد فيها عدد كبير من بحارة المسلمين، فاضطرت بقية السفن إلى التراجع بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها. وبعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، وبذلت السفن الإسلامية جهودًا كبيرة لمنعها فلم تتمكن من ذلك، ونجحت السفن الأوروبية في الوصول إلى هدفها. ولكن الفاتح لم تلن عزيمته أمام هذا الفشل، وهذه من أبرز الصفات عند العثمانيين، إذ إن الفشل لا يزيدهم إلا تصميمًا جديدًا.

وقد فكر الفاتح في وسيلة جديدة لنقل السفن إلى داخل القرن الذهبي بعدما فشلت محاولة تحطيم السلسلة التي تغلقه، وخطرت في باله فكرة جديدة تتلخص في نقل السفن عن طريق البر ولمسافة ثلاثة أميال من مضيق البوسفور حتى مياه القرن الذهبي ومن خلف مستعمرة غلطة، وبذلك يستطيع تجاوز السلسلة دون الدخول في قتال مع البحرية البيزنطية، فقام بدراسة المنطقة على الطبيعة، ثم أوعز بتعبيد الأرض وفرشها بالألواح الخشبية ثم جرى دهن الألواح بالزيت والشحم وبعدها زلجت السفن في تلك الطريق وفوق الألواح المدهونة، وبتلك الطريقة استطاع إدخال سبعين سفينة في ليلة واحدة إلى داخل الخليج، بطريقة لم يُسبق إليها، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيدًا عن أنظار العدو ومراقبته، وتغطية لذلك العمل قامت المدفعية بإطلاق قذائفها طيلة الليل من هضاب خلف أسوار غلطة واندفعت السفن بسرعة إلى أعلى الميناء حيث تتوفر

الحماية البرية هناك. وفي صباح اليوم ٢٢ إبريل استيقظ أهل المدينة على صيحات العثمانيين وأصواتهم يرفعون التكبير والأناشيد التركية في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: «ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر».

ثم قام الجند بعد ذلك ببناء جسر عائم وتم إحكام القبضة على السفن النصرانية، وقام العدو بتنظيم أكثر من هجوم ليلي مباغت على السفن العثمانية في القرن الذهبي في محاولة مستميتة لإغراقها أو تحطيمها، ولكن الأسطول العثماني كان للمهاجمين بالمرصاد حيث فشلت تلك الخطط. ثم بدأ هجوم عثماني جديد وازدادت الحال سوءًا. ونقص الطعام في المدينة واقترح المقربون من الإمبراطور سفره خارج المدينة كي يستنجد بالدول النصرانية ولكنه رفض وبكى واكتفى بإرسال الرسل.

واستمر الهجوم البحري والبري المدفعي من خلف هضاب غلطة باتجاه القرن الذهبي، وجرى في الوقت نفسه نقل المدافع من تلك الهضاب إلى طوب قابي لتشديد الهجوم هناك حيث نقطة الضعف في السور. ثم قام الفاتح بمفاجأة جديدة إذ قام الجند بحفر الأنفاق تحت الأسوار، فكان لهذا العمل دور كبير في إدخال الذعر في قلوب المدافعين عن المدينة. ومن مفاجآته التاريخية بناء قلعة خشبية ضخمة متحركة جاوز ارتفاعها ارتفاع السور تشكلت من ثلاث طبقات كساها بالجلود السميكة المبللة بالماء التي وضعت في داخلها وأسفلها لتمنع عنها النيران عند الاقتحام.

ثم قام ببعض الابتكارات العبقرية فصمم مدافع ترمي إلى الأعلى ثم تسقط قذيفتها في قلب المدينة. وقد زاد الحصار وقوي واشتد حتى أُرهق مَن بداخل المدينة من البيزنطيين، وأخذ التشاؤم والإشاعات تسود المدينة وتفت في عضد المدافعين عنها، وكان من أشدها عليهم ما حدث في يوم ١٦ جمادى الأولى (٢٥ مايو)، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم)، وأخذوا يطوفون به في أنحاء المدينة المختلفة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تخلصهم مما هم فيه، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك نذير شؤم، وتأثر بما حدث عموم سكان المدينة وخصوصًا المدافعين عنها، كما حدث في اليوم التالي هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشاءم البطريرك، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتى أغمي عليه. وكانت المدفعية العثمانية تعمل عملها وتدك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، وعرف الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام، فبعث الفاتح برسالة للإمبراطور يدعوه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان، ولكنه رفض الطلب. ثم بعد انقضاء خمسين يومًا على تلك المناوشات بدأ الهجوم الفعلي العام.

وجه الفاتح جنوده إلى الخشوع وتطهير نفوسهم وتزكيتها والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يدي الله، لعله سبحانه أن ييسر لهم الفتح، ثم قام بزيارات تفقدية لأسوار المدينة والأسطول ومعسكرات الجند العثماني. وفي تلك الليلة تعالت أصوات التكبير وصيحات المسلمين مدوية بلا إله إلا الله محمد رسول الله، ورتلت الأناشيد الدينية وتلا الشيوخ آيات الجهاد. وعندما

عاد إلى خيمته دعا كبار رجال جيشه ثم خاطبهم قائلاً: «إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ومعجزةً من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير. فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدَعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون».

- فتح القسطنطينية:

في ليلة الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ (٢٩ مايو ١٤٥٣م) نزلت بعض الأمطار على المدينة وما حولها فاستبشر بها المسلمون خيرًا وذكرهم العلماء بمثيلتها يوم بدر. وعند الساعة الواحدة صباحًا من هذا اليوم بدأ الهجوم العام على المدينة وكان متزامنًا بريًا وبحريًا في وقت واحد وموزعًا في الكثير من المناطق، فعلت أصوات الجند المسلمين بالتكبير وهم منطلقون نحو الأسوار، وقد تركز الهجوم الرئيس في وادي ليكوس بقيادة السلطان الفاتح نفسه. وتسلق المسلمون السور لعدة مرات وأعادوا التسلق فرقة بعد أخرى لاستنفاذ قوة العدو، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، واندفع جند الأناضول كثيري المراس والتنظيم بعد إطلاق المدفعية وتحت ستار من الدخان و هاجموا السور فلم يتمكنوا من اقتحامه وكان يشن في الوقت نفسه هجوم بحري مما وزع قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد. ثم أصدر الفاتح أوامره للجنود بالتراجع لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه أصدر أمرًا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من المنطقة نفسها، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن أصيبوا بالإرهاق، ومع ظهور نور الصباح أضحى المهاجمون يتمكنون من تحديد مواقع العدو بدقة أكثر، وأخذوا في مضاعفة الجهد في الهجوم مما جعل

الإمبراطور قسطنطين يتولى شخصيًا مهمة الدفاع في تلك المنطقة يشاركه في ذلك القائد جستنيان، وكان المسلمون في أشد الحماس لإنجاح الهجوم، ومع ذلك فقد أمرهم الفاتح بالانسحاب لإتاحة الفرصة للمدافع التي أمطرت المدافعين بوابل من قذائفها، وأرهقتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية تقدم جيش الانكشارية الأكثر حركة وبسالة باتجاه السور يقودهم السلطان بنفسه وأفلحوا باقتحامه، حيث تمكن ثلاثون منهم من تسلق السور بشجاعة نادرة أثارت استغراب الأعداء، وتمكن بعضهم من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية، مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتوا في عضد الأعداء. وأصيب جستنيان قائد المدافعين عن المدينة ومضرب المثل بينهم بجراح بليغة دفعته للانسحاب من ساحة المعركة، وخارت معنويات الروم. وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي هرب في إحدى السفن، وفي الوقت نفسه ازداد عنف الهجوم، ثم بدأ دخول المسلمين من الباب الشمالي كالسيل العرمرم، وأيقن قسطنطين بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يُعرف وقاتل حتى هلك، وتمكنت الجيوش العثمانية من فتح أبواب المدينة ودخولها من مناطق مختلفة وتمكنوا من الاستيلاء عليها، وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم. وهكذا بعد حصار دام خمسين يومًا فُتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد بن مراد الثاني الذي لُقب بالفاتح، وكان عمره آنذاك الخامسة والعشرين عامًا. وقد دخل الفاتح على صهوة جواده وشاطر جنده نشوة الانتصار وفرحة الفوز بالغلبة على الأعداء، وكان قواده من حوله يهنئونه وهو يقول: «الحمد لله ليرحم الله الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر».

ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به قواده وجنوده وهم يرددون: ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ. وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل

والسلب والنهب، ثم ترجل عن فرسه وسجد على الأرض شكرًا وتواضعًا لله عزَّ وجلَّ، ثم توجه إلى كنيسة آيا صوفيا وسجد شكرًا لله مرة ثانية، وقد اجتمع بها كثير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، فخافوا من الفاتح عند اقترابه من أبوابها، فطلب من الراهب الذي فتح له الأبواب أن يهدئ الناس ويطمئنهم ويعودوا إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم. وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد لأن المدينة فتحت عنوة وليس صلحًا، والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية، وأمر أن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها لأول جمعة قادمة، فرفع العمال الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبرًا للخطيب. وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية، واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى، وفرض الجزية.

وقد كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا؛ ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الباب للإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكبر من ذي قبل، وهو ما حصل فيما بعد في الفتوحات الجديدة في أوروبا. ويعد فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصًا تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة. وقد عمل السلطان محمد الفاتح بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية، وأطلق عليها لقب (إسلام بول)[1] أي؛ مدينة الإسلام.

(١) تعرف اليوم باسم: إستامبول أو إسطنبول.

فتوحات أخرى:

بعد فتح القسطنطينية واصل السلطان محمد الفاتح ومَن بعده من السلاطين العثمانيين فتوحاتهم، فاستطاعوا بعون الله ونصره لهم في أقل من قرنين من الزمن أن يجعلوا الدولة العثمانية تبسط سيطرتها شرقًا وغربًا وجنوبًا، وتدق أبواب فيينا باسطة لواء الإسلام على معظم ما يُعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا، كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوبًا وحدود المغرب الأقصى غربًا، كما أنها مدت سيطرتها حتى بلاد فارس وجبال كردستان. وأصبحت أقوى دولة في العالم ولعبت دورًا بارزًا فيه.

كما انتقلت الخلافة إلى الدولة العثمانية بعد أن أصبحت أقوى الدول الإسلامية على يد السلطان العثماني سليم الأول، وقبل أن تصبح الخلافة في يد العثمانيين فقد خاضوا صراعًا مريرًا مع الأوروبيين في أوروبا نفسها وفي البحر الأبيض المتوسط، وقد تأكدت مواجهة العثمانيين لأوروبا النصرانية بعد أن أصبحت الخلافة بأيديهم وجاهدوهم في مختلف الميادين والأراضي الأوروبية في أثناء الفتوح العثمانية لها، أو في أراضي العالم الإسلامي بعد الهجمات الأوربية الشرسة على العالم الإسلامي في العصر الحديث.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع البيزنطيين النصارى:

وماذا بعد عن البيزنطيين النصارى...؟! فكم عانى المسلمون منهم ومن غزواتهم وغاراتهم عليهم وعلى بلادهم ومدنهم على مدى ثمانية قرون ونصف؟! وكم عانى المسلمون من مجازرهم ومذابحهم للمسلمين التي لم يرحموا فيها صغيرًا ولا كبيرًا، ولا رجلاً ولا امرأة...! وكانت عاصمتهم القسطنطينية هي البوابة التي يدخل منها كل حاقد بغيض يريد ارتكاب المجازر والمذابح في حق المسلمين وسلبهم أراضيهم

وديارهم...! فكم من حملة صليبية سمحوا لها بالمرور في بلادهم...! وكم من حملة صليبية انضموا إليها وشاركوا الصليبيين في الولوغ في دماء المسلمين...!.

كم من دعوة إلى الإسلام وجهها إليهم المسلمون منذ ظهور الإسلام وحتى زوال دولتهم من آسيا الصغرى والقسطنطينية...! لقد رفضوا كل الدعوات ابتداءً من دعوة محمد رسول الله ﷺ لهم عندما أرسل كتابه إلى هرقل فرفض الإسلام؛ فأزال الله دولته وأمته من الشام حتى لجأ إلى القسطنطينية، ومع ذلك لم يتعظوا ولم يعتبروا بما جرى له، وظنوا أن إزالة دولتهم وأمتهم من آسيا الصغرى والقسطنطينية أمر بعيد المنال على المسلمين، وفاتهم أن الإسلام دين لم يخترعه العرب ولا هو خاص بهم فقط، بل هو دين الله الخاتم العالمي، وإنما العرب فئة من الفئات التي اتبعته في البداية ثم اتبعته أجناس وأعراق أخرى غيرهم بعد انتشاره، وما دام الإسلام هو دين الله فإن الله - عزَّ وجلَّ - قد تكفل بحفظه ونشره في العالم أجمع، بل وتكفل بنصر أتباع دينه المسلمين المخلصين ضد أعدائهم وأعداء دينه. ومع كل ذلك لم يتعظوا، بل ولم يعتبروا بما جرى للأمم الأخرى ممن أزال الله دولهم وحكمهم عن البلاد التي كانوا يسيطرون عليها في الشام وفارس والهند والسند وآسيا الوسطى حتى الصين وشمال إفريقيا والأندلس وغيرها من البلاد!.

ولكن لماذا نجادلهم ونناقشهم وقد اشتهر عنهم وعن جنسهم البيزنطي المثل الذي يصف كل جدال عقيم ليس منه فائدة أو حل إنه: جدال بيزنطي؟! ثم إننا متيقنون بأنهم قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقًا؛ إنها جهنم لكل كفار جبار عنيد.

- وقفة مع السلطان محمد الفاتح:

نِعْمَ الأمير هو السلطان محمد الفاتح، ونعم الجيش جيشه... ! هكذا وصفهم رسول الله ﷺ، وهو الوصف الذي يغبطهم عليه خلفاء المسلمين وقوادهم العسكريون الذين كان كل واحد منهم يرجو أن يكون هو ذلك الأمير المذكور في حديث النبي

ﷺ. ولكن الله - عزَّ وجلَّ - قد قدَّر أن يكون محمد الفاتح وجيشه من الأتراك وليس من العرب؛ لأنهم حملوا لواء نشر الإسلام ونصروا الله، في وقت تخلى فيه العرب عن حمل هذا اللواء، فنصرهم الله وأيدهم وأورثهم أرض البيزنطيين خالصة لهم من دون الناس، وشرفهم بفتح القسطنطينية.

لقد استخلف الله العثمانيين المسلمين في مساحة كبيرة من أرضه، وأزال بهم أمة البيزنطيين ودولتهم، بل جعلهم سبحانه وتعالى خلفاء على العرب أنفسهم، الذين كان لأسلافهم شرف نشر الإسلام ووراثة الأرض والاستخلاف فيها، قبل أن ينتقل إلى العثمانيين الأتراك كل ذلك بما فيه منصب الخليفة...! فهنيئًا للسلطان الفاتح العظيم الذي أدخله الله - تبارك وتعالى - التاريخ من أوسع أبوابه وحقق به ما كان يتمناه المسلمون على الدوام من فتح القسطنطينية... وهنيئًا للعثمانيين المجاهدين الذين استعادوا كرامة المسلمين وعزتهم وأرغموا أنوف الصليبيين وأذلوهم. فجزاهم الله عن المسلمين كل خير.

وحسنًا فعل محمد الفاتح بالنصارى بعد انتصاره وفتحه للقسطنطينية، فبالرغم من أن فتحه لها كان عنوة وليس صلحًا واستسلامًا، فإنه نهى جيشه عن القتل أو النهب والسلب، وأكرم بطاركة النصارى وقساوستهم وأمنهم هم وأهل المدينة، مما جعل الكثير منهم يدخلون في الإسلام لما رأوه من تسامحه وتسامح الإسلام ورأفته بهم، وأين هذا مما كان سيفعلوه هم بهم إن تبادلوا الأماكن والأدوار؟! إذ لن يرضوا بأقل مما فعله أسلافهم الصليبيون بأهل القدس وغيرها من المدن التي ذبحوا فيها المسلمين ذبحًا رجالاً ونساء وأطفالاً حتى ذبحوا في القدس وحدها سبعين ألفًا من المسلمين! وسرقوا ونهبوا وصادروا كل شيء...!.

وهذا ما فعله بالعثمانيين فعلاً هؤلاء البيزنطيون عندما كانوا يغيرون على مدنهم ويكون النصر فيها لهم! بل هذا ما فعله بالبيزنطيين إخوانهم النصارى

الصليبيون الأوروبيون في الحملة الصليبية الرابعة التي يصفها المؤرخون الصليبيون أنفسهم بالخسة والدناءة؛ وذلك لأن المحاربين الصليبيين الذين استجابوا لدعوة البابا لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين، انحرفوا عن أهداف الحملة فلم يحاربوا المسلمين بل احتلوا القسطنطينية ونهبوا ما فيها واقتسموا المدينة فيما بينهم وبذلك انتهت هذه الحملة. فكان العثمانيون خير للبيزنطيين النصارى وأرحم بهم وأرأف من إخوانهم الصليبيين النصارى الأوروبيين، وما هذا إلا بفضل تعاليم الإسلام الحنيف، التي تصقل النفوس، وتهذب الأخلاق، وتدعو إلى السلام والوئام والأمان.

وكان لتصرف السلطان الفاتح أكبر الأثر في عودة المهاجرين النصارى الذين فروا من القسطنطينية. فحسب شريعة الحرب المتبعة في زمانهم، كان بمقدوره أن يفعل كما فعل غيره من الفاتحين الأجانب، كبيع الشعب المقهور في أسواق النخاسة، أو نفيه إلى مكان بعيد، لكنه انطلق من مفهوم الإسلام، مفهوم التسامح والرحمة، فأطلق سراح الأسرى، مقابل شيء زهيد، وأسكن من كانوا من نصيبه في المنازل الواقعة على ساحل الخليج، كما أمر ألاَّ تُغتصب امرأة أو يُمَس شيخ عجوز أو طفل أو راهب.[1]

وهذا ما شهده لمحمد الفاتح الأعداء المنصفون أنفسهم، فتعليقًا على إعطائه كنيسة وحارة بتمامها للمهندس المعماري (كريستبول) لتكون مُلكًا له، ولذريته من بعده، خلاف ما أبقاه للنصارى من الكنائس والصوامع؛ يقول (فولتير) بعد روايته هذه الحادثة: ليست هذه الحادثة، من الحوادث التي تستحق الذكر في التاريخ، أي أن مهندسًا كان يمتلك حارة بتمامها، بل القصد أن نبين أن الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن، ولا تجيز أمة من أمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلاً، بخلاف الأتراك، فإنهم يسمحون لليونان المقهورين، بأن تكون

(١) انظر: علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ٤٤.

لهم كنائس.. مما يثبت صراحة، أن السلطان محمد الفاتح، كان عاقلاً حليمًا، ترك للمسيحيين المقهورين الحرية في انتخاب بطريركهم، ولما انتُخِب، ثبته وسلَّمه عصا البطاركة، وألبسه الخاتم، حتى قال ذلك البطريرك: إنني خجل مما لقيته من التبجيل والاحتفاء الذي لم يفعله ملوك النصارى أصلاً مع أسلافي.[1]

(١) المصدر السابق ٤٤، نقلاً عن: إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية ٤٥.

نهاية أمم الوثنيين في جنوب شرق آسيا

نشر الإسلام في آسيا:

حقًا قال الله تعالى وحقًا يكون..! ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]. فما من دين إلا ويظهر عليه دين الله الحق الإسلام، سواء أكان ذلك بواسطة عباد الله المجاهدين الذين أمرهم الله بالجهاد في سبيله لإعلاء كلمته، ونشر دينه، ودعوة الناس لعبادته وتوحيده، أم بغيرهم من عباده الدعاة الذين يعينهم على نشر دينه ويوفقهم حتى يعم الإسلام الأرض، ويظهر دين الله على كل الأديان، وليبلغن الإسلام ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر، إما يعزهم ويهديهم إلى الإسلام، وإما يذلهم فيؤدوا الجزية. كما بشرنا بذلك خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ. فمن أسلم منهم فسيصيبه الخير والشرف والعز، ومن بقي منهم على كفره فسيصيبه الذل والصغار والجزية.

وقد أطاع عباد الله المسلمون المجاهدون أمر الله فجاهدوا في سبيل الله ونشروا دينه حتى وصلوا إلى الصين، وهي أبعد نقطة وصلت إليها جيوش الله الإسلامية. ولكن قد شاء الله تعالى أن يصل دينه إلى أبعد من ذلك، إلى جزر بعيدة في المحيطات، وكل الأرض مُلك لله سبحانه يورثها مَن يشاء من عباده، فإن لم تستطع الجيوش الإسلامية أن تصل إلى بلاد ما سخر الله قومًا غيرهم يقوموا بهذه المهمة العظيمة لنشر الإسلام، وهو ما حصل في الجزر الواقعة في جنوب شرق آسيا، وهي بلاد ماليزيا و إندونيسيا وبروناي والمالديف وجنوب الفيليبين وسنغافورة

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

وغيرها من البلاد التي صارت من أكبر البلاد الإسلامية، وصارت أممها كلها أو معظمها أممًا مسلمة ومن أكثر الشعوب المسلمة عددًا، وظهر دين الله الإسلام على ما كان فيها من أديان وثنية مختلفة؛ فانتهت بذلك الأمم الوثنية وتحولت إلى أممٍ مسلمة، وكل ذلك بفضل الله ومَنِّه وكرمه.

نهاية الوثنية في جنوب شرق آسيا:[1]

حيثما كان ظلم، أو كفر بالله، أو عقيدة ضالة عن الحق، أو عبادة للعباد أو غير ذلك مما يؤدي إلى جهنم وبئس المصير، فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه، لا لتملك الأرض وتذل الرقاب، بل لتدعو إلى الله وحده، وتعلي كلمته، وتنشر الإسلام الذي هو خاتم الأديان السماوية، أكمله عزَّ شأنه ولا يقبل غيره، ورضيه دينًا للناس جميعًا، لكل الأجناس ولكل الألوان، والناس كلهم سواء كأسنان المشط الواحد، وإن أكرمهم عند الله أتقاهم، وأتقاهم يكون مطيعًا لله، مطبقًا لأوامره، مجتنبًا لنواهيه.

إن الهدف الأول لدين الإسلام هو مصلحة البشرية العليا، ولتحقيق هذه المصلحة شرع الله تعالى لها وسائل ومنها: الجهاد والقتال عند الضرورة إذا رفض الكفار اختيار واحدة من اثنتين: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، وعندها لا يبقى للجيش الإسلامي من خيار سوى خيار الحرب لإعلاء كلمة الله، فإما النصر وإما الشهادة. وحين تتطلب الدعوة إلى الله جيشًا وجهادًا، يقوم المسلمون بذلك طاعة لأمر الله، وإعلاء لكلمته لا لمصلحة المجاهدين الفاتحين الشخصية، ولا لمصلحة دنيوية أو خاصة. فالقتال إذًا ليس هو الغاية، ولا يرغب المسلمون في قتل الناس وهم قد جاؤوا لإحيائهم بالإيمان وإنقاذهم من الموت وهو العيش في الكفر والضلال، وإنما القتال مجرد وسيلة لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كل

(١) راجع: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ٢٠/٢٩٣ وما بعدها.

غرض، وتحقيق مصلحة البشرية وإزالة ما يضرها في دنياها وآخرتها، ولا يُلجأ إلى هذه الوسيلة إلا عند استنفاد عدة خطوات قبلها، وهذا إنما يكون عند زحف الجيوش الإسلامية لفتح البلاد. أما إذا لم يكن هناك زحف للجيوش، ولا فتح للبلاد، فهناك وسيلة أخرى وهي الجهاد باللسان، والدعوة إلى الله، ونشر الإسلام؛ ومتى تحقق ذلك وقُبِلَ الإسلام بطل القتال ولا حاجة له على الإطلاق، وهذا العمل يقوم المسلمون به أيضًا، طاعة لأمر الله إياهم بدعوة الناس إليه.

إن أفضل مثال ونموذج لانتشار الإسلام بالدعوة اللسانية، والقدوة الحسنة؛ هو جنوب شرقي آسيا التي انتشر فيها الإسلام حتى عم، بلا جيش وبلا حرب، وإنما انتشر عن طريق التجارة، وما لمسه أهالي تلك البلاد من التجار المسلمين من حسن المعاملة، ومكارم الأخلاق، والسماحة، والعدل، والمحبة؛ حتى أعجبوا بهذه الصفات وفتحوا صدورهم للإسلام ليدخلها باختيارهم وبلا أي ضغوط من أي نوع. وقد كانت الوثنية البوذية والهندوسية والكونفوشيوسية والزرادشتية والطوطمية وعبادة الأرواح وغيرها من العقائد الضالة هي السائدة في هذه المنطقة وفي آسيا عمومًا.

فقد وصل الإسلام إلى ماليزيا وإندونيسيا وبروني والبلاد القريبة منها في القرن السابع الهجري، ويمكن أن يكون قبل هذا التاريخ منذ المرحلة الأولى التي شع فيها نور الإسلام في أرض العرب، ولكن لم يكن له ذلك الانتشار الكبير. فقد كانت السفن التجارية الإسلامية تمخر عباب البحر قادمة وذاهبة في طرق المحيط الهندي البحرية وتتحكم فيها، ويصل التجار المسلمون إلى سواحل تلك البلاد يحملون مع بضائعهم العقيدة الإسلامية التي تتلاءم والفطرة البشرية، فيرى أهل البلاد في سلوكهم ومعاملتهم وأخلاقهم صفات تختلف عما يتصف به بقية التجار من غير المسلمين؛ لأن كل تصرفاتهم كانت تنبع من العقيدة الإسلامية، وكثيرًا ما كان الدعاة المسلمون يتخذون التجارة وسيلةً للاتصال بالسكان والتعامل معهم ودعوتهم إلى الإسلام.

وكان أهالي البلاد يحترمون التجار المسلمين والدعاة، ويكرمونهم لأخلاقهم الرفيعة التي تنبع من عقيدتهم ولغربتهم من ناحية ثانية، ولشعور السكان أن هؤلاء المسلمين أعلى منهم مستوىً، كما كان للتجار المسلمين مكانة عند حكام الإمارات فيلتقون بهم، وغالبًا ما يؤثرون بهم لثقافتهم، وعلمهم، ولكونهم دعاةً يعرفون أسلوب الدعوة وطريق الحوار، فإذا ما أسلم أحد الحكام توسع انتشار الإسلام؛ لأن الشعب غالبًا ما يحرص على تقليد أمرائه. وكذلك تعتنق القبائل الإسلام مجرد اعتناق أحد زعمائها له.

تذكر عدة روايات أن ملك (مالاقا) في شبه جزيرة الملايو (ماليزيا) قد اعتنق الإسلام بتأثره بالتجار المسلمين، ثم تبعه شعبه في اعتناق الإسلام، وبذلك قامت أول دولة إسلامية تعمل على نشر الإسلام فيما جاورها من البلدان، وفي غضون نصف قرن أصبحت مدينة (مالاقا) مركزًا يشع الإسلام على المناطق المجاورة، فأسلمت (باهانغ)، وجنوبي الملايو. تعاقب على حكم (مالاقا) سبعة حكام كان من أبرزهم (منصور باشا) الذي دام حكمه تسعة عشر عامًا (٨٦٣-٨٨٢هـ)، وقد انطلقت جيوشه في شبه جزيرة الملايو كاملةً، وحتى حدود بورما، وإلى أواسط سومطرة، وقد حمى العلماء، واعتنق في أيامه الإسلام معظم الشعب الملايوي، واستعملت الحروف العربية في الكتابة، و أصبح الإسلام قانون بلاده. وقد قامت عدة إمارات في شبه جزيرة الملايو في هذه المرحلة ومنها: قدح، بيرق، باهانغ، جوهور.

ووصل تأثير الإسلام إلى جزيرة (بورنيو) حيث ساد دولة (بروني) القوية نتيجة العلاقة التجارية مع الصين من جهة ومع العالم الإسلامي في ناحية الغرب من جهة ثانية. وعندما وصل الإسبان إلى شمالي جزيرة (بورنيو) عام ٩٢٧هـ وجدوا حاكم (بروني) مسلمًا. وكان مسلمو (بورنيو) يمدون يد المساعدة للمسلمين في القسم الجنوبي من الفيليبين بعد أن توقف التوسع الإسلامي في الجزر الشمالية نتيجة احتلال الإسبان لمدينة (مانيلا) عاصمة البلاد.

والخلاصة أن التجارة قد لعبت الدور الرئيس في انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا، ولم تكن التجارة هي الهدف الأساسي بل كانت الدعوة تسير إلى جانب التجارة، وإن كان بعض التجار همهم الأول الربح، والدعوة ثانوية عندهم، أو يقتصرون في عملهم على ما يحققون من أرباح، فإنه كان هناك أيضًا دعاة تفرغوا للعمل في سبيل الله والدعوة إليه وإلى دينه.

كما أن السكان قد تأثروا بوضوح العقيدة الإسلامية ويسرها، وبما فيها من المساواة بين الناس، وهذا على خلاف ما يعرفونه من فروق قائمة بين الناس في الديانات السائدة عندهم، وكان الشعب يعاني الكثير من ذلك، ويريد الخلاص مما هو فيه، ووجد الإسلام منقذًا له. وقد يكون التأثر بسبب تفوق المسلمين بالحضارة، ومن المعروف تأثر الناس بالذين يعتقدون أنهم أعلى مستوىً منهم، كما أن إقبال المسلمين على المؤاخاة بين أهل البلاد، وبعدهم عن الغايات والأطماع التي يعرفونها من الغرباء غيرهم، كل ذلك قد أوجد عند شعوب جنوب شرق آسيا تقبلاً للانتساب إلى الإسلام وفخرًا، وخاصةً أنهم وجدوا في الدعاة مثلاً أعلى وأنموذجًا رائعًا في الإنسان الكامل من حيث الأخلاق والتواضع والبعد عن الجشع رغم عملهم المادي الذي يمارسونه.

بل إن شعوب هذه البلاد قد وجدوا من الأمراء الذين اعتنقوا الإسلام تغيرًا واضحًا في السلوك والأخلاق، ولم يتخذوا سيفًا، ولم يرفعوا سوطًا لتحويل أتباعهم إلى عقيدتهم كما يفعل الأمراء غير المسلمين، أو كما فعل هؤلاء أنفسهم قبل أن يسلموا. وبعد مجيء الاستعمار وقدوم الإرساليات التنصيرية ازداد إقبال الناس نحو الإسلام مخالفة للإرساليات التنصيرية وضدها لما يرون من أعمال تلك الإرساليات غير الإنسانية، فقد حدث أن تنصرت قريتان، ثم تركتا النصرانية واعتنق سكانهما جميعًا الإسلام لما شاهدوا وعرفوا من حقيقة تلك الإرساليات النصرانية.

ولم يدَّع المسلمون القادمون أنهم من جنس أسمى، أو عرق أفضل، أو شعب أرقى، أو أنهم أكثر مدنية، أو أعلى مكانة، كما يدعي المستعمرون الصليبيون، فهذا أمر يعرفه الآخرون، ويقرون به، لا يدعيه صاحب العلاقة نفسه.

وقد كان انتشار الإسلام في كل مناطق الشرق الأقصى سلميًا على عكس الطريقة التي سار عليها المستعمرون الصليبيون، ولم يفكر المسلمون الذين حكموا تلك الأرجاء أن يربطوها بمركز معين خارج المنطقة، وهذا عكس ما فعله الأوروبيون الذين ربطوا المناطق التي سيطروا عليها ببلادهم الأصلية مباشرة، وهذا ما أبعد عن المسلمين فكرة السيطرة وحب التسلط فأقبل السكان نحوهم، على حين ابتعدوا عن الأوروبيين. ومما ساعد على انتشار الإسلام بشكل كبير رد الفعل لقدوم المستعمرين الصليبيين، ومعاملتهم السكان معاملة سيئة، فانحاز الشعب إلى جانب المسلمين الذين وقفوا معهم موقفًا واحدًا ضد أولئك المستعمرين الصليبيين الأوروبيين، واشتبكوا معهم في حرب طاحنة في معظم جهات العالم من الأندلس حتى الشرق الأقصى. إن سكان جنوب شرق آسيا بالرغم من فقرهم، وعدم معرفتهم، وقلة وعيهم، فإنهم يتعاطفون مع كل شيء يحمل اسم الإسلام، وينفرون من كل ما يحمل اسم النصرانية. وينظرون إلى المستعمرين الصليبيين أنهم مغتصبون بالقوة التي يملكونها، ويعدونهم أعداء، ويستعلون عليهم ما داموا أبناء البلاد، وأنهم على الدين الحق، وعلى أن النصرانية تقوم على عبادة مخلوق، هو المسيح عليه السلام، وإن كان عبدًا من عباد الله الصالحين، وأحد أنبياء الله ورسله، فهم لا يختلفون عن الديانات التي يرون أهلها بجوارهم مثل: عبدة الأرواح، والبوذيين، والكونفوشيوسيين، والشنتويين، والهندوس؛ فكلهم يقدسون مخلوقات، وإن تباينت هذه المخلوقات بتكريمها من خالقها.

كل هذا إضافة إلى حاجة الإنسان إلى التدين التي جعلت السكان يفكرون تمامًا في قضية العقيدة، ولما كانت الديانات الموجودة آنذاك لا تحقق شيئًا من رغبات الإنسان الفطرية، لذا فقد أقبل السكان على الإسلام بشكل واسع لا نظير له، إذ

اعتنق الإسلام في إندونيسيا - على سبيل المثال - عشرات الملايين في مدة لا تتجاوز القرن من الزمن، ويبلغ عدد المسلمين في هذا البلد حاليًا أكثر من مئة وسبعين مليون مسلم، ويمثلون حوالي ٩١٪ من مجموع السكان في إندونيسيا. وهكذا كانت نهاية أمم الوثنيين في جنوب شرق آسيا، حيث أصبح المسلمون يمثلون فيها الأكثرية الساحقة من السكان، ولم يتبق من تلك الأمم الوثنية سوى شراذم قليلة هنا وهناك في تلك البلاد.

وقفة مع القصة والمستفاد منها:

إن على المسلمين، سواء كانوا تجارًا أو في أي مهنة أو تخصص أو حرفة أو وظيفة... أن يدعوا إلى الله، وأن يدعوا إلى الإسلام...! فالمسلم يحب الخير للناس جميعًا، ويحب لهم ما يحب لنفسه من الهداية إلى الإسلام، ليكون له الأجر بهدايتهم، ويكون لهم الأجر بعد الدخول في الإسلام، وأكبر شيء يمكن أن يقدمه لهم هو دعوتهم إلى الإسلام. وليعتبر المسلمون بهؤلاء التجار والدعاة القلائل الذين دعوا إلى الله وإلى الإسلام في بلاد جنوب شرق آسيا، وكانوا القدوة الصالحة في السلوك والأخلاق والمعاملة مع سكان تلك البلاد، وربما لم يخطر في بال هؤلاء التجار والدعاة أن تصبح تلك البلاد أكثر البلاد عددًا في المسلمين، حتى إن بلدًا واحدًا هو إندونيسيا يعادل عدد سكانه عدد سكان الدول العربية مجتمعة تقريبًا، وكل ذلك إنما جعله الله تعالى من ثمار دعوة هؤلاء التجار والدعاة...!.

فلا يستهن أحد بنفسه وليقم بواجبه في الدعوة إلى الله، مهما كان عمله، وأينما كان، وليخلص النية في ذلك، وليحتسب الأجر على الله، وليتوكل على الله تعالى فهو وحده القادر على أن يثمر من دعوة الفرد ما لا يخطر على البال كما حدث مع هؤلاء التجار والدعاة في جنوب شرق آسيا، خاصة أنه لا يوجد في الإسلام (رجال دين) وظيفتهم الدعوة كما هو عند غير المسلمين، بل كل مسلم هو داعية إلى الله.

الباب
الخامس

نهاية أمم الصليبيين في بلاد المسلمين

الصليبيون مرة أخرى:

مرة أخرى يثبت الصليبيون أنهم قوم لا يتعظون ولا يعتبرون، وأنهم في إبادة المسلمين طامعون، فهيهات هيهات لما يوعدون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فقد أثبتوا ذلك من قبل حين عادوا إلى بلاد الشام بعد خمسة قرون من طردهم منها وإفهامهم بأن رسول الله ﷺ قد قال: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده**»[1]، وهو ما يعني أن الله قد قضى ألاَّ يكون لهم دولة في الشام حتى ولو عادوا ومكثوا فيها مهما مكثوا. عادوا تحت مسمى الحملات الصليبية، فطُردوا منها مرة أخرى بعد أن ظنوا أنهم ماكثون فيها إلى الأبد، وتحقق قول رسول الله ﷺ مرة أخرى، ولو بعد مكوثهم في الشام قرنين من الزمان...!.

ثم ها هم الآن قد زين الشيطان لهم العودة مرة ثانية، ولكن هذه المرة إلى بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية المترامية الأطراف من الأندلس وحتى جنوب شرق آسيا، ولم يعتبروا بظهور الإسلام على الكفر، وبنصر الله لأوليائه المسلمين على أعدائه الكافرين، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين...!.

فقد عاد الصليبيون الأوروبيون إلى الشام بعد ستة قرون من طردهم منها، كما أنهم اجتاحوا بلاداً إسلامية أخرى قبل هذه المدة...! عادوا وتداعوا على الأمة الإسلامية من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها...! عادوا وتداعوا هذه المرة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ.

بعد أن غيروا عنوان تداعيهم من الحملات الصليبية إلى الاستعمار، الذي لم يكن إلا حربًا صليبية أخرى ضد المسلمين، مهما تغيرت الأسماء ومهما تجددت وتنوعت الوسائل، فهي حرب صليبية بكل ما في الكلمة من معنى، قامت بها أوروبا تلاحق المسلمين في كل مكان في الأرض وفي أعالي البحار لتحيط بهم، وتحاول القضاء عليهم، بعد أن طردتهم من الأندلس، البلد الأول الذي ضاع من أيدي المسلمين من بين البلاد التي فتحها المسلمون الأوائل.

لقد شهد العالم الإسلامي العربي وغير العربي موجات متعددة من هذه الحملات المسماة: (استعمار)، موجات من جنسيات مختلفة تأتي واحدة وتذهب أخرى. وقد سلَّط الله بعضهم على بعض فصار كل جنس من أبناء أوروبا يقاتل الجنس الآخر ليحل محله في افتراس البلاد الإسلامية التي أصبحت فريسة سهلة هي ومَن فيها من المسلمين...! فاستعمار صليبي برتغالي، يزيله استعمار صليبي إسباني، فيزيله استعمار صليبي هولندي، فيزيله استعمار صليبي بريطاني، وهكذا دواليك، وكلهم صليبيون، فهل من أجل المسيحية الصليبية يتقاتلون؟!.

أما الشام وبقية البلاد العربية[1] والإفريقية فكانت من نصيب الاستعمار البريطاني والفرنسي، وذلك بعد أن شاخت الدولة العثمانية، فعملت هاتان الدولتان على تفتيتها وتقسيمها فيما بينهما، وألغيت الخلافة الإسلامية منها في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م). حتى إيطاليا قد سال لعابها وأرادت أن يكون لها حصة في هذه الفريسة وحصلت على ما تريد في ليبيا ودول أخرى في إفريقيا.

فهكذا هان أمر المسلمين حتى أصبحوا لقمة سائغة لكل جائع، ولعبة لكل مَن أراد اللعب والتسلية...! ولم يعد للمسلمين من ناصر ينصرهم إلا الله عزَّ وجلَّ... لأن مجيء الصليبيين هذه المرة كان مختلفًا جدًا عن المرات السابقة، إذ استفادوا

(١) إلا بلاد الحجاز ونجد.

كثيرًا من التجارب السابقة مع المسلمين وبلادهم في أثناء الحملات الصليبية الأولى، وأخذوا وقتًا طويلاً في التخطيط لاستمرار تسلطهم على المسلمين وبلادهم إلى آخر الزمان أو أطول مدة ممكنة...! واتبعوا سياسة أحكم في بلوغ مآربهم، واتخذوا طرقًا ماكرة في القضاء على الإسلام وأتباعه دون ضجة كبيرة، ولكن هيهات...! فالمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]، فمدة احتلالهم لم تدم أكثر من ربع مدة احتلال أسلافهم الصليبيين. كما أن من رحمة الله بأمة نبيه محمد ﷺ أن جعل العاقبة والفلاح والنصر لهم في نهاية كل محنة وفتنة وبلاء يمرون به، وما كان البلاء الواقع عليهم إلا ليعودوا إلى الله ويرجعوا إلى دينه، كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]. فالبلاء على المسلمين يكون لتصحيح مسارهم وإعادتهم إلى جادة الصواب والصراط المستقيم المؤدي إلى الله، بعد انحرافهم عنه وابتعادهم عن الله وعن دينه. وهذا ما لمسه المسلمون ورأوه بأم أعينهم من عودة المسلمين إلى الله وإلى دينه وابتعادهم عن الشرك والبدع والضلال، وذلك بعد نهاية هذا الاستعمار الصليبي لبلادهم الإسلامية.

حالة العالم الإسلامي سبب للبلاء:

لقد كان العالم الإسلامي في القرون الثلاثة التي تسبق القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) يعيش في أوضاع لطالما حذَّر الله ورسوله منها! وما أكثر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تنهى المسلمين عن الوقوع في مثل هذه الأوضاع، وتحرم عليهم ما انتشر فيما بينهم...! كان العالم الإسلامي على حافة الانهيار ويكابد انحطاطًا وضياعًا وظلمًا وفوضى على المستويات كافة وفي جميع المجالات العقيدية والفكرية والسياسية والاجتماعية.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.

لقد انتشر الشرك والبدع والعادات السيئة والتقاليد المحرمة، ابتعدوا عن التوحيد ورفعوا لواء الوثنية واستغاثوا بغير الله تعالى، وانتشرت الأضرحة والقبور، وشدت الرحال إلى كثير منها، وأصبح الدعاء عندها من الأمور المألوفة، يستغيثون بها ويسألونها قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، حتى أصبحوا يعتقدون النفع في الأموات والأحجار والجمادات، ويتبركون بالأشجار، ويرجون منها القبول في جميع الأوقات! فوكلهم الله إلى هذه الأشياء فلم تنفعهم بشيء؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، وإنما النفع بيد الله وحده. ولم يقتصر هذا الشرك وهذه البدع والضلالات على بلد دون بلد، بل انتشر وعم في كثير من بلاد المسلمين، ولم تسلم من ذلك بلاد الحرمين الشريفين، وأصبح المسلمون غير المسلمين إلا مَن رحم الله، وصعبت أحوالهم وأوضاعهم وما هم فيه من الجهل والخرافات والبعد عن الدين الصحيح حتى على الكفار المنصفين.

لقد وقع المسلمون أيضًا فيما نهاهم الله تعالى عنه، وحذرهم رسول الله ﷺ من الوقوع فيه، إذ قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[1]، أي: لا تتنازعوا فيما بينكم فتختلفوا، فيكون سببًا لتخاذلكم وفشلكم، وتذهب قوتكم ووحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال على الجهاد. وهذا عين ما فعلوه، إذ انتشر النزاع فيما بينهم، وأدى ذلك إلى انقسام المسلمين وظهور دويلات في العالم الإسلامي على حساب الخلافة؛ فتشتتت قوتهم، وضعفت شوكتهم، وطمع الأعداء بهم. وقال رسول الله ﷺ: «**فأبشروا وأملّوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم**»[2]. وفي رواية أخرى: «**وتهلككم كما أهلكتهم**»[3]. فقد كان

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: ما يُحذَر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا.

الرسول ﷺ يخشى على أمته أن تتنافس على الدنيا فتلهيهم عن الجهاد ونشر الإسلام، بل وعن العبادات والفرائض! وهذا ما وقع من المسلمين خاصة الملوك والأمراء والحكام في بعض أوقات السيادة الإسلامية على العالم.

وبالرغم من أن الرسول ﷺ حذرهم من التلهي بالدنيا عن الآخرة وترك فريضة الجهاد، فقال ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1]؛ ولأن هذا ما فعلوه فلا بد أن يحصل لهم ما أخبرهم به الرسول ﷺ، وأن يصبحوا كما وصفهم ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: ومن قِلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: «**حبُّ الدنيا وكراهية الموت**»[2]، أي: يوشك أن تدعو أمم الكفر بعضها بعضًا لمقاتلتكم واحتلال بلادكم وسلب خيراتها وثرواتها، وسلب أموالكم وديياركم، كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضًا إلى قصعتهم. وأكد النبي ﷺ أنهم يومئذ كثير، وشبههم بالزبد والوسخ الذي يحمله السيل لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم. وأن الله ليخرجن من صدور أعدائهم الخوف منهم، وليرمين في قلوبهم الضعف وهو حبهم للدنيا وكراهيتهم الموت.

لقد أوصى رسول الله ﷺ صحابته والمسلمين بأن يعرضوا ثلاثة خيارات على غير المسلمين في البلاد التي يريدون فتحها، وهي: الدعوة إلى الله والدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال. وأوصاهم ﷺ بأن يعرضوها واحدة بعد أخرى بالتدرج، كلما رفض الكفار واحدة منها عرضوا عليهم التي تليها. وسار المسلمون

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٢٩٥٦.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦١٠.

الأوائل على هذا النهج النبوي، ولكن لما دخل الضعف على المسلمين بحبهم للدنيا وكراهيتهم للموت؛ أسقطوا الخيار الأخير وهو القتال؛ فطمع بهم الأعداء وسقط من جراء ذلك الخياران الأولان، بل الأدهى من ذلك أن فُرِض على المسلمين أنفسهم الجزية والمذابح الجماعية الرهيبة من قبل أعدائهم! وهذه نتيجة طبيعية لمن يسقط خيار الجهاد والقتال ويكتفي بخيار السلام والاستسلام كخيار وحيد رئيس! فبعد أن كان زمام المبادرة بأيدي المسلمين عندما كانوا يطرقون أبواب البلدان البعيدة ويفتحونها، صاروا ينتظرون وهم في بلادهم وصول جيوش الأعداء لذبحهم وإبادتهم، أو في أحسن الأحوال ليفدوا أنفسهم بما لديهم من أموال، وليسلموا ما في بلدانهم من ثروات...!.

إن قومًا هذا شأنهم ليستحقون التأديب من الله تعالى وهو خالقهم الذي جحدوه وتركوا عبادته وتوحيده، ويستحقون البلاء الذي يُقَوم اعوجاجهم ويرجعهم إلى الصراط المستقيم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[1]. نعم! ظهر هذا الفساد في البر، وفي البلاد الإسلامية التي في البحر، ومَن عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، فلا بد من أن يذيقهم الله بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون إليه وإلى دينه الصحيح، وبما أن الفساد قد أصاب سائر الجسد الإسلامي فلا بد من التأديب الشامل؛ لأن التأديب الموضعي لا يفيد في هذه الحالة؛ فكان التداعي من الأمم الكافرة على معظم بلاد المسلمين من الأندلس إلى الفيليبين! ابتلى الله بهم المسلمين، ابتلاهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه لهم ومجازاة على صنيعهم لعلهم يرجعون عن المعاصي، فهكذا كان عاقبة الذين من قبلهم، كان أكثرهم مشركين، فلينظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

لقد كانت النصارى أول من طمع بالمسلمين فبدؤوا حملاتهم الصليبية (الاستعمار) على بلاد المسلمين! ثم ظهر اليهود علنًا على مسرح الأحداث لقطف ثمار ما خططوا له لزمن طويل؛ فاغتصبوا مدنًا وأراضٍ في فلسطين وأقاموا عليها دولة (إسرائيل). وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم...**»؛ إذ إن الملاحظ في هذه الأمم جميعًا أن حملاتها وعدوانها كان هدفه الأخير هو بلاد المسلمين.

الاستعمار الأوروبي الصليبي:[1]

- تنافس المستعمرين الصليبيين:

إن الاستعمار هو قيام دولة أجنبية بفرض سيطرتها على بلد آخر من أجل مصالح سياسية أو اقتصادية أو استراتيجية أو دينية، وسبيل الاستعمار عماده العدوان عسكريًا أو سياسيًا أو غزوًا فكريًا؛ ولذلك فهو حركة ممقوتة من الناحية الأخلاقية. والاستعمار ليس عمارًا ولا بناءً، بل إنه من أخطر ما عرفته البشرية من ضروب الاسترقاق والتخريب وهدم بناء الإنسان وجعله عبدًا لشهواته وشهوات من استرقوه ممن يسمون أنفسهم: الاستعمار. عدا ما يقوم به الاستعمار من الاستيلاء على خيرات البلاد التي يحتلها وامتصاص أموال شعوبها.

وقد كانت البلاد الإسلامية هدفًا للاستعمار الأوروبي الصليبي، بل إن العمليات الأولى لهذا الاستعمار شملت بلدان المغرب العربي الإسلامي، حيث قام رواد الاستعمار الصليبي الحديث وهم الإسبان والبرتغاليون بالاستيلاء على عدد من مدنه وموانيه في القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر بعدما طردوا المسلمين من الأندلس وطاردوهم في بلاد المغرب العربي.

انطلق المستعمرون الصليبيون البرتغاليون يحتلون ما استطاعوا من البلاد الإسلامية العربية وغير العربية، ووصلوا إلى جنوب شرق آسيا، ثم ما لبث أن انطلق

(١) انظر: مادة التاريخ للمرحلة الثانوية في المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

خلفهم الإسبان ليحلوا محلهم في المستعمرات التي احتلوها، فلم يلبثوا قليلاً حتى انطلق خلفهم الهولنديون وحلوا محلهم في بلاد المسلمين التي احتلوها، ثم ظهرت المنافسة بين هولندا وإنكلترا فاحتلت بريطانيا ما سبق أن احتلته هولندا، ثم ظهرت اليابان على الساحة واحتلت ما كانت تحتله بريطانيا من بلاد المسلمين في جنوب شرق آسيا. وكان كل هذا التنافس بين المستعمرين على امتلاك بلاد المسلمين فيما قبل القرن العشرين الميلادي، وما استهل القرن العشرين حتى كانت معظم بلاد المسلمين العربية وغير العربية محتلة من جنسيات مختلفة من المستعمرين الصليبيين!.

لقد كانت جنسيات المستعمرين متنوعة ومختلفة، وكذلك اختلفت سياسة كل بلد منهم عن البلد الآخر وتضاربت مصالحهم، إلا أنهم كانوا جميعًا متفقين على مسألة واحدة لا يمكن أن تشكل خلافًا فيما بينهم في يوم من الأيام إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، ألا وهي عدواتهم للإسلام وأهله، فتجد تطابقًا عجيبًا في سياسة كل المستعمرين تجاه المسلمين الذين يحتلون بلادهم حتى بدا أن لجميع المستعمرين سياسة واحدة ثابتة لا تتغير، وهي متبعة في كل البلاد المستعمَرة، ولم يكن هناك مستعمر منهم أرحم من الآخر مع المسلمين، بل كان هناك تنافس على سفك دماء المسلمين؛ فالاستعمار هو الاستعمار، وعدوه الأول هو الإسلام.

- هدف الاستعمار الصليبي:

كان هدف المستعمرين الصليبيين من السيطرة على العالم الإسلامي هو إذلال المسلمين وكسر شوكتهم وإفقارهم بنهب خيراتهم وآثار حضاراتهم ومخطوطاتهم ونفائس كتبهم بما تزخر به متاحف الغرب وجامعاته في الوقت الحاضر! وكان من سياسة المستعمرين دائمًا وفي كل بلد: تقريب غير المسلمين ورفع مستواهم المعيشي والاجتماعي، وتنصيبهم في المراكز المهمة والحساسة ليقودوا البلد في وجودهم أو بعد رحيلهم في المستقبل، وإن لم يجدوا بغيتهم في غير المسلمين اختاروا أشخاصًا

محسوبين على المسلمين في سجلات الهوية وليسوا منهم في حقيقة الأمر بل هم أقرب إلى المستعمرين في أفكارهم وتوجهاتهم! وفي الوقت نفسه إبعاد المسلمين والعمل على نشر الجهل والفقر والتخلف بينهم، والأهم من ذلك إفسادهم وإبعادهم عن دينهم ومحاولة تنصيرهم عن طريق الإرساليات التنصيرية التي كانت ترافق المستعمرين في غزواتهم الاستعمارية.

- أساليب الاستعمار الصليبي في تفتيت الخلافة العثمانية:

لقد تآمر المستعمرون الصليبيون على الخلافة العثمانية التي كانت حامية حمى المسلمين في أرجاء الأرض، فبذروا بذور الأفكار القومية بين رعايا هذه الدولة الإسلامية، وشجعوا الحركات الانفصالية وبخاصة في شعوب البلقان النصرانية وأمدوها بالمال والسلاح، وساندوا الدعوات الهدامة المناهضة للإسلام كالطورانية (القومية التركية)، والسلافية (توحيد صفوف نصارى البلقان ضد المسلمين)، والعلمانية (فصل الدين عن الدولة وإبطال التشريع الإسلامي في الحكم والاقتصاد والأسرة والتعليم). وشجعوا الصهاينة اليهود أعداء الإسلام وأنصار الصليبيين على الانضمام للحركات السرية المناوئة للخلافة العثمانية، وهكذا تغلغل عدد كبير من يهود سالونيك وغيرها في جمعية الاتحاد والترقي التي أطاحت سنة ١٣٢٧هـ بحكم السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يدعو لوحدة المسلمين في العالم والذي كان قد رفض عطاءً كبيرًا لليهود ببيع فلسطين لهم. بل إن هذه الجمعية غير الدينية هي التي خططت لإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا.

ومن أساليب التآمر الاستعماري ضد المسلمين في القرن الرابع عشر الهجري أيضًا ما قامت به بريطانيا في عام ١٣٣٥هـ، من إذكاء نار الثورة العربية في الحجاز ضد الدولة العثمانية. غير أن الحلفاء عقدوا خلال الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ) اتفاقيات سرية فيما بينهم ضد كل من الأتراك والعرب؛ لأن الجميع مسلمون. وهكذا اتفقت بريطانيا وفرنسا سرًا وعقدتا اتفاقية (سايكس - بيكو

١٣٣٥هـ) لاقتسام أملاك الدولة العثمانية في العراق وبلاد الشام بعد خروج الحلفاء منتصرين من الحرب. ثم تلا ذلك وعد (بلفور) المشؤوم (١٣٣٦هـ) حيث اقتطع الاستعمار البريطاني فلسطين العربية الإسلامية - مدار الحروب الصليبية لمدة قرنين من الزمن في العصور الوسطى - ليهبها هدية سائغة لحليفته الصهيونية الحاقدة لتؤسس عليها وطنًا ليهود العالم.[1]

- الاستعمار والعالم الإسلامي:

كان الاستعمار الأوروبي قد انتهز ما بلغته الدولة العثمانية من ضعف شديد في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري، فسلك سبيل السطو المباشر على الولايات التي تقطع صلاتها بالعثمانيين وتشق طريقها منفردة. وهكذا استولت فرنسا على الجزائر عام ١٢٤٦هـ، وعلى تونس عام ١٢٩٩هـ، وعلى مراكش عام ١٣٣٠هـ، واستولت إنجلترا على عدن عام ١٢٥٥هـ، وعلى مصر عام ١٢٩٩هـ، وعلى السودان عام ١٣١٦هـ، وعلى قبرص عام ١٢٩٦هـ، واحتلت روسيا القيصرية إمارات القرم والتركستان الإسلامية، بالإضافة إلى إمارات الدانوب وقارص وباطوم وأردهان وبساربيا وغيرها، حتى انحسرت الدولة العثمانية إلى جنوبي البحر الأسود بعد أن كان بحيرة عثمانية داخلية. أما إيطاليا فقد استولت على ليبيا عام ١٣٣٠هـ.

أما العراق والشام فقد استولى عليهما الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى. وعلى أثر انهزام الدولة العثمانية في تلك الحرب، نفذ الإنجليز والفرنسيون اتفاقية سايكس-بيكو حيث فُرِض نظام الانتداب الاستعماري على بلدان الهلال الخصيب، فسيطرت إنجلترا على العراق والأردن وفلسطين في حين سيطر الفرنسيون على سورية ولبنان.

---

(١) كانت بريطانيا تعاني من هجرة اليهود المتزايدة إليها، فأعلن وزير خارجيتها آرثر بلفور قانونًا جديدًا باسم (قانون الأجانب) في العام ١٩٠٥ من أجل الحد من هذه الهجرة، ثم كان وعد بلفور الشهير لحل هذه المشكلة وللأرقام الكبيرة لأعداد اليهود في بريطانيا.

وأما بلدان الخليج فقد شُدَّت إلى عجلة الاستعمار البريطاني في القرن الثالث عشر الهجري. وكان أول ما احتله الإنجليز في هذه المنطقة جزيرة بريم عند مدخل مضيق باب المندب في عام ١٢١٤هـ، ثم وسعوا من دائرة نفوذهم الاستعماري فأرغموا أمراء الخليج العربي والجنوب على عقد معاهدات تربط إماراتهم بالتاج البريطاني. وهكذا ما إن أهل القرن الرابع عشر الهجري حتى كانت بريطانيا قد فرضت حمايتها على عدن (١٢٥٥هـ) ومسقط والبحرين (١٢٨٠هـ) والكويت (١٣١٧هـ). هذا وقد رُبِطت بقية الإمارات العربية بمعاهدات مع بريطانيا. ولم تخضع للنفوذ الاستعماري الغربي الأراضي السعودية واليمن إذ كانت ترابط فيهما القوات العثمانية.

أما البلاد الإسلامية غير العربية فقد تناوب البرتغاليون والإسبان والهولنديون والإنكليز وغيرهم على الاستيلاء عليها؛ فاستولوا على الهند وكانت الباكستان وبنغلاديش وجزر المالديف ضمن جغرافية الهند، واستولوا كذلك على ماليزيا وإندونيسيا وبروناي وجزر الفيليبين الإسلامية وغيرها من البلاد والمدن في جنوب شرق آسيا.

وهكذا كانت البلاد الإسلامية كأنها قطعة جبن يتقاسمها المستعمرون فيما بينهم، ويرسمون الخطوط بين هذه الحصص المقتسمة، ثم إذا خرج المستعمرون من البلاد؛ عملوا على أن تصبح هذه الخطوط المرسومة حدودًا مقدسة لكل بلد، والويل لمن يتخطاها؛ وهو الحرب بين الأشقاء المسلمين دفاعًا عما رسمه المستعمرون من خطوط!.

- آثار الاستعمار في البلاد الإسلامية:

يمكن إجمال المساوئ أو الأضرار التي ألحقها هذا الاستعمار بأوطان المسلمين بما يأتي:

١- تمزيق الوحدة الإسلامية ونشر التفرقة بين أبناء البلاد الواحدة مثل: إثارة النعرات الدينية والمذهبية بين الطوائف المختلفة.

٢- نشر العادات الاجتماعية الضارة والمحرمة شرعًا كالمخدرات والمسكرات وألعاب الميسر والقمار وضروب التسلية الخبيثة الأخرى.

٣- تشجيع الآداب والفنون الخليعة المبتذلة لإماتة ضمائر المسلمين وغزوهم فكريًا وتهديم أخلاقهم.

٤- توجيه وسائل الإعلام كالصحافة والتلفزة والإذاعة والسينما وجهة غير إسلامية بدس المفاهيم المنحرفة ومهاجمة قادة الإسلام تحت قناع التمدن والموضوعية العلمية.

٥- تفريغ التعليم من محتواه الإسلامي وتوجيهه وجهة علمانية ليباعدوا بين المسلمين وأمور دينهم.

٦- استنزاف ثروات البلاد (المعدنية والزراعية والحيوانية) حيث تباع للشركات الاستعمارية بأثمان بخسة.

٧- العمل على إبقاء المسلمين في حالة من الجهل بأحوال مجتمعاتهم الإسلامية في الشرق والغرب حتى لا يدرك المسلمون مدى قوتهم البشرية والمادية في العالم وينتبهوا إلى أهمية وحدتهم وتضامنهم.

وهكذا فإن الاستعمار إذا ما خرج من البلاد فلا يعني ذلك بالضرورة زوال آثاره السيئة. كما أنه أيضًا يحاول عن طريق الغزو الفكري (الاستعمار الثقافي) أن يبقى ممارسًا لتأثيره الاستعماري بصورة غير مباشرة. ومن هنا كان ظهور ما يسمى بالاستعمار الجديد.

أين كل هذا من أهداف الفتح الإسلامي وآثاره التي يتركها خلفه؟! أين كل هذا من تحرير الناس وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، والقضاء على الظلم والطغيان والخرافات والأوهام، وتحقيق العدل والمساواة والكرامة لكل إنسان...؟!.

الصليبية الغربية:

هل ما فعلته الدول الصليبية المستعمرة في بلاد المسلمين يومئ إلى ذرة من الحس الإنساني؟! ألم تؤثر شخصية المسيح ورسالته ودعوته إلى السلام والمحبة والعدل في أتباعه؟! ألم ينهاهم عن الاعتداء حتى وإن لُطِموا على خدودهم، فكيف يبدؤون هم الاعتداء والقتل؟! لقد فقِد كل ذلك في هذه الصليبية، وإن سلوكهم وسياساتهم إن دلت على شيء فهي تدل على أن هذه الصليبية الغربية التي تهيمن على الدول النصرانية ليست ديانة المسيح عيسى عليه السلام، وإنما هي شيء آخر مناقض تمامًا لتعاليمه؛ لأن دينه لا يملي مثل هذا السلوك، إنما يمليه دين الهوى وحده.

والمسيح عليه السلام قد نبه وحذَّر من مثل هؤلاء ودل على طريقة كشفهم فقال: «مِنْ ثِمارِهِم تعرِفونَهُم. أيُثمِرُ الشَّوكُ عِنَبًا، أمِ العُلَّيقُ تِينًا؟»[1]؛ لذا.. فقد دلت ثمار المستعمرين على أنهم ليسوا على دين المسيح عليه السلام، ودلت على أن المسيح وإخوانه الأنبياء والرسل أبرياء من أفعال المستعمرين، وأبرياء من هذه المذابح والمجازر

(١) متى ٧/١٦.

الرهيبة...!. وهم يعلمون أن المسيح عليه السلام سيتبرأ منهم لأنهم يقرؤون ذلك في أناجيلهم، حيث يقول لهم المسيح: «ما عَرَفتُكُم مرَّةً. ابتَعِدوا عنِّي يا أشرارُ!»[1]، مع ذلك فهم لا يفقهون ولا يتعظون ولا يعملون بوصايا المسيح عليه السلام، فقد ختم الله تعالى على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمن يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم؟!. والعجيب في الأمر أنه بعد ارتكاب مثل هذه المجازر، يجيء القساوسة والمنصِّرون ليُنَصِّروا اليتامى من أبناء المقتولين، وليقولوا لهم: (الله محبة) و(المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة)!.

نهاية أمم الصليبيين:

مرة أخرى يتجرع هؤلاء الصليبيون من الكأس نفسه الذي سبق أن تجرع منه أسلافهم الصليبيون الذين جاؤوا في حملاتهم الصليبية قبل ستة قرون! ومرة أخرى يلقن المسلمون هؤلاء الصليبيين الفرنجة الأوروبيين الدرس نفسه الذي لقنوه لأصحاب الحملات الصليبية ونسيته أجيالهم اللاحقة أو لم يفهموه. ولم يستفد الصليبيون من هذه التسمية الجديدة (الاستعمار) التي أرسلوا حملاتهم الصليبية الحديثة باسمها، التي ربما استخدموها لكونهم يعتقدون أن المسلمين والعرب منهم بشكل خاص قد تنطلي عليهم المسميات لكونهم يتوقفون كثيرًا عند مسمى الشيء ويتركون جوهره، وينسون أنه مهما تعددت الأسماء فالحرب على الإسلام واحدة دائمًا حتى المواجهة الأخيرة في آخر الزمان بين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ومَن معه من المسلمين من جهة، وبين الدجال ومَن معه من اليهود وأمم الكفر من جهة أخرى.

قد يكون أعداء الإسلام على حق في أن خدعة الألفاظ يمكن أن تنطلي على كثير من المسلمين، ولكن ما لا يعمل حسابه أعداء الإسلام، لا في الماضي ولا في

(١) متى ٧/٢٣.

الحاضر ولن يكون في المستقبل، هو أن الأمر كله بيد الله جلَّ جلاله، وهو على كل شيء قدير، وإنه تبارك وتعالى إذا أراد شيئًا فإنه يقول له: كن فيكون. وإنه سبحانه قد تكفل بحفظ الإسلام وحفظ كتابه القرآن، وأنه لا يمكن في أي حال من الأحوال ولا في أي زمن من الأزمان أن تُستأصل شأفة الإسلام، بل لا يزال من أمة محمد ﷺ أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله. فأي حرب على الإسلام من أي جهة كانت فهي كمن يريد إطفاء نور الشمس بفيه وليس بقادر، فكيف بمن يريدون إطفاء نور رب العالمين بأفواههم؟! والله سبحانه يقول عن هؤلاء الكفار الذين يحاربون الإسلام ويريدون استئصاله أو إبادة أهله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

فناطح الصخر لن يقتل أو يدمي إلا نفسه، والله - عزَّ شأنه - مظهر دينه الإسلام على كل الأديان ولو كره المشركون والكافرون. وعلى هذا فإن الفشل في أي حرب على الإسلام هو أمر محتوم لا شك فيه، وكائن ولو بعد حين مهما تأخر وطال هذا الحين، ولكن أعداء الإسلام لا يتعظون ولا يعتبرون؛ لأن أكثر الناس لا يعلمون ولا يؤمنون، وأكثر مَن في الأرض يضلون عن سبيل الله رب العالمين.

- طر: الاستعمار الصليبي:

في كل بلد من البلاد التي احتلها المستعمرون الصليبيون، كانت هناك فئة مؤمنة مسلمة تجاهد في سبيل الله وتحارب المستعمرين وتقاتلهم بما توفر لها من إمكانيات مهما قلَّت ومهما كان البون شاسعًا بينها وبين إمكانيات المستعمرين؛ لأنه يظل لديهم ما يفتقده المستعمرون ولا ينالونه حتى يسلموا ويؤمنوا ألا وهو الإيمان

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢-٣٣.

الذي يملأ القلوب فلا تهاب الأعداء ولا تخاف في الله لومة لائم. كما أنه لا يثنيهم عن مقاومة المحتلين لبلادهم كبر حجم التضحيات في النفوس، وهذه الجزائر قد قدَّم أهلها مئات الآلاف من الشهداء في سبيل طرد المحتل الصليبي الفرنسي، فلم يكفوا عن الجهاد والقتال ولم يفتروا حتى تحقق لهم ما أرادوا من الحرية والاستقلال عن المحتلين. وهكذا قاتل أهل البلاد المحتلة الأخرى حتى نصرهم الله على أعدائهم وطردوا المحتلين من جميع البلاد التي احتلوها، وما كان ذلك ليتحقق لولا عودتهم إلى الدين، وطاعتهم لرب العالمين في الجهاد في سبيله للذب عن دينهم وبلدانهم.

رحل المستعمرون إلى بلدانهم التي جاؤوا منها وهم يجرون أذيال الهزيمة والخيبة، فقد ظنوا في وقت من الأوقات أن البلاد التي احتلوها قد ضُمَّت إلى بلدانهم الأصلية وأصبحت جزءًا لا يتجزأ منها ومنطقة من مناطقها، ولهذا كانوا عند احتلالهم لبلد ما يعملون على إلحاقه ببلدهم الأصلي وضمه رسميًّا إليه! لقد رحلوا عن جميع البلاد الإسلامية المحتلة العربية وغير العربية، ولكن بعد ماذا؟! بعد مقاومة وحروب ومعارك دامية دامت عشرات ومئات السنين في بعض البلاد، وبعد أن دفع كل بلد نصيبه من الدم المسفوك على أيدي هؤلاء المستعمرين.

أما في الشام فقد باشرت بريطانيا وفرنسا الجلاء عن سوريا التي احتفلت بالجلاء يوم ١٦ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (١٧ نيسان ١٩٤٦م) بعد ربع قرن من الاحتلال الصليبي. وكذلك انسحبت فرنسا من لبنان في ٨ صفر ١٣٦٦هـ (٣١ كانون الأول ١٩٤٦م). أما بريطانيا فقد كان رحيلها مختلفًا عن غيرها من المحتلين في واحد من البلاد العربية التي كانت تحتلها ألا وهي فلسطين، حيث استغلت احتلالها لهذا البلد لثلاثين عامًا فهيأت الأوضاع فيه لصالح اليهود الصهيونيين، وسلمتهم مقاليد الأمور ليواصلوا الاحتلال بعد رحيلها، فأعلنوا قيام دولة (إسرائيل) في

الوقت نفسه الذي أعلنت فيه بريطانيا إنهاءها للاحتلال في العام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م). وهذا الاحتلال الصهيوني بدوره له عمر محدد عند الله ثم ينتهي فيموت مثل غيره من احتلالات الدول المستعمِرة التي انتهت وماتت. إذ إن لكل احتلال ولكل دولة عمر معين ثم الزوال والموت، تمامًا مثلما لكل إنسان عمر معين ثم الموت، وما دام لا يوجد إنسان دائم فكذلك لا يوجد عند الله احتلال دائم أو دولة دائمة، ومن يظن غير ذلك فليعد إلى التاريخ ليعتبر بالدول السابقة التي زالت وماتت ولم يعد لها أي وجود.

- رحمة الله أكبر:

لقد كان هذا الاستعمار درسًا بليغًا للمسلمين الذين تركوا دينهم وجهادهم وركنوا إلى الدنيا فسُلِبت منهم هذه الدنيا على أيدي أعدائهم، ولكن رحمة الله أكبر من عذاب المستعمرين الصليبيين الذين خططوا ومكروا بالمسلمين، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين؛ فكانت نتائج هذا الاستعمار لصالح المسلمين، ومَن ينظر في أحوال المسلمين الدينية قبل الاستعمار وبعده يدرك مقدار النعمة التي أنعم الله بها على المسلمين، حيث كان الاستعمار بمثابة وسيلة تأديب للمسلمين للعودة إلى دينهم؛ وهو ما حصل فعلاً في أثناء الاستعمار وبعده، ويا له من فرق شاسع في الصحوة الدينية والتوجه الجهادي بين مرحلة ما قبل الاستعمار ومرحلة ما بعده! بالرغم من كل الآثار والأوضاع التي ترتبت على الغزو الصليبي الاستعماري ومنه تقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة حسب ما تقتضيه مصالح الدول المستعمِرة؛ لأن التجزئة هي إضعاف لكل إقليم، وجعله يطلب المساعدة والحماية، ويضطر للسير في فلك الأعداء، وهذا ما خطط ويخطط له أعداء الإسلام والمسلمين. بل حتى فلسطين التي بقيت محتلة من قبل اليهود لحكمة يعلمها الله وإلى ما شاء من الزمن، ففيها إيقاظ للنائم، وحفز واستثارة للمسلمين للعودة إلى دينهم والثبات عليه، وإيقاد لشعلة الجهاد في قلوبهم والقيام به بكل الوسائل المتاحة، والمسلم معرض لترك ذلك إذا

شعر بالأمان وعدم وجود عدو يتربص به، أما في دوام وجود العدو فالأمر مختلف.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

- وقفة مع الصليبيين المستعمرين:

وماذا بعد عن الصليبيين...؟! لقد سبق أن تم تحذيرهم ونصحهم بعدم التفكير في العودة إلى الشام لأخذها، فحتى لو انتزعوا بالقوة بلدًا أو أكثر من بلاد الشام ومكثوا فيه زمنًا طويلاً فإن مصيرهم هو الرحيل؛ لكون الشام لم تعد مستقرًا لهم في أي زمن من الأزمان، ولكنهم مع ذلك كابروا وعاندوا وقاموا باحتلال الشام...! فماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟! مكثوا سنوات قليلة خسروا فيها الكثير من ضحاياهم ثم بعد ذلك طردوا إلى بلادهم التي جاؤوا منها...!.

ولهذا فالتحذير والنصيحة موجهة إليهم باستمرار ألاَّ يكرروا هذا الخطأ، فإياهم والتفكير في احتلال بلد أو أكثر من بلاد الشام. كذلك إياهم أن يطيعوا مَن يولَّى عليهم من الملوك والرؤساء والحكام في الزحف إلى الشام فيلاقوا المصير نفسه الذي لاقاه أسلافهم على أيدي المسلمين في هذه البلاد، وليحذروا خاصة من أولئك الحكام الذين مهما علموا أن الإسلام حق؛ فإنهم لا يتورعون عن سفك دماء المسلمين وإبادتهم وارتكاب المجازر في حقهم لأتفه الأسباب! بل أحيانًا كثيرة دون أسباب، أو بأسباب ملفقة ليرووا غليلهم من المسلمين، وليفرغوا حقدهم عليهم، وأحيانًا يكون ذلك لإرضاء بعض أصحاب النفوذ الحاقدين على الإسلام في إداراتهم الحاكمة، أو طمعًا بفوز في انتخابات أو تمديد سنوات قليلة من الحكم لهم، وربما يكون ذلك أيضًا بناءً على رغبة شركات النفط والأسلحة وغيرها المنتفعين من قتل المسلمين وإشعال الحروب فيما بينهم أو عليهم واحتلال بلادهم!.

ثم ليحذروا كثيرًا من طاعة أولئك المهووسين بعودة المسيح الذين هم على استعداد لقتل الملايين من البشر: مسلمين ونصارى ويهودًا؛ تمهيدًا لعودته كما

يزعمون! مستندين في ذلك على تفسيرات زائفة لبعض النبوءات وعلى تعاليم صليبية صهيونية حاقدة مبتدعة لا علاقة للمسيح عليه السلام بها من قريب ولا من بعيد. ولا يحتاج أي إنسان منهم إلى كثير من الذكاء ليدرك بطلان وزيف هذه التعاليم والتفسيرات، إذ يكفيه فقط أن يعلم أن عيسى ابن مريم عليه السلام الإنسان الرحيم المسالم، الذي قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1]. وقال: «هنيئًا للودعاء.. هنيئًا للرحماء.. هنيئًا لأنقياء القلوب.. هنيئًا لصانعي السلام»[2]؛ وهو ما يعني أن مَن يكون بغير هذه الصفات فليس هنيئًا له بل شقاءً وبغضًا وعذابًا له من رب العالمين! هذا المسيح عيسى عليه السلام الذي كان يُحيي الميت، ولا يُميت الحي، ويشفي المرضى، ولا يؤذي الأصحاء؛ لا يمكن أبدًا أن يقبل أن يُقتل حيوان واحد تمهيدًا لعودته فكيف بقتل البشر وربما بأسلحة الدمار الشامل النووية وغيرها؟! إلا إذا كان ذلك المسيح الذي يمهدون لمجيئه هو المسيح الدجال ملك اليهود، وليس المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه.

ثم هناك دليل واضح على أن المسيح عيسى عليه السلام لا علاقة له بهذه التعاليم الزائفة، وهو زعمهم بأن المسيح لا يعود إلا إذا تم تدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل لليهود تمهيدًا لعودته، فإذا ما تم ذلك ظهر المسيح! ومن هذا الدليل بإمكانهم أن يعرفوا مَن هم الذين يقفون خلف ترويج مثل هذه التعاليم وحثهم على تنفيذ أوامرها التي تصب في صالحهم وليس في صالح الصليبيين!. إن هؤلاء المهووسين بعودة المسيح الذين دُسَّ في عقولهم ورُبُّوا على أن المسيح لا يعود إلا بعد تدمير واسع وقتل جامع ولو بالأسلحة النووية ليسوا خطرين على المسلمين فحسب، بل كذلك على نصارى الشرق ونصارى العرب ونصارى الكاثوليك والروم الأرثوذكس

(١) سورة مريم، الآيتان: ٣٢-٣٣.

(٢) متى ٥/٥، ٧-٩.

ومَن مثلهم؛ لأنهم مستهدفون بالقتل أيضًا من قِبل هؤلاء الهووسين الدينيين؛ لأنهم بحسب اعتقادهم وتعاليمهم قد أصبحوا مسيحيين غير مخلصين والرب غاضب عليهم...!. فليحذروا من هؤلاء كل الحذر لأنهم أخطر البشر على البشر[1]، ولا يطيعوهم برمي أنفسهم إلى التهلكة، ولا ينسوا أن لهذه الدنيا انقضاء ثم اللقاء في ساحة القيامة حيث الحساب من رب العالمين.

- سنة الله:

إن الله تبارك وتعالى يسلط من يشاء من عباده على من يشاء، ويعاقب من يشاء من عباده بأيدي من يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون... إذا أصيب المسلمون بالمصائب فهو من عند أنفسهم، وما أصابهم من مصيبة فبما كسبت أيديهم ويعفو الله عن كثير من ذنوبهم... يعاقب الله عباده في الدنيا متى يشاء إذا هم ضلوا وتركوا الله وتركوا العمل بدينه... وينصرهم متى يشاء إذا هم عادوا إليه وعملوا بدينه ونصروه.

---

(١) يقول أحدهم: «إنني أعتقد أن الإرهابيين اليهود سوف ينسفون الأماكن الإسلامية المقدسة. وأن ذلك سوف يتسبب في إثارة العالم الإسلامي ودفعه لشن حرب مقدسة ضد إسرائيل مما يحمل المسيح على التدخل» النبوءة والسياسة لجريس هالسل ٧٧. وبعضهم ينتظر حدوث معركة (هرمجدون) بفارغ الصبر، وهي المعركة التي يزعمون بأنه ستُستخدم فيها الأسلحة النووية وتحدث دمارًا شاملاً وفناءً لأكثر أهل الأرض، وتجعل المسيح ينزل ليتدخل لإنقاذ اليهود! إن الخطر العظيم هو أن يدفع حرص هؤلاء على استعجال نزول المسيح إلى القيام بالأعمال التي تسبب -حسب وهمهم- وقوع الأحداث التي يزعمون أن المسيح يتدخل بعد وقوعها، وذلك لحمله على النزول والتدخل ليكون لهم دور في صنع هذه الأحداث وعدم تركها لقدر الله ومشيئته! وخطورة هؤلاء على العالم أجمع تكمن في أنهم ينسبون إلى الله ما يخطر في أذهانهم من مثل هذه الأفكار الخطيرة! فقد استبعدوا وجود الشيطان الذي يوحي إلى أوليائه الأفكار السيئة والخطيرة، وأنه هو الذي يريدهم أن يرتكبوا مثل هذه الأفعال التي لن تجعل المسيح عليه السلام ينزل أو يتدخل؛ لأنه خاضع لمشيئة الله وليس خاضعًا لبرنامج وجدول أعمال أحد من البشر أو الدول...! هذا إذا كان المسيح عليه السلام سيتدخل لصالح اليهود والنصارى بعد نزوله، فكيف بهم وهو لن يكون أبدًا كما يتوهمون، بل سيكون على يديه إما قتلهم أو دخولهم في الإسلام كما سيتضح في الفصل الخاص بذلك؟!.

إن الله - جلَّ جلاله - حين يعاقب المسلمين في الدنيا فهو لصالح دينهم ودنياهم وآخرتهم وهو في الحقيقة رحمة من الله بهم. لما ترك المسلمون العمل بدينهم سلَّط الله عليهم الصليبيين فكان ذلك سببًا قويًّا ليلجؤوا إلى الله ويدعونه أن ينصرهم على عدو الله وعدوهم، والله - عزَّ وجلَّ - يجيب دعوة المظلوم ولو كانت من فم كافر فكيف لو كانت من فم مسلم...! وكان احتلالهم من قبل الدول الصليبية سببًا في دفعهم إلى دين الله والعمل به. فلما فعلوا ذلك نصرهم الله وأخزى أعداءهم فطردوهم من بلادهم. بل إن الله تعالى قد عاقب الدول الاستعمارية الصليبية -خاصة بريطانيا وفرنسا- على ما ارتكبوا من أفعال إجرامية في بلاد المسلمين بعد سنوات قليلة من رحيلهم عن البلاد الإسلامية، وأذاقهم من كأس العذاب نفسه الذي أذاقوا المسلمين منه؛ فسلَّط عليهم عدوًا منهم، فضربوا بعضهم بعضًا فقُتِل منهم في سنوات قليلة أضعافًا مضاعفة مما قتلوا من المسلمين في مئات السنين...! فسبحان الله ما أعدله...! حيث جعل عاقبة القاتل القتل ولو بعد حين. وسنة الله ماضية أنه من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.

- وقفة مع مصير الدول الصليبية المستعمرة:

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ** ﴾[1]. فلعل هناك عادًا ثانية! بل ربما هناك عاد جديدة في كل عصر...! إننا إذا تأملنا في الأمم والدول التي في عصرنا وجدنا أن بعضها تماثل عادًا الأولى في الصفات والأفعال والأقوال. فمن صفات عادٍ الأولى البدنية والنفسية: طول الأجسام، الاستكبار في الأرض، الاغترار بالقوة، الغطرسة. ومن أفعال عادٍ الأولى: الشرك بالله، البطش بالمؤمنين المسلمين لله، أو الاستهزاء بهم وبدينهم وبهيئاتهم وبملابسهم، ومن أفعالهم أيضًا: بناء المباني العظيمة. ومن أقوال عادٍ الأولى: من أشد منا قوة؟! أي: لا أحد أقوى منا. ولنتأمل

(١) سورة النجم، الآية: ٥٠.

فيما أنزله الله وينزله سبحانه من العذاب على الأمم التي عاصرناها في زماننا هذا في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجري، ولنركز فقط على الأمم المستعمرة الصليبية: بريطانيا وفرنسا، اللتين احتلتا بلاد المسلمين.

لقد ذكر الله - عزَّ وجلَّ - قصة عادٍ وهي الأمة التي أهلكها الله بسبب أفعالها، لتكون درسًا وعبرة لكل أمة تأتي لاحقًا حتى يتبعوا سبيل المؤمنين بالله ويتجنبوا سبيل المستكبرين الهالكين المعذبين؛ ومع ذلك تصر أمم على السير على ما سارت عليه عاد الهالكة. فها هي أمم ودول مثل بريطانيا وفرنسا قد تشابهتا في أفعالهما وأقوالهما مع قوم عاد الجبارين الهالكين، وسارتا على طريقتهم في الاستعلاء والاستكبار في الأرض وادعاء العظمة في القوة والبطش الجبار بالمسلمين أتباع آخر رسل الله محمد ﷺ؛ لأنهم يقولون: ربنا الله!.

فأما بريطانيا فقد كانت تسمى (بريطانيا العظمى)، ويقال لها: الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس! وذلك بسبب استكبارها في الأرض، واجتياحها واستعمارها لكثير من البلاد واستعلائها على شعوبها! وحتى تكتمل الصورة ويكون التشابه كبيرًا بعادٍ الجبارة كانت معظم البلاد التي استعمرتها بريطانيا بلادًا إسلامية فبطشت بشعوبها من المسلمين الموحدين، وملأ اضطهادها الاستعماري الآفاق جورًا وظلمًا وكفرًا وخبثًا وعنصريةً وتآمرًا وسلبًا ونهبًا وتفريقًا بين المؤمنين! وإنَّ الشر والاستغلال واللصوصية ونهب ثروات الشعوب، وزرع الفتن بين أبناء الأمة الواحدة؛ هي الأمور التي صنَّعتها إمبراطورية الشر البريطانية، وعمَّمتها في أنحاء الأرض!.

وفي جريمة لم يسبقها إليها أحد من الأمم الغازية، بمن فيهم المغول، ألغت الخلافة الإسلامية؛ التي كانت توحد بين جميع بلاد المسلمين وما استتبع ذلك من حرب على الإسلام وتعاليمه بل والحرب على اللغة العربية، وبعدما كانت بلاد

المسلمين بلدًا واحدًا مفتوحًا بعضه على بعض، يتنقل المسلمون فيه بحرية ويقيمون أينما شاؤوا بلا جوازات سفر وبلا تأشيراتٍ وبلا أي شيء من ذلك، منذ مجيء الإسلام وعلى مدى ألف وثلاث مئة سنة؛ قسَّمت بريطانيا البلاد والعباد وجعلت لهم جنسيات مختلفة بحسب كل بلد؛ وبعدما كانوا ينتمون انتماءً واحدًا ويرفعون رايةً واحدةً ألا وهي الإسلام، جعلتهم ينتمون انتماءات مختلفة، وأحزاب متضادة، ويرفعون رايات متنوعة ومتضاربة! وجعلت أكبر هم كل بلد منهم مصلحة أرضه ضمن الحدود التي رسموها له ومصلحة شعبه الذين يحملون جنسيته، هذا بعد أن كان هم الجميع الإسلام، ولم يعد عباد الله المسلمون قادرين على الانتقال في داخل بلاد المسلمين إلا بواسطة الإجراءات التي ابتدعوها لهم بل جعلوهم أشد تمسكًا منهم بهذه الإجراءات! ثم عملت بريطانيا على إثارة الأحقاد والشقاق فيما بين أجزاء الدولة الإسلامية التي مزقتها إلى أجزاء صغيرة، وجعلتهم يتركون الدفاع عن دين الله الإسلام ويتركون الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ويركزون فقط على الدفاع عن القوميات والمناداة بدعاوى الجاهلية حتى جعلتهم يضربون بعضهم بعضًا.

ولما حدث مثل ذلك بين المسلمين في عهد رسول الله ﷺ؛ عندما قام بعض أهل الكتاب من اليهود بالتحريش بين المسلمين حتى جعلوهم يتفاخرون ويتنازعون ويتواثبون بعضهم على بعض.. كان بينهم النبي ﷺ الذي نهاهم عن الافتخار بالقوميات والعصبيات ودعاوى الجاهلية، ووصفها بالنتنة، فقال ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**»[1]؛ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد أعدائهم من أهل الكتاب، فأنزل الله في ذلك قرآنًا يُتلى، عنَّف فيه الكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله، وحذَّر المسلمين من أنهم إذا أطاعوا أهل الكتاب يردوهم كافرين، وأمرهم بالاعتصام جميعًا وعدم التفرق. فإن كان رسول الله ﷺ قد نهى المسلمين عن القتال وضرب بعضهم بعضًا وعدم الاستجابة لتحريش أهل الكتاب فيما بينهم في زمانه؛ فمَن للمسلمين في هذا الزمان أو بعده كلما قام أهل الكتاب بالتحريش فيما بينهم ليعودوا كفارًا بعد رسول الله ﷺ يضرب بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا؟! وقد نهاهم النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[1].

لقد قامت بريطانيا بغرس كل ما من شأنه إبقاء العالم الإسلامي ضعيفًا ممزقًا مشتتًا، وعقدت مع فرنسا اتفاقية (سايكس - بيكو) لتقسيم بعض الدول الإسلامية فيما بينهما؛ وهي الاتفاقية التي ما زال المسلمون يعانون من آثارها المدمرة على الأمة الإسلامية حتى اليوم، وكانت حجر الزاوية في المؤامرة الغربية الصليبية على المسلمين. ثم وعدت بريطانيا اليهود بتأسيس دولة لهم على أرض فلسطين المسلمة العربية التي كانت تحتلها؛ وهي جريمة كبرى أخرى ارتكبتها بريطانيا بحق المسلمين، ثم قامت بتنفيذ هذا الوعد بجلبها لليهود من أصقاع الأرض لتأسيس هذه الدولة لهم، ثم انسحبت من فلسطين لكي يعلن اليهود دولتهم (إسرائيل) التي سارع الغرب إلى الاعتراف بها رسميًا، لتبدأ بعد ذلك مسيرة لا تتوقف من المآسي والمذابح على يد اليهود ضد المسلمين العرب، وقيام الحروب فيما بينهم، واجتياح اليهود لأجزاء من بلاد المسلمين واحتلالها لتوسيع مساحة الدولة التي أقاموها على حساب الأراضي الإسلامية! ولا تزال الآثار المدمرة المتجددة لقيام هذه الدولة ماثلة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**...».

أمامنا...! إلى غير ذلك من الأعمال والأفعال التي قامت بها بريطانيا فاستحقت بها عذاب الله رب العباد، ورب البلاد، وجبار الأرض والسماوات.

وأما فرنسا فقد شاركت بريطانيا في كثير مما فعلته في بلاد المسلمين، وكان من ثمرات هذه المشاركة اتفاقية (سايكس - بيكو). وقد احتلت فرنسا عدداً من هذه البلاد ومنها: سوريا ولبنان ودولاً في إفريقيا الإسلامية.. فأبعدت المسلمين عن دينهم، وقامت بتدمير الأسس الأخلاقية الإنسانية التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات! بل أبعدتهم حتى عن لغتهم العربية وفرضت عليهم اللغة الفرنسية وتربية الأجيال عليها حتى أصبح استخدامها من قبل سكان عدد من هذه الدول خاصة المغرب والجزائر وتونس أسهل عليهم من استخدام اللغة العربية!. أما ما فعلته فرنسا خاصة في الجزائر من سفك دماء المسلمين فإنه سيبقى وصمة عار دائمة في جبينها؛ لأنه قد صار لهذا البلد لقب شهير التصق باسمه وهو: (بلد المليون شهيد)؛ وهم الذين قتلتهم فرنسا!.

وكما فعلت بريطانيا في تأسيس دولة لليهود في فلسطين قبل انسحابها منها، شابهتها فرنسا قبل انسحابها من لبنان في تأسيس دولة طائفية فيه وهي حالة فريدة لا مثيل لها في بقية العالم الإسلامي العربي؛ لأجل أن يبقى لبنان في حرب طائفية متكررة! حيث قسموا شعب لبنان إلى طوائف مذهبية، وخصصوا لكل طائفة مناصب معينة من المناصب الرئيسة. ولا يزال لبنان حتى هذا اليوم يعاني من الحروب والآثار المدمرة المتكررة لهذا التقسيم الطائفي الذي ترتب عليه تقسيمًا طائفيًا في كل إدارة ومؤسسة حكومية، هذا فضلاً عن التقسيم الطائفي للمناطق والمدن والقرى والأحياء!. وبالرغم من المحاولات المتكررة للمسؤولين اللبنانيين للتخلص من هذا الصيغة الطائفية التي أيقنوا أنها سبب للفرقة بين أبناء البلد الواحد، وسبب كل حرب انفجرت في الماضي وآخرها التي دامت خمسة عشر عامًا (١٩٧٥-١٩٩٠)، أو ستنفجر في المستقبل فيما بينهم - لأنها قنبلة موقوتة متعددة الانفجار إلى ما لا

نهاية - إلا إنه لم يُكتب النجاح لأي محاولة من هذا القبيل إلى الآن، مما يعني أن ما زرعت فرنسا في لبنان من مسببات النزاع والعداوة والتقاتل سيستمر!.

وفي الأساس فإن فرنسا أو بريطانيا لم تنسحبا من البلاد الإسلامية التي احتلتاها إلا من بعد أن تأكدتا بأنهما قد زرعتا فيها مسببات الفتنة والشقاق والتخلف والفقر والفرقة وكل ما من شأنه أن يؤجج نار الفتنة والعداوة بينها بما يتكفل استمرار القتل والتدمير والفقر والتخلف في هذه البلاد، ولم تكتفيا بذلك بل استمرتا حتى بعد انسحابهما - الذي كان ظاهريًا وليس حقيقيًا - في الاعتناء بمسببات الفتنة والشقاق وتنميتها ومضاعفتها والتدخل في شؤون هذه البلاد الداخلية والخارجية مما جعل جرائمهما لا تزال حية مستمرة متجددة بحيث تنشغل الدول الإسلامية بما زرعتا من النزاع والخلافات والعداوة حتى لا تقوم لها قائمة مرة أخرى، ولا يقوم فيها خلافة إسلامية أو اتحاد قوي، أو حتى حكم إسلامي في أي بلد منها.

وقد تطوع بكشف الأدلة على هذه الحقائق وصحتها مجموعة كبيرة من المسؤولين والمفكرين في هاتين الدولتين بريطانيا وفرنسا. فعلى سبيل المثال؛ هذه مقولة قد أطلقها (غلادستون) رئيس الوزراء البريطاني الأسبق حيث قال: «ما دام هذا القرآن موجودًا بين أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»!، وهذا تصريح من أحد مسؤولي وزارة الخارجية الفرنسية في عام ١٩٥٢م، يقول فيه: «لا تشكل الشيوعية خطرًا على الغرب، فالخطر الحقيقي الذي يهدد أوروبا هو الخطر الإسلامي». وختام هذه الأدلة، بحادثة مهمة ذات دلالةٍ عظيمة على العدوانية الغربية والبريطانية الثابتة المستمرة تجاه الإسلام والمسلمين. فبعد انتهاء (مؤتمر لوزان) الذي انعقد بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، واجه (كرزون) وزير الخارجية البريطاني الأسبق آنذاك المعارضين من نواب مجلس العموم البريطاني، الذين احتجُّوا بشدةٍ على

انسحاب بريطانيا من تركيا بموجب (اتفاقية لوزان)، وكان قد سيطر (أتاتورك) على مقاليد السلطة التركية.. واجه وزير الخارجية البريطاني المعارضة بقوله: «لقد قضينا على تركيا، التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم؛ لأننا قضينا على قوَّتها الحقيقية المتمثِّلة في أمرين اثنين: الإسلام، والخلافة»! فصفق له النواب كلهم تصفيقًا حارًّا، وانتهت المعارضة!.

فهذه مجرد نماذج عما يُقال في الغرب وبالذات في بريطانيا وفرنسا عن الإسلام والمسلمين؛ ومنها نستنتج أن قيام خلافة إسلامية أو حتى دولة إسلامية حقيقية في أي بلد من بلاد العالم الإسلامي ممنوع بالنسبة إليهم، بل إن مجرد فوز أغلبية إسلامية في مجلس نواب أي بلد إسلامي مهما صغر حجمه ممنوع أيضًا وبالقوة المسلحة إن تطلب الأمر إذا كان سيترتب على هذا الفوز وصول الإسلاميين إلى الحكم، حتى وإن تم بالطريقة الديموقراطية التي يدعو الغرب المسلمين إلى ممارستها والتمسك بها وترك الإسلام! لأن الهدف الحقيقي من ترويج الديموقراطية هو الإتيان بأعداء للإسلام أو أتباع للغرب إلى الحكم، فإذا أتت هذه الديموقراطية بالإسلاميين إلى الحكم فعندها تصبح الديموقراطية بالنسبة لأصحابها في الغرب شيئًا بغيضًا ممقوتًا، ولسان حالهم يقول: فلتذهب الديموقراطية إلى الجحيم!.

فسبحان الله! كيف كان عذابه لبريطانيا وفرنسا اللتين اتفقتا على احتلال بلاد المسلمين والبطش بهم...! فكان عذابه هو سنته في تسليط الظالمين على الظالمين وقتلهم بأيدي بعضهم بعضًا...! فسلَّط ألمانيا على بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول المتحالفة معهما، فمنها ما احتلت ألمانيا أراضيها بأوسع مساحة مما احتلت هذه الدول من أراضي المسلمين، ومنها فرنسا حتى إن الجيش الألماني قام بالاستعراض في شارع (الشانزيليزيه) في قلب العاصمة باريس نفسها! وأذلَّت ألمانيا شعوب هذه الدول وقتلت منهم أضعاف ما أذلَّت هذه الدول المسلمين وقتلوا منهم.

ومن الدول ما قامت ألمانيا بهدم مدنها ومنها بريطانيا نفسها التي قصفت ألمانيا مدنها بما في ذلك عاصمتها لندن، ودمرت وقتلت فيها أكثر مما فعلته بريطانيا في بلاد المسلمين، حتى قامت بين ألمانيا وهذه الدول حرب أسموها (الحرب العالمية الثانية) هلك فيها الملايين منهم مما لا يَعُد فيه مجال للمقارنة بين أعداد من قُتِل من شعوب هذه الدول وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وأعداد من قتلت هذه الدول من المسلمين...! وهكذا لم تذهب دماء المسلمين هدرًا حتى قُتِل من قاتليهم أضعافًا مضاعفةً، وانتقم الله بذلك لمن قتلوا من المسلمين، واستجاب سبحانه دعاء المظلومين والأرامل والأيتام والمحرومين المسلمين...!.

إن جبار السماوات والأرض يمهل ولا يهمل، ولكن الظالمين لا يتعظون بمن قبلهم من الجبابرة...! فبعد أن كانت بريطانيا عظمى وإمبراطورية شاسعة لا تغيب عنها الشمس؛ سحقها رب العالمين وأزالها حتى انحسرت وتقوقعت في مكانها الأصلي، جزيرة صغيرة في البحر لا تطلع عليها الشمس إلا قليلاً...! بل إنها تعاني من الإيرلنديين الذين ينازعونها على أجزاء منها لفصلها واستقلالهم عنها مع ما يُقتل من الطرفين في سبيل ذلك، مع أنهم جميعًا من أتباع الديانة النصرانية...! بل ما أحكم رب العالمين حين جعل الخلاف الرئيس بين الفريقين وسبب الحرب بينهما هو من جنس ما زرعت بريطانيا بين المسلمين!.

وكذلك فعل الله بفرنسا التي عادت وانحسرت في أرضها بعد أن كانت تحتل عددًا من البلاد الإسلامية وأرادت سلخها عن الإسلام وتنصيرها وإدخالها في مسيحيتها الكاثوليكية، وحولت بعض مساجدها إلى كنائس، وقررت جعل بعض تلك البلاد جزءًا لا يتجزأ من فرنسا! وهذا سكرتير الحاكم (بوجو) قد وقف على منبر أحد المساجد في الجزائر بعد أن حولوه إلى كنيسة وقال: «إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عامًا لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا الشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد

ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا مُلكًا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعًا»[1]. فرد الله كيدهم إلى نحورهم، وجعل المكر السيئ يحيق بهم...!

فأما أهل الجزائر فقد مضت عشرون ومثلها عدة عشرينات من الأعوام وهم يأبون الفتنة في دينهم، ويستعصون على الإلحاد والفسوق الذي تبثه فرنسا بينهم، ولم يصبح المسيح إلهًا للجزائر، بل بقي الله إلههم وإله الناس جميعًا، ونال الجزائريون استقلالهم. وأما فرنسا نفسها فقد فُصِل الدين المسيحي نفسه عن الدولة وصارت علمانية، بل وأصبح ثلثها شيوعيًا، يرى الله خرافة تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ويرى أن المسيح عليه السلام لقيط، فبئس ما قالوا، إنما هو عبد الله ورسوله عليه السلام، وبدلاً من أن تصبح الجزائر وغيرها مُلكًا لفرنسا، فقد آل أمرها أن تصبح فرنسا نفسها مُلكًا لألمانيا النازية مدة من الزمن...!.

إنهم يسمون عذاب الله بتسليط بعضهم على بعض بالحروب ويعزون أسبابها إلى أسباب مادية شتى. فليسموا عذاب الله ما شاؤوا من الأسماء وليعزوا أسبابها إلى ما شاؤوا من الأسباب؛ فإن ذلك لن يغير من الواقع شيئًا، وغدًا سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وبأي عذاب يعذبون. فبريطانيا وفرنسا لم تتعظا بالأمم السابقة، فهل من متعظٍ بهما؟!.

أما إيطاليا الفاشية فكان لها المصير نفسه؛ حيث طُردت من ليبيا والدول التي احتلتها في إفريقيا، ثم قضى الله تعالى على دولة الفاشية نفسها في عقر دارها في إيطاليا، ولم تتعظ إيطاليا الفاشية بغيرها من الأمم، فهل من متعظٍ بإيطاليا الفاشية؟!.

حتى اليابان الوثنية التي كان من بين ما احتلته ماليزيا وجزيرة بورنيو وغيرها من بلاد المسلمين في جنوب شرق آسيا، فأنزل الله عليها من العذاب ما تستحق...!

(١) محمد الغزالي: الاستعمار أحقاد وأطماع ٢٠.

لأنها لم تكن مع المسلمين أرحم من غيرها من المستعمرين، فماذا كان عقابها على كفرها بالله وعبادة بوذا وتقديس الأسلاف، وقتلها للمسلمين وظلمهم؟! لقد كان عقابها فريداً من نوعه في العالم أجمع، بل لم تنل دولة غيرها ما نالت! فقد سلَّط الله عليها أميركا فألقت عليها أول قنبلتين ذريتين فدمرتا مدينتي هيروشيما وناكازاكي وأبادت من سكانها مئات الآلاف من الناس في لحظة واحدة! وهُزِمت اليابان في الحرب العالمية الثانية، واضطرت للانسحاب من بلاد المسلمين التي احتلتها مع غيرها من البلاد، واستسلمت ذليلة خاضعة لأميركا!. فلم تتعظ اليابان بغيرها من الأمم، فهل من متعظٍ باليابان؟!.

إن عذاب الله الجد بالكفار ملحق وواقع لا محالة، وإن من عدله سبحانه أن يعذب الكفرة الذين يصدون عن سبيله، ويكذبون رسله، ويقاتلون أولياءه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون...! لم يعتبر الصليبيون المستعمرون بما جرى لأقوام الأنبياء والرسل وأممهم الظالمة، ولا بمن قبلهم من القياصرة الذين كانوا يحكمون الشام فأزال الله دولتهم بالمسلمين، بل لم يعتبروا حتى بمن هم أقرب منهم زمنًا وهي الحملات الصليبية التي ردها الله على أعقابها خائبة خاسئة ولو بعد حين من استيلائها على بعض الأراضي الشامية؛ فهل تتعظ الأمم الغربية النصرانية جميعًا، وكذلك الوثنية من بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان الوثنية من أخذ الله إياهم بغتة فإذا هم مبلسون، ومعاقبتهم العقاب الذي يستحقونه على ظلمهم في الأرض وقتلهم للمسلمين، فلا يفكروا مرة أخرى في غزو المسلمين واحتلال أراضيهم، أو ظلمهم، أو قتلهم...؟!.

نهاية دولة الشيوعيين في بلاد المسلمين

الشيوعية صناعة يهودية:

يخلق الله - تبارك وتعالى - الخلق فمنهم المؤمن ومنهم الكافر؛ وهو سبحانه رحيم بخلقه مؤمنهم وكافرهم...! ولكن ما أعجب الكفار، يخلقهم ويرزقهم وهم بالوقت نفسه يكفرون به، بل ويخترعون طرقًا جديدة في الكفر...! وها هي طريقة جديدة في الكفر بالخالق الرازق قد اختُرِعت، تلك هي الشيوعية الملحدة...!.

لم تخترع الشيوعية أمة ولا مجموعة من الناس بل اخترعها شخص واحد...! وإذا عُرِف أصل المخترع للشيوعية ودينه عرفنا السبب في اختراع هذه العقيدة الباطلة؛ لأن خالق الناس جميعًا قد أخبر بأن هناك دائمًا مَن يخترع العقائد الباطلة والطرق الضالة لإفساد الشعوب وإبعادها عن الدين...! إنه من الأمة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾[1]، أي؛ من سجيتهم أنهم دائمًا يسعون في الإفساد في الأرض فسادًا...! إنه كارل ماركس اليهودي الألماني حفيد الحاخام اليهودي المعروف (مردخاي ماركس). اخترع الشيوعية وحارب الدين بشدة ووصفه بأنه أفيون الشعوب، وأن الحياة الإنسانية تتدرج وفق قوانين وضعية ثابتة لا تتغير (حتمية) وأنكر وجود نواميس سماوية.

وقد فُرِضت الشيوعية بواسطة الأيدي الخفية اليهودية أيضًا على شعب روسيا، هذا الشعب الذي ابتعد عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي التوحيد والإسلام وعبادة الله، فعبد الشيوعية من حيث لا يدري، بل كانت عبادته للشيوعية أشد وأقسى من أي عبودية أخرى...! وكان شعارهم: نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكية الخاصة. لم تكتف روسيا بهذه العبودية لنفسها، بل أخذت تجبر دولاً أخرى على عبادتها بالحديد والنار، وبالقتل والبطش...! وقد اجتاحت دولاً إسلامية وغير إسلامية وأجبرتها بالقوة على ترك ما تعتقده من الأديان وأن تعتنق الشيوعية...!.

- الشيوعية:[1]

لقد ظهرت الحركة الشيوعية في أوروبا في القرن الثالث عشر الهجري، ووضع فلسفتها الألماني كارل ماركس بالتعاون مع زميله الألماني فردريك أنجلز. تجسدت هذه الشيوعية بالثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٧م) بتخطيط من اليهود، ولا عجب أن يتكون المكتب السياسي الأول للثورة البلشفية من سبعة أشخاص كلهم يهود إلا واحدًا! وهذا يعكس مدى الارتباط بين الشيوعية واليهودية. وقد توسعت الشيوعية على حساب غيرها بالحديد والنار، وقد تضرر المسلمون منها كثيرًا، فاحتلت بلادهم في آسيا الوسطى وأوروبا، وأفنوا شعوبهم وسرقوا ثرواتهم واعتدوا على حرمة دينهم ومقدساتهم. وتاريخ الشيوعية، بالرغم من قصره فهو مشحون بالمجازر والدماء. وقد أسست الشيوعية أحزابًا لها في معظم الدول العربية والإسلامية، وتعد من أخطر أعداء الإسلام في القرن العشرين.

ومن أبرز مبادئ الشيوعية: إنكار الخالق وسائر الديانات وكل الغيبيات، ويعتقدون بأنه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب في غير هذه الحياة الدنيا. ويؤمنون بأزلية المادة وأنها أساس كل شيء. يحاربون الأديان ويعدونها وسيلة لتخدير الشعوب، ويستثنون من ذلك اليهودية؛ لأن اليهود شعب مظلوم يحتاج إلى دينه

(١) انظر: مادة التاريخ للمرحلة الثانوية في المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٣٠٩-٣١٣.

ليستعيد حقوقه المغتصبة! ولا عجب من ذلك ما دامت الشيوعية صناعة يهودية، ولهذا لم تستطع إخفاء تواطئها مع اليهود لتحقيق أهدافهم، فصدر في الأسبوع الأول للثورة البلشفية قرار ذو شقين بحق اليهود:

أ - يعد عداء اليهود عداءً للجنس السامي يعاقب عليه القانون.

ب - الاعتراف بحق اليهود في إنشاء وطن قومي في فلسطين!.

ويؤمنون كذلك بالتفسير المادي للتاريخ، الظروف المادية وحدها بمنأى عن الأخلاق، والتربية تقرر نوع النظام الذي يسود في مجتمع ما. وحتمية الصراع الطبقي من أجل تغيير المجتمع وإلغاء الملكية الفردية لجميع وسائل الإنتاج، ويقولون بشيوعية الأموال وإلغاء الوراثة. وديكتاتورية الطبقة الكادحة، أي أن العمال هم الذين يجب أن يتولوا قيادة المجتمع وحكمه. وينكرون الروابط الأسرية ويرون فيها دعامة للمجتمع البرجوازي ومن ثَم لا بد من أن تحل محلها الفوضى الجنسية. لا يحجمون عن أي عمل مهما كانت بشاعته في سبيل غايتهم وهي أن يصبح العالم شيوعيًا تحت سيطرتهم. قال لينين: «إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء إنما الشيء المهم هو أن يصبح الربع الباقي شيوعيًا»! وهذه القاعدة طبقوها في روسيا أيام الثورة وبعدها، وكذلك في الصين وغيرها حيث أبيدت ملايين البشر، واكتساحهم للجمهوريات الإسلامية إنما ينضوي تحت تلك القاعدة الإجرامية. يهدمون المساجد ويحولونها إلى دور ترفيه ومراكز للحزب، ويمنعون المسلم من إظهار شعائر دينه، أما اقتناء المصحف فهو جريمة كبرى يعاقب عليها بالسجن لمدة سنة كاملة!.

وهكذا فإن الشيوعية قد رفضت القيم والفضائل الروحية، وحولت الإنسان إلى عبد ذليل للآلة، بميسور الدولة أن تسحق كرامته متى أرادت إذ لا سلطان ولا رقيب عليها. كما ألغت غريزة التملك الطبيعية في الأفراد فأخمدت الحافز الأصيل عند الإنسان للمنافسة والعمل. واستغلت ما بين الفقراء والأغنياء من خلافات فحولته

إلى صراع دموي. ولجأت إلى إبعاد خصومهم عن مرافق الحياة العامة وإزهاق أرواحهم إذا لزم الأمر.

غزو الشيوعيين للبلاد الإسلامية:[1]

- في روسيا:

بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٣٣٦هـ (١٩١٧م) أصدر الزعيم الشيوعي لينين أوامره إلى الجيش الروسي بالزحف على الأقاليم الإسلامية وضرب مدن المسلمين بالطائرات والدبابات ونهب محاصيلهم الزراعية ومواشيهم ومصادرة أراضيهم وثرواتهم. وكانت النتيجة أن قُتِل خمسة ملايين مسلم تحت اسم النظام الجديد (الشيوعية). وقاوم كثير من الفلاحين المسلمين مخطط البلاشفة الرهيب لتغيير معالم الحياة الإسلامية في روسيا، فكان الفناء الذريع جزاءهم. ووقف أهل القرم المسلمين في وجه العدوان الروسي الأحمر ببسالة فائقة. فماذا كانت النتيجة؟ كان سكان القرم خمسة ملايين مسلم في عام ١٣٣٦هـ، فأمسوا في عام ١٣٥٩هـ، أقل من نصف مليون! لقد قُتِل كثير منهم ونقل الباقي إلى فيافي روسيا. ثم شرع الشيوعيون في هدم المساجد والمعاهد الدينية. فلم يبق من ١٥٥٨ مسجداً بالقرم إلا عدد لا يكاد يذكر.

وتشكل الأراضي التي يقطنها المسلمون في الاتحاد السوفييتي ربع مساحة البلاد. كما أن نسبة المسلمين تبلغ ربع عدد السكان في البلاد (٤٠ مليون مسلم من مجموع ١٦٠ مليون نسمة في عام ١٩٦٦م)، بيد أن الأقاليم التي كانت في الأصل إسلامية وانساح فيها الروس إنما تزيد مساحتها على القارة الأوروبية كلها عدة مرات وتشمل: الأورال، واستراخان، وسيبيريا، والقرم، والتركستان، أي؛ كل الجناح الشمالي الشرقي من العالم الإسلامي.

(١) انظر: مادة التاريخ للمرحلة الثانوية في المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

وفي تركستان الغربية الإسلامية قام الشيوعيون الروس بتجزئتها إلى خمس قوميات هي: قازاقستان، وقيرغيزيا، وطاجيكستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وذلك إمعانًا في محو تاريخها ووحدتها. كما لجؤوا إلى خطة لتغيير معالم الأقاليم الإسلامية في روسيا وقطع الصلات بين حاضرها وماضيها، فاستقدموا الألوف المؤلفة من الروس والسلاف والأوكرانيين وشحنوا بهم أذربيجان وتركستان والقرم. ونقلوا جماهير المسلمين التي دخلها الإسلام في وقت مبكر. ومن المعلوم أن الذين خدموا الإسلام في شتى ميادين حضارتنا الإسلامية التليدة كانوا من أهل تركستان. فمنهم أعلام رجال الحديث البخاري والترمذي والنسائي، وغيرهم من علماء الإسلام.

- في يوغسلافيا:

في يوغسلافيا أباد الشيوعيون بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ٢٤ ألف مسلم، وهدموا المساجد وأغلقوا في مدينة سراييفو الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة الإسلامية وجميع المدارس الدينية باستثناء واحدة أبقوا عليها للدعاية، وقتلوا مفتي كرواتيا وغيره من علماء الدين. وشجعوا الناس على القيام بشتى أنواع الدعاية للكفر والإلحاد من غير أن يسمحوا بالدعاية الدينية. وهكذا دفعوا بالملاحدة أعداء الإسلام إلى القيام بتظاهرات صاخبة في الأعياد الإسلامية وإهانة كل ما يقدسه المسلمون.

- في ألبانيا:

عمل الحزب الشيوعي الحاكم على نشر الإلحاد في ألبانيا التي تفوق نسبة المسلمين فيها على ٧٠٪ من مجموع السكان. وحُوِّلت مئات المساجد إلى متاحف وحظائر للماشية وأماكن اللهو. ومنذ عام ١٣٨٧هـ، مُنِع المسلمون من تأدية شعائرهم الدينية في مكان عام بقانون صدر في ذلك الحين. ولكن على الرغم من كل ما تعرض له المسلمون الألبان من اضطهاد وعذاب وما قام به زعيم الشيوعيين ورأس

الإلحاد في البلاد أنور خوجة من إصدار القوانين التعسفية التي تحرم استعمال الأسماء الإسلامية مثل: عبد الله وعبد الرحمن ومحمد ومصطفى، وضرورة إبدالها بأسماء أخرى، فإن المسلمين يقبلون على صوم رمضان ويزدادون تمسكًا بعقيدتهم الغراء ويذودون بأرواحهم في الدفاع عنها.

- في الصين الشعبية:

وفي بلاد الصين الشعبية شن الشيوعيون حملة مسعورة على الإسلام وأهله في تركستان الشرقية منذ استيلائهم على السلطة في عام ١٣٦٩هـ. وفي عام ١٣٨٥هـ وجه الحرس الأحمر إنذارًا إلى المسلمين طالبوهم فيه بترك الصلاة وإيقاف تعلم اللغة العربية أو التحدث بها، ومنع قراءة القرآن بل وإحراقه، هذا بالإضافة إلى تدمير مساجدهم وحل منظماتهم الإسلامية وإلغاء الختان وإباحة الفاحشة. لماذا؟ حتى تتحلل كل مقومات الأسرة الإسلامية ويباد الإسلام والمسلمون وينتشر الفساد في الأرض. وقلد الشيوعيون الصينيون رفاقهم في روسيا في تهجير السكان المسلمين من أقاليمهم إلى أقاليم غير إسلامية أو نقل الشيوعيين إلى المناطق الإسلامية. وقد بدؤوا بهذا المخطط منذ عام ١٣٧٩هـ، فاستقدموا إلى المناطق الإسلامية جماعات من غير المسلمين لإضعاف صبغتها الإسلامية. وهب المسلمون في وجه الزحف الشيوعي وموجات الإباحية والإلحاد، ووهبوا أرواحهم رخيصة في سبيل عقيدتهم، فهلك خلق كثير منهم تقتيلاً وتمثيلاً. ودمرت مساجدهم وألغيت مدارسهم الدينية. ومع كل هذا العذاب والخسف والهوان فلا يزال في بلاد الصين الشيوعية حوالي ٨٠ مليون مسلم.

نهاية الشيوعية ودولتها:

لقد أقام الشيوعيون دولة اتحاد جمهوريات السوفييت (الاتحاد السوفيتي) التي توسعت وأصبحت مترامية الأطراف على حساب كثير من الدول الإسلامية، وسيطر الاتحاد السوفيتي على كثير من البلاد في أوروبا الشرقية وألمانيا الشرقية

وأمريكا الجنوبية وكوبا واليمن الجنوبي التي أقام فيها عملاؤه الشيوعيون حكمًا شيوعيًا مدعومًا مباشرة منه. وفي المدة الأخيرة في سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) اكتسح الاتحاد السوفيتي الشيوعي أفغانستان المسلمة، وشرد شعبها المسلم، وأقام فيها حكمًا شيوعيًّا، لكن الشعب الأفغاني الباسل اتحد واتفق على مقاومة الجيش السوفيتي لإخراجه من بلدهم، كما سبق لهم أن أخرجوا المستعمر الصليبي البريطاني في السابق.

وانطلقت شرارة الجهاد الإسلامي في أفغانستان، وأخذ المجاهدون المسلمون من البلاد العربية وغيرها يتوافدون إلى أفغانستان للمشاركة في الجهاد ضد الشيوعيين الروس. ومع بدائية الأسلحة التي كان المجاهدون يستخدمونها في مقاومة الجيش السوفيتي الكبير المدجج بأحدث الأسلحة وأكثرها فتكًا بالبشر والممتلكات، فكان المجاهدون يقاومون الطائرات بالرشاشات! ومع ذلك لم يفت هذا التفاوت في ميزان القوة في عضد المجاهدين الذين صبروا لينالوا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

فلما صدق المجاهدون ونصروا الله رب العالمين؛ نصرهم سبحانه وأعزهم وهزم الجيش السوفيتي الذي كان قد بدأ يتهاوى أمام المجاهدين حتى هُزِم شر هزيمة؛ فانسحب من أفغانستان مذمومًا مدحورًا وكان نصر المؤمنين عظيمًا؛ لأنهم مع ضعفهم وقلة عددهم وحيلتهم هزموا بإذن الله أكبر دولة في العالم، بل وسقط الحكم الشيوعي في أفغانستان وتسلم المجاهدون المسلمون الحكم في هذا البلد البطل الذي أعاد أمجاد المجاهدين المسلمين الأوائل في بداية الإسلام، وأحيا سنة الجهاد العظيمة التي كاد المسلمون أن ينسوها.

لقد كان لنصر المجاهدين المسلمين على أكبر جيش في العالم أثره العظيم على الاتحاد السوفيتي نفسه، فقد خلخله هذا النصر الإسلامي وهز أركانه حتى

تضعضع وانهار. انهار الاتحاد السوفيتي في سنة ١٤١٢هـ (١٩٩١م) ولم يمض على ظهوره إلا نيفًا وسبعين عامًا، وتفككت جمهورياته الإسلامية وغيرها واستقلت عن روسيا التي كانت قد ضمت هذه الدول إليها بالقوة والاحتلال، وأنشأت بها اتحادها السوفيتي.

وبما أن الشيوعية قد تجسدت بهذا الاتحاد السوفيتي فكان من الطبيعي بعد انهياره أن تنهار معه، فانهارت الشيوعية وتهدمت وهي التي كانت تحمل عوامل هدمها في المبادئ التي قامت عليها، والتي تتصادم مع فطرة الله التي فطر الناس عليها. وبحمد الله وشكره عادت كلمة (لا إله إلا الله) ترفرف في أنحاء الجمهوريات الإسلامية من جديد، واستعاد كثير من المسلمين حرياتهم الإسلامية بعد انهيار الشيوعية البغيضة.

وقفات مع القصة والمستفاد منها:

ها هي روسيا التي طغت وتجبرت واستكبرت في الأرض حتى عملت أكثر مما عملته أمة عادٍ الأولى من الكفر والإلحاد والاستعلاء والفخر بالقوة والقتل والتدمير، فقد حكمها الحزب الشيوعي الذي أعلن كفره بالله، وجاهر بنكرانه لوجوده، وفرض هذه العقائد الباطلة بالحديد والنار على البلاد التي احتلها! وفتك فتكًا رهيبًا مروعًا في سكانها من المسلمين الذين يعدون بأكثر من خمسين مليونًا؛ فمنعهم من الصلاة في مساجد الله وحولها إلى زروب للحيوانات، وخمارات للسكارى، ومكبات للنفايات، وأماكن للفجور، وصادر نسخ القرآن وكتب الإسلام ومنعهم من تلاوتها وقراءتها وتعلم دين الله الحق، ومنعهم من السفر لحج بيت الله المحرم، وألزمهم بالشيوعية الملحدة. وتسلط على بلاد بعيدة جغرافيًا عنه فجعلها تحكم بالشيوعية أيضًا. وأينما حكم هذا الحزب الدموي فتك بالشعب الذي يحكمه حتى عُرف بالحزب الأحمر أي لون الدم، وعلمه أحمر! وصارت روسيا والبلاد التي احتلتها تُعرف باسم (الاتحاد

السوفيتي) ومصنفة كأعظم دولة في مقابل الدولة الأعظم الأخرى وهي الولايات المتحدة الأميركية.

هذا الاتحاد السوفيتي الذي فرض حزبه الشيوعي وأوجده في كثير من البلدان وخاصة الإسلامية منها؛ لم يُعرف عن المنتسبين إليه إلا الكفر بالله والإيمان بالطبيعة ربًا وإلهًا، حيث آمنوا بالصنعة وأنكروا وجود الصانع! وكأن الصنعة تصنع نفسها، ولم يعرفوا أن الطبيعة إنما هي صنعة الله وسنته التي سنها للكون، وهو تعالى وحده القادر على أن يخرقها في أي وقت ولمن شاء من البشر كما كان الأمر لأنبيائه ورسله الذين أكرمهم بالآيات المعجزات الخارقة للطبيعة والعادات لكي يؤمن بهم الأقوام الذين أرسلهم إليهم. فالطبيعة لا تجعل النار بردًا وسلامًا، ولا تقلب العصا حية، ولا تشق طرقًا في البحر، ولا تخلق من الطين طيرًا يطير، ولا تحيي الأموات، والطبيعة لا تنزل كتبًا مقدسة مثل التي أنزلها الله على رسله وآخرها القرآن المعجزة الخالدة.

ولما كانت سنة الله أن يمهل الاتحاد السوفيتي ولا يهمله؛ فلما حانت ساعة زواله جعل الله ذلك على أيدي المسلمين؛ إذ منَّى الاتحاد السوفيتي نفسه باحتلال بلد إسلامي آخر هو أفغانستان ليضمه إلى اتحاده الشيوعي ولم يعرف أن مقتله سيكون في هذا البلد، فانطلق الجهاد في سبيل الله؛ وتوافد المسلمون من بلاد كثيرة ليجاهدوا عدو الله الكافر الملحد، وبدأ التصادم بين الإيمان والكفر؛ فكان عقاب الله لهذا الاتحاد السوفيتي أن هزمه الله وكسره بأيدي عباده المؤمنين المجاهدين؛ فانسحب من أفغانستان وهو يجر أذيال الهزيمة والانكسار، فظن أنه سينجو بنفسه بهذا الانسحاب والانكفاء إلى داخل حدوده التي حدها سلبًا واغتصابًا، ولكن هيهات فأين الهروب من نقمة رب العالمين؟! فقد فكَّكه الله وقطَّع أوصاله وأزال وجوده بالكلية بين ليلة وضحاها فصار كأنه لم يكن ولم يعد هناك دولة اسمها (الاتحاد السوفيتي)!.

ليس لأحد من خلق الله كائنًا من كان أن ينازع الله في كبريائه وعظمته، فمن نازعه واحدًا منهما أخذه أخذ عزيز مقتدر وقذفه في النار؛ لأنه تشوَّف إلى ما لا يليق إلا بالله سبحانه لا شريك له؛ فإذا طغى فرد قصمه الله، وإذا طغت أمة وزعمت أنها مالكة الأرض وقادرة على أمرها، محقها وأخزاها، وردها إلى حجمها وحقيقتها، وقد قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[1]. فبعدما كانت هذه الدولة اتحادًا فرقها الله تعالى إلى جمهوريات كثيرة كما كان عليه الحال قبل احتلال روسيا لهذه الجمهوريات وتأسيسها للاتحاد السوفيتي، وأعاد الله للدول الإسلامية استقلالها؛ فأُعيد فتح المساجد فيها وعمرت بالمصلين، وعاد كتاب الله وكتب دينه الإسلام إلى الانتشار، وعاد المسلمون إلى ممارسة الإسلام علانية بعد منع ظهوره لأكثر من خمسين سنة! وبدأت وفودهم تأتي إلى الحج في كل عام.

وهكذا أعاد الله - عزَّ وجلَّ - روسيا إلى ما كانت عليه قبل توسعها، وصارت دولة ضعيفة تستجدي هذه وتلك من الدول التي كانت تعاديها. ولم يتوقف الأمر على ذلك، فالجزاء من جنس العمل؛ فقد بدأ الجهاد أيضًا في روسيا في داخل حدود ما بعد الاتحاد السوفيتي الهالك، وفي بلد الإسلام الشيشان تحديدًا، لفصله عن روسيا، حتى كتب الله لهم النصر أيضًا ونالوا استقلالهم. ولكن روسيا لم تتعظ من الدرس السابق فعادت واحتلت الشيشان، ولا يزال المسلمون الشيشانيون يجهادون الروس الذين عادوا إلى الإجرام وسفك دماء المدنيين في كل بلدة أو قرية يدخلونها مع تصاعد صرخات منظمات حقوق الإنسان حتى الروسية منها ضد الوحشية الروسية هناك.

أما الشيوعية التي كفرت بالله رب العالمين فقد أهلكها الله مع الاتحاد السوفيتي، وجعلها عبرةً للعالم أجمع على أنها عقيدة باطلة كافرة مجرمة أرادت أن تطفئ نور الله، وما علمت أن الله سبحانه متم نوره ولو كرهت الشيوعية ولو كره

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١١.

جميع الكافرين، فأطفأ الله ظلامها وأتم نوره وأظهر عليها دينه الإسلام كما وعد سبحانه في كتابه الكريم. بل إن روسيا نفسها لم تعد تحكم بالشيوعية وعادت إلى مذهبها الأصلي النصراني الأرثوذكسي الذي كانت تدين به قبل اعتناق الشيوعية، مع أنه قد كان من الأفضل لروسيا أن تتعظ بما حصل لها، وتعترف بأن الإسلام هو الدين الحق، وبأن المسلمين هم المؤمنون الأبرار الأخيار الذين يعبدون الله الذي لا إله غيره، خالق السماوات والأرض وما فيهن، بعد أن ثبت أن الشيوعيين هم الكفار الفجار الأشرار؛ فتدين بدين الإسلام وتحكم به، فإنها لو فعلت ذلك لربما صارت أوسع مساحة مما كانت عليه في زمن الاتحاد السوفيتي، ولانضمت الدول الإسلامية إليها طواعية وعن رغبة في الاتحاد لتكوين أكبر دولة إسلامية في العالم، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

وبإسقاط الله تعالى للشيوعية أسقط أيضًا حكومات البلدان الأخرى التي تحكم بالشيوعية ويدعمها الاتحاد السوفيتي الزائل، سواء أكانت البلاد إسلامية أم عربية أم غير ذلك. ورجع المسلمون في هذه البلاد إلى دينهم بعد أن نشأت أجيال لا تعرف عن الإسلام شيئًا.

وهكذا لم يتعظ الاتحاد السوفيتي بعادٍ الأولى ولا ببريطانيا العظمى ولا بألمانيا النازية، فهل من متعظ بالاتحاد السوفيتي الذي جعله الله عبرة لمن معه ولمن خلفه من الأمم والدول...؟! وهل من متعظ بأن للدول والحكومات أعمار مثلما للبشر أعمار وستنقضي هذه الأعمار وبعدها يكون الموت والزوال كما مات وزال الاتحاد السوفيتي بعد عمر دام سبعين سنة؟!.

هل الدول الكبرى الأخرى ستتعظ بالأمم والدول السابقة وبما جرى للاتحاد السوفيتي الذي عاصرها فتتجنب سياسته الظالمة وطريقته في التعامل مع الشعوب

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

المسلمة لتتجنب عذاب الله وانتقامه منها وإزالته لها، أم ستنفذ السياسة الظالمة نفسها وتفرض رأيها وسياستها ومطالبها على المسلمين...؟! هل ستتجنب هذه الدول الخطأ القاتل الذي وقع به الاتحاد السوفيتي الذي أراد أن يجعل العالم كله شيوعيًا وبالذات الدول الإسلامية فأزاله الله هو نفسه من الوجود وأزال معه الشيوعية حتى لم تعد روسيا نفسها شيوعية، أم أنها ستقع في الخطأ نفسه فتريد أن تجعل البلاد الإسلامية على دينها أو على طريقتها في الحياة أو تحت حكمها وإدارتها...؟!.

هل ستعمل هذه الدول على ألاَّ تنزلق إلى ما انزلقت إليه الأمم والدول المتجبرة التي سبقتها، أم أن هذه الدول ستنزلق ويصيبها الغرور أيضًا وتعلن على الملأ: مَن أشد منا قوة؟! نحن أعظم قوة في العالم! وتتصرف على هذا الأساس؛ فتصب جام غضبها على المسلمين فتبيدهم وتدمر مدنهم وقراهم بالقنابل النووية، أو تقصفهم بالصواريخ العابرة للقارات، أو تبيدهم بأسلحة الدمار الشامل.. فتكون بذلك قد حذت حذو الدول المتجبرة وسارت على نهجها، بل تفوقت عليهم بما تيسر لها من أسلحة الإبادة الشاملة للبشرية والإنسانية، وعندئذ عليها أن تنتظر العذاب من عند الله الذي سيدمرها ويزيلها من الوجود، ويبقى عباد الله المسلمون كما كانوا، مثلما دمَّر الله سبحانه وأزال كل الأمم والدول الطاغية من قبلها وبقي المسلمون كما كانوا؟!.

بما أن التصادم بين الإيمان والكفر أمر حتمي ومستمر، فلا بد إذًا أن يتكرر المشهد في المستقبل بين الإسلام والأمة أو الدولة المرشحة للتصادم مع المسلمين؛ فيزيلها الله ويمحوها من الوجود بأيدي عباده المسلمين، وتصبح في خبر (سابقًا) كما أصبح يقال: الاتحاد السوفياتي (سابقًا). إن الله يعلم ما سوف تفعله أي أمة أو أي دولة بالمسلمين، أما البشر فليس لهم إلا المستقبل الذي سيجيب عن كل تساؤل، ويكشف ما تضمره الأمم والدول الأخرى في هذا العصر، وغيرها من الأمم والدول في العصور القادمة من مكرٍ للإسلام والمسلمين ولبلاد المسلمين...!.

نهاية الدول الكبرى المعتدية على المسلمين
نهاية دولة الولايات المتحدة الأميركية

سنة الله في إزالة الدول:

إن الله تعالى هو الملك الجبار القهار المذل لكل من حارب دينه أو حارب المسلمين لأجل دينهم...! إنه تبارك وتعالى يهلك أعداء دينه، ويرد كيدهم للإسلام والمسلمين إلى نحورهم، ويجعل تدبيرهم لتدمير الإسلام تدميرًا لهم، ويجعل خططهم لضرب المسلمين ضربًا لهم...!.

ومن سنة الله تعالى أنه يحيق المكر السيئ بالمسلمين بأهل ذلك المكر وبمن حاكه من المستكبرين في الأرض، قال تعالى: ﴿ **اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** ﴾[1]. إن سنة الله - عزَّ وجلَّ - مع الذين استكبروا عن اتباع آياته ودينه، ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيله، دلت على أن وبال ذلك يعود عليهم أنفسهم دون غيرهم، هكذا كانت سنة الله تعالى في الأمم والدول السابقة، وهي ستكون في الأمم والدول الحاضرة واللاحقة؛ لأنها لا تتبدل ولا تتحول، بل هي جارية كذلك في كل مَن يقوم بالأفعال نفسها؛ للإحسان جزاؤه من الإحسان، وللإساءة والظلم والكفر العقاب والنكال. وإن من سنة الله تعالى أنه عندما يمكر أعداء الله وأعداء دينه يمكر هو أيضًا بهم، ثم يجعل عاقبة مكرهم أنه تعالى يدمرهم جميعًا، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[2].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ٥٠-٥١.

وإنه لمن السهولة بمكان أن مَن أراد أن يعرف مستقبل ومصير أمة أو دولة ما في زمانه وكيف سيكون عقابها؛ فعليه أن يتأمل فيما يشبهها في أفعالها من الأمم والدول السابقة التي أزالها الله من الوجود، وأن ينظر كيف كان عقابه لها. فمعرفة المستقبل تعتمد على معرفة الماضي وتاريخ الأمم والدول السابقة، وبهذا أمر الله عباده أن يفعلوا ليأخذوا العبرة من ذلك، فقال تبارك وتعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[1]. فأخبر تعالى أنه مع شدة قوة تلك الأمم والدول، وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، ما أغنى عنهم ذلك شيئًا ولا رد عنهم ذرة من بأس الله تعالى.

إن الدول القوية في هذا الزمان قد سارت في الأرض ولكنها لم تنظر كيف كان عقاب الله للذين من قبلهم وآخرهم دولة الاتحاد السوفيتي. فبعض الدول تكون عدوة نفسها، وليس هناك أجهل من دولة يضل سعيها في الحياة وتدمر نفسها وهي تحسب أنها تحسن صنعًا. فقد حرَّم الله تعالى الظلم، والدولة التي تظلم الناس وتبيح سياستها ظلمهم فهي من حيث لا تشعر تدمر نفسها، وما هي إلا مسألة وقت حتى تهلك وتزول. وقد قضى عزَّ شأنه بذلك فقال: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾[2]، فأي بلد أو أمة أو دولة ظالمة لا بد هالكة في وقت معين لا يزيد ولا ينقص، ومعذبةً عذابًا شديدًا كان ذلك في الكتاب مسطورًا. وما ظلمها الله ولكن هي ظلمت نفسها، وعتت عن أمر ربها ورسله، فحاسبها الله حسابًا شديدًا وعذَّبها عذابًا نكرًا، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرًا.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٩.

وقد كان في هذا العصر دولتان كبيرتان قويتان تتقاسمان النفوذ على دول العالم هما: الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة الأميركية. فأما دولة الاتحاد السوفيتي لما سارت على خطى الدول الظالمة السابقة؛ أزالها الله من الوجود ولم يعد هناك دولة بهذا الاسم. وأما دولة الولايات المتحدة الأميركية فهي تثبت أيضًا بأنها سائرة على خطى الدول الظالمة الزائلة، ولا يمكن لمتأمل في أفعالها أن يشك في ذلك أبدًا، مما يعني أنها مسألة وقت حتى يأتي وعد الله تعالى ويزيلها من الوجود.

ولكن دولة الولايات المتحدة لن تكون آخر الدول الكبرى القوية التي يزيلها الله من الوجود، بل إن العالم سيشهد بعد زوالها ظهور دول كبرى قوية غيرها، وربما تعود الدولتان القديمتان الروم وفارس بشكلين جديدين هما: دولة الاتحاد الأوروبي ومَن معه من دول أخرى مثل روسيا واليابان، ودولة الصين أو آسيا، ويعود التنافس على العالم بين الدولتين الجديدتين. وكذلك الأمر بالنسبة لسلوك الولايات المتحدة مع المسلمين وبلادهم، فإنه لم يكن الأول والأفظع ولن يكون الأخير، بل ربما بعد ظهور دول كبرى غيرها تعود دورة القتل والظلم مجددًا على المسلمين، فيشهدون حملات صليبية واجتياحات وثنية ربما تذكرهم فظاعتها وقساوتها بما شهده أسلافهم أيام الحملات الصليبية واجتياحات المغول، خاصة إذا ظل المسلمون على حالهم الضعيف وتفرقهم وتمزقهم إلى دويلات بدلاً من العودة إلى ما كان عليه الحال من الدولة الإسلامية القوية التي تتزعم العالم وتدعو الناس إلى الله وإلى دينه الإسلام.

وهكذا تمضي سنة الله في الأرض؛ أمم تولد وأمم تموت، ودول تظهر ودول تزول، حتى يرث الله الأرض ومَن عليها. وهكذا أيضًا ستتكرر الأحداث وتتشابه بين المؤمنين المسلمين والكافرين الظالمين، وتتكرر أيضًا سنة الله في إهلاك الأمم والدول الظالمة وإزالتهم من الوجود عقابًا لهم على ما فعلوا بالمؤمنين المسلمين من احتلالات

واعتداءات وقتل ونهب للثروات وغير ذلك... ويتكرر أيضًا الكلام وينطبق على الدول الكبرى الحاضرة وكذلك على الدول التي ستظهر وتعلو في المستقبل خاصة إذا سارت مع المسلمين على خطى الدول الظالمة السابقة ولم تتعظ بمَن سبقها من الدول الزائلة. فما يتم استعراضه من أفعال معروفة تتعلق بدولة الولايات المتحدة، والنتائج التي تترتب على أفعالها تلقائيًا بحسب سنة الله في الأمم والدول، كما ثبت يقينًا فيما سبقها من الدول وآخرهم الاتحاد السوفيتي؛ فإنه ينطبق أيضًا على الدول القادمة في المستقبل التي تحذو حذوها مع المسلمين.

لم تتعظ:

إن الدول الكبرى القوية، التي كان العالم والمسلمون يأملون في أن تتعظ وتعتبر بمن قبلها من الدول القوية التي استكبرت وتغطرست وآذت المسلمين وقتلت منهم الملايين، فأزال الله قوة بعضها؛ فأصبحت تحتمي بغيرها، وأزال بعضها الآخر من الوجود بالكلية - إلا أن هذه الدول الكبرى قد أثبتت بأقوالها وأفعالها أنها لم تتعظ، فبدلاً من أن ترفع الظلم وتقيم الحق والعدل في العالم وتخوف الناس سخط رب العالمين وغضبه على الظالمين، فيشكر لها ذلك القاصي والداني، وجدت نفسها الدول الأقوى في العالم، فزادها ذلك غرورًا واستكبارًا في الأرض ومكرًا للسيئ، وأخذت تخوف الناس من سخطها هي وغضبها وعقابها للمعارضين لسياساتها، وفرضت قانونها وشرعها على الناس وحاربت قانون الله وشرعه، واستكثرت من الأفعال التي كانت سببًا في زوال تلك الدول أو قوتها؛ فزادت من الظلم الموجود خاصة الواقع على المسلمين الذين لم يأخذوا منها حقًّا ولا عدلاً، بل سلبتهم حقوقًا وثروات لهم واستحوذت عليها، فمست المسلمين البأساء والضراء وزُلزلوا زلزالاً شديدًا حتى قالوا: متى نصر الله...؟! وأصبحوا ينتظرون أن يحيق المكر السيئ بهذه الدول، وأن يجعل الله تدميرها فيما تدبره من سوءٍ للمسلمين، وأن يرد كيدها إلى نحرها، وأن يجعل دائرة السوء عليها.

فقد علت الأصوات في كثير من بلدان العالم أن هذه الدول التي تدعي أنها تمارس الديموقراطية وتدعو إليها؛ قد غدت الدول الأعظم دكتاتورية في التاريخ، وأن كل أقوالها وأفعالها لتثبت وتؤكد هذه الحقيقة، وأنها بذلك تتخلى عن ديموقراطيتها وتعتنق الدكتاتورية نظامًا وأسلوبًا وسلوكًا مع الآخرين وعلى وجه الخصوص المسلمين وبلادهم وحكوماتهم وأموالهم وكل ما هو منسوب إليهم...!. أما حق النقض (الفيتو) المناقض للديموقراطية، فهو تجسيد عملي واقعي للدكتاتورية التي تنسف إجماع الأعضاء الآخرين على قرار مهما بلغ عدد هؤلاء الأعضاء، وأداة لتعطيل دور الأمم المتحدة...! بل إن هذه الدول، التي كانت من مؤسسي الأمم المتحدة، هي المرشحة الكبرى للتمرد على هذه المنظمة الدولية والعمل على تدميرها وتعطيل وظيفتها، فتتشجع البلاد الكبيرة القوية لغزو البلاد الصغيرة الضعيفة، تقليدًا لهذه الدول بما تفعله في بلاد المسلمين.

وقد ظهر للناس عيانًا أن هذه الدول قد أخذت تمارس دكتاتوريتها القاسية لتفرض على المسلمين أسلوبها ونظامها في الحياة، وما يخالف دينهم وتقاليدهم، هذا مع وصمهم بالشر، وأنهم إن لم يكونوا معها فهم ضدها، خاصة إذا لم ينفذوا ما تفرضه عليهم، وتتهمهم بـ (الإرهاب)، هذه الكلمة التي جعلت منها رخصة للقتل بحق مَن توجه لهم هذه التهمة حتى وإن لم يكونوا إرهابيين فعلاً، وإنما هم في الحقيقة يخالفون سياستها ويقفون في وجه أطماعها في بلاد المسلمين. وتمارس دكتاتوريتها على مجلس الأمن ليصدِّق على هذه الرخصة ليصبح قتل الناس شرعيًّا وقانونيًّا كما يزعمون ويتوهمون...! وكأن حصولها على هذه الرخصة يبيح لها قتل مَن خلق الله من البشر وبالذات المسلمين ويصبح قتلهم حلالاً، مع أن الحق الذي عند خالق الناس جميعًا هو على العكس من ذلك تمامًا، وهو أنه «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم**»[1]، ويفوتها أنه لا شرع حق إلا شرع الله الذي بلغه

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١١٢٦.

رسوله محمد ﷺ للناس جميعًا، وأن مقدار الثواب والعقاب والدرجة في الجنة أو النار يكونان بحسب اتباع الناس لهذا الشرع الإلهي أو مخالفته وعصيانه ومحاربته، سواء آمن الناس بذلك أم لم يؤمنوا.

بل إن دولة الولايات المتحدة، قد أظهرت للعالم أجمع أنها لم تعد تعبأ حتى بالحصول على هذه الرخصة من مجلس الأمن إذا كان معظم أعضائه من المعارضين لحروبها على الدول الإسلامية، ولا بمعارضة معظم شعوب العالم لها وخروجهم في مظاهرات بالملايين ضدها؛ فتجاهلت العالم وشنت حربها على بلاد المسلمين، كما فعلت مؤخرًا بحربها على العراق، بعد أن كانت قد شنت قبل ذلك حربًا على بلد مسلم آخر هو أفغانستان، مع ما قتلت في الحربين من أعداد كبيرة من المسلمين من الرجال والشيوخ والنساء والأطفال، هذا عدا قتلها قبل هذه الحروب لمليون نسمة تقريبًا في العراق نصفهم من الأطفال الرضع وذلك أثناء حصارها الاقتصادي للعراق، والله تعالى أعلم بما تخطط هذه الدولة في الخفاء لشن حروب جديدة على دول إسلامية أخرى، يكون فيها مزيد من قتل الأبرياء، مع أن «القتل العشوائي للمدنيين الأبرياء هو إرهاب بحد ذاته، وليس حربًا على الإرهاب»[1]. ويكفي الإنسان أن يأخذ في الاعتبار حديث النبي ﷺ الآنف الذكر ليعلم حجم الظلم الواقع على المسلمين. وها هي مختلف منظمات المجتمع وحقوق الإنسان، والعفو الدولية، والصليب الأحمر...إلخ تتهم أميركا بأنها تنتهك حقوق الإنسان تحت مسمى (الحرب على الإرهاب)[2].

---

(١) نعوم تشومسكي: ١١-٩ الإرهاب والإرهاب المضاد ١١٢، ترجمة: ريم الأطرش.

(٢) وقد شاء الله تعالى أن تفضح أميركا نفسها بنفسها وتكشف للعالم ما يتنافى مع شعاراتها عن الديموقراطية وحقوق الإنسان وتحرير الشعوب من الظلم والاستبداد. فنُشِرت أخبار وصور تعذيب المسلمين في سجونها وكيفية انتهاكها لأعراض الذكور والإناث، وتعريتهم، واغتصابهم.. وقد تلا ذلك اعتذار من رئيس أميركا وكبار المسؤولين، وجرت تحقيقات، وشُنت حملات إعلامية لتنظيف وجه أميركا مجددًا، ولحصر المسؤولية في بضعة أفراد، ولنفي أن تكون طرق التعذيب هذه منهجًا رسميًا متفقًا عليه.. ولكن هل يغير ذلك شيئًا مما علق وترسخ في أذهان العالم عن أميركا؟!.

إن هذه الهجمة على المسلمين قد شجعت عدداً من الشخصيات النافذة التي تمثل الملايين في تلك الدول على الإعلان بأن دين الله الإسلام عدو لهم...! فكشفوا بذلك عن وجوههم الحقيقية وحقدهم على الإسلام وبغضهم للمسلمين، وأعلنوا بأفواههم على الملأ بعضاً مما تخفي صدورهم، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾[1]. فعدوا الإسلام ديناً إرهابياً، يجب أن يُغَيَّر ويُبَدَّل ويُلغى منه بعض أركانه ومنها الجهاد في سبيل الله، واعتبروا المسلمين مصدر الإرهاب والإزعاج والقلق، وأنه يجب أن تُهدَر دماؤهم وتُسلَب حقوقهم، وأن يُذَلوا ويُهانوا وتُداس كرامتهم بالأقدام!. بل لقد تطاول بعضهم على رسول الله محمد ﷺ فوصفوه بأوصاف سيئة وشنيعة، لمجرد أنه -على حد زعمهم ووهمهم- نبي الإسلام والمسلمين. وبالطبع لم يفوتهم وصفه بـ (الإرهابي) وهي الصفة الواسعة الانتشار والاستخدام في هذا العصر، وسوف تُخترع أوصاف جديدة في العصور القادمة تناسب تلك العصور.

إن هذا البغض الذي تخفيه صدورهم ويبدون بعضه من أفواههم ليس جديداً وإنما يعود إلى عشرات السنين. فقد كانت وسائل إعلامهم لعقود متعددة تصف العالم الإسلامي بأوصاف مزيفة، وتعد المسلمين شياطين، وأنهم قوى الشر، وأنهم مخبولون ومتطرفون ويسعون إلى تدمير كل خير على الأرض[2].

إن مثل هذا السلوك وغيره يكشف عن الوجه الحقيقي، الغالب على المسؤولين في تلك الدول، ويكشف عن دكتاتوريتها وحقدها على المسلمين، ويكشف أيضاً أن هذه الديموقراطية التي تدعو إليها المسلمين ما هي إلا ديموقراطية مزيفة ممنوعة في بلاد المسلمين؛ لأنها تدرك جيداً أن الأحزاب الإسلامية هي التي تصل إلى

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(٢) انظر: جور فايدال، حرب أبدية لسلام أبدي ١٥، ٩٠، نقله إلى العربية: محمد سعود البشر.

الحكم في الغالب عن طريق الديموقراطية. وقد أثبتت هذه الحقيقة بوقائع كثيرة؛ وذلك حين وصل أصحاب الاتجاه الإسلامي إلى الحكم في عدة بلدان عن طريق الديموقراطية فهاجت وماجت وهددت باحتلال هذه الدول الإسلامية، ولم يقر لها قرار حتى أزالت الإسلاميين عن الحكم بالقوة...! هذا عدا تدخلها في شؤون داخلية للبلدان الإسلامية وفي مسائل جزئية لتفرض ما تحب وتمنع ما تكره.

إن هذا التوجه لهذه الدول ضد المسلمين وبلادهم قد بدأ يظهر بوضوح مع إعلان دولة إسرائيل في فلسطين! وزاد هذا التوجه بدرجة كبيرة بعد زوال دولة الاتحاد السوفيتي، وبعد جعلها الإسلام العدو الأول لها ووضع نفسها في مواجهة معه ومع أتباعه! وهناك شك كبير في أن يكون وراء هذا التوجه عقول خالصة مخلصة لتلك الدول، وإنما الذي يظهر أن وراءه أناس لا يريدون الخير لها ويدفعونها إلى فعل الأسباب التي يكون فيها زوالها كغيرها من الدول الزائلة، ويتأكد هذا الشك حين نقرأ - مثلاً - التحذيرات الشديدة التي وجهها رؤساء أميركا في الماضي إلى الشعب الأميركي والمسؤولين في الدولة بخصوص الانتباه والحذر من اليهود ومخططاتهم في إفساد وتدمير أميركا وشعبها، وحث هؤلاء الرؤساء الشعب على القيام بطرد اليهود من البلاد!.

وقد صدرت تحذيرات جديدة في هذا الزمان من عدد من الساسة الأميركيين حتى قال أحدهم: «إنني أخجل من كوني أميركيًا، إن ما يفعله الرجال في البنتاغون والبيت الأبيض أقل ما يقال عنه إنه كفر بأميركا ودستورها». واتهم بعضهم الآخر صراحة اليهود -خاصة المسؤولين منهم في وزارة الدفاع- بأنهم هم الذين كانوا وراء توريط أميركا في حربها على العراق؛ لأنهم رأوا في غزو العراق وسيلة لمساعدة إسرائيل. واتهموا هؤلاء المسؤولين اليهود بالفشل الذريع، وبالاستخفاف وقلة المسؤولية، بترويج الأكاذيب والفساد، وحمَّلوهم مسؤولية الفشل في العراق. وقال

السيناتور آرنست هولينس: «المسؤولون عن هذه الحرب هم (اليهود الصقور) في إدارة بوش». وهاجم بشدة اللجنة الأميركية اليهودية للشؤون العامة (إيباك)»[1].

حرب صليبية:

لقد أعلنت الولايات المتحدة الأميركية الحرب على (الإرهاب)، مع العلم بأن دول العالم تصفها بأنها «رائدة في ممارستها لإرهاب الدولة، وصاحبة المبادرات الأولى في هذا المجال، وبخاصة في العالم الثالث»[2]، وتاريخها حافل جدًا في مجال ممارسة الإرهاب على مستوى العالم ودعم الطغاة الإرهابيين ومساندتهم...! ولكن الاستغراب سيزول إذا علمنا حقيقة هذه الحرب وحقيقة هذه التسمية، وأحد الدلائل على هذه الحقيقة هو رئيس هذه الدولة نفسه الذي أعلن على الملأ عن شن (حملة صليبية)! ولا يهم بعد ذلك ما جرى (لسبب ما) من استبدالها بكلمة أخرى هي: (الحرب على الإرهاب)[3].

ومعروف جدًا أن أي حرب صليبية لن تكون ضد اليهود -الذين لا يعادون الصليب فحسب، بل يعادون المسيح نفسه ويصفونه بأقبح العبارات وأقذرها!- بل ولن تكون حتى ضد مَن تُعدهم هذه الدولة كفارًا وثنيين كالبوذيين والهندوس وغيرهم من الأمم والدول الكافرة، بل تكون بالتحديد ضد الإسلام والمسلمين والتاريخ يشهد بذلك، مما يعني أن عبارة (الحرب على الإرهاب) هي التسمية الجديدة في هذا العصر بدلاً من مسمى (حملة صليبية) الذي استُخدم في الماضي

(١) جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٣١٠، ١٤٢٥/٤/٦هـ - ٢٠٠٤/٥/٢٥م.

(٢) جور فايدال: حرب أبدية لسلام أبدي ٣١، نقلاً عن مقالة (التوقعات المبكرة) لأرنو ماير، نقله إلى العربية: محمد سعود البشر.

(٣) قال نعوم تشومسكي: في البداية، استخدمت الولايات المتحدة عبارة (حملة صليبية)، ولكن سرعان ما تبين أنها إذا كانت تأمل في تجنيد حلفائها معها في العالم الإسلامي، فستكون تلك العبارة خطأً فادحًا، لأسباب جلية جدًا. فاقتضت البلاغة، بعد ذلك، تَحَوُّل الخطاب إلى كلمة (حرب). نعوم تشومسكي: ١١-٩ الإرهاب والإرهاب المضاد ٣٣، ترجمة: ريم الأطرش.

البعيد، أو (الاستعمار الغربي) الذي استُخدم في الماضي القريب؛ وهي التسميات التي لم يعد استخدامها مناسبًا في هذا العصر!. قال العالم إيمانويل تود: «إن القسم الأعظم من النشاط العسكري الأميركي سوف يتركز منذ الآن وصاعدًا، على العالم الإسلامي تحت راية (الحرب على الإرهاب)، الشكل الرسمي الأخير لـ (العسكرية الصغيرة المسرحية). وهنالك عوامل ثلاثة تفسر تركيز الولايات المتحدة على محاربة هذه الديانة، وتصويرها بمثابة خطر استراتيجي للفترة المقبلة، يهدد مصالحها وسياستها»[1].

وها هو شاهد من أهل الولايات المتحدة نفسها يؤكد حقيقة هذه الحرب الصليبية، وهو ليس بالشاهد العادي، بل هو الحزب الديموقراطي الذي يحكم أميركا من آن لآخر، فقد اتهم نواب في هذا الحزب البيت الأبيض بأنه مدفوع بـ (حماسة مسيحية) في حربه على العراق! نعم.. هكذا كانت كل حرب صليبية فيما مضى من التاريخ مدفوعة بـ (حماسة مسيحية)، وهكذا ستكون كل حرب صليبية بواسطة الدول القادمة في المستقبل، وسوف تستمر هذه الحروب الصليبية من زمن لآخر إلى أن ينزل عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان، وعندئذ سيعلمون أن حروبهم وحملاتهم الصليبية لم يكن دافعها هو دين المسيح الحقيقي ولا المسيح نفسه البريء من قتلهم الجماعي وتدميرهم الشامل، والبريء من أسلحتهم الفتاكة الرهيبة وقنابلهم النووية، وصواريخهم العابرة للقارات وغيرها من أسلحة الدمار الشامل التي ما صنعوها وتفننوا فيها إلا لقتل أكبر عدد ممكن من خلق الله البشر تحديدًا وليس الحيوانات...! و«سيكون وهمًا خطيرًا أن نعتقد تلاشي الروح الصليبية... في الحقيقة، لم ينته عصر الحروب الصليبية في أي زمان»[1].

---

(١) إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأميركي ١٥٧.

(٢) مراد هوفمان: الإسلام عام ٢٠٠٠، ص: ٥٠، ٥٢. سفير ألمانيا السابق في المغرب وقد هداه الله إلى الإسلام وألف عددًا من الكتب الإسلامية.

على خطى الدول الهالكة:

إن الدول الكبرى حين شنت حربها على الإرهاب، لم ير العالم إلا استهدافًا للمسلمين في مختلف بقاع الأرض، ولم ير استهدافًا مماثلاً لإرهابيي الأديان الأخرى ولا حتى لإرهابيي الوثنيين، كما أن أكثر ضحايا هذه الحرب هم من المدنيين الرجال والنساء والأطفال؛ فنظر المسلمون إلى هذه الحرب على أنها حرب على الإسلام وأهله، خاصة بعد أن نودي في الدول الكبرى لجعل الإسلام العدو الأول...! حتى وإن لم يكن هناك نية لاستئصال الإسلام بكامله باعتباره دينًا، وإنما تحجيمه وقصره على بعض العبادات دون بعضها الآخر، والسيطرة على المسلمين وجعلهم تحت هيمنتها وسلطتها. ولما شنت الحرب على أفغانستان ثم العراق تأكدت هذه القناعة عند المسلمين، وهي ستتأكد أكثر فأكثر عندهم حين يرونها تشن حروبًا أخرى على بلدان إسلامية أخرى، سواء أكانت هذه الحروب عسكرية أم دبلوماسية أم اقتصادية أم قوانين محاسبة، أم غير ذلك من أنواع الحروب.

وكذلك تأكدت هذه القناعة عند المسلمين بدليل يقيني رباني هو الهلاك والتدمير والانهيارات الحاصلة في عقر دار مَن أعلن هذه الحروب وشنوها على المسلمين؛ لأن من سنة الله تعالى: ﴿**وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾[1]، القارعة: النازلة الشديدة والبلاء والعذاب والنقم. فعرف المسلمون أن ذلك عقوبة من الله تعالى وعذابًا لمن تولى كبر هذه الحروب، ولا يزال يصابون بهذه القوارع والنكبات حتى يأتي وعد الله[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٢) ومن القوارع أيضًا تلك التي تصيب الجنود بما صنعوا من قتل للمسلمين وتعذيبهم وإهانتهم... من أمراض بدنية ونفسية لم يتوقعوها؛ فتدفع بعضهم إلى الانهيار النفسي، وبعضهم إلى الانتحار، وبعضهم إلى الهرب من الخدمة العسكرية، وبعضهم يتحول إلى قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أي يوم بعد عودته إلى بلده...! وهذه هي الهزيمة بحد ذاتها حتى وإن انتصر هؤلاء في معركة هنا أو معركة هناك. فهذه سنة الله في المحاربين للمسلمين، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

فهذه سنته تعالى في أهل المكر على دينه الذي ارتضاه للعالمين وختم به الرسالات السماوية، وهي سنة ثابتة قد عوقبت بها الأمم والدول الكافرة السابقة التي كان منها مَن هو أشد قوة في زمانها من الأمم الحاضرة، التي تجتهد في محاربة دين الله وإبطاله، ومع ذلك لم تغن قوتها عنها من الله شيئًا. وبناء على سنة الله هذه؛ فإنه سوف يستمر نزول النكبات بتلك الدول ومنها النكبات الاقتصادية وانتشار الإفلاس، التي لن تفلح الحكومات في تفاديها أو معالجتها أو إنقاذ نفسها منها مهما فعلت، حتى تنهار وتتحطم تحت وطأة هذه النكبات؛ لأن الاقتصاد هو عمودها الفقري بل أساس بنيانها الذي إذا تحطم تحطمت أكثر مما تحطمها وتشلها الحروب ولو خسرتها.

لقد اختارت دولة الولايات المتحدة أن تكون على خطى تلك الدول التي أهلكها الله وأزالها من الوجود عقوبة لها على محاربتها لدينه الإسلام وأهله. وها هي قد سارت بجنودها المدججين والمدعومين بجميع الأسلحة الفتاكة والمدمرة في أراضي البلدان الإسلامية التي سبق أن سار فيها جنود تلك الدول الزائلة؛ وهذا ما يدل دلالة واضحة لا شك فيها على أنها لم تعتبر بما جرى للوجود العسكري لدول الاحتلال التي سبقتها في بلاد المسلمين وآخرها بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي، الذين جربوا وذاقوا وعرفوا، ومع ذلك تصر هذه الدولة على أن تجرب بنفسها؛ لذا فالمتوقع بحسب سنة الله في الدول التي خلت من قبلها أن تكون هذه الخطوة بداية الهلاك لهذه الدولة وبداية النهاية لما يسمى دولة (الولايات المتحدة الأميركية)، خاصة وهي تستميت من أجل تنفيذ ما في رأسها والوصول إلى مبتغاها الذي ربما يكون فيه حتفها، ورفضها الانصياع لأصوات العقل والمنطق التي تعالت بالملايين في جميع بلاد العالم منادية بالسلام ورافضة للحرب التي تشنها على بلاد المسلمين...! وإذا حصل لها فعلاً ما يتوقعه المسلمون وكذلك العلماء المنصفون من أهلها، فلا تلم هذه الدولة إلا نفسها لعدم أخذها العبر مما فعله الله بغيرها من الدول التي احتلت بلاد المسلمين من الزوال والتفكك والتقزيم...!.

السقوط في الاختبار:

لقد ابتلى الله - عزَّ وجلَّ - الدول الكبرى بنعمٍ كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأحسنتْ استخدام بعضها وأساءت استخدام بعضها الآخر. وقد غدت هذه الدول الأقوى في العالم؛ لأنها عملت وفق السنن الكونية التي يحبها الله تعالى من العمل والإتقان والبحث والاكتشاف والاختراع وغيرها من الأسباب التي مَن يعمل بها كتب الله له النجاح سواء أكان مؤمنًا به أم كافرًا، ومَن لا يعمل بها ويهملها يكون نصيبه الفشل والتأخر والذل والمهانة حتى وإن كان مسلمًا لله؛ لأنه قد عصى أوامره ولم يعمل بهذه الأسباب التي يأمر بها دينه الإسلام.

ولما صارت لهذه الدول القوة العظيمة المتفوقة على غيرها من الدول لم تستخدم قوتها في الأعمال التي تنال بها محبة الشعوب، بل أساءت كثيرًا في استخدام قوتها خاصة مع البلاد الضعيفة، فنالت بذلك كره الشعوب، واتهمتها الدول ومنظمة الأمم المتحدة والمنظمات العالمية المختلفة بل والمحاكم الدولية - بأنواع من التهم السيئة، ووصفتها بأنها دول ظالمة وطاغية، وترتكب المجازر، ورائدة في ممارسة إرهاب الدولة، وترعى الإرهاب وتدعمه، وتساند الطغاة وتدعمهم... إلخ.

إن النعم العظيمة والآلاء الجسيمة والقوة الرهيبة التي يبتلي الله - عزَّ وجلَّ - بها الدول الكبرى الحاضرة والقادمة في المستقبل تجعلها أقوى دول على الكرة الأرضية. والله تعالى يفتنها بهذه النعم ويختبرها بهذه القوة؛ فتسقط في الاختبار أيما سقوط...! إن سقوطها ورسوبها في الاختبار يكون رهيبًا ومريعًا، وخير دليل على ذلك استعمالها السيئ والشرير لقوتها، واستغلال هذه القوة في نشر الظلم على عباد الله المخلوقين في هذا العالم الفسيح، والبطش بالمسلمين بطش الجبارين، بدلاً من استغلالها في تحقيق العدل والإنصاف بين الناس. فعلى سبيل المثال «إن البلد الوحيد الذي أدانته المحكمة الدولية بالإرهاب الدولي، بسبب (الاستخدام غير المشروع للقوة) لأغراض سياسية، هي الولايات المتحدة الأميركية، حسبما قررت هذه

المحكمة؛ وقد أمرتها بإنهاء هذه الجرائم ودفع تعويضات مادية لإصلاح ما أفسدته»[1]. بل إنه حين أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا بشأن الإرهاب الدولي، وأدانته بمفردات معبرة وقوية، ودعت كل الأمم للعمل بقوة على الانتصار عليه، وتم إقرار هذا القرار بموافقة ١٥٣ دولة، لم تعارضه إلا دولة الولايات المتحدة ودولة إسرائيل...![2].

لقد أصبحت الممارسات الخاطئة للنعم والقوة من قبل هذه الدول أكبر من أن تُحصى، ولو لم يكن من ممارساتها الخاطئة سوى تشجيعها ودعمها للدولة الصهيونية العنصرية، وفوق كل ذلك تستخدم «الفيتو ضد كل الجهود التي بذلت لوقف انتهاكات إسرائيل للاتفاقات الدولية، بل وحتى إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل»[3]. - لكفى بها ظلمًا وعدوانًا، فكيف بها وهي تفعل أكثر من ذلك بكثير...!.

إن شعوب العالم تأمل دائمًا من الدول القوية أن تقيم العدل في العالم، وتأخذ على يد القتلة والظالمين، وتأخذ حق المقتولين وتعيد الحق للمظلومين، ولكن الذي تفعله هو العكس؛ فتصفها شعوب العالم بأنها هي الظالمة العالمية وهي القاتلة الدولية، وتضيق السبل بالشعوب، وتضيق عليهم الأرض مع سعتها، وتضيق عليهم أنفسهم بما ينالهم من الهم والغم والكرب، ويوقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجؤون إليه مما ينزل بهم من البلاء والفتنة والقتل من هذه الدول، ولا أحد ينجيهم وينقذهم منها إلا الله، حتى تأخذ هذه الشعوب المقتولة والمظلومة تجأر إلى الله وتضج بالدعاء لينتقم من هذه الدول القاتلة الظالمة التي لم يعد على الأرض دولة أو دول تستطيع أن تعاقبها أو توقفها عند حدها.

---

(١) نعوم تشومسكي: ١١-٩ الإرهاب والإرهاب المضاد ١٢٢، ترجمة: ريم الأطرش.

(٢) المصدر السابق ١٠٨.

(٣) جور فايدال: حرب أبدية لسلام أبدي ١٣، نقلاً عن مقالة (التوقعات المبكرة) لأرنو ماير، نقله إلى العربية: محمد سعود البشر.

قال أحد الكتاب الأميركيين الناصحين في رسالته الموجهة إلى الرئيس الأميركي: «وعلى الرغم من أننا دومًا نصنف المجتمعات الأخرى ونصفها بأنها تمثل دول الشر، فإننا نحن أنفسنا أصبحنا أكبر دولة للشر. أصبحنا لا نحترم المعاهدات الدولية، ونطأ بأقدامنا المحاكم الدولية، ونوجه ضربات أحادية الجانب لأي جهة نختارها، نعطي أوامر للأمم المتحدة ولا نقوم بواجباتنا تجاهها، نشتكي من الإرهاب وإمبراطوريتنا هي أعظم دولة إرهابية على وجه الأرض. نمطر دولاً بالقنابل، ونغزو أخرى، وندمر ما نختار من الدول دون وجه حق»[1].

إن العالم ينظر إلى هذه الدولة على أنها خطر على العالم وتشكل تهديدًا للسلام العالمي، كما يصرح بذلك باستمرار ساسة العالم وقياداته وعلماؤه وكتابه... يقول أحد العلماء: «تشكل الولايات المتحدة الآن معضلة للعالم، ولو أننا اعتدنا في الماضي أن نرى فيها حلاً للمعضلات. فبعد أن كانت الضامنة للحرية السياسية وللنظام الاقتصادي خلال نصف القرن الأخير، أخذت تتحول شيئًا فشيئًا إلى عامل فوضى في النظام الدولي عن طريق إثارة الشكوك والنزاعات حيثما تستطيع... لماذا أصبحت على هذا القدر من الإصرار على الإضرار بالاستقرار العالمي؟... إن الله لا يبارك أميركا هذه الأيام، فهي تتحدث عن الشر في كل مكان؛ لأنها هي نفسها أصبحت شريرة... بل إن هنالك اليوم عاملاً واحدًا يهدد التوازن الشامل في العالم: الولايات المتحدة التي تحولت من (حامية) إلى (نهَّابة)»[2]. أما شعوب الكرة الأرضية فيكرهونها ويبغضونها، ويعبِّرون لها عن ذلك بالمظاهرات الحاشدة المتكررة في معظم بلدان العالم، حتى إن رؤساء هذه الدولة لا يزورون بلدًا إلا وتكون المظاهرات المنددة لسياسة بلادهم باستقبالهم، حتى في تلك البلدان التي تعد حليفة قوية لهم. وبعد أن يتأمل العالم أجمع فيما تقوم به هذه الدولة من شن حروبٍ وقتلٍ في العالم، يأخذ في

(١) جور فايدال: حرب أبدية لسلام أبدي ٩٤-٩٥، نقله إلى العربية: محمد سعود البشر.

(٢) إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأميركي ٢٥، ٢٩، ١٤٣، ٢١٣.

التساؤل في الوسائل الإعلامية المختلفة، وعلى اليافطات المرفوعة في المظاهرات وفي كل مكان: أهذه دولة عظيمة تنشر العدل وتقيم القانون وتعمل به وتقيم وزنًا للأخلاق وتحفظ حقوق الإنسان، ويهمها كثيرًا سمعتها ومصداقيتها... إلخ؟!.

ثم بعد كل ذلك يتساءل باستغراب ساسة هذه الدولة: «لماذا يكرهوننا؟!». وأكثر ما يقصدون بهذا السؤال - المسلمين. والسؤال في حد ذاته منطقي ومعقول، ولو أن هذه الدولة تفكر جديًا في الأسباب التي جعلتها مكروهة إلى هذا الحد، ثم تقوم بمعالجة أسباب الكره بالطريقة الصحيحة العادلة من أجل إزالتها بالكلية ومنع حدوثها؛ لأثبتت فعلاً بأنها دولة مخلصة لنفسها وتريد رفع الظلم ونشر العدل، ويكون مثلها في ذلك مثل المريض الذي يسأل الطبيب عن أسباب مرضه، ثم يعمل على علاجه وإزالة أسبابه التي أخبره بها الطبيب؛ وذلك إخلاصًا لنفسه وإرادته إزالة المرض بالكلية ولمنع عودته مرة أخرى. ولكن واقع هذه الدولة، كما تصرح لشعبها عن أسباب الكره، هو على العكس من ذلك تمامًا، بل لقد صرح عدد من علماء تلك الدولة وكتابها بأن هناك خداعًا وتضليلاً للشعب بكتم الأسباب الحقيقية عنه وإبلاغه بأسباب أخرى مثل كره المسلمين للحريات، ويقول أحدهم: «والخلل في هذا الموقف هو أن تبنيه يساهم بشكل كبير في احتمال وقوع المزيد من الفظاعات، بما فيها تلك الموجهة ضدنا»[1]. ويعلن آخر عن أحد الأسباب الحقيقية للكره فيقول: «السيطرة غير المتكافئة التي تمارسها السياسة الأميركية، تولّد في المناطق والدول الرازحة تحت السيطرة، أعمالاً إرهابية»[2].

وعلى العموم، فإن في كتم الأسباب الحقيقية للكره عن الشعوب وصرف أنظاره إلى أمور أخرى حتى لا يضغط على المسؤولين لكي يزيلوا الأسباب الحقيقية -

١) نعوم تشومسكي: ١١-٩ الإرهاب والإرهاب المضاد ٥٤، ترجمة: ريم الأطرش.

(٢) إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأميركي ٢١٥.

لدليل على أن هذه الدولة تخون نفسها ولا ترغب في إزالة الكره بمعالجة أسبابه الحقيقية، وهي ظلمها للمسلمين وإرهابهم وقتلهم واحتلال أراضيهم ومصادرة حقوقهم وثرواتهم، ودعم الدول الأخرى التي تفعل الشيء نفسه في بلاد المسلمين، مما يعني استمرار الكره واحتمال وقوع ما يتوقعه العلماء المنصفون من أبنائها من الأعمال الناتجة عن هذا الكره وعما تفعله هذه الدولة بالمسلمين، وهي المسؤولة عن ذلك كله؛ لأنها ترتكب الفعل المؤدي إلى ردة الفعل. أما ما تسوقه لشعبها من أسباب للكره مثل كره المسلمين للحريات وغيرها من الأمور الموجودة فيها؛ فإن المسلمين لا يفكرون بذلك على الإطلاق، بل يحمدون الخالق تبارك وتعالى على أن كفاهم بشريعة الإسلام منهجًا شاملاً للحياة عن أي مناهج أخرى من ابتداع المخلوقين من هذه الدولة أو تلك من البلاد غير المسلمة[1]، وحماهم بالإسلام وعافاهم من كل المفاسد والمساوئ المنتشرة في تلك البلاد بسبب ممارستها لتلك الحريات التي يفتخرون بها ويوهمون أنفسهم بأن المسلمين يحسدونهم عليها، مع أنها في الحقيقة من أسباب زوال هذه الدولة.[2]

(١) قال أحد علماء الغرب: «العالم الإسلامي ليس بحاجة إلى نصائح من أميركا من أجل أن يتطور على صعيد الأخلاق» إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية ١٥٩.

(٢) مثال على ذلك: لقد كان قوم لوط عليه السلام يمارسون الشذوذ الجنسي، فأهلكهم الله تعالى ودمر مدنهم في ساعة واحدة، وهم من الناحية العددية ليسوا شيئًا بأعداد الشواذ الجنسيين في البلاد غير المسلمة، حيث يوجد لديهم جمعيات رسمية وأندية خاصة علنية، بل وأصبح زواجهم ببعضهم قانونيًا في عدد من البلدان، فهل سيفلتون من عذاب الله؟! وما عذاب مرض الإيدز إلا دفعة على الحساب بالمصطلح الدنيوي، وبالمصطلح الرباني: ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ** ﴾، فبعد عذاب الإيدز في الدنيا وما ينتظر دولهم من مصير سيئ، فإنه ينتظرهم أيضًا العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم. فهل المسلمون يحسدونهم على هذه الحرية أم يحمدون ربهم على معافاتهم منها ومن أمراضها وعذابها في الدنيا والآخرة؟!.

بداية النهاية:

إن سنة رب العالمين في إزالة الدول الظالمة حق، قال تعالى: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾[1]. وإذا كانت النهاية للدول الظالمة واضحة ومعروفة وهي إزالتها من الوجود، فإن بداية النهاية قد تختلف من دولة لأخرى بحسب عوامل وظروف متعددة تخص كل دولة منها. وإذا كان من الصعب تحديد كيف تكون بداية نهاية دول كبرى وهي لم تظهر بعد، ولن تظهر إلا بعد زوال الدول الحاضرة، فإنه من السهل أن نتلمس بداية نهاية بعض الدول التي في زمننا الحاضر. فبعد أن أزال رب العالمين الدولة الكبرى السفاحة المتغطرسة بقوتها الاتحاد السوفيتي، وكانت بداية نهايتها هجومها على بلد مسلم واحتلاله هو أفغانستان، لم يبق إلا الدولة الكبرى التي كانت تشكل معها الثنائي العالمي القوي وكانت نداً لها، ألا وهي دولة الولايات المتحدة الأميركية. فإذا أردنا أن نعرف كيف ستكون بداية النهاية لهذه الدولة، فمن الطبيعي أن نتأمل في واقع هذه الدولة، وسجلها في الظلم، وأفعالها مع الأمم وخاصة مع أمة المسلمين، ومن ناحية أخرى نتابع ما يجري على أراضيها من أحداث مختلفة، عند ذلك يمكن استنتاج بداية النهاية لهذه الدولة.

إن بداية النهاية يمكن أن تكون على أكثر من صعيد، وفي أكثر من مجال. فإذا تأملنا في أفعال هذه الدولة نجد أنها تقوم بضربة على المسلمين وبلادهم؛ وإذا تابعنا من ناحية أخرى ما يحدث فيها نسمع بضربات ربانية في عقر دارها على أكثر من صعيد؛ اقتصادي وطبيعي وغير ذلك. فعلى صعيد الاقتصاد نجد أن عذاب الله يقع على بعض مَن يستحق العذاب وهي الشركات الضخمة على مختلف أنواعها، والعالم يسمع بين وقت وآخر عن إفلاس شركة ما من أكبر الشركات في

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

الولايات المتحدة وانهيارها. والمتوقع أن نزول عذاب الله على هذه الشركات سيستمر، وسوف يسمع العالم باستمرار عن انهيار وإفلاس شركات كبرى.

أما لماذا يكون نزول عذاب الله على اقتصاد هذه الدولة وبالذات على شركاتها الكبرى؛ فعلينا أولاً أن نتأمل في قول الله تعالى: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[1]؛ فأولاً؛ إن الاقتصاد هو القواعد أو الأساسات التي يرتكز عليها بنيان هذه الدولة، ولتدمير بنيان ما لا بد من تدمير أساساته. وثانيًا؛ غير خاف أن بعض الشركات كان وراء الحروب المتكررة على المسلمين وبلادهم خاصة شركات النفط والأسلحة. وهنا يصبح المعنى واضحًا والحكمة جلية في كون بداية نهاية هذه الدولة هي بنزول عذاب الله على الشركات. فالشركات قد مكرت ضد المسلمين وبحثت وناقشت في احتلال بلدانهم كما لو كانت تبحث وتناقش مشروعًا اقتصاديًا مربحًا، فليس بمستغرب إذًا أن يأتي الله جلَّت قدرته أساسات هذا البنيان وهي هذه الشركات فيدمرها واحدة تلو الأخرى حتى يخر بنيان هذه الدولة وسقفه عليهم ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. وسيكون عذاب رب العالمين على مَن يستحق العذاب أيضًا من الهيئات والجهات الأخرى، وذلك بحسب حجم عداوة كل هيئة وجهة لدين الله وأهله، وبحسب حجم تمويلهم ودعمهم وتآمرهم على الإسلام والمسلمين. قال أحد العلماء عن الاستثمار في أميركا: «لا نعلم بعد، كيف، وبأية وتيرة، سوف يفقد المستثمرون الأوروبيون واليابانيون أموالهم، ولكنهم بالتأكيد سيفقدونها. والأرجح هو تفجر حالة ذعر في البورصة لم يسبق لها مثيل يتبعها انهيار للدولار يجر وراءه وضع حد للمركز الاقتصادي الإمبريالي للولايات المتحدة. ولا نعلم بعد إذا كان انخفاض الدولار الذي بدأ في مطلع نيسان/أبريل عام ٢٠٠٢

(١) سورة النحل، الآية: ٢٦.

في أعقاب قضية (إنرون-أندرسون) واحدًا من مخاطر النظام، أم بداية لنهايته»[1].

فالله - عزَّ وجلَّ - قد حرَّم الظلم بين الناس ونهاهم عنه مهما صغر حجم هذا الظلم، فكيف بهذا الحجم الضخم من ظلم هذه الدولة الواقع على خلقه في جميع أنحاء العالم، خاصة المسلمين منهم، وهو ظلم لا يقدر على تقدير حجمه إلا الله؟! وقد أخبر الله تعالى أنه قد أهلك أممًا ودولاً وبلادًا بسبب الظلم وأنشأ بعدها أممًا أخرى، كما في قوله عزَّ شأنه: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾[2]. وقوله سبحانه: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾[3]، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزَّ وجلَّ يملي للظالم. فإذا أخذه لم يفلته**». ثم قرأ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾[4][5]؛ فالله - عزَّ وجلَّ - يمهل كل دولة حاضرة أو ستظهر في المستقبل ممن تظلم المسلمين وتحاربهم وتحارب دينهم، ويؤخرها ويطيل لها في المدة، حتى إذا أخذها لم يطلقها ولم تنفلت منه حتى تستوفي العذاب الذي تستحقه، ويقضي عليها ويهلكها كما أهلك من قبل وقطع دابر كل مَن حاربه وحارب دينه ورسله وأنبياءه وأتباعهم من المؤمنين المسلمين. وفي هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره؛ حيث قال سبحانه على لسان رسوله ﷺ: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي. وجعلته بينكم محرمًا. فلا تظالموا**»[6].

وقد توعد الله - عزَّ وجلَّ - الذين يحتالون في إبطال الإسلام بأنه جلَّ جلاله

(١) إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأميركي ١٢٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٩.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم.

يخسف بهم الأرض، أو يرسل الرياح والزلازل والفيضانات فتدمرهم تدميرًا، أو ينزل بهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم في أحوالهم وتصرفاتهم اليومية المختلفة، أو يأخذهم على تنقص من أموالهم وأنفسهم وثمراتهم حتى يهلكهم كلهم... وهذا كله يقع باستمرار بالدول المحاربة للإسلام وأهله. وإن وصفهم ذلك بأنه (عوامل طبيعية) أو (غضب الطبيعة) أو (أزمات اقتصادية) أو غير ذلك من المصطلحات الدنيوية.. فإنه لن يغير من الحقيقة شيء، وهي أنه كله بقضاء الله وقدره.

فدولة الولايات المتحدة - مثلاً - إذا لم تغير موقفها السلبي من المسلمين وبلادهم، وإن لم يأت على رأسها رئيس عادل يقوم بتغيير مسارها عن خطى الدول السابقة الزائلة التي قامت باحتلال بلاد المسلمين، ويعيد للمسلمين حقوقهم وأراضيهم وثرواتهم، وينشر العدل في العالم، ولا ينحاز لدولة دون دولة، ويمنع احتلال دولة لدولة أخرى أو لجزء من أراضيها، ويأخذ على يد الظالمين والقتلة... إلخ؛ ليطول بذلك عمر دولته ويصبح هو وشعبه ودولته محبوبين عالميًا؛ فإنه بعد التأمل في سنة الله وعذابه للأمم والدول السابقة التي حاربت المؤمنين المسلمين، وأن الله سبحانه يخذل الدولة الظالمة ويزيلها حتى ولو كانت مسلمة، فكيف وهي دولة غير مسلمة وبهذا الحجم من الظلم والجور؛ فإنه يُتوقع أن يُنزِل الله بها من العذاب أنواعًا وألوانًا مختلفة مثل التي نزلت بتلك الأمم والدول.

فالمشاهد اليوم أن الولايات المتحدة تسرع الخطى إلى هذا المصير، وهي تحسب أنها تحسن صنعًا...! فالأفعال كلها التي ارتكبتها تلك الأمم والدول التي أهلكها الله وأزالها من الوجود، قد اجتمعت عند الولايات المتحدة، بل وُجد فيها ما لم يسبقها إليه أحد. فيا لهول ما يُرتكَب فيها ويمارَس من كفر، وشرك، وعبادة للشيطان، وقتل، وبطش، وربا، وزنا، وزنا محارم، ولواط، وسحاق، واغتصاب، وإباحية، وخيانة زوجية، وسرقة، ونصب، واحتيال، وقمار، وشرب خمر، وإدمان مخدرات، وانتحار، وتطرف وعنصرية ضد السود والعرب والمسلمين وغيرهم، ومافيا

وعصابات مسلحة، ونشر الفاحشة والمجون والإباحية في بلدان العالم عن طريق وسائل الإعلام المختلفة والإنترنت... إلخ.

هذا على صعيد ممارسات شعبها، أما على صعيد ممارساتها في العالم كدولة فشيء مهول رهيب لا يوصف ولم يسبقها إليه أحد من الدول، ولا له مثيل في التاريخ منذ أن خلق الله آدم حتى هذا القرن الواحد والعشرين، ولا يقدر أحد أن يحصيه إلا الله؛ لأن من عدله تعالى أن يحصي على العباد أعمالهم حتى يجازيهم بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

النهاية المتوقعة:

إن موت ما يسمى (دولة الولايات المتحدة الأميركية) آت عندما يأذن الله بذلك، وكل آت قريب، وقد قال النبي ﷺ: «**إن حقًا على الله ألاَّ يَرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه**»[1]. كثيرون هم الواهمون الذين لم يتخيلوا أن دولة كبرى قوية مثل الاتحاد السوفيتي يمكن أن تنهزم أو تصغر أو تنهار...! ولكن الله على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء مهما عظم ومهما كبر، فلما جاء وعد الله لدولة الاتحاد السوفيتي لم تنهزم هذه الدولة أو تصغر أو تنهار فحسب، بل أزالها الله من الوجود بالكلية، وهذا هو شأن كثير من الناس فيما يتعلق بدولة الولايات المتحدة حيث لا يستطيعون مجرد التفكير أو التخيل أن الله سيدمرها أو يزيلها من الوجود في يوم من الأيام...!.

أما المؤمنون بالله تعالى المتأملون في سنته مع الأمم والدول الظالمة السابقة، فهم يؤمنون بأن الله إذا أراد أن يفعل بدولة الولايات المتحدة أكثر مما فعله بالاتحاد السوفيتي فليس ذلك عليه بعزيز، ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[2]، ولقد أهلك سبحانه أمثال دولة الولايات المتحدة وسلفها من الأمم السابقة والقرون

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: التواضع.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥١.

الخالية، على مثل الذي هي عليه من الكفر به، وتكذيب رسوله، وظلم عباده المؤمنين المسلمين وقتلهم، فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدَّر لهم من العذاب، فينزجر به؟!. بل إن المؤمنين يتوقعون بحسب ما نزل بمثلها من الدول من العذاب أن يكون مصير دولة الولايات المتحدة ربما أسوأ من مصير دولة الاتحاد السوفيتي، وإذا كان الله تعالى قد فكَّك الاتحاد السوفيتي وأزاله من الوجود دون إراقة دماء، فربما يكون الأمر مختلفًا في الولايات المتحدة وتسيل الدماء سيلاً والله أعلم[1].

إن هذه الدولة تعتقد بأنه من المستحيل أن يحدث لها شيء من ذلك، أو أن ينزل بها عذاب من عند الله، أو أن يحدث لها ما حدث للاتحاد السوفيتي، فهكذا كانت تعتقد كل دولة أزالها رب العالمين، ومن ناحية أخرى فلأنها تعيش الآن مرحلة انتقالية مؤقتة، ريثما تظهر دول أخرى تحل محلها ومحل الاتحاد السوفيتي الذي قدَّر الله أن يكون ترتيب زواله قبل زوال الولايات المتحدة لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه، وربما لمزيد من الإملاء والاستدراج. وفي هذه المرحلة الانتقالية تجد أنها الدولة الوحيدة الكبرى على الساحة العالمية؛ فأنى لها في خضم ذلك أن تفكر في وقوع مثل ذلك بها عاجلاً أم آجلاً؟! ولهذا يقول الله تعالى لها ولمثلها من الدول يوم يأتي العذاب أهلها في يوم الحساب: ﴿**أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ**﴾[2]، أي؛ يا أهل هذه الدولة وحكامها ومسؤوليها! أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، فذوقوا هذا بذلك...!.

إن الدول الكبرى التي يفتنها الله بقوتها وسيطرتها لا تأخذ في الحسبان أن

---

(١) إن القوميات والأعراق الموجودة في الولايات المتحدة على استعداد للصدام في أي وقت. وقد حدثت نماذج لمثل هذا الصدام وتوسع في بعضها إلى عدة مدن، ثم انتقل إلى ولايات أخرى وهكذا... حتى اضطرت الحكومة في بعض الحالات إلى نشر الحرس الوطني. فهذه مجرد نماذج للصدام الذي يمكن أن يشتعل في أي يوم، حين لن تنفع الجنسية الأميركية أحدًا، بل وحدها العرقية والعنصرية التي ستنفعه وتهب لنجدته.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

الله - عزَّ وجلَّ - يغضب وينتقم ممن يظلم خلقه، وأنه سبحانه لا يرد دعوة المظلوم وإن كانت من فم كافر به فكيف لو كان الدعاء من مظلوم مؤمن به مسلم له يعبده ويوحده ولا يشرك به شيئًا؟! إنها لا تعرف أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وأن رسول الله محمدًا ﷺ قد أخبر عن الله فقال: «**اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنكِ ولو بعد حين**»[1]، وإجابة الله لدعوة المظلوم تكون بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره. إنها لا تعرف ذلك؛ لأنها في الأساس لا تعرف ولا تؤمن بأن الدعاء سلاح فتاك عند المؤمن سواء أكان مظلومًا أم لم يكن، وأن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء كأنها شرارة من سرعة وصولها؛ لأنه مضطر في دعائه! وهي لا تعرف أن ملايين المسلمين يستخدمون هذا السلاح الفتاك ضدها في كل يوم وفي كل قطر من أقطار الأرض، وأن إجابة الله لهم ونصره لأدعيتهم كائن ولو بعد حين من الزمن، كما كانت إجابته تعالى لهم ونصره لأدعيتهم في الدول الهالكة الزائلة وآخرها حتى اليوم الاتحاد السوفيتي.

إنها لا تعرف أيضًا أن النسبة الكبرى من الأدعية المنصبة عليها سببها دعمها غير المحدود بالسلاح والمال وغيره، بل ووقوفها في جبهة واحدة مع الدولة الصهيونية العنصرية عدوة المسيح عليه السلام الذي تدعي الدول المسيحية حبه واتباعه! وبذلك فهي تشاركها في تحمل مسؤولية الظلم الرهيب الهائل الواقع على المسلمين من هذه الدولة الصهيونية التي لا تتوقف عن سعيها في الأرض فسادًا في فلسطين...!. قال عالم أميركي منصف: «وعندما أشير إلى إسرائيل إنما أعني إسرائيل وأميركا لأن ما من عمل تقوم به إسرائيل إلا ضمن الحدود التي تسمح لها الولايات المتحدة بها، وبتخويل من أميركا ودعمها، ولهذا فهي أعمال وحشية أميركية

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم: ١١٧.

- إسرائيلية»[1]. ويقول عالم آخر: «إن حالة الخوف والقلق التي تسود الأوروبيين مبررة. فهم لا يفهمون لماذا ترفض أميركا حل النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني مع أنها تملك القدرة المطلقة على فعل ذلك. لقد بدؤوا يتساءلون عما إذا كانت واشنطن تجد نوعًا من الرضى في بقاء بؤرة توتر مستديمة في الشرق الأوسط، في وقت يزداد ويتنامى داخل الشعوب العربية العداء والخصومة ضد الغرب... وإنه لأمر غريب أن يرى المرء أهمية العلاقة مع إسرائيل إلى جانب علاقة معادية شاملة للولايات المتحدة مع العالم العربي، وبصورة أوسع مع العالم الإسلامي، حيث إن عقلانية هذه العلاقة ومنفعتها أمر عسير على الشرح. فأطروحة التعاون الضروري بين الديموقراطيات غير مقنعة، والظلم الذي يُرتكَب ضد الفلسطينيين كل يوم من جانب الاحتلال الإسرائيلي لما تبقى لهم من الأرض، هو بحد ذاته نفي لمبدأ المساواة الذي هو أساس الديموقراطية»[2].

إنها دولة لا تريد أن تعرف ولا أن تعترف بأنها المسؤولة عن استمرار هذا الظلم الفظيع الذي ترتكبه الدولة الصهيونية في حق المسلمين، وهي الدولة التي لم تكن لتعيش وتستمر لولا الدماء التي تُمتَص من الشعوب المسيحية ويحقن في شرايينها وأوردتها لتظل حية أكبر عدد من السنين، وهي المليارات من الدولارات التي تُجمع من جيوب شعوبها لتودع في خزائن الدولة الصهيونية...! ولكن ما لا تعرفه فعلاً هو ما أخبر الله به أن ما ينفقونه من أموال على هذه الدولة الصهيونية وعلى كل مشروع أو عمل يريدون به الصد عن سبيل الله؛ فسينفقونه ثم يكون عليهم حسرة ثم يُغلبون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾[3].

(١) نعوم تشومسكي: القوة والإرهاب ١٢١، ترجمة: إبراهيم يحيى الشهابي.

(٢) إيمانويل تود: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأميركي ٢٧، ١٣٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

إنها دولة قد أبت أن تستجيب لأقوال ونصائح المنصفين من علمائها ومفكريها والغيورين على مصالحها، الذين ما برحوا يرددون مخاطر انحيازها ودعمها غير المحدود للدولة الصهيونية على مصالح هذه الدولة نفسها، وأن ذلك سبب رئيس في تولد الإرهاب ضد شعوبهم ومغذٍ له، وينتقدون - مثلاً - سيطرة الدولة الصهيونية على الإدارة الأميركية. وكذلك لا تعرف هذه الدولة أن الدولة الصهيونية التي تصرف عليها كل هذه الأموال الطائلة لا تملك مقومات البقاء الطويل مهما أنفقوا عليها، وأجلها المحتوم قادم لا محالة، ونهايتها مؤكدة ومنصوص عليها في الكتب السماوية المقدسة، وستكون بعذاب إلهي فظيع من عند الله تعالى ينتقم به منها جزاءً وفاقًا على ما ارتكبته من ظلم في الأرض وفي حق عباده المسلمين. وعندئذ يا لها من حسرة ستكون على دولة الولايات المتحدة على الأموال التي أنفقتها على الدولة الصهيونية، هذا إذا كانت دولة الولايات المتحدة لا تزال موجودة في ذلك اليوم ولم يكن الله - عزَّ وجلَّ - قد أزالها قبل ذلك...!.

لم تتعظ دولة الولايات المتحدة الأميركية بأمة عادٍ الأولى ولا بالأمم والدول الظالمة التي جاءت بعدها، ولا بألمانيا النازية، ولا بإيطاليا الفاشية، ولا ببريطانيا الكبرى، ولا بالاتحاد السوفيتي الشيوعي... إلخ، فهل الدول الكبرى القادمة التي ستنشأ في المستقبل، ستتعظ بدولة الولايات المتحدة الأميركية، وتأخذ العبرة مما جرى لها لتتجنب أن تكون ظالمة مثلها، ولكي تسلك سبيل العدل والإنصاف مع الأمم الأخرى وعلى وجه الخصوص المسلمين، وتتجنب السير على خطاها في التعامل مع المسلمين؛ حتى لا يكتب الله نهاية لها مثل نهايتها؟!.

أحداث متوقعة للنهاية:

إن الله - عزَّ وجلَّ - لا يحب المستكبرين ولا يحب الظالمين ولا يهديهم ولا يزيدهم إلا خسارًا؛ وإن من سننه الماضية أن الظالمين لا يفلتون من قبضته، يعاقبهم في الدنيا بأنواع العذاب الذي يستحقون، وما ظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين

المستكبرين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1].

لقد رأى المسلمون كيف فعل الله بتلك الأمم، ولكن الدول الكبرى ومنها الولايات المتحدة لم تر ذلك، بدليل عدم تصرفها على أساس هذه الرؤية، بل تصرح بأنها القوة الوحيدة، وتتصرف على أساس أنها هي سيدة العالم التي من حقها أن تتصرف بشؤون البلاد والناس وتقرر مصيرهم وطريقة حياتهم. وما علموا أن الله وحده سبحانه هو الذي يهيمن على العالم ويحكمه، وهو المتفرد في كونه، وهو المختص بصفة العلو وبالسيطرة على هذا الكون، وتسيير دفته. إن المتأملين في سنة الله في الأمم والدول يرون أن هذا التعالي هو علامة على قرب نهاية هذه الدولة؛ لأنها تناطح سنن الله في خلقه، وليس ذلك لأحد من خلقه، وقديمًا زعم فرعون أنه الرب الأعلى، وأنه مالك لهذا الكون، فقد كان حاكمًا لدولة كبرى في ذلك الزمان، وظن أن دولته ما لها من زوال، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ولم يزل دولته فحسب، بل أزال حضارته الفرعونية بالكامل، وجعلها مجرد آثار تتفرج عليها الأمم من بعده لتتعظ وتعتبر، بل وجعل من ضمن هذه الآثار المعروضة للفرجة: (مومياء) لأحد الفراعنة ليكون آية وعبرة للمتعالين المستكبرين من الحكام والمسؤولين...! وزعمت أمة عاد أنها الأشد قوة، فأرسل سبحانه عليها الريح العقيم المفسدة التي ما تركت شيئًا أتت عليه إلا جعلته كالرميم الهالك البالي! فسبحان الله ذو الجبروت، وإن من جبروته أن يهزم القوة العظيمة الجائرة بأضعف خلقه، وهذا شأنه تعالى مع كل عظيم استكبر عن عبادته وتولى عن طاعته أن يذله ويخزيه، ليعلموا أنه لا إله إلا

(١) سورة الفجر، الآيات: ٦-١٤.

هو، وليس القوة أو السلاح أو غير ذلك، وليعلموا أنه رب العالمين وجبار السماوات والأرضين.

لقد رأى المسلمون كيف فعل الله بتلك الأمم، ويؤمنون بأنه سبحانه قادر على أن يفعل الشيء نفسه بمن جاء بعدهم من الأمم والدول المستكبرة الظالمة الحاضرة والمستقبلة التي تطغى في بلاد العالم فتكثر فيها الفساد والقتل، فيصب عليها سبحانه سوط عذاب يأخذ أشكالاً مختلفة ومتعددة، من رياح عاصفة، وأعاصير جارفة، وفيضانات مغرقة، وزلازل مدمرة، ونيازك قاصمة لا تبقي ولا تذر، وخسف مخفٍ وغير ذلك من أشكال العذاب الذي لا يقدر عليه إلا هو سبحانه؛ فيأتيهم من حيث لا يحتسبون، ومن حيث لا يتوقعون، ومن حيث لا يشعرون، فلا يستطيعون رده، ولا يقدرون على منعه.

بل وإضافة إلى هذه الأنواع المختلفة والمتعددة من العذاب الكوني الطبيعي، فهناك ثمة أشكال أخرى من العذاب يمكن أن ينزلها الله بهذه الدولة على مر الأيام فتكون تدميرًا تدريجيًّا لها، وبداية لنهايتها...! ومما يُتوقع من هذه الأشكال من العذاب أحداث معينة تحصل في هذه الدولة، وهي توقعات قد تتحقق كلها أو بعضها أو مع اختلاف في بعضها، وقد يتقدم حدث على حدث أو يتأخر، وهو تبارك وتعالى أعلم، ولا يعلم الغيب إلا هو، وليس لأحد غيره سوى التوقع بناءً على الواقع.

- ومن هذه الأحداث المتوقعة:

- إفلاس شركات ضخمة، وضعف الثقة بالدولار وتحول العالم إلى التعامل بغيره. هروب رؤوس الأموال الأجنبية. تبدأ بعض الولايات الغنية في التفكير بمصالحها الذاتية والانفصال عن الدولة الأم، وظهور مجموعة من الدول المستقلة.
- تصادم قوميات وبيض وسود وحرب أهلية وفوضى عارمة وسلب ونهب وقتل وخطف.. وربما لن يسلم من ذلك اليهود الذين يمكن أن يتعرضوا لما سبق أن

تعرضوا له في أوروبا من القتل والطرد. وانقضاض الأميركيين على اليهود يتفق مع ما توعدهم الله به من بعثه عليهم إلى يوم القيامة مَن يسومهم سوء العذاب، وهي العقوبة الإلهية المنصوص عليها في التوراة والإنجيل والقرآن. فرار أعداد كبيرة من الناس من أصول غير أميركية إلى البلدان التي تعود إليها أصولهم.

- عجز الدولة عن تمويل جيوشها في الخارج. حدوث انتفاضات شعبية وسقوط للحكام في بعض البلاد التي كانت مرتبطة بالولايات المتحدة وتحت حمايتها مع عجز الأخيرة عن فعل أي شيء لهم لكونها منشغلة بحروبها ومشكلاتها الداخلية. وكثير من الشعوب والدول تثأر من أميركا والأميركيين الذين يتمركزون في بلادهم.
- اشتعال حروب، ولا يستبعد أن يكون بعضها بين ولايات متدينة وأخرى متحررة، وشركات مصانع الأسلحة تجد لنفسها فرصة لممارسة الدور نفسه الذي كانت تمارسه لافتعال الحروب في العالم، ولكن هذه المرة على أرض الولايات. ودول أخرى تتدخل فيما يجري وتدعم كل منها ولايات بعينها ضد أخرى.

لا يعلم الغيب إلا الله وحده.. فلا أحد يعلم ما الذي سيحدث بالتحديد لدولة الولايات المتحدة في مرضها وفي موتها إلا هو سبحانه؛ لأنه وحده عالم الغيب والشهادة. ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن تأكيده بل والجزم به هو أنه سيأتي زمان على أهل الأرض لن يكون فيه دولة اسمها: الولايات المتحدة الأميركية؛ لأنها حينئذ ستكون في عداد الأموات من الدول السابقة الزائلة. وهو ما توقعه أيضًا عدد من رؤساء الولايات المتحدة الأميركية نفسها...!.

الرؤساء يتوقعون دمارها:

إن رؤساء الولايات المتحدة أنفسهم قد توقعوا تحطم هذه الدولة، ولكنهم عزوا خرابها ودمارها إلى اليهود الذين كانوا يعملون على السيطرة عليها. فها هو جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة يحذر شعبه من اليهود ويدعوهم إلى العمل على

طردهم من ولاياتهم قبل فوات الأوان ووقوع الخطر، حيث قال عنهم: «يفوق تأثيرهم المدمر على حياتنا ومستقبلنا، خطر جيوش جميع أعدائنا. بل إنهم أشد خطرًا وفتكًا، بمئة ضعف من ذلك، على حرياتنا والقضية الكبرى التي نكرس لها جل اهتمامنا.. ومما يؤسف له، ويؤلم في الوقت نفسه، أن حينًا من الدهر طويلاً قد انقضى، لم تحاول خلاله ولاياتنا، كل منها على حدة على الأقل، مكافحة اليهود والقضاء عليهم، بالرغم من برهنتهم على أنهم يشكلون مجموعة حشرات تفتك بمجتمعنا، وتؤلف أكبر خطر يمكن أن يتهدد استقرار الولايات المتحدة وأمنها»[1].

أما الرئيس بنجامين فرانكلين فقال عن اليهود: «إنني أؤيد كليًا مواقف الجنرال واشنطن الهادفة إلى حماية هذا الشعب الفتي من جميع المؤامرات الغادرة التي يحيكها ضدنا عدونا الوحيد الذي يتربص بنا الدوائر، وأنا أعني به، أيها السادة، اليهودي[2]. في كل بلد استوطنه اليهود، انحطت القيم الأخلاقية إلى الدرك الأسفل، وشاعت الفوضى واللامسؤولية والاحتيال في معاملات أبنائه التجارية... ومعروف عنهم أنهم إن شعروا ببوادر مناوأة أو مقاومة ضدهم، عمدوا فورًا إلى اتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة بخنق البلد الذي تظهر فيه مثل هذه البوادر، اقتصاديًا وماليًا، كما حصل في إسبانيا والبرتغال مثلاً... إنكم إن لم تطردوهم عن ديارنا، فلن يمضي أكثر من مئتي سنة حتى يصبح أحفادنا خدمًا في حقولهم يمدونهم بثروات بلادنا، بينما هم يقبعون في بيوتهم يفركون الأيدي بانتظار قبض الأموال وجمعها. إنني أحذركم - أيها السادة - من أنكم إن لم تسارعوا إلى إجلاء

(١) زهدي الفاتح: اليهود ٦، نقلاً عن كتاب ا. ا. أبلتون ورفاقه: (مبادئ جورج واشنطن).

(٢) تُحجَب هذه الحقيقة عن الأميركيين بتوجيه أنظارهم باستمرار نحو عدو آخر خارج أميركا وشغلهم بمحاربته، ففي الماضي القريب كان تركيز الأنظار على الشيوعية والاتحاد السوفيتي على أنهما العدو الأول الذي يشكل خطرًا على أميركا، فلما زال الاتحاد السوفيتي واختفى، بدأ توجيه الأنظار إلى الإسلام على أنه العدو الأول والوحيد لأميركا، وأن بلاد المسلمين تشكل خطرًا على أميركا؛ وبدأ الانشغال بمحاربتهم!.

اليهود عن ديارنا اليوم وإلى الأبد،[1] فسيلعنكم أولادكم وأحفادكم في القبور. إن اليهود يشكلون خطرًا عظيمًا على هذه البلاد، وإنني أؤكد على ضرورة طردهم منها ومنعهم من الدخول أو الإقامة فيها بموجب نصوص دستورية صريحة»[2].

أما الرئيس إبراهام لينكولن فيقول للشعب الأميركي: «إنني أرى في الأفق نُذر أزمة تقترب شيئًا فشيئًا، وهي أزمة تثيرني وتجعلني أرتجف على سلامة بلدي، فقد أصبحت السيادة للهيئات والشركات الكبرى، وسيترتب على ذلك وصول الفساد إلى أعلى المناصب. إذ إن أصحاب رؤوس الأموال، سيعملون على إبقاء سيطرتهم على الدولة، مستخدمين في ذلك مشاعر الشعب وتحزباته، وستصبح ثروة البلاد بأكملها، تحت سيطرة فئة قليلة؛ الأمر الذي سيؤدي إلى تحطم الجمهورية».

ولم تقتصر التوقعات على الرؤساء، بل العلماء والباحثون والكتاب أيضًا توقعوا تفكك النظام الأميركي وتحطم دولة الولايات المتحدة وزوالها، وألفوا في ذلك الكتب الكثيرة التي ضمنوها أسباب تحطم هذه الدولة.

نبوءات دمار الدول العظيمة:

إن في أسفار أنبياء بني إسرائيل نبوءات عن دمار مدينة ودولة عظيمة، وبعض النبوءات نصت على اسم بابل وهي رمز للدولة الكبرى في كل عصر، وأميركا هي بابل هذا العصر، كما كانت قبلها (بريطانيا العظمى) بابل عصرها فأزال الله عظمتها ودمر قوتها وجعلها مجرد بلد صغير مثل غيره من البلدان، وبقيت عظمة الله وحده جلَّ ثناؤه...! وسواء أكانت هذه النصوص يُقصد منها دول بعينها من

(١) لم يعمل الأميركيون بنصيحة رؤسائهم، ولكن البريطانيين هم الذين عملوا؛ فكان وعد بلفور الشهير لحل مشكلة معاناة بريطانيا من هجرة اليهود المتزايدة إليها، وللحد من هذه الهجرة، وللتخلص من الأعداد الكبيرة لليهود في بريطانيا بتهجيرهم إلى فلسطين لتكون وطنًا لهم.

(٢) اليهود: إعداد زهدي الفاتح ٢٣-٢٤ من خطاب فرانكلين في المؤتمر الدستوري التأسيسي المنعقد في فيلادلفيا سنة ١٧٨٧.

الدول الكبرى الحاضرة أو التي كانت في الماضي أو التي ستنشأ في المستقبل؛ إلا أنها في جميع الأحوال تنطبق على كل دولة كبرى تتكبر وتتغطرس وتنازع الله في جبروته وملكوته وكبريائه وعظمته، فقد قال تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** ﴾[1].

ومن هذه النصوص ما جاء في رؤيا يوحنا: «سَيَبكي علَيها مُلوكُ الأرضِ الذينَ زَنَوا بِها وتَنَعَّموا مَعَها، ويَنوحونَ حينَ يُشاهِدونَ دُخانَ لَهيبِها، ويَقِفونَ على بُعدٍ مِنها خَوفًا مِنْ عَذابِها وهُمْ يَقولونَ: «الوَيلُ! الوَيلُ! أيَّتُها المدينةُ العظيمةُ، يا بابِلُ المدينةُ الجَبّارَةُ، في ساعةٍ واحِدةٍ جاءَت دينونَتُك!». وسَيَبكي علَيها تُجّارُ الأرضِ ويَندُبونَها، لأنَّ بِضاعَتَهُم لَنْ تَجِدَ مَنْ يَشتَريها...[2].

وتَناوَلَ ملاكٌ جَبّارٌ حَجَرًا كَحَجَرٍ طاحونٍ عَظيمةٍ ورَماهُ في البحرِ وقالَ: «هكذا تُرمى بابِلُ العَظيمةُ بِعُنفٍ، ولَنْ تُوجَدَ مِنْ بَعدُ أبدًا.. لأنَّ تُجّارَك كانوا عُظماءَ الأرضِ وسِحْرَك أضلَّ جَميعَ الأُمَمِ. وفيها شوهِدَ دَمُ الأنبياءِ والقِدِّيسينَ وجميعُ الذينَ سَقَطوا قَتلى في الأرضِ»[3].

«وسَمِعتُ بَعدَ ذلكَ صَوتًا عَظيمًا كأنَّهُ صوتُ جُمهورٍ كبيرٍ في السَّماءِ يَقولُ: «هَلِّلويا! لإلهِنا الخلاصُ والمَجدُ والقُوَّةُ. أحكامُهُ حَقٌّ وعَدْلٌ. دانَ الزّانِيَةَ العَظيمَةَ التي أفسَدَتِ الأرضَ بِدَعارَتِها، وانتَقَمَ مِنها لِدَمِ عِبادِهِ»[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

(٢) الانهيارات الاقتصادية التي تحدث داخل أميركا تؤثر سلبًا على تجار الأرض خاصة أوروبا واليابان وغيرها من الدول التي تقوم بالتصدير إليها، فإذا توقف تصدير بضائعهم إليها أو خف كثيرًا؛ فإن ذلك سيجعلهم يبكون ويندبون؛ لأن بضاعتهم لن تجد من يشتريها في أميركا.

(٣) رؤيا يوحنا ١٨/٩-١١، ٢١، ٢٣-٢٤.

(٤) رؤيا يوحنا ١٩/١-٢.

ذُكِر في رؤيا يوحنا عن تناول الملاك حجرًا ورميه في البحر وأنه هكذا تُرمى بابل العظيمة بعنف، ولن توجد من بعد أبدًا ...! وهو ما يشير إلى أحد أنواع العذاب الرباني لبعض الدول الكبرى أو بابل العظيمة التي أفسدت الأرض فاستحقت أن ينتقم الله منها لدم عباده، وهذا ليس مستبعدًا عن أية دولة كبرى في هذا الزمان وفي غيره من الأزمان. ولكن الأمر اليقيني هو ما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾[1]. فمن سنة الله أن أي دولة إذا عصته وسفكت دماء عباده المسلمين، وفشت فيها الفواحش والمنكرات، فقد استحقت عقاب الله تعالى الذي توعدها به، وسيخربها تخريبًا عما قريب في الوقت الذي جعله لها وقتًا للهلاك، لا تستأخر عنه ساعة واحدة ولا تستقدم.

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

نهاية دولة إسرائيل في فلسطين

اليهود من جديد:

إن الله تعالى هو خالق الناس جميعًا.. خلق اليهود وهو أعلم بصفاتهم وبما في بواطن أنفسهم منهم بأنفسهم.. وما من صفة ذميمة ذكر الله في كتبه المقدسة أنها في النفس اليهودية إلا ظهرت وانكشفت لعموم خلقه الآخرين، وما من فعل خبيث أو فسادٍ في الأرض ذكر الله أن اليهود سيفعلونه إلا فعلوه فيما مضى من الزمن، وسيفعلونه فيما بقي من عمر أمة اليهود...!.

إن كتاب اليهود نفسه هو أول من أدانهم وكشف أعمالهم الشريرة وأفعالهم الظالمة، ففي سفر إشعياء مثلاً: «لأن أيديكم قد تنجست بالدم وأصابعكم بالإثم. شفاهكم تكلمت بالكذب ولسانكم يلهج بالشر... أعمالهم أعمال إثم وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلى الشر تجري وتُسرع إلى سفك الدم الزَّكِيِّ. أفكارهم أفكار إثم. في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل. جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة. كل مَن يسير فيها لا يعرف سلامًا»[1].

لو أراد أعدى أعداء اليهود أن ينتقدهم ويصفهم بالأوصاف السيئة، ما أتى بشيء جديد أكبر مما وصفهم به رب العالمين ومما جاء على ألسنة الأنبياء والمرسلين، مما ذُكِر في الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، ومما هو مذكور في كتابي العهد القديم والعهد الجديد[2]؛ ففيها ما يكفي ويغني عن أي نقد ووصفٍ جديد...!.

---

(١) إشعياء ٥٨/٣-٨.

(٢) وعلى هذه الكتب المذكورة كان الاعتماد في الحديث عن اليهود في فصول الكتاب المختلفة.

لم يكن اليهود غائبين:

لقد غاب اليهود عن مسرح الحياة غيبة طويلة ولكنها مؤقتة، ومع غيبتهم تلك فقد كانوا لا يتأخرون عن انتهاز الفرص التي تسمح لهم ببث الفرقة والتناحر بين المسلمين، بتخطيط بطيء ولكنه مدروس وفعال. أما الصولات والجولات فقد كانت بين المسلمين الآمنين في بلادهم، وبين النصارى الذين كانوا يزحفون في حملات صليبية متكررة بين زمن وآخر إلى بلاد المسلمين لاحتلالهم وإخضاعهم لحكمهم، وذلك في مراحل الضعف التي عصفت بالدولة الإسلامية، حتى إذا ما ظهر اليهود علنًا تكشَّف أنهم لم يكونوا غائبين، وإنما كانوا يخططون ويتقنون التخطيط، ويدرسون الأمم الأخرى، ويتعرفون على نقاط ضعفهم، ويصنعون الوسائل والطرق الناجحة للسيطرة عليهم. وكان من بين خططهم أن يكونوا دائمًا قريبين من حكام المسلمين بواسطة أشخاص من اليهود ما بين طبيب أو مستشار أو محاسب أو غير ذلك من المهن المتخصصة.

ولم يكن نشاطهم هذا قاصرًا على بلاد المسلمين وحكامهم، بل كان كذلك في بلاد النصارى وحكامهم؛ لأن خطة اليهود للسيطرة على العالم لا تستثني النصارى، بل إن نسبة نجاح خططهم عند النصارى والسيطرة على بلادهم وحكامهم وإدارة سياساتهم أكبر بكثير مما هي عند المسلمين، وذلك لأسباب كثيرة. فإذا بالحملات الصليبية قديمًا، والثورة الفرنسية، والحرب العالمية الأولى، والشيوعية، وإلغاء الخلافة، والحرب العالمية الثانية، كلها كان لهم ضلع فيها، وقاموا بتمويلها، لا بل الاستعمار الفرنسي والإنجليزي للبلاد الإسلامية في القرن العشرين كان من تحريضهم وتدبيرهم خاصة من اليهود الصهاينة، حتى إذا استعمر الإنجليز فلسطين تسلل اليهود الصهيونيون إليها أفواجًا أفواجًا ليقيموا دولة (إسرائيل)، حتى إذا ما استقر الأمر لهم وتمكنوا من الأرض، أمروا الإنجليز بالخروج من فلسطين ليعلنوا دولتهم وليعترف العالم النصراني بها مباشرة حتى من غير أن يكون لها حدود

معينة، وحدث كل ذلك في تخطيط مدروس لا يقوى عليه إلا اليهود، الذين تمكنوا من الإمساك بخيوط الحكم في العالم المسيحي.

اليهود يؤسسون دولة زائلة:

لقد أعلن الله تعالى في كتابه العزيز القرآن الكريم بأنه سبحانه سيزيل دولة اليهود عقوبة لهم على إفسادهم في الأرض. وفي سفر صَفَنيا في العهد القديم جاءت الإشارة عن تجمع اليهود قبل أن يحل بهم يوم غضب الله: «تجمَّعي واَجتَمِعي أيَّتُها الأُمَّةُ التي لا تَتكسِفُ، قَبلَ أنْ تتَبَدَّدي كالتِّبْنِ في يومٍ مِنَ الأيّامِ، قَبلَ أنْ يَحِلَ بكِ اَضْطِرامُ غضَبِ الرّبِّ، قَبلَ أنْ يَحِلَ بكِ يومُ غضَبِ الرّبِّ»[1]. وكذلك في سفر حزقيال: «يقولُ السَّيِّدُ الرّبُّ، إنّي بيَدٍ قويَّةٍ وذراعٍ ممدودةٍ وغضَبٍ شديدٍ أتسلَّطُ علَيكُم، وأُخرِجكُم مِنْ بَينِ الشُّعوبِ وأجمعُكُم مِنَ البلدانِ البعيدةِ التي بعثَرتُكُم فيها، وأجيءُ بكُم إلى البرِّيَّةِ بعيدًا عنِ الشُّعوبِ وأحاكِمُكُم هُناكَ وجهًا لِوجهٍ»[2]. فبعد أن عاقب الله اليهود في الماضي بأيدي عباده الآخرين، فقتلوا كثيرًا منهم وشتتوا شمل الباقين وفرقوا جمعهم في البلاد، فلم تقم لهم قائمة منذ ذلك الحين، ها هم بعد أكثر من ثمانية عشر قرنًا قد ظهروا في الأرض وعلوا فيها من جديد في فلسطين وبيت المقدس.

لقد جاؤوا من بلدان العالم المختلفة وتجمعوا في فلسطين وبدؤوا في بناء دولة لهم فيها، واستخدموا في بنائها منذ البداية كل الطرق والوسائل الفاسدة والمفسدة في الأرض التي تعشش فيها بذور الانهيار والزوال، وارتكبوا كل ما نهى الله عنه من الكفر والمعاصي وأعمال الظلم والشر! فكان بناؤهم منذ البداية مؤسسًا على شفا جرف هارٍ يمكن أن ينهار في أي يوم. وفي ذلك يقول حبقوق لليهود: «ويل للباني

(١) صفنيا ٢/١-٢.

(٢) حزقيال ٢٠/٣٣-٣٦.

مدينة بالدماء وللمؤسس قرية بالإثم»[1]. وعادوا إلى سيرتهم الأولى التي كانت سببًا في معاقبة الله لهم وإزالة دولتهم وقوتهم من بيت المقدس، بل أخذوا يرتكبون من معصية الله ومخالفة أوامره ما هو أشد وأعظم مما ارتكبوه في الماضي! ولم يعودوا يستمعون لنصيحة ناصح، ولا لتهديد قوي، ولا لقرارات دولية، ولا لجمعيات حقوق الإنسان، ولا لأي شيء!.

لقد جاء الصهيونيون إلى أرض فلسطين بعد أن فشلوا في استخدام الرشوة مع دولة الخلافة العثمانية للحصول عليها، فعمدوا إلى مصادرة الأراضي واغتصابها من أصحابها، ليقيموا عليها المدن والمستوطنات التي سيُسكِنون فيها اليهود القادمين من شتى بلدان العالم، وارتكبوا المذابح الرهيبة لعباد الله المسلمين، وطردوا مئات الآلاف من بيوتهم وقراهم ومدنهم لتصفو لهم وليقيموا عليها دولتهم، وكان كل ذلك يُرتكَب على أساس الزعم بأن الله قد وهب لهم بيت المقدس وفلسطين هبة أبدية، مهما فعلوا من عصيان لله ولأنبيائه ولرسله حتى ولو قتلوا بعضًا منهم وكذَّبوا بعضهم الآخر، ومهما أخلوا بشروط الله التي قررها سبحانه لوراثة الأرض...! قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1]. فهؤلاء الظالمون، وعلى الأخص يهود ما بعد مجيء المسيح عليه السلام، لن ينالوا عهد الله ولن يرثوا الأرض المقدسة، بل ينال عهد الله وأرضه المقدسة الذين أطاعوا الله وأسلموا له وعبدوه حق عبادته كما أمر هو سبحانه وليس كما قرر الأحبار والحاخامات...! ولهذا عذب الله اليهود بذنوبهم وطردهم من فلسطين وشتتهم في الأرض على أيدي أتباع المسيح عليه السلام، ثم أورث الله المسلمين العرب الأرض المقدسة.

---

١) حبقوق ١٢/٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

فإذا كان المقصود من هذا الوعد هو النص الموجود في سفر التكوين والموجه إلى إبراهيم عليه السلام: «ها أنا أقطع لك عهدي، فتكون أبًا لأمم كثيرة، وأُصيِّرك مُثمرًا جدًا، يخرج من نسلك ملوك، فأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك. وأهبك أنت وذريتك أرض كنعان التي نزلت فيها غريبًا، مُلكًا أبديًا»[1]؛ فهذا الوعد ليس حكرًا على اليهود من نسل إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وإنما هو أيضًا للعرب المسلمين من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. ثم إن الأرض لله سبحانه يورثها من يشاء من عباده، كما أخبر موسى عليه السلام بذلك: ﴿**قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[2]. وقد أورث الله المسلمين بيت المقدس وفيه المسجد الأقصى؛ لأن المسلمين هم آخر الأمم، أتباع آخر رسل الله ورسالاته إلى الناس، الذين يقومون بتنفيذ شروطه لوراثة الأرض والاستخلاف.

بل إن أمة المسلمين هي التي ينطبق عليها هذا النص التوراتي؛ لأنها هي الأمة التي يباركها الله كثيرًا ويكثِّر عددها. وهو ما نصت عليه التوراة مثل: «وأمَّا إسماعيلُ فقد سَمِعْتُ لكَ فيه. ها أنا أباركُه وأُثمرُهُ وأكثِّرُهُ كثيرًا جدًا. اثني عشَرَ رئيسًا يلد وأجعَلُه أمةً كبيرةً»[3]. وبذلك يكون الله - عزَّ وجلَّ - قد وفَّى بوعده هذا لإبراهيم عليه السلام.

فشتان بين عدد هذا الشعب العربي المسلم الذي كثَّره الله وباركه، وبين عدد الشعب اليهودي الذي لا يتجاوز بضعة ملايين...! وهي حقيقة ظاهرة واضحة لكل العالم. هذا إذا كان كل اليهود من بني إسرائيل، فكيف والنسبة الكبرى منهم لا

(١) التكوين ١٧/٤-٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٣) التكوين ١٧/٢٠.

يرجعون في نسبهم إلى بني إسرائيل، وإنما هم من أمة الخزر الذين دخلوا اليهودية بالاعتناق...؟!»[1] وليس كون العرب المسلمين من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكذلك عددهم هما الدليلان فحسب على حق المسلمين في امتلاك فلسطين والقدس والمسجد الأقصى، بل يدخل في ذلك كل الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الخاصة بذلك، ومنها تلك التي تؤكد أن الحق في وراثة الأرض المقدسة وغيرها من أرض الله يكون للمؤمنين الصالحين الذين آمنوا بالله واتبعوا دينه الحق وثبتوا عليه، كما أخبر الله بذلك في كتبه المقدسة: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾[2]، ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾[3]؛ ولذلك فإن بني إسرائيل لما كانوا هم المؤمنين الصالحين؛ فضلَّهم الله على العالمين وجعلهم أحق بالأرض من الوثنيين العرب، ثم لما انعكس الحال فكفر بعد ذلك اليهود ولعنهم الله وغضب عليهم، ودخل العرب في دين الله الحق وصاروا هم المؤمنين الصالحين؛ صاروا خير أمةٍ أُخرِجت للناس، وورَّثهم الأرض المقدسة ليعبدوه فيها ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا.[4]

---

(١) نشرت حركة العالم الأنجلوساكسوني المسيحي في فانكوفر، كتاب (متى هجوم ياجوج)، الذي اعتبر أن اليهود الإشكناز ليسوا من سلالة العبرانيين المشار إليهم في العهد القديم، وإنما ينحدرون من أصل تركي- منغولي. (رضا هلال: المسيح اليهودي ونهاية العالم ٢٠٦).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٤) حتى من ناحية القول بأن لليهود حقوقًا تاريخية في الأرض، فإن الكاتب والمؤرخ الإنكليزي المشهور و. وليز يقول في هذا الشأن: «إذا كان أمرًا عاديًا «إعادة بناء» دولة يهودية لم تعد موجودة منذ ٢٠٠٠ سنة، لماذا لا نعود إلى الوراء ألف سنة أخرى لإعادة بناء دولة كنعانية؟ خلافًا لليهود، لقد واصل الكنعانيون البقاء هناك طوال حقب التاريخ. فيما يتعلق بالحقوق التاريخية، وإذا ترك أمر شؤون العالم لتتوالد على أساس القواعد التي يضعها أو يعلنها أولئك الذين يقولون إن لهم مثل هذه الحقوق، فإن المغاربة الذين كانوا في إسبانيا لمدة ٧٠٠ عام يستطيعون أن يعلنوا أن لهم «حقوقًا تاريخية» في الأرض، وأن يطالبوا الإسبان بالخروج. والهنود الذين كانوا في أميركا لآلاف السنين قبل «اكتشافها» بواسطة الأوروبيين البيض، يمكن أن يقولوا لغير الهنود الذين يعيشون في أميركا اليوم: إن لنا «حقوقًا تاريخية» ولذلك عليكم النزوح». جريس هالسل: النبوءة والسياسة ١٤٠.

بل إن النص المذكور عن وعد الله لإبراهيم: «في ذلكَ اليومِ قطَعَ الرّبُّ معَ أبرامَ عَهدًا قالَ: «لنَسلِكَ أهَبُ هذِهِ الأرضَ، مِنْ نهرِ مِصْرَ إلى النَّهرِ الكبيرِ، نهرِ الفُراتِ»[1]؛ فقد حقق الله حرفيًا وفعليًا هذا العهد لإبراهيم وأورث نسله العرب المسلمين هذه المنطقة وانتهى الأمر، وسيبقى نسل إبراهيم من ابنه إسماعيل في هذه الأرض إلى آخر الزمان مهما زعم الصهيونيون أن هذا النص يخصهم هم، ومهما افتعلوا تحقيق هذا الوعد بالحروب والقتل وسفك دماء نسل إبراهيم عليه السلام.

أما اليهود فوعد الله تعالى فيهم واضح وثابت ومشاهد على أرض الواقع ولن يخلفه أبدًا، كما أعلم سبحانه: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾[2]؛ وكل من بعثهم عليهم فأساموهم سوء العذاب في الماضي من نبوخذ نصر، والرومان، والنصارى، والمسلمين، والألمان النازيين، والروس الشيوعيين وغيرهم، وكل مَن سيبعثه سبحانه عليهم ليسومهم سوء العذاب في المستقبل هو جزء من وعده فيهم...![3]، فقد ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾[4].

فكما أورث الله تعالى المسلمين المسجد الحرام ومكة، فكذلك أورثهم المسجد الأقصى وما حوله من بلاد الشام مع بداية انتشار دينه الإسلام، وبقيت هذه البلاد التي باركها الله بأيدي المسلمين منذ ذلك الحين، وكذلك ستكون إلى ما شاء في مستقبل الزمان؛ لأنها معقل المسلمين وفسطاطهم...! وما بين ذلك من

---

(١) التكوين ١٨/١٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

(٣) واليهود الأرثوذكس المتدينون يؤمنون بذلك تمامًا، قال الحاخام اليهودي ديفيد وايس: إن كل ما يحدث لليهود هو عقاب من الله، هتلر نفسه كان عقاب من الله.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

الزمان فإن أي أمة أو دولة غير مسلمة تقام على أي قطعة أرض من أرض الشام فهي حتمًا ستقام بقوة الحديد والنار وليس برضا أهلها، وهي حتمًا ستكون مؤقتة ومن ثم زائلة لا محالة طال زمانها أم قصر...!. هكذا كان قضاء الله - عزَّ وجلَّ - لكل دولة غير إسلامية أقيمت في الماضي على أرض الشام ثم أزالها سبحانه واستأصلها وأعاد الأرض إلى المسلمين.. هكذا قضى الله على كل الحملات الصليبية وما أنشأته من الدول والحكومات على أرض الشام، وكذلك قضى تعالى على كل حكومات المغول التتار، وهكذا أيضًا قضى على حكومات الاستعمار الصليبي.. وهكذا سيكون الأمر بالنسبة للدولة الصهيونية في يوم من الأيام.. ومَن تأمل في التاريخ سيعرف كيف يكون قضاء الله وعذابه على كل من يخطط من الأمم الصليبية أو الوثنية أو اليهودية الصهيونية أن يأتوا ويقيموا دولة على أي جزء من أرض الشام...! وعلى هذا.. فإن الدولة الصهيونية العنصرية لا بد زائلة ليس في ذلك أدنى شك، وإنما هي مسألة وقت وحتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ليهلك مَن هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة، وحتى تقام الحجة على هؤلاء اليهود.

الكذبة الكبرى:

إن يهود اليوم يزعمون أنهم هم المذكورون في التوراة ولكنهم ليسوا كذلك، ويزعمون أنهم من سلالة بني إسرائيل ولكنهم ليسوا منهم![1] فما معظم يهود العالم اليوم إلا من أمة الخزر، وهم شعب آسيوي وثني اعتنق اليهودية في القرن السابع الميلادي ولا ينتمي على الإطلاق إلى السامية، وليس بينهم يهود ممن ترجع أصولهم إلى يهود موسى أو أسلافهم من بني إسرائيل. وقد تفرق الخزر في أوروبا وشتى

(١) إن يهود بني إسرائيل هم من الجنس السامي ذي اللون الأسمر، وقانون الوراثة يقضي حتمًا بأن تكون سلالتهم تشبههم في الشكل والسحنة واللون، فأين أشكال يهود أوروبا وأميركا وإفريقيا وغيرها من بلاد العالم من أشكال بني إسرائيل الأصليين؟!.

أنحاء العالم منذ القرن العاشر الميلادي عندما هُزِموا أمام القوات الروسية مما أدى إلى تدمير مملكتهم اليهودية؛ فاختفى اسم الخزر وشعب الخزر.

وقد شهد شاهد منهم وهو اليهودي بنيامين فريدمان الذي كشف هذه الكذبة الكبرى في كتاب (يهود اليوم ليسوا يهودًا) فقال: «لقد استطاع أسلوب «الكذبة الكبرى» للاحتيال المروع الذي لم يعرف كل تاريخ البشرية مثيلاً له، أن يغسل أدمغة مسيحيي الولايات المتحدة الأميركية، ليغرز فيها كذبة أن من يدعون «يهودًا» في كل مكان من عالم اليوم هم من الناحية التاريخية يتحدرون ممن يُسمَّى «الشعب المختار» لـ «الأرض المقدسة» في تاريخ «العهد القديم». لكن أرفع المراجع والمستندات العلمية الخاصة بهذا الموضوع، تؤكد على حقيقة موضوعية مدركة على الوجه الأفضل، وهي أن من يزعمون أنفسهم «يهودًا» في كل مكان من عالم اليوم ليسوا من الوجهة التاريخية الصحيحة من سلالة الذين عُرِفوا بـ «يهود الأرض المقدسة» في تاريخ «العهد القديم»...[1] إن الحقائق المحققة المقررة التي لا تقبل الجدل ولا الاعتراض، تزودنا ببرهان لا شك فيه على صحة الحقيقة التاريخية بأن من يزعمون أنفسهم «يهودًا» من ذوي الأرومة الأوروبية الشرقية في كل مكان من عالم اليوم هم تاريخيًا يتحدرون على نحو لا يرقى إليه الشك ولا نزاع فيه من سلالة الخزر... ذلك الشعب

(١) تعد الرسالة الخزرية التي تبودلت باللغة العبرية بين حسداي بن شفروط -الذي كان وزيرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر في الأندلس- وملك الخزر يوسف من أهم المصادر التي تتحدث عن اعتناق الخزر لليهودية، وقد جرى تبادل هذه الرسالة في (٣٠٠-٣٥٠هـ-٩١١-٩٦١م)، وقد أجاب الملك الخزري عن سؤال حسداي الخاص بشعبه وأصله، ومن أي قبيلة من القبائل الاثني عشر اليهودية ينتسب الملك وشعبه ظنًا من حسداي أن يهود الخزر خرجوا من فلسطين شأنهم في ذلك شأن يهود الأندلس، فأجاب يوسف بأنه وشعبه يرجع أصولهم إلى يافث الابن الثالث لنوح ولا يرجعه إلى سام. فبالرغم من إيمان الملك الخزري الشديد باليهودية واعتزازه بقيامه على «صولجان يهوذا» فإنه لم يستطع أن يزعم أنه من أصل سامي وبذلك يكون الخزر لا علاقة لهم بالجنس السامي. (محمد عبد الشافي المغربي: مملكة الخزر اليهودية ٢٠٠-٢٠٥).

الوثني القديم- التركي - الفنلندي المغولاني (شبيه المغول)، الغامض الأصول بالنسبة لوجوده التاريخي في قلب آسيا، الذي شق طريق كفاحه بحروب دموية في حوالي القرن الأول قبل الميلاد نحو أوروبا الشرقية، حيث أقام مملكة الخزر... في حوالي سنة ٧٢٠م، أصبحت مملكة الخزر الوثنية تشكل شعب من يزعمون أنفسهم «يهودًا»، كما أضحى الملك بولان أول ملك للخزر، في السنة ذاتها، يدعى «يهوديًا» بالتحول والاعتناق. وكُرِّس دين الملك بولان الجديد بعد ذلك دينًا رسميًا لمملكة الخزر. ومنذ ذلك الحين لم يكن باستطاعة إلا من يدعى «يهودي»، ارتقاء عرش مملكة الخزر الخاصة بمن يزعمون أنفسهم «يهودًا»... سيشهد أكثر علماء اللاهوت والتاريخ ثقافة واطلاعًا على أن أجداد الخزر التاريخيين الأولين لمن يدعون اليوم «يهودًا»، لم يسمِّهم ادعاءً أي إنسان في أي مكان «يهودًا» قبل القرن الثامن عشر الميلادي. ففي هذا القرن سطا من يزعمون أنفسهم اليوم «يهودًا»، المتحدرين من سلالة الخزر تاريخيًا على كلمة «يهودي»، كي يتمكنوا من فرض أنفسهم، بالحيلة والخداع، في حالة من اللاوعي على مسيحيي العالم، على أساس الزعم أنهم عشيرة يسوع المسيح!.

والحقيقة أن من يزعمون أنفسهم «يهودًا»، المتحدرين تاريخيًا من سلالة الخزر، يشكِّلون أكثر من ٩٢ بالمئة من جميع مَن يسمون أنفسهم «يهودًا» في كل مكان من العالم اليوم. والخزر الآسيويون الذين أنشؤوا مملكة الخزر في أوروبا الشرقية أصبحوا يسمون أنفسهم «يهودًا» بالتحول والاعتناق سنة ٧٢٠م. وهؤلاء لم تطأ أقدام أجدادهم قط «الأرض المقدسة» في تاريخ «العهد القديم». هذه حقيقة تاريخية لا تقبل جدلاً»[1].

(١) بنيامين فريدمان: يهود اليوم ليسوا يهودًا ١١، ١٤، ١٥، ٢١، ٢٢، ٤٤، ٤٥ إعداد: زهدي الفاتح.

الخدعة الرهيبة:

لقد استطاع اليهود الصهيونيون استمالة كثير من النصارى الصهيونيين أيضًا، واستطاعوا أن يقنعوهم بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لن يعود إلى الأرض في مجيئه الأخير إلا عند قيام دولة لليهود في فلسطين...! فلم يترك هؤلاء النصارى الصهيونيون وسيلة أو طريقة لقيام دولة لليهود وتثبيتها ومساعدتها ودعمها إلا واستخدموها من أجل التمهيد لعودة المسيح. وبحسب اعتقاد هؤلاء النصارى فإنه لا بد من تنصير اليهود قبل مجيء المسيح عليه السلام، فجعل اليهود يأخذون منهم كل ما يريدون، ولا يعطونهم ما يريدون من التنصر، وما علم هؤلاء النصارى أنه من المستحيل تنصير اليهود؛ لأنهم أصلاً لا يعترفون بالمسيح عليه السلام ولا بدعوته! وعلى العموم؛ فلو تم التسليم بصحة اعتقادهم هذا؛ فذلك يعني أن عدم تنصر اليهود سيظل عائقًا أمام عودة المسيح ومانعًا له من النزول من السماء...!.

ولكن كل ذلك ليس إلا وهمًا كبيرًا، فالحق على العكس من ذلك تمامًا بحسب مجريات الأحداث وتسلسلها؛ إذ إن مجيء المسيح عليه السلام سيكون في زمن لا يوجد فيه دولة لليهود في فلسطين، وما دام هناك دولة لهم فلن يكون وقت نزوله قد حان بعد. فوقت نزوله سيكون بعد خروج مسيح الضلالة الأعور الدجال الذي سيتبعه اليهود ويأتون معه من أصفهان في إيران، وهم اتبعوه لأنه هو المسيح المنتظر بالنسبة لهم وهو ملكهم الذي يتوهمون بأنه سيحكم العالم بعد أن يعيد لهم ملكهم في فلسطين والقدس، وسيأتون معه إلى فلسطين فعلاً ولكنهم ومسيحهم الدجال سيُصعَقون عندما يرون أنفسهم في مواجهة المسيح الحقيقي مسيح الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام الذي يكون قد نزل من السماء في هذه الأثناء وانضم إلى معسكر المسلمين. وبناءً على ذلك؛ فإن قيام دولة إسرائيل في فلسطين ليس عاملاً مسببًا لمجيء المسيح، بل علامة على عدم مجيئه إلى أن تزول هذه الدولة، وبزوالها يصبح نزوله مسألة وقت وحتى يأذن الله له بالنزول.

وهذا الوهم ليس هو الوحيد الذي استطاع اليهود الصهيونيون أن يوهموا به قسمًا من العالم المسيحي، بل استطاعوا أن يوهموا كثيرًا منهم بتفسيرات خاطئة لنصوص الكتب المقدسة. قال الله تعالى عنهم: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾[1]، أي؛ إن فريقًا من اليهود يتأولون كلام الله على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله قصدًا منهم وافتراءً، ليوهموا الجهلة أنهم كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب عليه، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2]. وهذا عين ما نص عليه كتابهم: «ويتكهَّنونَ للشَّعبِ بالكَذِبِ، فيقولونَ: هكذا قالَ السَّيِّدُ الرّبُّ، والرّبُّ ما قالَ شيئًا»[3]. وهذا هو الذي ما زالوا يفعلونه...!.

ومن الأمثلة على ذلك النص الذي يتحدث عن سلالة إبراهيم عليه السلام: «سوف أبارك من يباركهم وألعن مَن يلعنهم» وغير خاف على أحد أن اليهود قد لعنوا المسيح عيسى عليه السلام وهو من سلالة إبراهيم، وتنكروا لرسول الله محمد عليه السلام الذي هو من سلالته أيضًا، ولعنوا وقتلوا غيرهما من الأنبياء من سلالة إبراهيم عليه السلام؛ وبناء عليه يكونون هم الملعونين، ونصوص أناجيل النصارى تؤكد ذلك على لسان المسيح نفسه. أما المسلمون فهم وحدهم الذين يباركون جميع الأنبياء والرسل من سلالة إبراهيم ولا يفرقون بين أحد منهم، فهم في الحقيقة المباركون. ولكن الصهيونيين يستخدمون هذا النص لإغراء النصارى الصهيونيين بأنهم إذا أرادوا الحصول على بركة الله فيجب عليهم مباركة اليهود الصهيونيين ودعمهم حتى النهاية في كل شيء وخصوصًا فيما يتعلق بدولتهم الصهيونية، فجعلوا ذلك عبادة وتقربًا إلى الله! ومن جهة أخرى

(١) سورة النساء، الآية: ٤٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٨.

(٣) حزقيال ٢٢/٢٨.

فإنهم يخوفونهم ويمنعونهم من مجرد التفكير في لعن اليهود الصهيونيين وإلا سيلعنهم الله! ومن هذا وغيره كان السر في دعمهم غير المحدود لدولة الصهاينة! فلو كان دعمهم لليهود كيهود حقًا، ويؤمنون بالتوراة فعلاً، لكان لزامًا عليهم - بدلاً من دعمهم لوجود وبقاء هذه الدولة - أن يدعموا أيضًا فرق اليهود الأخرى غير الصهيونية، وأن يتبعوا تعاليمها التي هي ضد إقامة دولة لليهود في فلسطين، بل تعد قيام دولة إسرائيل في فلسطين كفرًا ضد الله، وضد التوراة، وظلم فادح للشعب اليهودي، ويتبرؤون من هذه الدولة الصهيونية ويُصَلون من أجل تفكيكها وإزالتها، ويؤيدون حق الفلسطينيين في المقاومة واستعادة أرضهم كاملة؛ لأنهم تعرضوا للاضطهاد وسُرقت أرضهم، إلى آخر ما هنالك من مبادئ وتعاليم ضد هؤلاء الصهيونيين العنصريين ودولتهم.

لقد تسلم هؤلاء الصهيونيون اليهود فلسطين من البريطانيين الذين مزقوا مع حلفائهم الاستعماريين بلاد المسلمين إلى كياناتٍ ودولٍ صغيرة، ليصنعوا في غفلة من المسلمين كيانًا صهيونيًا على أرض فلسطين المسلمة، وليجلبوا إليه يهودًا من جميع بلدان العالم، وليجعلوا هذا الكيان خنجرًا مسمومًا مغروزًا في قلب العالم العربي والإسلامي ليحقق لهم أيضًا مصالحهم الخبيثة مثل: منع المسلمين من الاستقرار والأمن بالانشغال الدائم بهذا الجسم الغريب والعيش في قلق واضطراب مستمر، والحيلولة دون إعادة توحيد أجزاء العالم الإسلامي في دولة واحدة قوية، وغير ذلك من المصالح والأهداف التي يحققها هذا الكيان الذي هو بمثابة القاعدة المتقدمة للعالم المسيحي الذي يستفيد بالوقت نفسه بالتخلص مما عنده من اليهود الذين طالما عانوا من شرورهم وجرائمهم وخطرهم، كما صرح بذلك زعماء العالم المسيحي أمثال: (بنجامين فرانكلن) و(نابليون) والملك الفرنسي (لويس التاسع) وغيرهم...

السقوط في الاختبار:

لقد نصت الكتب المقدسة على أنه قد سنحت لليهود فرص كثيرة فلم يقابلوا الله إلا بالكفر والجحود والعصيان والظلم والفساد والإفساد في الأرض...! وقد كانت هذه الدولة الصهيونية فرصة جديدة لهؤلاء الذين يسمون أنفسهم يهودًا، واختبارًا آخر لهم، فسقطوا في هذا الاختبار سقوطًا مريعًا، وفشلوا فشلاً رهيبًا...!. لقد جعلوا العالم أجمع يضجر من أفعالهم السيئة في هذه الدولة وفي بلاد العالم بسببها، حتى إنهم لم يتركوا بلدًا إلا وزرعوا الحقد والكراهية في قلوب شعبه تجاههم بما في ذلك الشعوب المسيحية الأوروبية وغيرها، حتى وصفتهم تلك الشعوب بأنهم سبب الشر في العالم، وأن دولتهم (إسرائيل) تشكل أكبر تهديد للسلام في العالم[1]، وصار كل بلد يتمنى الانتقام منهم، تمامًا كما فعل أسلافهم

(١) أظهرت نتائج الاستطلاع الذي أجراه الاتحاد الأوروبي أن ٦٠٪ من الأوروبيين قد اختاروا (إسرائيل) من ضمن قائمة تضم ١٥ دولة تشكل تهديدًا للسلام العالمي. وجاء هذا الإعلان كمؤشر حقيقي لتنامي العداء ضد اليهود. وسوف تتكشف الدولة الصهيونية وتتعرى أمام العالم أجمع يومًا بعد يوم، وسيأتي يوم يبطل فيه مفعول تهمهم للآخرين ومنها تهمة (اللاسامية)، وستسبب مزيدًا من تأليب الناس عليها وانتقادها والسخرية منها. وهذا يتفق مع نبؤات أنبيائهم: «فلذلكَ جعَلتُكِ عارًا للأمَمِ وسُخريةً لجميعِ البُلدانِ». فنحن نرفض معاداة السامية ولا نقبل من أحد أن يكره اليهود أو غيرهم من الأمم لجنسهم؛ أولاً: لأننا جميعنا من خلق الله، وثانيًا: لأننا جميعنا من ذرية أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث، وثالثًا: لأن معاداة السامية تعني معاداتنا نحن العرب أيضًا؛ لأننا ساميون فسام أبو العرب، والذي يكره العرب ويعاديهم لجنسهم فهو معادٍ للسامية.. إلا أن ما ينتشر في العالم مما يسميه اليهود (معاداة السامية) هو في الحقيقة معاداة لأعمال اليهود الشريرة ومؤامراتهم ضد الشعوب المختلفة وليس معاداةً لجنسهم، وإلا لكان لزامًا على كل مَن يعادي اليهود ويكرههم أن يكون كذلك أيضًا مع العرب لكونهم من الجنس نفسه. أي أن أفعال اليهود السيئة والشريرة التي جعلتهم يبوؤون بغضب من الله ويلعنهم في كتبه المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، هي أيضًا سبب انتشار كره اليهود في العالم، فهل الذي ذُكِر عنهم في الكتب المقدسة من أفعال السوء والشر يعد معاداةً للسامية؟!. وإن الضغوط التي يمارسها اليهود على حكومات الدول لمعاقبة المعادين للسامية وإصدار القوانين الخاصة لمنعهم من توجيه أي اتهامات أو انتقادات لليهود، فإن هذه الضغوط والقوانين -التي يفرح اليهود لنجاحهم فيها- هي نفسها التي تزيد من انتشار كراهية اليهود في العالم حتى يحدث الانفجار وتحين الفرصة للناس للانتقام من اليهود كما حدث في الماضي وكما جرت سنة الله فيهم، أي أن من مكر الله - عزَّ وجلَّ - باليهود ومعاقبته المستمرة لهم إلى يوم القيامة كما وعد وأمر وأذِن؛ أنهم بتخطيطهم وأفعالهم وبأيديهم أنفسهم يقعون فيما يريدون الهرب منه وتجنبه.

اليهود في الماضي بأهل أوروبا الذين لم تسنح لهم فرصة في الانتقام من اليهود إلا واستغلوها وأعملوا السيف في رقابهم، ولو أُتيحت الفرصة اليوم لكثير من البلدان لفعلوا فعل أوروبا فيهم؛ لأن أفعال هؤلاء اليهود الصهيونيين وأعمالهم السيئة قد هيأت العالم كله للمشاركة في أي مهلكة يقع فيها اليهود لتصبح مهلكة عالمية لهم جزاءً وفاقًا على ما يخططون له من السيطرة على العالم وإخضاع العالم لهم ليكون كل يهودي ملكًا وكل (غوييم)[1] عبدًا![2] فيكون جزاؤهم من جنس عملهم.

المهلكة العظيمة:

لقد اقتضى عدل الله - جلَّ وعلا - أن هذه الدولة اليهودية الصهيونية الظالمة لا يمكن أن تعيش وتدوم، كما قال سبحانه: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾[3]؛ فالله تعالى يمهل هذه الدولة، ويؤخرها حتى يأتي موعد هلاكها وزوالها. لقد أثبت اليهود الصهيونيون على أنفسهم أنهم لا يتعظون؛ لأن قلوبهم قد عميت عن تبين ما تكون نتيجة أعمالهم وما يكون مصيرهم...! وهو ما أثبته عنهم كتابهم: «بَنو إِسرائيلَ لا يَتَّعِظونَ، لأنَّ لا بَصيرَةَ فيهِم. لَيتَهُم حُكَماءُ فيَعقِلونَ ويتَبَيَّنونَ ما تكونُ آخِرَتُهُم»[4]. فقد أخذوا في إيجاد مهلكتهم بأيديهم، بل إنهم سعوا في تثبيت هذه المهلكة سعيًا عجيبًا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا! هذه المهلكة هي هذه الدولة التي أقاموها على أرض فلسطين وأطلقوا عليها اسم النبي (يعقوب عليه السلام) إسرائيل، وهو منهم براء ! ففضلاً عما تصف فرق متدينة من اليهود إنشاء

---

(١) جوييم أو غوييم: هم جميع الأمم غير اليهودية.

(٢) قال الحاخام إيمانويل رابينوفيتش: «يجب أن أبلغكم أن الهدف الذي لا زلنا نعمل من أجله منذ ثلاثة آلاف عام قد أصبح في متناول يدنا الآن... وأستطيع أن أعدكم أنه لن تمر عشر سنوات حتى يأخذ شعبنا مكانه الحقيقي في العالم ويصبح كل يهودي ملكًا، وكل جوييم عبدًا»، (وليام غاي كار: أحجار على رقعة الشطرنج ٢٢٤).

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٩.

(٤) التثنية ٣٢/٢٨-٢٩.

هذه الدولة بأنه معصية لله وثورة عليه، فإن هؤلاء اليهود الصهيونيين قد ارتكبوا الخطأ القاتل نفسه الذي سبق أن ارتكبه من قبلهم الصليبيون أصحاب الحملات الصليبية وأصحاب الاستعمار، والمغول التتار الوثنيون...!.

وواضح جداً أن هؤلاء الصهيونيين ليس لهم سوى هم واحد هو إقامة واستمرار هذه الدولة بأي شكل من الأشكال، سواء أكان ذلك ضد أوامر الله أم ضد التاريخ أم ضد الواقع أم ضد كل شيء، ولو أنهم درسوا تاريخ المسلمين وهذه المنطقة من العالم، وهي الشام، لظهر لهم عواقب احتلال جزء من هذه الأرض وإقامة دولة يهودية صهيونية عليها!. وربما درسوا التاريخ ولكن الشيطان أغواهم بتجاهله وأوهمهم بأنهم جنس مختلف عن جنس النصارى والمغول الذين هم جميعًا بنظر اليهود وثنيون، وأوهمهم كذلك بأنهم شعب الله المختار الذين لا يرد الله لهم مطلبًا ولا يحرمهم من رغبة، فهم الشعب الوحيد البشري وغيرهم (الغوييم) هم شعوب حيوانية[1]؛ ولذا فبإمكانهم أن يفعلوا ما يريدون في أرض الشام؛ فيحتلون فلسطين ويقيمون عليها دولة، بأي وسيلة يحبون، وبأي طريقة يرغبون...! وبالوقت نفسه صرف الشيطان أنظارهم عن الحقيقة المرة لهم ولغيرهم من المحتلين الغرباء، وهي أن التسلل والاندساس في هذه المنطقة من قبل المحتلين هو كشخص تسلل واندس بين أسنان قرص مسننات كبير متحرك في غفلة من صاحب المسننات، ونسي أن تسلله واندساسه هو مسألة وقت فقط حتى تتشابك أسنان هذا القرص في دورانه بأسنان أقراص مسننات أخرى تديره، وعندها يتمزق المتسلل إربًا إربًا...! هكذا كان شأن كل المحتلين المندسين في الماضي، وهكذا يكون أيضًا شأن كل محتل يتسلل ويندس في الحاضر والمستقبل؛ إنما هي مسألة وقت فقط ثم التمزق والمهلكة...!.

(١) قال اليهودي أمشيل ماير روتشيلد: «تذكروا يا أبنائي أن الأرض جميعها ينبغي أن تكون ملكًا لنا نحن اليهود، وأن غير اليهود حشرات يجب أن لا يملكوا شيئًا» (حكومة العالم الخفية ٥٠).

هكذا فعل اليهود الصهاينة أيضًا، ففي غفلة من المسلمين العرب الذين كانوا واقعين تحت الاحتلال الصليبي البريطاني والفرنسي والإيطالي؛ الذي أنهكهم، وبدد قواهم، وفرق جمعهم، جاء الصهاينة من أقطار شتى وتسللوا إلى فلسطين واندسوا فيها بحماية ورعاية المحتل البريطاني الذي لم يغادر فلسطين حتى قامت دولة للصهيونيين فيها وتم الإعلان عنها وذلك بالأمس القريب فقط في العام (١٩٤٨م)...! فظن الصهاينة أنهم قد أحسنوا صنعًا ولم ينتبهوا أنهم قد اندسوا بين أسنان قرص مسننات كبير يدور بهم ومتداخل مع أقراص مسننات أخرى، كلما دار دورة مزق أعدادًا منهم، وهكذا حتى يقضي عليهم بالكلية أو يفر منه بعض من يريد النجاة بنفسه من هذه المهلكة العظيمة التي جاء اليهود بأرجلهم إليها. هذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة.

إن الصهيونيين لم يقيموا دولة تملك مقومات الاستمرار، بل أقاموا مهلكة عظيمة لهم تحمل في بطنها بذرة انهيارها وهلاكها وزوالها...! لقد زرعوا دولة غريبة في داخل جسم لا يقبلها، ومهما طال الزمن، ومهما حقنوا هذا الجسم بالمواد التي تجعله يقبل هذا الجسم الغريب الدخيل فلن يقبله وسيلفظه ولو بعد حين...! أقاموا دولة ميتة زائلة من أول يوم أعلنوا فيه قيامها، وستعجز أجيالهم القادمة عن إبقائها خارج قبرها وسيضطرون إلى دفنها بأيديهم، أو بأيدي عباد الله المسلمين، أو بأيدي مَن شاء الله من عباده الذين سيجعل هلاك اليهود وزوال دولتهم على أيديهم.

إن الله تعالى يؤتي المُلك مَن يشاء وينزع المُلك ممن يشاء. وهذا ما قدَّره تعالى وقضاه لأرض الإسراء والمعراج ألاَّ يكون فيها دولة لليهود أبدًا، بل لقد كانت سنته تعالى مع اليهود أنهم كلما أقاموا فيها دولة فعصوه وأفسدوا جعلها مهلكة عظيمة لهم؛ وهذا ما يؤمن به فعلاً اليهود الأرثوذكس المتدينون، ولهذا يحرمون إقامة دولة لليهود لكونهم يؤمنون بأن التوراة واليهودية الأصلية ترفض قيام دولة لليهود؛ لأنه محكوم عليهم بالنفي والتشرد الدائم كعقوبة إلهية بسبب آثامهم.

ففي مرة عصوا الله وقتلوا أنبياءه فسلَّط سبحانه عليهم سرجون الآشوري في سنة ٧٢٢ ق.م، فاستولى على السامرة عاصمة إحدى مملكتيهم في ذلك الوقت، وفي سنة ٥٨٧ ق.م سلَّط الله عليهم ملك بابل نبوخذ نصر وجيوشه فاستولوا على بيت المقدس، وخربوا الهيكل، وأخذوا ما وجدوا من الأموال، وقتلوا الكثير منهم، وساقوا البقية أسرى إلى بابل، وكان في ذلك نهايتهم في بيت المقدس. وفي سنة ٥٥٠ ق.م ضم كسرى (كورش ابن أستير اليهودية) أراضيهم إلى مملكته. وفي سنة ١٦٠ ق.م دخلوا تحت حكم الرومان. وفي سنة ٧٠م سلَّط الله عليهم الإمبراطور الروماني تيطس فسحقهم ودمر الهيكل[١]؛ فتحققت بذلك فيهم نبوءة رسول الله عيسى عليه السلام الذي أخبر تلامذته عن تدمير الهيكل وأنه لن يُترك حجر على حجر، عقوبة من الله لليهود[٢]. وفي سنة ١٣٥م حاولوا إقامة دولة لهم، وذبحوا المسيحيين في القدس؛ فسلَّط الله عليهم الرومان فسحقوهم وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وتشتت الباقون في مختلف بلدان العالم. وفي القرن الرابع حاولوا بناء الهيكل فزلزل الله الأرض من تحتهم فتهدم على بنَّائيه، وفي القرن السادس تجمعوا وأقاموا عليهم ملكًا من السامريين، وقتلوا المسيحيين من جديد، فسلَّط الله عليهم (جوستنيانوس) فسحقهم. وفي أوائل القرن السابع قاموا برعاية الفرس بمذبحة للمسيحيين في فلسطين طمعًا بإنشاء حكومة لهم هناك، ولكن الفشل كان حليفهم، واستمر تشتتهم في بلدان العالم.[٣] وهكذا كلما عادوا إلى الإفساد عاد الله عليهم بالهلاك.

وها هم قد عادوا إلى إقامة دولة لهم، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الإفساد مما هو أعظم من ذي قبل، غير أن مذابحهم أصبحت في حق المسلمين بدلاً من

(١) راجع هامش صفحة ١٣٦، ففيها شرح عن الهيكل وحقائق تجزم بعدم وجود آثار له تحت المسجد الأقصى كما أثبت ذلك علماء الآثار ومنهم الإسرائيلي (مائير بن دوف).

(٢) متى ٢٤/١-٢.

(٣) انظر: أحمد عرموش، خاتمة كتاب أحجار على رقعة الشطرنج لمؤلفه وليام كار ٣٥٩-٣٦٠.

المسيحيين...! فما داموا قد عادوا إلى الإفساد فإن الله - عزَّ وجلَّ - سوف يعود عليهم بمهلكة عظيمة تسحقهم وتشتت الأحياء الباقين منهم؛ عقوبة لهم على عصيانهم أوامره وارتكابهم نواهيه ونشرهم للظلم والفساد، حيث إن الله تعالى لم يصف أمة تسعى في الأرض فسادًا غيرهم، فقال تعالى: ﴿ **وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[1]، ولم يكشف سبحانه عن نوايا أمة في إيقاد نار الحروب المستمرة المتكررة غيرهم، وإن مَن يذكرهم سبحانه في كتابه العزيز بصفة سيئة أو عمل خبيث فيعني أنهم قد بلغوا القمة في ذلك من بين خلقه أجمعين، ولا أحد في العالم يدانيهم أو يجاريهم فيه، ومع ذلك فإن الله تعالى قادر على أن يرد كيدهم إلى نحورهم، وأن يجعل تدبيرهم تدميرًا لهم وليس للمسلمين، لأنه تعالى قال: ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[2]، فيمكن لليهود أن يمكروا مكرًا بالمسلمين ويتحمسوا لتنفيذه أشد الحماس؛ ولكنه هين على الله أن يجعل مكرهم دمارًا لهم وبوارًا عليهم، ويكون فيه هلاكهم أو فيه ما يضرهم ولا ينفعهم. فالله ذو الجبروت والملكوت، وله سبحانه تدبير في كل شيء مهما دق أو جل، كما قال تعالى عنهم: ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ** ﴾[3]. ولكنهم يظنون أنه باستطاعتهم هم تدبير الأمور والتصرف بالنبوءات، وتغيير المقدر عليهم أو تأخيره، وتبديل سنة الله فيهم، ومنع حصول الأحداث المستقبلية التي ليست في صالحهم أو تغيير مجرياتها، وتنفيذ مخططاتهم الشريرة...!.

بداية النهاية:

إن مَن يتأمل في الحالة الهستيرية والكثرة الرهيبة لأعمال الظلم والفساد التي يرتكبها اليهود الصهيونيون في الأرض ضد المسلمين بشكل متسارع ومتكرر لَيتعجب

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

أشد العجب من أمرهم...! فلا يمضي يوم إلا ويقتلون أنفسًا من المسلمين، ويسجنون بعضًا منهم، ويهدمون بيوتًا لهم، ويطردون بعضًا آخر. ولا تمضي مدة قصيرة إلا ويصدر فيها قرار ضدهم وضد تصرفاتهم غير الإنسانية من جمعية الأمم المتحدة ومن مجلس الأمن فلا ينصاعون ولا يمتثلون، بل يسخرون من العالم أجمع ومن جمعيتهم الأممية المتحدة، حتى حصلت دولتهم على أكبر مجموعة من القرارات الدولية الصادرة ضد دولة ما في تاريخ هذه الجمعية، ومن أجلهم أصبحت دولة الولايات المتحدة صاحبة أكبر عدد من استخدامات حق النقض (الفيتو) لصالح الدولة الصهيونية...! وصارت دولة الصهيونيين هي الوحيدة التي ترفض علنًا تنفيذ القرارات الدولية، بل يفخرون برفضها ويصرحون بأنهم يرمونها في مزبلة التاريخ، بل يعدون القانون الدولي كله مجرد قصاصة ورق، ولا يتعاملون إلا بلغة القوة والحروب، كأنهم يقولون للعالم إنهم فوق الشبهات، وفوق أي قانون، وفوق العالم كله، وهذا من العلو في الأرض الذي أخبر الله تعالى به، وبقي الأمر الآخر الذي أخبر سبحانه به وهو إهلاك هذه الدولة ومعاقبة هؤلاء اليهود الصهاينة الذين أفسدوا في الأرض فسادًا لا يحصيه إلا الله تعالى، ويتبرأ منه حتى اليهود غير الصهيونيين...!.

حتى في عالم الاختراع فقد برعوا في اختراع الأسلحة القاتلة والأدوات القمعية وغير ذلك مما وصفه شاهد منهم هو يعقوب شريت[1] فقال: «إن العقل اليهودي يوجد اختراعات فعلاً. هراوات، وهراوات بلاستيكية. قاذفات حصى، وقنابل غاز. رصاصات خشبية، وأخرى بلاستيكية. اقتلاع الأشجار المغروسة. تكسير الأطراف وأساليب التعذيب. فتح معسكرات اعتقال. طرد خارج الحدود. منع تجول، حصار، تجويع، تدمير بيوت، إغلاق بيوت، إلحاق خسائر اقتصادية، قطع

(١) يعقوب شريت، كاتب ومفكر، ابن موشيه شريت (شرتوك) أحد الآباء الروحيين والمنفذين أيضًا للمشروع الصهيوني، ووزير خارجية بن غوريون، ورئيس الوزراء الإسرائيلي الثاني.

المياه، والكهرباء، مصادرة صحف، إغلاق مدارس. ماذا بقي لم تخترعه إسرائيل؟ وهذا كله علاوة على تنفيذ تعليمات وزير الدفاع الإسرائيلي المبدع بألاَّ يبقى (منتفض دون ندبة في وجهه)»[1].

إن قدر الله - عزَّ وجلَّ - وسنته الماضية في الأمم والدول تقول إنه لن تنجو من العقاب والهلاك دولة جعلت حياتها بالحروب والقتل والتدمير والاحتلال! وكيف ستنجو دولة من الهلاك لم يمض على إيجادها سوى سنوات قليلة حتى شنت على البلدان الإسلامية المجاورة حروبها المدمرة، واحتلت أجزاء وأراضٍ من جميع الدول التي تجاورها...؟! ويزعم شعبها أنهم من ذرية إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وقد تركوا شعوب الأرض الذين لا يمتون إليهم بصلة القرابة والرحم تنجو من بطشهم وقتلهم، وبطشوا وقتلوا العرب من أبناء عمهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام...! والزعماء فيها هم الذين كانوا قد ارتكبوا المجازر ضد المسلمين في أول تأسيسها، ولا ينال الرجل فيها الاحترام والتقدير إلا بقدر ما يزخر سجله بارتكاب المذابح في حق المسلمين والخوض في دمائهم حتى يصبح أوفرهم حظًّا لنيل المناصب الرسمية العليا أكثرهم قتلاً للمسلمين...! ولا يتورع أهلها عن قتل حكامهم وزعمائهم إذا أبدوا أي تساهل أو عقدوا أي اتفاق مع المسلمين كما قتلوا بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة رئيس وزرائهم في العام ١٩٩٥م...! وليس في ذلك أي غرابة إذا تذكرنا ما أخبر الله به عن أسلافهم اليهود الذين كانوا يقتلون أنبياء رب العالمين...! حتى موسى عليه السلام نفسه لم ينج من أذاهم مع علمهم بأنه رسول الله إليهم حتى اضطروه أن يقول لهم: ﴿**يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**﴾[2]. وفي العهد القديم: «فصرخ موسى إلى الرّبِّ: «ماذا أفعَلُ بهؤلاءِ الشَّعبِ؟

(١) يعقوب شريت: دولة إسرائيل زائلة ١١٠.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

بعدَ قليلٍ يرجمونَني».[1] وكما لم ينج أسلافهم من الهلاك على ما فعلوا، فكذلك لن ينجو هؤلاء من المهلكة العظيمة التي ستأتيهم لا محالة طال الزمان أم قصر، وكان ذلك على رب العالمين يسيرًا، وكان وعده إياهم بالهلاك وعدًا مفعولاً ...!.

مقدمات ونماذج الزوال:

إن يهود الكيان الصهيوني يزرعون اليوم ما يحصدونه غدًا؛ فهم - من حيث لا يشعرون - يمدون الشعب الفلسطيني بسلاح الحقد والكراهية وحب الانتقام والأخذ بالثأر، ويعدونهم الإعداد الجيد ويدربونهم التدريب الممتاز ويزودونهم بخبراتهم العظيمة اللازمة لاستخدام هذا السلاح...! وإن العالم ليشهد باستمرار النتائج الجيدة والباهرة لذلك الإعداد والتدريب، بل ولباب الإبداع في التخطيط والعمليات العسكرية الذي فتحوه للفلسطينيين بأيديهم؛ حيث أخذ الفلسطينيون في تنفيذ العمليات العسكرية الجريئة التي لم يسبق لها مثيل، وحققوا في ذلك النجاح الباهر...!.

إن من جبروت الله أن يهزم القوة العظيمة الظالمة الجائرة بأضعف خلقه، ليعلموا أنه لا إله إلا هو وليس القوة أو السلاح أو غير ذلك، ويذل سبحانه ويهين من ينازعه في جبروته وقوته، ويسلط على الجبابرة أضعف خلقه ليرغم أنوفهم ليعلموا أنهم لا شيء وأن الأمر كله له وبيده، وأنه رب العالمين وجبار السماوات والأرض. فها هم اليهود الصهاينة لما أعلنوا أن جيشهم لا يُقهر، وأنه من أقوى الجيوش في العالم؛ سلَّط الله عليه أضعف الناس وهم الأطفال الذين انتفضوا في وجه هذا الجيش وقاوموه بالحجارة، حتى صار الجنود المدججون بأحدث الأسلحة يفرون منهم ومن أحجارهم...! وأخذت دولة الصهاينة تئن تحت وطأة انتفاضة أطفال الحجارة، وهي تكلفهم ملايين الدولارات يوميًا، وتضعف اقتصادهم، وترهق جنودهم، وتخيف مستوطنيهم وغير ذلك من أسباب الهلاك والخسران...!.

(١) الخروج ١٧/٤.

لقد قدم القادة العسكريون الصهاينة خدمة كبيرة للمسلمين، وهم بطبيعة الحال لا يريدون ذلك ولكنه قهر الله وجبروته. فقد شنوا على المسلمين في فلسطين حربًا شعواء شنيعة؛ فاكتسحوا المناطق الفلسطينية بجيشهم المجهز بأحدث ما وصلت إليه آلة الحرب العسكرية، فارتكب المجازر التي لم يفرق فيها بين رجل وامرأة، أو بين شيخ ورضيع، ودمر الأماكن على مَن فيها من سكانها، ومحا من الوجود أحياءً بكاملها، ومَن لم يستطع قتلهم من الأرض أتاهم من السماء بطائراته وصواريخه المعدة لضرب التحصينات العسكرية للجيوش فضرب بها عماراتهم وشققهم السكنية المدنية، ومَن لم يكونوا في بيوتهم، طاردهم بالمروحيات فقصفهم بالصواريخ وهم في سياراتهم، واعتقل الآلاف من الرجال والنساء والأطفال فعذبهم وزج بهم في السجون، ودمر المزارع والبساتين واقتلع الأشجار وأفسد الأرض بما فيها من بنى تحتية...! حتى إذا ظن هؤلاء القادة وجيشهم وأتباعهم الصهاينة ومَن يدعمهم من الدول الأخرى أنهم قد انتصروا وأنهم قاب قوسين أو أدنى من تحطيم الفلسطينيين ودفعهم للرحيل عن فلسطين، أتاهم بأس رب العالمين؛ فرد كيدهم في نحورهم، وجعل ما دبروه ويدبروه ضد المسلمين تدميرًا لهم، وقلب شرهم خيرًا للمسلمين، وحول إجرامهم إلى خدمة هي الأولى في تاريخ الحرب بين المسلمين والصهاينة...!.

فأولاً، حطم الله تعالى أسطورة جيشهم الذي لا يُقهر التي كانت عالقة في أذهان المسلمين، وهي الأسطورة الوهمية التي طالما روجها اليهود عن جيشهم لتخويف المسلمين وإرهابهم، وكسر عزَّ شأنه هيبة جيشهم في أعين المسلمين حتى أصبح الطفل الأعزل إلا من حجر يواجه دباباته ويتسلق عليها بلا خوف أو وجل! وأصبح المقاتل الفلسطيني يكمن للدبابات فيفجرها، ويواجه الجنود الصهاينة في عمليات نوعية لم تُنفَّذ منذ قيام الدولة الصهيونية، وهذا كله في المناطق الفلسطينية المحتلة البعيدة عن المناطق والمدن التي احتلها الصهاينة من قبل وأقاموا

عليها دولتهم في العام ١٩٤٨م؛ فضج الكيان الصهيوني وجيشه من ذلك، وتعالت صيحات الاعتراض ورفض الخدمة في هذا الجيش، حتى إذا لم تهدأ هذه العواصف في الكيان الصهيوني، ظهرت لهم من حيث لا يشعرون عمليات جديدة لم يسمع العالم بها من قبل؛ وهي القنابل البشرية التي اقتحمت عليهم مدن دولتهم نفسها، وتفجرت في قلبها الذي لم يخطر في ذهنهم أن تطلق فيه رصاصة واحدة ضدهم في يوم من الأيام، فقضَّت هذه القنابل مضجع الصهاينة، وهزت كيانهم، وزلزلت أركان دولتهم وأعمدتها التي تستند عليها، وهو ما يُذكِّر بقول الله تعالى: ﴿ **فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾، فلاح للمسلمين مقدار ضعف هذه الدولة التي هي أشبه ببيت العنكبوت.

لقد جعلتهم القنابل البشرية يصرحون لأول مرة أنهم يخوضون صراع وجود، وأن وجود دولتهم قد أصبح في خطر؛ فهم لا طاقة لهم بالقنابل البشرية، ولن يجدوا لها دفعًا ولا مقاومة...! وتوقفت حركة هجرة اليهود إلى الكيان الصهيوني، بل ودارت عجلة الهجرة العكسية والفرار من هذا الكيان الذي قيل لهم عنه إنه نعيم فوجدوه جحيمًا...! وازدحمت مصارفهم باليهود الذين يريدون سحب ودائعهم خوفًا من المستقبل المجهول، وتكدست في السفارات الغربية طلبات التأشيرات للسفر إلى الدول المختلفة في أقرب فرصة، وبدأ الاقتصاد في الانهيار، وكثر الإفلاس، وكثر الانتحار...!. فهكذا قضى الله بظهور نماذج وأمثلة على يسر زوال هذا الكيان الصهيوني وسهولته عندما يأذن سبحانه بزواله.

يهود ضدها ويؤمنون بزوالها:

إن زوال هذه الدولة الصهيونية حقيقة قد لا يعلمها الصهيونيون وإنما تعلمها فرقة اليهود الأرثوذكس المخلصون ليهوديتهم، بل يعدون إقامتها في فلسطين كفر

(١) سورة النحل، الآية: ٢٦.

وثورة ضد الله تعالى؛ لأنه لا يجوز إقامة دولة لليهود بعد أن عاقبهم الله بإزالة دولتهم وتفريق جموعهم في البلدان المختلفة على ما اقترفوا من آثام، ولهذا لما أُعلن عن قيام دولة (إسرائيل) في العام ١٩٤٨م؛ أرسلت هذه الفرقة رسالة إلى الأمم المتحدة تؤكد فيها رفضها قيام هذه الدولة. وهذه الفرقة من اليهود المتدينين مستمرة على رفضها الاعتراف بوجود أو سلطة دولة إسرائيل المزعومة، وتعمل على البيان للناس بأن التوراة واليهودية الصافية الأصلية ترفض الاعتراف بحق أي شخص في إنشاء دولة يهودية في مرحلة النفي الحالية. وهذه الفرقة تتبرأ من الصهيونية وتعاديها وتنأى بنفسها أن تتلوث بها، ويؤمنون بأن اليهود الحقيقيين ضد سلب العرب أرضهم وبيوتهم، وأنه طبقًا للتوراة، يجب أن تعاد الأرض إلى العرب، وأنه لا يجوز للصهيونيين الحصول على بوصة واحدة في فلسطين. ويذكرون بأن الصهيونيين ادَّعوا أنهم يبحثون عن ملاذ آمن للشعب اليهودي وعن حل لمشكلة النفي، وقد تحققت أمانيهم في العام ١٩٤٨م، ولكن تلك الأماني قد ثبتت أنها زائفة ومدمرة؛ لأنه بدلاً من قيادة الشعب اليهودي إلى السلام، قادوهم بشكل متواصل إلى سلسلة من إراقة الدماء، كانت البداية في القدس في العام ١٩٢٠م ولا زالت مستمرة بقوة حتى اليوم.

وقد صرحت هذه الفرقة[1] بأن قبول الأمم المتحدة واعترافها بالدولة الصهيونية كدولة عضو فيها هو ظلم فادح في حق الشعب اليهودي، وتأمل أن يُصحَح هذا الخطأ الكبير في أقرب فرصة. كما تغضب هذه الفرقة لكون الدولة

(١) راجع موقع (NETUREI KARTA) على الإنترنت: www.nkusa.org وشاهد أيضًا مقابلة الحاخام ديفيد وايس في برنامج: بلا حدود، في قناة الجزيرة ٢٠٠٢م. ومن شعارات هذه الفرقة التي يرفعونها في مظاهراتهم ضد الدولة الصهيونية: (دولة إسرائيل لا تمثل يهود العالم). (الحاخامات المخلصون عارضوا دائمًا الصهيونية ودولة إسرائيل). (ليس لدى الصهيونية أي حق لحكم أي جزء من الأرض المقدسة). (بلا شك كان حلم هرتزل كارثة لليهود). (الصهيونية سرقت اسم اليهود). (اليهود الحقيقيون لن يعترفوا بإسرائيل أبدًا). (الصهيونية لن تنجح أبدًا).

الصهيونية قد اغتصبت اسم (إسرائيل) المقدس وسمَّت به نفسها، ويعلنون للعالم بأن الصهاينة قد استولوا على الاسم بطريقة غير شرعية، ويذكرون بأن الصهاينة يتظاهرون بالتكلم باسم الشعب اليهودي ويتصرفون بالنيابة عنهم، ولكن لا يحق لهم ذلك، ويقررون بأن الحق هو أن الحاخامات الذين لم يتأثروا بسَمِّ الصهيونية هم الذين يُعَدون الزعماء الدينيين ليهود العالم. كما أنهم يكشفون بأن السياسيين الصهاينة يسخرون من القَسَم المقدس الموضوع على اليهود في الشتات اليهودي، بألاَّ يقوم اليهود باحتلال الأرض المقدسة بالقوة، حتى وإن بدا أن لديهم قوة لعمل ذلك، وألاَّ يتمردوا على الدول. وقد تم تحذيرهم من تدنيس هذا القَسَم وما سيترتب على ذلك من عقوبات. وهم يؤمنون بأن اليهود محكوم عليهم بالنفي والتشرد الدائم كعقوبة إلهية بسبب آثامهم؛ ولا يمكن أن يصحح ذلك أو يُغير بالدبابات والقنابل، ولا بالجهود السياسية، ولا بأي وسائل دنيوية أخرى. ولن تنجح أي اتفاقات؛ لأنه تمرد ضد الله وهو ما تقوله التوراة، وهم يصلُّون من أجل تفكيك هادئ للدولة الصهيونية.

وقد أوضحت هذه الفرقة بأن الدولة الصهيونية تسبب مآس كثيرة وجرائم كبرى للفلسطينيين ولليهود معًا منذ أول يوم أقيمت فيه، وأن الحركة الصهيونية تعيش على الدم، وتجلب الموت والدمار، وتستخدم حيلة (اللاسامية) مع أنها حركة علمانية، وضد تعاليم التوراة واليهودية نفسها. وأيدت في المقابل حق الفلسطينيين في المقاومة لاسترداد أرضهم كاملة دون نقصان، وليس كما تذكر الاتفاقات بأن يكون هناك دولتان: فلسطين وإسرائيل...!.

كذلك المؤتمر الذي عقد عام ١٨٩٧م في مدينة (مونتريال) وضم حاخامات أميركا حيث اعترضوا فيه على قيام دولة إسرائيل وأكدوا أن هدف الديانة اليهودية ليس سياسيًا ولا قوميًا وإنما هو هدف روحاني. وإن المنظمة اليهودية في فرنسا والنمسا وإنجلترا كان لها رد الفعل نفسه الرافض للصهيونية السياسية. كما أن يهود شرق أوروبا قد عارضوا قيام دولة لليهود في فلسطين «وبرز أحد اليهود المستنيرين

وهو البروفيسور موريس جاسترو الذي نشر بيانًا ضمنه مساوئ الطرح الصهيوني لإقامة وطن في فلسطين... يقول البروفيسور جاسترو: «بحسب رأيي، فإن تأسيس دولة يهودية، انطلاقًا من القناعة القائلة بأن ذلك يشكل ضمانة لحياة وممارسة أفضل لليهود ينطوي على مخاطر كبيرة جمة بالنسبة لليهود أنفسهم، وكذلك بالنسبة للسلام الديني للعالم كله... فكيف نقتلع شعبًا موجودًا في فلسطين لنضع مكانه الشعب اليهودي؟ وتحت أي شعارات يتم ذلك؟ وبموجب أية شرائع؟ فلسطين لا تنتمي إلى اليهود ولا هم ينتمون إليها. فلسطين تعود فقط لأولئك الذين يعيشون فيها. أي الشعب الفلسطيني.. إني أعتقد بأن إعطاء تأكيدات وضمانات لليهود في أماكن توزعهم وتواجدهم في العالم هو الحل الأفضل، وهو بالتأكيد أكثر أمنًا وضمانًا لهم من حكاية زرعهم وإعطائهم دولة ليست لهم»[1]. كذلك العالم الكبير (ألبرت أينشتاين) اليهودي الديانة الذي كان يناهض اتجاه تأسيس الدين اليهودي وإنشاء دولة إسرائيل وقال عام ١٩٣٨م: «إنه من الأفضل التوصل إلى اتفاق مع العرب على أساس حياة سلمية مشتركة بدلاً من إنشاء دولة يهودية». وقد قال الحاخام (الماير يرجنز) الرئيس السابق للرابطة اليهودية بالولايات المتحدة: «إنه من غير المقبول الادعاء بإنشاء دولة إسرائيل يعد تحقيقًا لنبوءة توراتية»[2]. أما طائفة السامريين التي تعيش بجوار مدينة نابلس بفلسطين التي تعد نفسها من سلالة بني إسرائيل، فهي لا تعترف بالهيكل، وتعد الصهيونية كفر، وتقف موقفًا معاديًا منها ومن الدولة اليهودية، وقد رفضت الهجرة والالتحاق بالدولة الصهيونية[3].

إن اليهود المتدينين والضالعين في معرفة التوراة وما أنزله الله على أنبياء بني إسرائيل ليعلمون حقيقة زوال هذه الدولة الصهيونية، ويقولون بأن دولة إسرائيل سوف تزول وتنتهي لا محالة؛ لأنها ضد الله، والله لا يريدها. بل إن المثقفين

(١) قصة وتاريخ الحضارات العربية ٧-٨/١٣٨.

(٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمي: إسرائيل إلى زوال ٥٦-٥٧.

(٣) عنوان موقع طائفة السامريين على الإنترنت: www.the-samaritans.com

والباحثين من اليهود الذين درسوا وضع هذه الدولة وبحثوه وحللوه؛ قد وصلوا إلى النتيجة نفسها أيضًا...! فهذه الدولة لا بد زائلة لأنها قد تأسست على الظلم بكل أنواعه وصنوفه التي يمكن أن يرتكبها البشر على مر التاريخ...! وقامت على اغتصاب الأرض من أصحابها الأصليين بعد قتلهم أو تهجيرهم، ودعوة جماعات من الناس من مختلف الأعراق والأجناس والأوطان والأديان في مختلف بلدان العالم، للمجيء والإقامة على هذه الأراضي المغتصبة، وإيهامهم هم والعالم أجمع على أنهم هم المواطنون اليهود أصحاب الأرض والوطن...![1]

ثم لم تكتف هذه الدولة بقتل أصحاب الأرض الأصليين أو تهجيرهم من وطنهم حتى اتهمتهم بالإرهاب والقتل وسفك الدماء، في حين تصف الدولة المغتصبة المحتلة نفسها بأنها دولة السلام والتسامح والديموقراطية والإنسانية...! بالرغم من أنهم يعدون الإرهاب من عناصر القوة لديهم، ويستندون في ذلك على نصوصٍ ليست من توراة موسى عليه السلام وإنما من التلمود الذي ابتدعه ووضعه الأحبار والعلماء؛ تحثهم على القتل والجريمة، وتغذي عندهم نزعة الإرهاب والشر، ومن ثم ينسبون ذلك إلى الله ويرتكبون الشر باسمه...! تعالى الله عما يقولون ويفعلون علوًا كبيرًا.

وقد أدركت بعض العقول الإسرائيلية أيضًا قرب زوال هذه الدولة، حتى قال يعقوب شريت في كتابه (دولة إسرائيل زائلة): «لهذا أعرب عن يأسي. لهذا أنا أعتقد بأن إسرائيل أقرت مصيرها؛ لذلك أقول: إن إسرائيل غير موجودة، زائلة، وليس في المستقبل الذي يقاس بالسنوات الضوئية... إنني أقول: لقد تم تضييع

(١) اتضح أن نصف اليهود الرؤس الذين هاجروا إلى إسرائيل منذ سنة ١٩٨٩م ليسوا يهودًا، وكشف أحد رجال الدين اليهود أن الوضع بين يهود الأرجنتين أسوأ بكثير من وضع اليهود الرؤس. وقال: إن ٩٠٪ من الذين هاجروا في السنتين الأخيرتين من الأرجنتين ليسوا يهودًا حسب المستلزمات الدينية على حد تعبيره. وقال: إن يهودية هؤلاء الأرجنتينيين منقوصة جدًا، فقد يكون للواحد منهم جد أو جد جد يهودي، ولكن هذا لا يعني أنهم يهود. وقس على ذلك المستجلبين من البلدان الأخرى.

الفرصة. لا مجال للرجوع. قطار إسرائيل يقترب من الجسر المهدوم بدون القدرة على التوقف، حتى بدون القدرة على الإبطاء. إسرائيل، أسيرة أخطائها، تقصيراتها، تصوراتها ونظرياتها الكاذبة. إنها مصابة بالعمى وغير قادرة على رؤية ما يقف أمامها... في الواقع، أصبحت إسرائيل من جميع الوجوه، غير موجودة. وعمليًا إنها تنتظر مصيرها النهائي»[1].

الله خير الماكرين:

لا يقدر أحد أن يمكر ضد الله أو ضد مشيئته وقدره، أو يفلت بمكره مما قدَّره الله عليه، ولا يقدر أحد أن يعطل نبوءات أنبيائه أو يؤخرها أو يبدلها إن كانت ضده أو إن كانت لمصلحة غيره. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. إن مَن قدَّر الله عليه أمرًا يسعى إليه بكل قوة ويستميت للوصول إليه وتحقيقه، وهو يظن أن فيه مصلحته وفيه حياته، ولكنه لما يلاقيه ينكشف أنه في الحقيقة لم يكن يسعى إلا إلى ما قدَّر الله عليه من العقاب والعذاب، الذي كان يحاول أن يهرب منه أو يمنع وقوعه...! وهؤلاء اليهود الصهيونيون قد سعوا بكل قوة لإيجاد دولة لهم وابتهجوا لقيامها أشد الابتهاج، وأخذوا في الهجرة إليها من كل بقاع الأرض ليتجمع فيها بعد مدة قصيرة من الزمن الملايين منهم...! ولو علموا ما ينتظرهم لما دخل فلسطين فرد واحد منهم، ومَن كان مقيمًا فيها لخرج سريعًا منها، وهم عند موعد عقاب الله سيندمون على مجيئهم وتجمعهم في فلسطين، ولكن بعد فوات الأوان.

فقد عدَّ الصهيونيون من اليهود والنصارى قيام هذه الدولة تحقيق لنبوءات التوراة التي ذكرت عودة اليهود إلى فلسطين وتجمعهم فيها بعد تشتتهم في أنحاء الأرض. وهذا صحيح وحق.. ولكنه لم يخرج قيد أنملة عما قضاه الله على اليهود.. فعودتهم ليست لأجل أن يكون لهم دولة أبدية في فلسطين، وقيام دولة لهم ليس

(١) يعقوب شريت: دولة إسرائيل زائلة ٣٨، ٩١.

بالضرورة أن يكون سببًا لعودة المسيح عليه السلام إلى الأرض كما يتوهم الصهاينة النصارى، وإنما هو ليتحقق فيهم المكتوب عند الله وأخبر به أنبياؤه ورسله، وهو تجميعهم في ساحة المحكمة للمحاكمة وإنزال العقوبة عليهم، وهذا هو الحق الذي لا مفر منه...!.

لقد مكروا مكرًا ومكر الله مكرًا وهم لا يشعرون وكان الله خير الماكرين، فلينظر العالم كيف كان عاقبة مكرهم أن الله عاقبهم ودمرهم وجعل دائرة كل الأعمال السيئة عليهم، ليعلموا أنهم مهما مكروا - وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال - فلن يفلتوا من عقاب الله ولن يقدروا على تأخيره ولو لحظة واحدة...! وحينئذ سيعلم النصارى، الذين شاركوا وساندوا في قيام دولة لليهود الصهيونيين في فلسطين لأجل عودة المسيح، أنهم كانوا من الحالمين...! بل سيدركون أنهم كانوا من المخدوعين الذين طالما انخدعوا بما كتبته أيدي اليهود من النبوءات والنصوص في كتبهم وتكهنوا بالكذب، ونسبوه إلى الله...! فهؤلاء النصارى سيعلمون حين نزول العذاب باليهود أن كل ما فعلوه لجلب اليهود وإقامة دولة لهم كان باطلاً وكان عصيانًا لله وثورة عليه، كما يحاول اليهود المتدينون غير الصهيونيين باستمرار أن يفهموهم هذه الحقيقة التي هم عنها غافلون، وسيرون كيف أن الله قد قدِم إلى ما عملوا من عمل في سبيل ذلك فجعله هباءً منثورًا...! ولن يفلتوا هم بدورهم من العقاب الرباني على ما فعلوا وعلى ما ارتكبوا في سبيل ذلك من أعمال ضد المسلمين...!.

العقاب المنتظر:

لقد توعد الله تعالى اليهود بالعقاب الشديد إن هم أفسدوا في الأرض ولم يتوبوا إليه ويطيعوه ويتبعوا صراطه المستقيم ودينه القويم. فطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض إفسادًا عظيمًا، وعلوا في الأرض علوًا كبيرًا؛ فاستحقوا بذلك العقاب والعذاب؛ فبعث الله عليهم عباده أولي البأس الشديد فقتلوهم ودمروا علوهم

ودولتهم وشتتوا شملهم وسبوهم وفرقوهم في البلاد، فكانت هذه هي المرة الأولى التي حدثت قبل الإسلام...

وقد حذرهم الله - عزَّ وجلَّ - من العودة إلى الإفساد في الأرض وإلا عاد الله عليهم بالعقاب والعذاب، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[1]، أي؛ متى عادوا إلى الإفساد عاد سبحانه إلى الإدالة عليهم بالعقاب مع ما يدخره لهم في الآخرة من العذاب والنكال. ولكن الله بكل شيء عليم، وقد أخبر سبحانه بأن اليهود سيعودون إلى الإفساد في الأرض والعلو علوًّا كبيرًا مرة أخرى، فقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[2].

فقد أخبر الله تعالى أنه قضى لبني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، فإذا جاء وعد أولى الإفسادتين سلَّط عليهم جندًا من خلقه أولي قوة وعدة وسلطان شديد، تملكوا بلادهم وسلكوا خلال بيوتهم، ذاهبين وجائين لا يخافون أحدًا، وكان وعدًا مفعولاً. قيل عن هؤلاء المسلطين عليهم أنهم: (جالوت) وجنوده، سُلِّط عليهم أولاً ثم أديلوا عليه بعد ذلك؛ وقتل داود جالوت، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وقيل: إنه (نبوخذ نصر) ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلَّط عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقًا، فإنهم كانوا قد تمردوا، وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء. وقيل:

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ٤-٧.

ظهر (نبوخذ نصر) على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقًا كثيرًا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾، أي: إذا أفسدتم الكرة الثانية جاء أعداؤكم ليهينوكم ويقهروكم، وليدخلوا المسجد، أي: بيت المقدس كما دخلوه أول مرة، في التي جاسوا فيها خلال الديار، وليدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه.

فها هم اليهود قد عادوا إلى الإفساد في الأرض والعلو علوًّا كبيرًا مرة أخرى؛ وما على العالم بعد ذلك سوى أن يتوقع العقاب المنتظر لهم ولدولتهم في فلسطين بإرسال الله عليهم عباده أولي البأس الشديد ليفعلوا بهم كما فُعِل بأشياعهم وأسلافهم من قبل في المرة السابقة، كما توعدهم بذلك سبحانه سلفًا، ليس بما ذكره تعالى في القرآن الكريم فحسب، بل بما جاء على ألسنة أنبيائهم من بني إسرائيل أيضًا من تهديد ووعيد لهم إذا عادوا إلى عصيان الله وإلى الإفساد في الأرض...!.

وهذا حزقيال وهو نبي من أنبيائهم يصف فسادهم وينذرهم بعقاب الله لهم على ذلك، ويخبرهم بأن الله يقول: «أيَّتُها المدينةُ التي تَسفُكُ الدَّمَ في وسَطِها... يجيءُ وقتُكِ... فها نِهايتُكِ تقتربُ. فلذلكَ جعَلتُكِ عارًا للأمَمِ وسُخريةً لجميعِ البُلدانِ... رؤساءُ إسرائيلَ المُقيمونَ فيكِ يسفُكونَ الدَّمَ البَريءَ، كُلٌّ واحدٍ حسَبَ طاقتِهِ، وأهلُكِ يُهينونَ فيكِ الأبَ والأمَ ويُعاملونَ الغريبَ بالظُّلمِ، ويضطهدونَ اليتيمَ والأرملةَ. يحتقرونَ أمكنتي المُقدَّسةَ ويُدنِّسونَ يومَ السَّبتِ... لذلكَ أعاقبُكِ على ربحِكِ الفاحشِ الذي أخذتِهِ وعلى الدَّمِ المَسفوكِ في وسَطِكِ. فهل يحتملُ قلبُكِ أو تقوى يَداكِ أيّامَ أُجري حسابي معَكِ؟ أنا الرّبُّ تكلَّمتُ وسأفعَلُ. أُشتِّتُكِ بَينَ الأمَمِ، وأُبعثِرُكِ في البُلدانِ... لذلكَ أصبُّ علَيهِم سخطي، وأفنيهِم بنارِ غَيظي، وأجلبُ عاقبةَ أعمالِهِم على رؤوسِهِم، يقولُ السَّيِّدُ الرّبُّ»[1].

(١) حزقيال ٢٢/٣-١٦، ٣١.

«قُلْ: يا جبالَ إسرائيلَ اسمَعي كَلِمةَ السَّيِّدِ الرّبِّ... سأجلِبُ علَيكِ حربًا وأدَمِّرُ مَعابِدَكِ، فتخرَبُ مَذابِحُكِ وتتَحَطَّمُ مَباخِرُكِ. وأطرَحُ قتلاكِ أمامَ أصنامِكِ. وأنتم يا بَني إسرائيلَ سأُلقي جثَثَكُم أمامَ أصنامِكُم وأُبعثِرُ عِظامَكُم حَولَ مَذابِحِكُم. مُدُنُكُم تخرَبُ ومَعابِدُكُم تتَهَدَّمُ في جميعِ مَساكِنِكُم... ويسقطُ القتلى في وسَطِكُم، فتعلَمونَ أنِّي أنا الرّبُّ. «ولكنَّني أُبقي مِنكُم بَقيَّةً بَينَ الأمَمِ، فينجونَ مِنَ الحربِ ويُشَتَّتونَ في البُلدانِ. هؤلاءِ يَذكرونَني بَينَ الأمَمِ الذينَ يُسبَونَ إليهِم حينَ أسحقُ قُلوبَهُمُ الحَمقاءَ التي زاغَت عنِّي، وأُعمي عُيونَهُمُ الفاجرةَ التي سَعَت وراءَ أصنامِهِم، فيمقُتونَ أنفُسَهُم للشُّرورِ التي فعَلوها في جميعِ تَصَرُّفاتِهِمِ الرَّجسةِ، ويعلَمونَ أنِّي أنا هوَ الرّبُّ وأنِّي ما تكلَّمتُ عَبثًا حينَ هَدَّدتُهُم بِهذا الشَّرِّ[1]».[2]

«وقالَ ليَ الرّبُّ: «يا اَبنَ البشَرِ قُلْ: هكذا قالَ السَّيِّدُ الرّبُّ: ستَفنى أرضُ إسرائيلَ. ها هوَ فَناؤُها آتٍ على أطرافِ البلادِ الأربعةِ. الفَناءُ آتٍ علَيكُم يا بَني إسرائيلَ..» وقالَ السَّيِّدُ الرّبُّ: «ها أنا أُنزِلُ شَرًا على شَرٍّ: ها هوَ الشَّرُّ آتٍ. الفَناءُ آتٍ، الفَناءُ آتٍ! سيَقضي علَيكِ. ها هوَ آتٍ. يا سكّانَ البِلادِ جاءَ دَورُكُم. حانَ الوقتُ واَقتَرَبَ اليومُ... والآنَ عمَّا قريبٍ أصُبُّ غَيظي وأُتَمِّمُ غضَبي وأحكُمُ علَيكُم بِحسَبِ طُرقِكُم وأُعاقِبُكُم على جميعِ أرجاسِكُم، ولا أُشفِقُ ولا أعفو بل أعاقِبُكُم على طُرُقِكُم وأرجاسِكُم، فتعلمونَ أني أنا الرّبُّ، وأنا الذي يُنزِلُ بكُم هذهِ الضَّرَباتِ. ها اليومُ آتٍ: ها هوَ آتٍ: دارَتِ الدَّوائِرُ. أزهرَ الظُّلمُ وبَرعَمَتِ الكِبرياءُ، وعلى عصا الأشرارِ نَمَا الجورُ، فلا يبقى مِنهُم ولا مِنْ رَخائِهِم ولا مِنْ ثَروَتِهِم شيءٌ، ولا مَجدَ لهُ. حانَ الوقتُ واَقتربَ اليومُ.. نفخوا في البوقِ وجهَّزوا كُلَ شيءٍ وما مِنْ ذاهبٍ إلى القتالِ لأنَّ غضَبي علَيهِم جميعًا، السَّيفُ مِنْ خارجٍ، والوَباءُ والجوعُ مِنْ داخلٍ، فالذي في البرِّيَّةِ

(١) كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾، أي؛ متى عدتم إلى الإفساد عدنا عليكم بالعذاب.

(٢) حزقيال ٦/١-١٠.

يموتُ بالسَّيف، والذي في المدينةِ يأكلُهُ الجوعُ والوَباء. وينجو النَّاجونَ منهُم يهربونَ في الجبالِ كحمامِ الأوديةِ يهدُرونَ، كُلٌّ واحدٍ على ما اَرتكبَ مِنْ إثْمٍ. جميعُ الأيدي تضعُفُ، وجميعُ الرُّكبِ تصطَكُّ. ويحزَّمونَ بالمُسوحِ ويستولي علَيهِمِ الرُّعبُ ويُغطِّي العارُ جميعَ الوجوهِ وتُحلَقُ جميعُ الرُّؤوسِ، يُلقونَ فِضَّتَهُم في الشَّوارعِ، وذهبَهُم يصيرُ نُفايةً، لا تقدرُ فضَّتُهُم وذهبُهُم على إنقاذِهِم في يومِ غضَبِ الرّب..

ويكونُ الدَّمارُ في كُلِّ مكانٍ وتمتلئُ الأرضُ بجرائمِ القتلِ، والمدينةُ بالعُنف. سأجلُبُ أكثرَ الأمَمِ شرًا فيرثونَ بيوتَهُم، وأسحقُ كبرياءَ الأشدَّاءِ... حينَ يجيءُ الدَّمارُ يطلبونَ السَّلامَ فلا يَجدونَهُ... على حسَبِ سيرتِهم أفعلُ بِهِم. وبمُقتضى أحكامِهِم أحكُمُ علَيهِم، فيعلمونَ أنِّي أنا هوَ الرّبُّ»[1].

يا له من عقاب أليم وعذاب شديد لدولة إسرائيل حين يجيء وقتها...! لن يحتمل قلبها ولن تقوى يداها في أيام حساب الله معها وانتقامه منها...! يشتتهم الله بين الأمم كما يشاء، ويبعثرهم في البلدان كما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون...! يصب سبحانه عليهم سخطه، وينتقم منهم ويفنيهم، ويجلب عاقبة أعمالهم على رؤوسهم...! وساعتها لن يستطيع ناصرهم أن ينقذهم من بأس الله تعالى؛ لأن ناصرهم نفسه سينال من الله ما يستحقه من العذاب ولا منجاة له من العقاب، كما جاء في سفر إشعياء: «فإذا رفع الرَّبُّ يدهُ عَثَرَ النَّصيرُ وسقَطَ المنصورُ وهَلَكوا كلُّهُم معًا»[2].

لقد أخذ اليهود الصهيونيون يزيدون من وتيرة القتل وسفك الدماء والتدمير، ويكثرون من المجازر التي سيلتصق اسمها بهم على مدى التاريخ...! إنهم يفسدون ولا يعترفون بفسادهم، مثل أسلافهم الذين ادعوا بأن الله غير عادل بعقابهم على

(١) حزقيال ٧/١-٢٧.

(٢) إشعياء ٣١/٣.

فسادهم وأن طريقه غير مستوية! فرد عليهم بأن العلة فيهم وأن طرقهم هم غير مستوية، وأن الفاسد الشرير يستحق العقوبة وإن كان صالحًا قبل ذلك[1]. وإذا كان هذا شأنهم مع رب العالمين، فلا غرابة في أنهم يرفضون من العالم ومن جمعية الأمم المتحدة أي عقوبة، بل يرفضون إصدار أي قرار فيه إدانة لهم على مجازرهم ومذابحهم في حق المسلمين، وإن تجرأ مجلس الأمن على إصدار مثل هذا القرار فإن حق النقض (الفيتو) الأميركي سيكون له بالمرصاد لإبطاله...! فيكون عقاب اليهود عقابًا إلهيًّا، وشتان ما بين عقاب إلهي وعقاب بشري...! فمهما انتصر المسلمون المظلومون لأنفسهم من اليهود المغتصبين لتحصيل حقوقهم أو معاقبتهم على ما ارتكبوه في حقهم من جرائم، فلن يكون ذلك بمقدار انتصار رب العالمين لهم منهم، الذي يكون انتصارًا كاسحًا ماحقًا مدمرًا لليهود ودولتهم الصهيونية في فلسطين...!.

- أداة العقاب المنتظر:

إن الله تعالى سيُسخِّر بشرًا من خلقه، أقوياء أشداء، بغض النظر عن إيمانهم أو كفرهم، ليقوموا بمهمة عظيمة محددة؛ ألا وهي تخليص العالم من شر هذه الدولة اليهودية الصهيونية، والانتقام من اليهود بإنزال عقابه الإلهي الشديد عليهم، وهو عقاب في غاية البطش والتنكيل والإذلال والسبي والتهجير، سيدمر علو اليهود في الأرض، ويزيل دولتهم من فلسطين...! إن هؤلاء العباد الذين سيبعثهم الله على اليهود سيدخلون فلسطين فيقهرونهم، ويذهبون ويجيئون في الشوارع والطرق والأزقة وبين المباني وهم يعملون القتل فيهم. إن هؤلاء العباد الذين سيكونون أداة الله في عقاب اليهود في المرة الآخرة يمكن أن يكونوا من جنس العباد نفسه الذين بعثهم لمعاقبة اليهود في المرة الأولى كما يُفهم من النص القرآني، وكما تشير إليه

(١) حزقيال ١٨/٢٥.

نصوص أسفار العهد القديم، إذ يقول حزقيال: «وقالَ ليَ الرّبُّ: «وأنتَ يا اَبنَ البشَرِ اِجعَلْ لكَ طريقَينِ لمجيءِ سَيفِ ملكِ بابلَ. ليخرُج الطَّريقانِ مِنْ نُقطةٍ واحدةٍ»[1].

فهذه النبوءة التي تتوافق مع النص القرآني، تشير إلى أن مجيء بعث المرة الآخرة على اليهود سيكون من بابل، أي العراق أيضًا كما في المرة الأولى، حين بعث الله تعالى (نبوخذ نصر) عليهم[2]. ولعل هذا يفسر سر تركيز اليهود وكيانهم الصهيوني على العراق وشعبه، والحرص على تدميره وإضعافه وإذلاله بشتى الأساليب والطرق، حتى لا تقوم له قائمة ولا يكون بمقدوره تنفيذ أمر الله في الهجوم عليهم عندما يحين وقت عقابه لهم في فلسطين وبدء المقتلة العظيمة لهم فيها! فهم يعرفون أن دولتهم ستزول، مع ما يصحب ذلك من قتل وسبي وتشتيت، وأن المرشح لفعل ذلك هم غرماؤهم من أحفاد الذين سبق أن فعلوا بهم ذلك في الماضي؛ ولذلك كان لا بد لهم من استخدام كل الوسائل لحماية دولتهم ومنعها من الزوال، ومن ذلك تحطيم العراق وشعبه على الدوام، أو كل مدة بعد أخرى...!.

فالمشهود أن العراق لا يُترك وشأنه، وأنه يُورَّط باستمرار في حرب مع هذا البلد أو ذاك ليبقى مُنهكًا غير قادر على النهوض، حتى في حال السلام وعدم وجود الظروف المناسبة التي تسمح بتوريطه في حرب ما؛ يُفرض عليه حصار اقتصادي دولي يمنعونه فيه من ممارسة حقه في التصدير والاستيراد كبقية البلدان، بل يمنعون فيه دخول الأدوية والحليب للأطفال فيموت ملايين الأطفال بسبب هذا الحصار...! ثم لا يكتفون بذلك بل يستولون على العراق نفسه للاستيلاء على خيراته

(١) حزقيال ٢١/١٨-١٩.

(٢) هذا في حال كان المقصود بالإفساد والعلو الأول لليهود الذي كان قبل الإسلام، أما إذا كان المقصود إفسادهم وعلوهم الأول بعد الإسلام؛ فهي هذه الدولة الصهيونية (إسرائيل)، والإفساد والعلو الثاني والأخير لهم فهو الذي سيكون في زمن ملك اليهود المسيح الدجال، وفي جميع الحالات هناك شيء واحد مؤكد وهو أن العقاب الإلهي سينزل باليهود.

ومنعها عن أهله وشعبه، وهذا يشبه ما تنبأ به رسول الله ﷺ بقوله: «**مَنعت العراق درهمها وقفيزها.**[1] **ومَنعت الشأم مُدْيها ودينارها. ومنعت مصر إردَبَّها ودينارها. وعدتم من حيث بدأتم. وعدتم من حيث بدأتم. وعدتم من حيث بدأتم**»[2]. قال النووي: «وفي معنى منعت العراق وغيرها قولان مشهوران: أحدهما لإسلامهم فتسقط عنهم الجزية وهذا قد وجد. والثاني وهو الأشهر أن معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين»[3].

فاليهود يفعلون ذلك بالعراق[4] لمنع ظهور أي إمكانية لتحقيق ما توعدهم الله تعالى به في التوراة والإنجيل ببعث أهل العراق عليهم لقتلهم وتدميرهم...! وما حربهم الأخيرة على العراق إلا لأجل منع المقتلة العظيمة التي قضاها الله عليهم، توهمًا منهم أن مثل هذه الأعمال يمكن أن تمنع أو تؤخر بأس الله، وعموا عن أنه إذا كان زوال دولتهم سيكون فعلاً على أيدي أهل العراق؛ فإن ما فعلوه من حرب عليه، وإزالة طبقة حاكمة لترتفع ما تحتها من طبقات أخرى جديدة، لم يكن في الحقيقة إلا خطوة في سبيل تحقيق هذا الزوال، وجعلهم الله - عزَّ وجلَّ - بقهره وقدرته وجبروته هم أنفسهم يساهمون في مجيء وعده بعقابهم وزوال دولتهم، تمامًا مثل قصة فرعون الذي كان يقتل المواليد الذكور حتى لا يتحقق زوال دولته وهلاكه، فغلبه قدر الله؛ وتحقق وعد الله على يد موسى عليه السلام الذي رُبي في قصر فرعون نفسه...!.

---

(١) القفيز: مكيال لأهل العراق، والمدي: مكيال لأهل الشام، والإردب: مكيال لأهل مصر.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/٢٠.

(٤) جاء في تقرير لليهودي يينون أوديد، بعنوان استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات: «إن العراق الغني بالنفط من ناحية، والممزق داخليًا من ناحية أخرى، يعتبر مرشحًا مضمونًا لأهداف إسرائيل، فتفكيكه يعتبر بالنسبة لنا أكثر أهمية من تفكيك سوريا». بروتوكولات حكماء صهيون ٧، دار النفائس.

وهكذا كل تصرف منهم يُقصد منه تعطيل أو تأخير أو إلغاء نبوءة أو حدث ما في غير صالحهم، ويغفلون عن قدرة الله في تسيير الأمور، ولو عقلوا وآمنوا لاستفادوا من دروس سابقة حاول فيها أسلافهم تغيير مجريات الأمور لمنع تحقق نبوءات معينة أو حدوث أمور في غير صالحهم فما أفلحوا ولا نجحوا، بل انقلب تدبيرهم السيئ ضدهم وبالوقت نفسه في صالح تحقيق النبوءة أو الأمور المقدَّرة؛ ومن ذلك مثلاً الكيد الذي كاده رؤساء أسباط اليهود لأخيهم يوسف عليه السلام حسدًا منهم على حب أبيه يعقوب عليه السلام له، فتآمروا سرًا؛ ونفذوا مؤامرتهم برمي يوسف في الجب وهو لا يزال طفلاً، وكذبوا على أبيهم بأن الذئب قد أكله، وأغفلوا وجود الله سبحانه واطلاعه على حقيقة ما فعلوا، وأغفلوا قدرته على تسيير الأمور بإنقاذ نبيه يوسف من كيدهم، فقلَب الله تعالى نتائج كيدهم فصارت شرًا لهم، وخيرًا ليوسف عليه السلام؛ حيث مكنه سبحانه في الأرض وجعله وزيرًا لملك مصر أكبر دول العالم في ذلك الزمن؛ وتحقق ما رآه يوسف في الرؤيا، وهو ما لم يكن يتوقعه إخوة يوسف ولا غيرهم من قصيري النظر والفكر بأن الله - عزَّ وجلَّ - قادر على تنفيذ مشيئته مهما دلت معطيات الواقع على استحالة ذلك، فالله سبحانه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون...!. ومن ذلك أيضًا؛ إنقاذ الله تعالى للمسيح عيسى عليه السلام من اليهود الذين جاؤوا للقبض عليه وتسليمه للرومان ليصلبوه، ورد الله مكر اليهود إلى نحورهم فعاقبهم سبحانه بأيدي الرومان أنفسهم فأهانوهم وأذلوهم وقتلوهم وشتتوهم في البلاد! ولا يزال أمامهم المزيد من العقاب على يد المسيح عليه السلام نفسه بعد نزوله في آخر الزمان. ومن ذلك أيضًا؛ إنقاذ الله - عزَّ وجلَّ - لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من عملية القتل التي خططها له اليهود؛ فجعل الله دائرة السوء عليهم، وعاقبهم على ذلك...! وهناك الكثير من هذه المواقف في التاريخ الماضي لليهود، وكذلك سيكون في المستقبل.

فمع كل ما يمكرونه ويفعلونه فإن وعد الله بعقابهم على إفسادهم سيتحقق يقينًا في موعده، وإذا جاء أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، ولكن أكثرهم لا

يعقلون ولا يفقهون، بالرغم من النصوص الكثيرة التي يقرؤونها فيما يسمونه أسفار التوراة والعهد القديم، التي تؤكد أنه لا مفر لهم من قضاء الله، ولا نجاة لهم من عذابه إذا حان وقته...! ومن ذلك ما ذُكِر على لسان حبقوق: «فأجابَني الرّبُّ: «اكتُبْ هذهِ الرُّؤيا وانقُشْها على الألواحِ حتى تَسهُلُ قِراءَتُها، لأنَّ الرُّؤيا مَرهونةٌ بِوقتِها، وعِندَما يَحينُ وقتُها تَجيءُ ولا تكذِبُ. إنْ أبطَأَتْ فانْتَظِرْها، فهيَ لا بُدَ أنْ تَجيءَ ولا تتَأخرَ»[1].

وما ذُكِر على لسان حزقيال عن أن اليهود سوف يعاقَبون على آثامهم وعدم دوام حال دولتهم الصهيونية وزوالها: «لذلكَ هكذا قالَ السَّيِّدُ الرّبُّ: بما أنَّكُم تذكَّرتُم إثْمَكُم وجاهَرتُم بمَعاصيكُم وأظهَرتُم خطاياكُم في جميعِ أعمالِكُم، فستُؤخذونَ بيدِ الأعداءِ. وأنتَ أيُّها النَّجسُ الشِّرِّيرُ يا رئيسَ بَني إسرائيلَ جاءَ يومُكَ وبلَغَ إثْمُكَ مُنتهاهُ، يقولُ السَّيِّدُ الرّبُّ. انزِعِ العِمامةَ وارمِ التَّاج عَنْ رأسِكَ. هذهِ الحالُ لا تَبقى، بل أرفعُ المُنخفِضَ وأحُطُّ الرَّفيعَ، وأجلبُ خرابًا على خرابٍ. وهذا لن يكونَ حتى يَجيءَ الذي اَختَرتُهُ للحُكْمِ علَيكُم»[2].

وما ذُكِر على لسانه عن أن معاقبتهم بالقتل والوباء وغيره، وإزالة دولتهم في فلسطين واقع لا محالة: «واَنقلْ لهُم كلامي أنا السَّيِّدُ الرّبُّ: «حي أنا، مَنْ كانَ في الخرائبِ يسقطُ بالسَّيف، ومَنْ كانَ في البرِّيَّةِ تأكلُهُ الوحوشُ، ومَنْ كانَ في المَغاورِ والجبالِ الحصينةِ يموتُ بالوَباءِ. وأجعَلُ الأرضَ خربةً مُقفِرةً وأسحقُ كبرياءَها وجبروتَها، فتصيرُ جبالُ إسرائيلَ مُقفِرةً لا عابرَ فيها. فيعلمونَ أنِّي أنا هوَ الرّبُّ حينَ أجعلُ الأرضَ خربةً مُقفِرةً عِقابًا لهم على جميعِ الأرجاسِ التي عملوها»[3].

---

(١) حبقوق ٢/٢-٣.

(٢) حزقيال ٢١/٢٤-٢٧.

(٣) حزقيال ٣٣/٢٧-٢٩.

كذلك قال عيسى عليه السلام متنبئًا بزوال دولة اليهود: «متى نظرتم رِجسَةَ الخَرابِ التي قال عنها دانيالُ النَّبيّ قائمةً في المكانِ المُقَدّسِ. ليفهَم القارئُ. فحينئذٍ، لْيَهرُب الذين في اليهوديَّةِ، إلى الجِبالِ. والذي على السَّطحِ فلا يَنزِل ليأخُذَ من بَيتِه شيئًا. والذي في الحَقْلِ فلا يَرجِعْ إلى ورائه، ليَأخُذَ ثيابه. ووَيلٌ للحُبالى والمُرضِعاتِ في تِلكَ الأيّامِ. وصَلّوا لكي لا يكونَ هرَبُكُم في شِتاءٍ ولا في سَبتٍ؛ لأنه يكون حينئذٍ ضيق عظيم لم يكن مِثلُهُ مُنذُ ابتداء العالَمِ إلى الآن ولن يكون»[1].

وهناك أقوال أخرى لأنبياء آخرين، والملاحظ أن أي نص من العهد القديم يتعلق بإفساد قديم لهم، ينطبق عليهم في هذا العصر وفي أي عصر قادم، فهذه هي سيرتهم والله تعالى خالقهم وهو أعلم بهم منهم بأنفسهم. وسواء أكانت هذه النبوءات تخص ما حدث لليهود في الماضي من العقاب، أم أنها تتحدث عما سيحدث لهم في المستقبل، فإن الشيء المؤكد من هذه النصوص أن تكرار اليهود للفساد وعودتهم للإفساد يقتضي تكرار معاقبتهم وعودة العذاب عليهم بمثل ما حدث لهم في الماضي وربما أشد، لكون إفسادهم في هذه المرة كان أشد وظلمهم أكبر، والجزاء يكون من جنس العمل، وعليه يتأكد أن زوال الكيان الصهيوني من فلسطين أمر واقع يقينًا لا ظنًّا ولا تخمينًا...!.

لقد أبوا إلا أن يحكموا على أنفسهم بالهلاك وعلى علوهم في الأرض بالزوال، وذلك بعصيانهم لله، والإكثار من الإفساد، ومحاولاتهم المستميتة لمنع وقوع العذاب الذي توعدهم به في حال الإفساد، وذلك عن طريق إبادة عباده الأشداء أو إبادة أي قوة لهم بضربات (استباقية) قبل موعد بعثهم...! وإن إصرارهم على الإفساد ثم العمل على منع عقاب الله المنتظر بقدراتهم الذاتية أو بالاعتماد على الدول الكبرى لدليل على عدم الإيمان بأن ما شاء الله كان، وبأنه إذ وعدهم بأن يبعث عليهم مَن

(١) متى ٢٤/١٥-٢١.

يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة؛ فإن وعده حق ولا يخلف الميعاد، وأن هذا لا بد أن يكون ولو أبادوا كل أمم الأرض، فإنه سبحانه سيخرج عباداً له يسومونهم سوء العذاب ويزيلون دولتهم ويقتلونهم ويشتتونهم في الأرض...!.

وليس ببعيد أن يجعل الله كل ما يعمله اليهود بأيديهم هباءً منثوراً وحسرة عليهم؛ بألاَّ يكون أولئك العباد الأشداء، الذين سيبعثهم الله لقتلهم وإزالة دولتهم، من المسلمين الذين يركز عليهم اليهود والدول الكبرى لإبقائهم ضعفاء، بل بقدرته تعالى يمكن أن يرسل أولئك الأشداء من حيث لم يحتسب اليهود، ومن طرف آخر غير المسلمين، إذ إن زوال الدول السابقة لليهود في فلسطين لم يكن في مرة من المرات على أيدي المسلمين، فلا أحد يعلم بحقيقة ذلك إلا الله، فهو وحده عالم الغيب والشهادة.

وإن المتأمل في قول الله تعالى عن أسلافهم اليهود: ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾[1]، ويرى ما يفعله الصهيونيون في العراق، وما يبنونه في فلسطين من حصون وجدر ليحموا أنفسهم.. ليؤمن بأن الله تعالى قد يرسل العذاب على يهود دولة إسرائيل من حيث لم يحتسبوا ليكون أعظم بأسًا وأشد تنكيلاً بهم، وعند ذلك لن تحميهم الحصون والجدر، وربما لا يكون العباد الأشداء من العراق نفسه، وإذا كانت بعض النبوءات تقول بأن هذا الجيش سيأتي من قِبل المشرق فاحتسَبوا أنه سيكون من أهل العراق، ولهذا يفعلون به وبأهله ما يفعلون، فإن قدر الله الغالب يقول إن هذا الجيش يمكن أن يأتيهم من حيث لم يحتسبوا، أي من غير أهل العراق، وربما لا يكون العراق لهذا الجيش سوى ممر وطريق إلى فلسطين، والله تعالى أعلم. وهذا إن حصل فعندها يتأكد فعلاً أن ما يفعلونه بالعراق من تدمير وإضعاف لهذا البلد لا يعدو أن يكون خطوات بأيديهم لتحقيق ما توعدهم الله بهم، حيث يكونوا قد قاموا بتمهيد طريق

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

العراق وإزالته كعقبة أمام هذا الجيش؛ وهنا ينتبه المتأمل إلى بقية الآية السابقة وهي: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾[1]، فلا يملك إلا أن يقول: سبحان الله ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة...!.[2]

مصير يهود دولة إسرائيل:

هكذا قضى الله بزوال هذا الكيان الصهيوني الغريب، الذي لا يتوافق جنسه مع الأرض المسلمة العربية التي احتلها وأقام عليها! إنها من أرض الشام التي خصصها الله تعالى للمسلمين العرب، ولا تصلح لأي جنس غيرهم. وإن أي أمة من غير العرب إذا اغتصبت أو احتلت قطعة أرض منها فإن ذلك لن يدوم طويلاً، ولن ينالوا منها سوى خسران الأنفس والأموال، لأن هذه الأرض ستأكلهم، فقد جعل الله - عزَّ وجلَّ - من خصائص هذه الأرض أنها تأكل كل مغتصب أو محتل أو مستعمر.

وإن من اليهود لمن يؤمن بهذه الحقيقة المُرة بالنسبة لهم، ويقول عنهم: «إنهم يعيشون في أرض تأكل سكانها، توجد في منطقة تأكل سكانها، وإذا كانوا يحبون الحياة، عليهم الإقامة في مكان آخر»[3]. فقد أكلت هذه الأرض الأوروبيين أصحاب الحملات الصليبية، والتتار الوثنيين، والأوربيين الصليبيين المستعمرين، ولم يعتبر الغربيون الصهيونيون اليهود بذلك أبدًا، بل أصروا أن يلقوا بأنفسهم طعمة لهذه الأرض فسكنوها؛ وها هي قد أكلتهم كما أكلت مَن قبلهم!. ظنوا أنهم ماكثون فيها أبدًا وبنوا ظنهم على ظنٍ آخر هو أن الله تعالى قد وعدهم بهذه الأرض، ثم ظنوا أنهم بإمكانهم أن

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) إذا كانوا يحتسبون مجيء العذاب على يد جيش من البشر، فليس على الله بعزيز أن يرسل عذابه من حيث لم يحتسبوا؛ مثل أن يكون عقابه لهم بواسطة الملائكة كما عاقب قوم لوط أو غيرهم من الأمم الظالمة في المناطق القريبة منهم؟ بل ربما يكون عقابه زلزالاً مدمرًا أو طوفانًا هائلاً؛ فيرسل عليهم من البحر الأبيض المتوسط أمواجًا كأمثال الجبال فتدمر مدنهم وتقتلهم وتشتت الأحياء منهم، فهل يقدرون أن يمنعوا ذلك؟!.

(٣) يعقوب شريت: دولة إسرائيل زائلة ٣١.

يحموا أنفسهم ممن حولهم من المسلمين، فكدسوا الأسلحة من كل الأنواع بما فيها الأسلحة النووية والكيماوية؛ ليكونوا أقوى من مجموع الدول العربية والإسلامية، إن هم إلا يظنون، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا، فهم لم يعملوا حساب رب العالمين، ولم يعملوا حساب أن عذابه واقع بهم مهما ظنوا، فأتاهم العذاب من حيث لا يظنون...!.

لقد توعد الله اليهود بالعذاب، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، ومجيء عباد الله الأشداء إليهم وفعلهم بيهود الدولة الصهيونية سيكون كما وصف سبحانه وكما وعد، ووعد الله كان مفعولاً ...! فيُقتل قسم، ويُسبى قسم، ويُشتت قسم...!. وقد ذُكر في العهد القديم: «وإذا ولَدْتُم بَنينَ وبَني بَنينَ وطالت أيّامُكُم في الأرضِ، فَفسَدْتُم وعَمِلْتُم تمثالاً مَنحوتًا على شكلِ صورةٍ ما، وفعَلتُم ما هوَ سيِّئٌ في نظرِ الرّبِّ إلهِكُم وكدَّرْتُموهُ، فأنا مِنَ اليومِ أُشهِدُ علَيكُمُ السَّماءَ والأرضَ بِأنَّكُم تَبيدونَ سريعًا مِن على الأرضِ التي أنتُم عابرونَ الأردنَّ إليها لِتمتَلِكوها. لا تطولُ أيّامُكُم علَيها بل تزولونَ لا مَحالةَ. ويُشتِّتُكُمُ الرّبُّ فيما بَينَ الأمَمِ حتى تَبقوا جماعةً مَعدودةً في الأمَمِ الذينَ يسوقُكُمُ الرّبُّ إليهِم»[1]. فهذا النص ينطبق عليهم في كل زمن يقيمون فيه دولة لهم في فلسطين، ثم يفسدون ويعملون السيئات، فوعد الله فيهم أن يبيدهم ويشتتهم. بل إننا لنلحظ في بداية النص إشارة إلى عمر دولتهم التي لا تتعدى الأحفاد، أي ولادة الجيل الثالث من مؤسسي دولتهم، حتى يصبح زوال دولة إسرائيل قريبًا، وإبادتهم وتشتيتهم متحققة، والله تعالى أعلم.

وبعد زوال دولة اليهود في فلسطين؛ فإنهم سوف يستمرون في الإفساد، ويواصلون المكر وحياكة المؤامرات للعودة إليها وإنشاء كيانهم مجددًا بعد زواله، إلى أن تحين نهايتهم الأخيرة، وذلك بعد نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان؛ وهو الوقت الذي ستكون فيه نهاية أمة اليهود ومعهم ملكهم الأعور الدجال...!.

(٦٩) التثنية ٤/٢٥-٢٧.

الباب
السادس

نهاية أمم الكفر والدجال
أعداء المسيح عليه السلام والمسلمين

اليهود والمسيح عليه السلام:

لقد أخبر الله - عزَّ وجلَّ - أن اليهود أمة تسعى في الأرض فساداً، فقال جل ثناؤه عنهم: ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[1]. وهو سبحانه يطفئ نيران الحروب التي يوقدونها، ولولا لطف الله تعالى في ذلك لصار باطن الأرض خيراً من ظهرها، ولصار الأحياء يغبطون الأموات على خلاصهم مما تعج الأرض به من فساد اليهود وفتنهم وحروبهم...!.

فإلى زمن عودة المسيح عليه السلام، الذي سيكون فيه نهايتهم، قد أثبتوا على أنفسهم بأقوالهم وأفعالهم أنهم أهل الشر والسوء، وأنهم قد استحقوا كل عقاب أنزله الله بهم فيما مضى من التاريخ...! لقد نصت التوراة والإنجيل والقرآن على أن أمة اليهود لا تطيق التعامل ولا تجيده مع الأنبياء والمرسلين، ولا مع مَن دونهم من البشر الصالحين، ونصت كتبها الدينية بأنها لا تحب أي خير لغير اليهود من أي دين أو ملة أو جنس كانوا...! ونصت مخططاتها على أنها تحب أن تكون رأس الفساد في الأرض، ووراء الحكام المفسدين، ووراء الثورات المفسدة أو الحروب الطاحنة، أو الضلال والكفر، أو الباطل والشر...! وقد عملت بجد وإخلاص لمجيء ملكها ملك الشر والضلال ومدعي الألوهية، المسيح الأعور الدجال ليحكم العالم وليعيد لها دولتها في فلسطين.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وها هو أجل أمة اليهود الذي قدره الله لها قد حان موعده. فعصر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو عصر السلام والعدل والحق والحب، وعصر الإسلام والإيمان والإحسان، وعصر الخير والبركة... إن المسيح عليه السلام ومَن معه من المسلمين لحق هم أهل الخير... لذا فمن غير الممكن أن يجتمع في العصر الثاني للمسيح؛ أهل الخير وأهل والشر في وقت واحد وعلى أرض واحدة... لا بد من استئصال أهل الشر نهائيًا من الوجود ليصبح العالم كله في عصر المسيح مسلمًا مؤمنًا مسالمًا... ولينتقم الله من اليهود ويعاقبهم على ما ارتكبوه في حقه تعالى، وعلى اتباعهم الدجال الكافر، وعلى ما ارتكبوه في حق المسيح والمسلمين والبشرية أجمعين...!.

أحوال الأمم قبل عودة المسيح:

لقد قدَّر الله - عزَّ وجلَّ - أن يبقى المسلمون واليهود والنصارى إلى عصر المسيح في مجيئه الثاني والأخير إلى الأرض، ليكون هو نفسه عليه السلام الحَكم بين هذه الأمم الثلاث، وليضع بنفسه النهاية الفاصلة بينهم. فقد مضت قرون وقرون وهذه الأمم في نزاعات وحروب طاحنة بسبب ادعاء كل أمة منها أنها على الحق واتهام الأمم الأخرى بأنها كافرة وضالة وقوى شر، ومع أن الحق بيِّن واضح وأنه لا يمكن إلا أن تكون أمة واحدة منها فقط على الحق، إلا أن العناد والتقليد والعنصرية وأمور أخرى كثيرة تجعل الذين هم في الحقيقة على كفر وضلال ودين باطل يتمسكون بمواقفهم.

ولهذا لم تكن هذه الأمم لتسلم لشخص عادي مهما بلغ منصبه في الدنيا، ولا لدولة مهما بلغت عظمتها، للحكم فيما بينها، بل لا يمكن الحكم والفصل فيما بينها إلا بشيء خارق للعادة؛ فكان أن قدَّر الله - جلَّ جلاله - أن يعيد إرسال رسوله عيسى عليه السلام ليحكم بين هذه الأمم فيما كانوا فيه يختلفون، وليعلن للعالم مَن هي الأمة المنصورة التي على الحق، ومَن هي الأمم المهزومة المخزية التي على الباطل،

وليكشف لكل الذين كانت بصيرتهم مطموسة ولا يميزون بين الخير والشر؛ مَن هي أمة الخير وقوى الخير الحقيقية وعباد الله المؤمنين، وحزبه المفلحين، ومَن هي أمم الشر وقوى الشر الحقيقية وحزب الشيطان الخاسرين. بل ليقضي عيسى عليه السلام على رأس الكفر والشر في العالم: الدجال ومَن معه من أمم الكفر، وليبطل كل دين غير دين الله الحق، والسيف لكل مبتغ ومعتنق لغيره.

فعلى هذه الأمم الثلاث: المسلمة واليهودية والنصرانية دارت الأحداث، أما غيرهم من الأمم فأولئك قد رضوا بالحيوانات التي يقدسونها ويعبدونها من البقر والقردة، أو بالأحجار والمنحوتات من كل الأسماء...!.

- أمة اليهود:

لقد كان اليهود مستمرين في المكر للإسلام وأهله، وقد قال الله -عزَّ وجلَّ- للمسلمين عن اليهود: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[1]. لا يدخل اليهود في دين الإسلام أفواجًا، بل لم يدخل في الإسلام منهم سوى قلة من اليهود العاديين، فكيف بعدد مَن يمكن أن يسلم من الأحبار والعلماء...! لهذا قال رسول الله ﷺ: «**لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود**»[2]. وفي رواية أخرى: «**لو تابعني عشرة من اليهود، لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم**»[3]. والمقصود عشرة من أحبارهم وزعمائهم، وإلا فقد آمن بالنبي ﷺ أكثر من ذلك. فلو أسلم عشرة من هؤلاء الذين يعنيهم النبي ﷺ لأسلم اليهود جميعًا اتباعًا لهم. وهكذا فلا عجب من موقفهم مع النبي ﷺ، وشأنهم مع دين الإسلام وأتباعه بعد ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب: إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة.

ها هم اليهود قريبًا من مجيء المسيح عليه السلام مشتتون في العالم يسيرون على سيرتهم التي لا ينفكون عنها؛ وهي إشعال الحروب بين الناس، وإثارة الثورات، وترويج الفساد والفتن، والتخطيط والعمل للذهاب إلى فلسطين وإقامة دولة لهم أيضًا كدولة (إسرائيل) التي أقاموها في الماضي. ومن ناحية أخرى لا زالوا ينتظرون ظهور ملكهم الدجال ليعينهم على إقامة دولتهم وليحكم العالم من القدس مدة ألف عام كما يظنون، ويعملون على تهيئة العالم لاتباعه عند ظهوره...!.

- أمة النصارى:

لقد عاشت النصارى - مثل اليهود - في بلاد المسلمين آمنين مطمئنين، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، لا يكرههم أحد على ترك دينهم والدخول في الإسلام. وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم (مسيحيين) وينسبون أنفسهم إلى المسيح! فهو عليه السلام بريء منهم؛ لأنهم يعتنقون ديانة ودعوة لا علاقة له بها، إنما هم في الحقيقة يعتنقون (المسيحية البولسية) التي أسسها بولس! وهم قد ضُلِّلوا منذ الصغر؛ لأنهم يولدون على الفطرة، التي هي التوحيد وإسلام الوجه لله، فيقوم آباؤهم بتغييرهم؛ فينشؤون معميةً أبصارهم وقلوبهم عن الدين الحق...!.

فمع أن عيسى عليه السلام حذَّرهم مرارًا من رفعه أعلى من كونه عبدًا لله: «اذكروا الكلام الذي قلته لكم: ليس عبد أعظم من سيده»[1]؛ إلا إن فرقة منهم أبت إلا أن تجعله ابن الله، وفرقة أخرى زايدت عليها فجعلته هو الله! وفرق أخرى تراوحت فيما بين هاتين الفرقتين، تعالى الله عما يقوله جميعهم علوًّا كبيرًا، وتنزه وتقدس عما يصفونه به من صفات لا تليق بجلاله وعظمته. ومع أن عيسى عليه السلام بشَّرهم بمجيء رسول من بعده، وأنه ذاهب لكي يأتي هو، وأن عليهم اتباع الرسول الآخر

(١) يوحنا ١٥/٢٠.

الذي يبقى دينه إلى الأبد؛ إلا أنهم خالفوا أوامره وتعاليمه وأبوا إلا إنكار الرسول الجديد، بل وغلوا في شخص المسيح حتى سموا أنفسهم (مسيحيين) باسمه...!.

إن الذي أضل النصارى هو الشيطان وأعوانه من بني الإنسان، الذين لهم مصالح في بقائهم على طريق الضلال، ومع ذلك كان هناك أفواج منهم قد هداهم الله ويسَّر هم البحث عن الحق، ووفقهم إليه، فاكتشفوا بسهولة أن عقائد مثل: تأليه المسيح، والتثليث، وما شابه ذلك، كلها باطلة وضالة، وتؤدي إلى جهنم! وهي ليست إلا الوثنية نفسها ولكن بثوب جديد ومسمى جديد هو (المسيحية)، واكتشفوا أن دين الله الحق المقبول عنده ولا يقبل دينًا غيره، ومن ابتغى غيره فهو في الآخرة من الخاسرين، هو الإسلام لله رب العالمين، فأسلموا وصاروا مسلمين.

ولهذا فإن النصارى أقل عداوة وأقربهم مودة للمسلمين من اليهود، فاليهود قد ضلوا على علم، ورفضوا اتباع رسول الله عيسى عليه السلام، ثم رفضوا اتباع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم! أما النصارى ففي كثيرٍ منهم استجابة للحق، وإذعان له واتباعه، خاصة إذا توفرت لهم الظروف لمعرفة الحق. وهذه الحقيقة موجودة منذ ظهور الإسلام، إذ ظل الداخلون في الإسلام من النصارى أكثر بكثير من اليهود، وقد أخبر الله بهذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾[1].

وإن أكثر النصارى أو الملقبين بالمسيحيين، لم يعودوا نصارى إلا بالاسم، ولا وجود لدينهم إلا بالسياسة، واستطاع اليهود تهويد أو استمالة كثير منهم فجعلوهم

(١) سورة المائدة، الآيات: ٨٢-٨٤.

يعملون من أجل مصالح اليهود وأهدافهم...! وقد ساعد على ذلك بطلان التعاليم المسيحية وتصادم بعضها ببعض، بل وتصادمها مع الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها؛ مما نتج عنه فضائح مستمرة من قبل القسيسين، وهي فضائح يندى لها الجبين، وتزكم منها الأنوف؛ وحق لكل ما يخالف دين الله الإسلام أن تكون ثمراته مثل ذلك[1].

- أمة المسلمين:

يا لها من معاناة عايشتها أجيال المسلمين على مدى قرون طويلة لتمسكهم بالإسلام، ويا لها من مجازر ومذابح تعرضت لها أجيال المسلمين لطاعتهم لله باتباع آخر رسله إلى الناس جميعًا وهو محمد ﷺ...! فكم من حروب شُنَّت عليهم بأسماء مختلفة مثل: الصليبية، الاستعمار، الإرهاب، وغيرها من الأسماء المختلفة التي تعددت والحرب واحدة وهي ضد المؤمنين المسلمين لله رب العالمين...!.

إن دين الله الإسلام حق، ورسوله محمد ﷺ حق، وكتابه القرآن الكريم حق، ولولا أن كل ذلك حق لما ظل الإسلام ينتشر أكثر فأكثر، إذ كلما حاولوا استئصال هذا الدين انتشر أكثر، وكلما تعرض المسلمين للإبادة تمسكوا بدينهم أكثر ودخل فيه أناس جدد وزاد عددهم أكثر، وكلما تعرض كتاب الله لأزمة سهل الله طباعته أكثر وازداد انتشاره أكثر...! والسر في هذا كله هو أن الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه وكتابه ونصرة المسلمين ولو بعد حين، وجعل العاقبة والنصر لهم بعد كل أزمة ومحنة وفتنة ولو خسروا ما خسروا في بادئ الأمر.

---

(١) إن مسلسل فضائح القساوسة واغتصابهم للأطفال من الجنسين مستمر، والأعجب من ذلك أن في سجل كل من هؤلاء القساوسة عشرات حالات الاغتصاب، مما اضطر البابا إلى عقد اجتماع دولي للبحث في هذه المسألة، وشتان بين المجامع القديمة التي كانت تُعقد للبحث في شخصية المسيح وبين هذه المجامع التي بدأت تُعقد للبحث في شخصية القساوسة المغتصبين للأطفال في الكنائس!.

فالإسلام الذي ارتضاه الله للعالمين وختم به الرسالات السماوية، قد بدأ بفرد واحد فقط هو رسول الله محمد ﷺ، فنصر الله دينه ونشره فإذا بالمسلمين قد تعدوا الألف مليون...! وظهر دين الله في بلد صغير هو مكة المكرمة، فإذا به قد ظهر في جميع أرجاء الكرة الأرضية. أما أعداء الإسلام فلم يجدوا عملاً يمكن أن يقوموا به في المقابل سوى أن يعضوا أناملهم من الغيظ والحنق على الإسلام وأهله...! بل وفوق كل ذلك لم يترك الله - عزَّ وجلَّ - بيتًا إلا أدخله هذا الدين، وهو ما كان قد أخبر به رسول الله ﷺ: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيزٍ أو بذل ذليلٍ، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر**»[1]. فهذا هو ما تكفل الله به للإسلام بالرغم من كل ما كادوه له ومكروه بأهله...! وقد كشف الله لعبتهم الخبيثة الماكرة، وبيَّن أنهم لن ينجحوا، وأن الله سيظهر دينه على كل الأديان، فقال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[2].

فلعل أعداء الإسلام لا يدرون أيضًا أن أمر المسلم المؤمن كله خير، فهو إن قاتلهم وانتصر فذاك خير له، وإن قُتِل في سبيل الله فهو شهيد وذاك أيضًا خير له، وأي سراء تصيبه فيشكر الله عليها أو ضراء تصيبه فيصبر فهو خير له، قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[3]. أمَا وقد صبر المسلمون على مدى قرون كثيرة كل هذا الصبر على كل هذا الأذى والقتل والفتن والمحن والافتراءات والاتهامات الباطلة من كل الأشكال والأنواع على أيدي

(١) مسند أحمد، رقم: ١٦٨٩٤، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢-٣٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير.

أمم الكفر من كل الملل والأجناس؛ فقد حان وقت إعلان النتائج النهائية، وجاء عصر النصر والفوز للحق والحقيقة. وإعلان النتائج لن يكون بواسطة شخص عادي، بل إن من حكمة الله تعالى أن خصص لذلك رسولاً من الرسل العظام أولي العزم، رسولاً رفعه إليه وحفظه عنده في سماواته من أجل هذا اليوم، فيرسله مرة ثانية إلى الأرض لتنفيذ هذا العمل، حتى إذا انتهى منه ومكث في الأرض المدة التي قدَّرها له؛ توفاه سبحانه مثله مثل غيره من البشر.

ولكن قبل موعد مجيئه، هناك أحداث عظام ستقع، وهناك فتنة قد حان موعدها، وهي أعظم فتنة سيشهدها العالم على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم...! إنها فتنة الدجال الذي حان موعد خروجه من سجنه وظهوره للناس. وقبل خروج الدجال (الفتنة العالمية)، هناك خير ونعمة يخصها الله تعالى بالمسلمين وهي ظهور المهدي.

المهدي:

إن من رحمة الله بأمة المسلمين أن قدَّر لهم خروج مَن يجدد لهم دينهم في كل قرن؛ لأن تطاول الأمد يضعف إيمان الأمة، فكانت هذه النعمة والفضل من الله لأمة المسلمين ليحفظ دين الإسلام. ومنذ ظهور الإسلام لم يخل قرن من القرون من عباده الصالحين الذين يجددون الدين.

وإن رحمة الله بعباده المخلوقين لم تقتصر على المسلمين فحسب، بل شملت الناس جميعًا، حيث أتاح سبحانه لهم فرصة جديدة؛ فعلى الرغم من وجود رسالة الإسلام التي مضى عليها قرون كثيرة، وتقدير الله لوصول رسالة الإسلام إلى جميع أرجاء الأرض المعمورة، وتسخيره سبحانه لذلك كل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، بل وتسخيره لزعماء الدول غير الإسلامية ليذكروا الإسلام ومحاسنه في خطبهم العلنية، بالرغم من قلوبهم المشحونة بالحقد على الإسلام وأهله؛ كما أخبر

رسول الله ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[1]؛ مما جعل الحجة تقام على أهل الأرض جميعًا؛ إلا أن الله تعالى من رحمته بالناس أراد أن يعطيهم فرصة جديدة للدخول في دينه الإسلام قبل أن يقع عليهم منه ما يستحقون من العذاب على كفرهم واستنكافهم عن عبادته واستكبارهم؛ فمن استغل هذه الفرصة نجا وأفلح، ومن رفضها هلك وخسر.

فهذه الفرصة الجديدة هي المهدي، الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**المهدي من عترتي، من ولد فاطمة**»[2]، وقال ﷺ: «**المهدي منِّي؛ أجلى الجبهة**[3]**، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين**»[4]. ثم بعد ذلك تظهر آيات محددة يُقفل بعدها باب التوبة، وهي ثلاث آيات، قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن، لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»[5].

لقد مُلئت الأرض جورًا وظلمًا قبل ظهور المهدي، والقلة المؤمنة المتمسكة بدينها تعيش في وسط عالم مليء بالجور والظلم والفساد، ولا تملك حولاً ولا قوة لتغيير ما حولها من الأوضاع الفاسدة السيئة، وهي تستغيث بالله لينقذها مما هي فيه من البلاء والفتنة. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الفئة المؤمنة تنتظر أمرًا من عند الله؛ ظهر المهدي فبايعوه. فالمهدي أصلحه الله تعالى في ليلة، وهداه إلى الحق وأرشده ووفقه، وبعد ذلك بدأ في ملء الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت جورًا وظلمًا. فبدأت معاركه ضد أهل الكفر وأعداء الإسلام والظالمين والمفسدين في الأرض،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦٠٣.

(٣) الجلي هو انحسار الشعر عن مقدم الرأس.

(٤) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦٠٤.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

وجعل الله - عزَّ وجلَّ - النصر حليفه في معاركه التي خاضها على رأس أصحابه المؤمنين المسلمين، وفتح البلاد ووحدها تحت قيادته.

ومكث المهدي سبع أو تسع سنين نعمت الأمة الإسلامية نعمة لم ينعموا مثلها قط. وكان المال كثيرًا جدًا، فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي! أعطني. فيقول: خذ. فيضع له في ثوبه ما استطاع أن يحمله. وأصبحت الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والسلطان قاهرًا، والدين قائمًا، والعدو راغمًا، والخير في أيامه دائمًا.

معارك المسلمين:

لقد أخبر رسول الله ﷺ عن تسلسل حوادث آخر الزمان وإمارات الملاحم فقال عليه الصلاة والسلام: «**عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح قسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال**»[1]. فعمران بيت المقدس علامة على ضعف يصيب المدينة، فإذا ضعفت المدينة كان ذلك علامة على قرب وقوع الملحمة، وهي المعركة العظيمة بين المسلمين والروم، وبعد هذه الملحمة سيفتح المسلمون مدينة إسطنبول بالتهليل والتكبير من غير قتال، وبعد ذلك يخرج الدجال.

أما أسباب وقوع الملحمة بين المسلمين والروم فهي كما أخبر النبي ﷺ فقال: «**ستُصالحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا، فتغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدوًا مِنْ وَرَائِكُم، فتُنْصَرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتَسْلَمُونَ، ثم ترْجِعُونَ حتَّى تنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ، فيرْفَعُ رجلٌ مِنْ أهل النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ فيقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ، فيغْضَبُ رجلٌ مِنَ المسْلِمِينَ فَيَدُقُّهُ، فعِنْدَ ذلكَ تغْدِرُ الرُّومُ وتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ**»[2]، وقال ﷺ: «**ويثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة**»[3]. فقد قدَّر الله أن يكون بين المسلمين والروم صلحًا وهدنة،

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦٠٩.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦٠٧.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦٠٨.

وفي هذه المدة اشتركا معًا في معركة ضد عدو مشترك لهما وكان النصر حليفهما، ثم عادوا فنزلوا في مرج ذي تلول، فحمد الله المسلمون على نصره إياهم على عدوهم في هذه المعركة ونسبوا الفضل إليه في هذا النصر والغنيمة والسلامة، وقال قائلهم: غلب الله. ولكن فوجئ المسلمون برجل نصراني قد رفع الصليب ونسب النصر والغنيمة إليه وإلى دين النصرانية وقال: غلب الصليب...! قال ذلك قصدًا لإبطال الصلح أو لمجرد الافتخار وإيقاع المسلمين في الغيظ؛ فغضب رجل مسلم فدق صليبهم فكسره، وبرزوا إلى كاسر صليبهم فضربوا عنقه؛ فأسرعت تلك العصابة من المسلمين إلى أسلحتها، وأسرعت الروم أيضًا إلى أسلحتهم، فاقتتلوا فأكرم الله تلك العصابة من المسلمين بالشهادة، وعند ذلك غدرت النصارى وجمعت للمعركة العظيمة بينهم وبين المسلمين.

- الملحمة الكبرى:

فعندما رأى المسلمون أن الروم قد غدروا وانقلبوا عليهم وقتلوا تلك العصابة من المسلمين وأخذوا يحشدون قواتهم لمحاربتهم؛ أخذ المسلمون يستعدون لهم أيضًا حيث لا مفر من المواجهة في هذه المعركة التي سوف تكون ملحمة بين الطرفين لضخامتها وضراوتها...! وقدم الروم في جيش يقدر عدده بنحو من مليون جندي، ونزلوا بالأعماق أو بدابق القريبان من حلب، كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «**ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا**»[1]. وكان مركز قيادة المسلمين وتجمعهم في هذه الأثناء في غوطة دمشق كما حددها ﷺ بقوله: «**إنَّ فسطاط المسلمين، يوم الملحمة، بالغوطة إلى جانب مدينةٍ يقال لها: دمشق، من خير مدائن الشام**»[2].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب: ما يُحذَرُ من الغدر.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦١١.

ودارت رحى هذه الملحمة والمعركة العظمى، وقُتِل فيها الكثير من الرجال من الطرفين، ثم هزم الله - عزَّ وجلَّ - الأحزاب الرومية النصرانية، ونصر عباده المسلمين.

- فتح البلاد وتوحيدها:

بدأت معارك المسلمين مع أهل الكفر والشرك والنفاق والفساد. وعمل المسلمون أولاً على توحيد البلاد الإسلامية تحت راية واحدة، وكانت الجزيرة العربية هي أولى المحطات في التوحيد ثم فارس، وبعد توحيد البلاد الإسلامية أصبح بالإمكان مواجهة أهل الكفر من الروم، فتوجه المسلمون إلى تركيا وإسطنبول، وهنا أتى الخبر بخروج الدجال...! قال رسول الله ﷺ: «**تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله. ثم فارس**[1]**، فيفتحها الله. ثم تغزون الروم، فيفتحها الله. ثم تغزون الدجال، فيفتحه الله**»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟**» قالوا: نعم. يا رسول الله! قال: «**لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق.**[3] **فإذا جاؤوها نزلوا. فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم. قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط أحد جانبيها**». قال ثور: لا أعلمه إلا قال: «**الذي في البحر. ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط جانبها الآخر. ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر. فيفرج لهم. فيدخلوها فيغنموا. فبينما هم**

(١) إضافة إلى فارس (إيران)، فربما يكون المقصود بفارس أيضًا أجزاء من العراق تكون تحت سيطرة الفرس، كما كان عليه الحال قبل أن يفتحها المسلمون بعد معركة القادسية.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال.

(٣) قال القاضي: كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم: من بني إسحاق. قال: قال بعضهم: المعروف المحفوظ: من بني إسماعيل. وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه. لأنه إنما أراد العرب. وهذه المدينة هي القسطنطينية. (شرح النووي). المؤلف: وربما يكونوا فعلاً من بني إسحاق من الروم وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام ثم جاهدوا في سبيل الله وغزوا هذه المدينة التي ربما تكون (القسطنطينية) إسطنبول وربما تكون غيرها من المدن التي ينطبق عليها وصف النبي ﷺ.

يقتسمون المغانم، إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج. فيتركون كل شيء ويرجعون»[1].

ويفصل النبي ﷺ إحدى معارك المسلمين مع الروم وفتحهم إسطنبول فيقول عليه الصلاة والسلام: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق. فيخرج إليهم جيش من المدينة. من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبُوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله! لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم. فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً. ويُقتَل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله. ويفتتح الثلث. لا يفتنون أبداً. فيفتتحون قسطنطينية. فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون. وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج**»[2]. وقبل عودتهم إلى الشام يبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم. هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ. - أو - من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**»[3].

خروج الدجال:

لقد كان من تقدير الله وحكمته أن خلق الدجال فتنة مسلطة باستمرار فوق رؤوس الناس ليحذروا عذاب الله ويتوبوا إليه ويعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا. و«**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال**»[4]، فلا فتنة أكبر وأعظم شوكة من فتنة الدجال؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ بالتعوذ من فتنته؛ فالمسلم يدعو الله في صلاته قبل التسليم: «**اللهم...! وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب: إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الأذان، باب: الدعاء قبل السلام.

لقد خلق الله تعالى الدجال وحبسه في جزيرة مكبلاً من رأسه إلى أخمص قدميه حتى يحين موعد خروجه إلى الناس، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه من الدجال وحذَّرهم منه مخافة أن يكون خروجه في زمنه، حتى آخر رسل الله محمد ﷺ الذي أفاض أكثر من غيره في تحذير المسلمين من الدجال، بل إن الله قد أنعم على عبده ونبيه محمد ﷺ بعلوم عن الدجال أكثر ممن سبقه من الأنبياء؛ لأن الدجال خارج لا محالة في زمن أمة المسلمين؛ ولهذا كان النبي ﷺ أكثر معرفة بأوصاف الدجال وتجواله في الأرض وأفعاله مع الناس، ومدة إقامته حتى مقتله على يد رسول الله عيسى ﷺ، وتفاصيل أخرى كثيرة عن الدجال ليكون المسلمون على بصيرة منه ولا يغلطوا فيه إذا التقوا به. قال رسول الله ﷺ: «**إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: إنه أعور، وإن الله ليس بأعور**»(١).

فالدجال موجود في جزيرة في البحر، وقد قضت حكمة الله أن تُقذف سفينة لبعض العرب إلى شواطئ هذه الجزيرة حتى يلتقوا بالدجال ويعودوا إلى المدينة النبوية لإبلاغ رسول الله ﷺ بما رأوه من الدجال، وشاء سبحانه ألاَّ يكون الرجل الذي لقي الدجال مسلمًا بل كان من نصارى العرب، وهذا أبلغ في تأكيد كلام النبي ﷺ عن الدجال. وها هو تميم الداري قد قدِم على رسول الله ﷺ فأخبره بالقصة. وقد جمع رسول الله ﷺ صحابته وأخبرهم بقصة تميم مع الدجال، فقال ﷺ: «**ليلزم كل إنسان مصلاه**». **ثم قال**: «**أتدرون لما جمعتكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**إني، والله! ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة. ولكن جمعتكم، لأن تميمًا الداري، كان رجلاً نصرانيًا، فجاء فبايع وأسلم. وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال. حدثني؛ أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام. فلعب**

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب: ذكر الدجال.

بهم الموج شهراً في البحر. ثم أرفؤوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس. فجلسوا في أقرب السفينة. فدخلوا الجزيرة. فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر. لا يدرون ما قبله من دبره. من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعًا. حتى دخلنا الدير. فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا. وأشده وثاقًا. مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد. قلنا: ويلك! ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري. فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب. ركبنا في سفينة بحرية. فصادفنا البحر حين اغتلم[1]. فلعب بنا الموج شهراً. ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه. فجلسنا في أقربها. فدخلنا الجزيرة. فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر. لا يُدرى ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعًا. وفزعنا منها. ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان[2]. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك ألاَّ تثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر[3]. قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم. هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من

(١) اغتلم: هاج وجاوز حده المعتاد.

(٢) بيسان: قرية بالشام.

(٣) عين زغر: بلدة معروفة في الجانب القبلي من الشام.

العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني. إني أنا المسيح. وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج. فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة. غير مكة وطيبة. فهما محرمتان علي. كلتاهما. كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتًا[1]**. يصدني عنها. وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها...** قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: «**هذه طيبة. هذه طيبة. هذه طيبة**» يعني المدينة «**ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟**» فقال الناس: نعم. «**فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة. ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن. لا بل من قبل المشرق، ما هو. من قبل المشرق، ما هو. من قبل المشرق، ما هو**» وأومأ بيده إلى المشرق»[2].

فالدجال من أصل يهودي، وهو الذي ينتظره اليهود على أنه المسيح المنتظر وملك اليهود. والدجال رجل قصير، متباعد بين الساقين، شديد جعودة الشعر، أعور مطموس العين ليست بناتئة ولا جحرًا.

وها هو الدجال قد خرج من غضبة غضبها وأقبل من طريق بين الشام والعراق ففر الناس منه إلى الجبال، والعرب في هذا الوقت قليل، وجُلهم في بيت المقدس فسطاط المسلمين عند خروج الدجال، والناس في جوع شديد منذ ثلاث سنوات، يعيشهم ذِكر الله تعالى؛ التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، يجري ذلك منهم مجرى الطعام، ونِعم الطعام والشراب ذِكر الله. ولهذا فإن الدجال أخذ يستدرج الناس لاتباعه بما معه من الخبز والماء الكثير في ذلك الجوع الشديد! كما خرج الدجال في خفة من الدين ونقص من العلم فلم يبق أحد يحاجه في أكثر الأرض،

(١) صلتًا: مسلولاً.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: قصة الجساسة.

وذهل الناس عن ذكره. ووصل به دجله إلى أن ادعى الألوهية وأخبر الناس أنه ربهم! وإن أكثر من تبعه بعد اليهود الأعراب والنساء؛ لأنهم لا يميزون بين الحق والباطل، وأكثر النفوس مائلة إلى تصديق الخوارق...! وقد يأتي فيقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك فيقول: نعم. فيتمثل له شيطان على صورة أبيه وآخر على صورة أمه فيقولان له: يا بني اتبعه فإنه ربك فيتبعه...!.

وعندما خرج الدجال اتبعه اليهود كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**يتبع الدجال، من يهود أصبهان، سبعون ألفًا. عليهم الطيالسة**[1]»[2]. وشتان بين يهود بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر، وبين هؤلاء اليهود الذين خرجوا مع الدجال...! فاليهود يؤمنون بالمسيح وكانوا ينتظرون مجيئه، فجاء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وغادر وصار له أتباع يتسمون باسمه، فلم يؤمنوا به، فهو النبي الرسول، المؤمن، الصالح، المسالم، العادل، الرؤوف، الرحيم. واستمروا ينتظرون مجيء المسيح؛ لأنهم ينتظرون مسيحًا من نوع آخر مختلف تمامًا يناسبهم ويتوافق معهم ويصلح أن ينصبوه ملكًا عليهم وعلى العالم، وهو هذا المسيح الدجال الكافر الظالم الساحر المخادع القاتل المعتدي، الذي لا يفهم إلا لغة الحروب والقتال...!.

هذا هو المسيح الذي كان اليهود ينتظرونه ويعملون على تحضير العالم لمجيئه للمرة الأولى ليحكم العالم لصالح اليهود، حتى يصبح كل يهودي ملكًا، وكل (غوييم) عبدًا...! ولتحضير العالم لمجيء هذا الدجال المفسد ظلوا يفسدون سكانه ليصبحوا أفرادًا مطيعين للدجال حين يخرج، وإفسادهم قديم جدًا وتولى كبره على مر التاريخ

(١) الطيالسة: جمع طيلسان. والطيلسان، أعجمي معرب. قال في معيار اللغة: ثوب يلبس على الكتف، يحيط بالبدن ينسج للبس. خال من التفصيل والخياطة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال.

أحبارهم الذين وصفهم الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1].

ففي الماضي خطب الحاخام إيمانويل رابينوفيتش أمام لجنة الطوارئ لحاخامي أوروبا الذي عقد في بودابست، هنغاريا، بتاريخ ١٩٥٢/١/١٢، وشرح في خطبته وردوده على الأسئلة منهاج اليهود في السيطرة على العالم، وجاء في خطبته: «يجب أن أبلغكم أن الهدف الذي لا زلنا نعمل من أجله منذ ثلاثة آلاف عام قد أصبح في متناول يدنا الآن... وأستطيع أن أعدكم أنه لن تمر عشر سنوات حتى يأخذ شعبنا مكانه الحقيقي في العالم ويصبح كل يهودي ملكًا، وكل جوييم عبدًا.[2] (تصفيق من الحضور). إنكم لا تزالون تذكرون نجاح حملاتنا الدعائية التي طبقناها خلال الثلاثينات والتي أوجدت شعورًا معاديًا للأميركيين في ألمانيا وشعورًا بالكره الشديد للألمان عند الأميركيين، وتعلمون أن هذه الحملة أعطت ثمارها بقيام الحرب العالمية الثانية. أما الآن فهناك حملة مماثلة نشنها بقوة عبر العالم... إن الشعب الروسي والشعوب الآسيوية هم تحت سيطرتنا ولا يقفون حائلاً ضد قيام الحرب، ولكننا يجب أن ننتظر حتى يصبح الشعب الأميركي هو أيضًا مستعدًا لمثل هذه الحرب. ونحن نأمل بتحقيق هدفنا هذا باستعمال قضية العداء للسامية بنفس الطريقة التي جعلت الأميركيين يتحدون ضد الألمان أعداء السامية في الحرب العالمية الثانية... وفي خلال خمس سنوات سيحقق منهاجنا هذا أغراضه وتقوم الحرب العالمية الثالثة التي ستفوق في دمارها جميع الحروب السابقة. وستكون إسرائيل، بالطبع، بلدًا محايدًا. حتى إذا تم تدمير وإهلاك الطرفين المتحاربين سنقوم نحن بعملية التحكيم والرقابة على بقايا أشلاء جميع الدول، وستكون هذه الحرب معركتنا

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٢) جوييم أو غوييم: هم جميع الأمم غير اليهودية.

الأخيرة في صراعنا التاريخي ضد الغوييم... وسنعيش بعد ذلك في عهد السلام والرخاء الذي لن يقل عن عشرة آلاف من السنين. وسنحكم في عهد (السلام اليهودي) العالم بأسره». وردًا على سؤال من أحد الحاخامين الحاضرين عن مصير الأديان المختلفة بعد الحرب العالمية الثالثة، أجاب رابينوفيتش: «لن تكون هناك أديان بعد الحرب العالمية الثالثة كما لن يكون هناك رجال دين. فإن وجود الأديان ورجال الدين خطر دائم علينا وهي كفيلة بالقضاء على سيادتنا المقبلة للعالم؛ لأن القوة الروحية التي تبعثها الأديان في نفوس المؤمنين بها وخاصة الإيمان بحياة أخرى بعد الموت، يجعلهم يقفون في وجهنا»[1].

وكذلك تولى كبر إفساد العالم أغنياء اليهود؛ فالثري ماير روتشيلد قد اجتمع في العام ١٧٧٣م في فرانكفورت باثني عشر رجلاً من كبار الأغنياء والمتنفذين وأبلغهم بنود الخطة التي تمكنهم من السيطرة على العالم ومما قاله لهم: «عندما يحين وقت سيدنا وسيد العالم أجمع لاستلام السلطة فإن هذه الأيدي ذاتها ستتكفل بإزاحة كل من يقف في طريقه... ولهذا السبب فإننا بعد الحصول على السيطرة المطلقة سنمحو حتى اسم (الله) من معجم الحياة»[2]. كما أجريت الدراسات والبحوث الطويلة لمعرفة «القوى الخفية» التي تتستر وراء الحركة الثورية العالمية وتشعل الثورات وتحركها في بلدان العالم المختلفة فكانت النتيجة «أن قادة اليهودية العالمية الذين يتزعمهم رجال المصارف والممولون اليهود العالميون هم الذين يشكلون هذه «القوى الخفية».. وبأن هذه القوى تستعمل الأموال الكثيرة التي في حوزتها لشراء المراكز الحساسة بهدف خلق النزاعات بين الأمم، لكي تتمكن من إضعافها وإذلالها. وتبين أن هناك خطة بعيدة المدى تهدف إلى الإعداد لمجيء مسيح اليهود لتخليصهم، وعندها ستتمكن الحكومة المركزية الموجودة في فلسطين من فرض الحكم

(١) وليام غاي كار: أحجار على رقعة الشطرنج ٢٢٤-٢٢٧.

(٢) المصدر السابق ٨٤.

الديكتاتوري على جميع شعوب وأمم العالم»[1]. ومخططات الإفساد العالمي المدون فيها خطط وطرق إفساد العالم في سبيل السيطرة عليه مشهورة ومعروفة لدى الناس.[2] وقول الله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، يغني عن تفصيل إفسادهم وفسادهم...! وها هم اليهود قد حققوا كثيرًا مما سعوا إلى تحقيقه، وها هم ضحايا خططهم الإفسادية يتبعونهم مع الدجال؛ ولهذا فقد احتشد خلف الدجال الكافرون والمنافقون والمشركون والفاسقون والضالون والمكذبون وكل الأمم الفاسدة والمفسدة من كل الملل والنحل والفرق والأحزاب...! وبعبارة أخرى؛ اجتمعت معه كل قوى الشر وأهله في العالم، وأصبح الحاكم العالمي لهم صاحب الحكومة العالمية التي خطط لها اليهود وتحققت لهم...!.

فقد عمل اليهود حساب كل شيء، ولكنهم لم يعملوا حساب رب العالمين، أنه سبحانه موجود ومطلع عليهم وأنه يمهلهم إلى أجل معلوم عنده ولا يهملهم... لم يعملوا حساب أنه تعالى يثبت الذين آمنوا به واتبعوه، ومنهم الطائفة المنصورة التي لا يزال يوجد منها بقية في كل عصر ومصر، لا يضرها من خذلها ولا من خالفها، ولا يضرها كيد الكائدين ولا خيانة الخائنين، وتظل منصورة ظاهرة على الناس حتى تقوم الساعة وحتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، كما أخبر عنها رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفةٌ من أمتي، يقاتلون على الحقِّ، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال**»[3]. وها هي هذه الطائفة المنصورة المؤمنة على وشك مواجهة اليهود وملكهم العالمي الدجال، لوضع النهاية لهم وله. ومع مَن ستكون هذه الطائفة المؤمنة؟ إنها ستكون مع مَن لم يعمل اليهود حسابه أيضًا، مع مسيح الهدى عيسى عليه السلام الذي ظهر لهم من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون... وقد جمع معه

(١) المصدر السابق ٣٢٢.

(٢) من ذلك المخطط المسمى: (برؤتوكولات حكماء صهيون).

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٢١٧٠.

المسلمين المؤمنين الذين هم قوى الخير وأهله وليس غيرهم كما تم التدليس على الناس في الأزمنة الماضية...!.

وقد كشف رسول الله ﷺ للمسلمين يوم حذَّر من الدجال أن مع الدجال إذا خرج ماءً ونارًا، وعلَّم المسلمين كيف يفعلون في هذه الحالة فقال ﷺ: «**لأنا أعلم بما مع الدجال منه. معه نهران يجريان. أحدهما: رأي العين ماء أبيض. والآخر: رأي العين نار تأجج. فإما أدركن أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض. ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه. فإنه ماء بارد. وإن الدجال ممسوح العين. عليها ظفرة غليظة. مكتوب بين عينيه كافر. يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب**»[1].

وقد ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة. فخفض فيه ورفع. حتى ظن الصحابة أن الدجال قريب منهم فاستفسروا من رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**غير الدجال أخوفني عليكم. إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم. وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه. والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قطط. عينه طافئة. كأني أشبهه بعبد العُزَّى بن قطن. فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف. إنه خارج خلة بين الشام والعراق. فعاث يميناً وعاث شمالاً. يا عباد الله! فاثبتوا**» قلنا: يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ قال «**أربعون يوماً. يوم كسنة. ويوم كشهر. ويوم كجمعة. وسائر أيامه كأيامكم**» قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا. اقدروا له قدره**» قلنا: يا رسول الله! وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له. فيأمر السماء فتمطر. والأرض فتنبت. فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت ذرًا، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر. ثم يأتي القوم. فيدعوهم فيردون عليه قوله. فينصرف عنهم. فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم**

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه.

شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا. فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه. يضحك»[1].

فالدجال رجل ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره ونهريه واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله ومشيئته؛ وهذه الأمور هي من فتنة الدجال الذي امتحن الله به عباده ليحق الحق ويبطل الباطل، ثم بعد ذلك يفضحه ويظهر للناس عجزه.

والدجال ادعى الألوهية، مع أن شكله ونقص صورته يكذب دعواه، فهو أعور وعاجز عن إزالة العور الذي في عينيه، ومكتوب بين عينيه ما يشهد بكفره ويقرأه كل مؤمن متعلم وأمي، والدجال عاجز عن إزالته...! جعل الله ذلك آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها سبحانه لكل مسلم، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته. ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفًا من أذاه؛ لأن فتنته عظيمة جدًا تدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأمر، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة، وأما أهل الإيمان والتوفيق فيثبتهم الله فلا يغترون به ولا يخدعون بما معه للدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله.[2]

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٨/٥٨-٦٠.

- الدجال والمدينة النبوية:

إن من هوان الدجال على الله أن منعه سبحانه من دخول مكة المكرمة والمدينة النبوية، فليس من بلد إلا سيطؤه غير هذين البلدين، ولا يدخل المدينة رعبه، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان. وليس من نقاب المدينة نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله منها كل كافر ومنافق. فقد خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «**يوم الخلاص وما يوم الخلاص؟ يوم الخلاص وما يوم الخلاص؟ يوم الخلاص وما يوم الخلاص؟**» ثلاثًا، فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال: «**يجيء الدجال فيصعد أُحُدًا فينظر المدينة فيقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد. ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكًا مصلتًا سيفه، فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه. ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه فتخلص المدينة، فذلك يوم الخلاص**»[1].

لم يستطع الدجال أن يدخل مكة والمدينة لأن الملائكة فيهما منعته لشرف هاتين البقعتين، فهما حرمان آمنان منه ومحرمان عليه، فاضطر إلى النزول في أرض خارج المدينة، وبدلاً من دخوله إلى المدينة لينضم إليه المنافقون، حصل للمدينة زلزلة بعد أخرى ثم ثالثة حتى نفت خبثها وخرج منها إلى الدجال كل منافق ومنافقة وفاسق وفاسقة، وبقي بها المؤمن الخالص فلم يسلط عليه الدجال. وكان للدجال مواجهة مع رجل من خير الناس وأعظم الناس شهادة عند رب العالمين، قتله الدجال ثم أحياه ليشهد أنه الله! ولكن هذا المؤمن لم يزده ذلك إلا إيمانًا أنه الدجال، يقول النبي ﷺ: «**يخرج الدجال فيتوجه قِبَله رجل من المؤمنين فتلقاه المسالح مسالح الدجال فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون له: أوَ ما تؤمن بربنا؟**

(١) مسند أحمد، رقم: ١٨٨٧٧، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال: فيأمر الدجال به فيُشَبَّح فيقول: خذوه وشُجُوه، فيُوسَعُ ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أوَ ما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمر به فيُؤْشَر بالمِئشار من مَفْرِقه حتى يُفرَّق بين رجليه، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيُجْعَلُ ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار وإنما أُلقي في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين»[1].

بعد ذلك غادر الدجال ومعه أتباعه من اليهود والمنافقين إلى بيت المقدس حيث ستكون المواجهة بين مسيح الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام ومسيح الضلالة الدجال، وبين أمة الإيمان والإسلام أتباع رب العالمين وأتباع رسوله عيسى عليه السلام وأمم الكفر أتباع الشيطان وأتباع الأعور الدجال...!.

نزول المسيح عيسى عليه السلام:

فبينما المسلمون قد انتصروا على الروم وافتتحوا إسطنبول وعلقوا سيوفهم بالزيتون واستراحوا، سمعوا صوتًا أن الدجال قد خرج فعادوا. في هذه الأثناء أذن الله تعالى لعبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بالنزول إلى الأرض، «**فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق. بين مهرودتين. واضعًا كفيه على أجنحة ملكين. إذا طأطأ رأسه قطر. وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ**»[2]. فبينما المسلمون يعدون

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب: ذكر الدجال.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه.

للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فيقول أميرهم لعيسى عليه السلام: «**تعال صل لنا. فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء. تكرمة الله هذه الأمة**»(١).

لقد نزل عيسى ابن مريم عليه السلام كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها**»(٢). نزل عيسى عليه السلام ومعه مهمة محددة من الله؛ فأقام الحق والعدل وحكم بشريعة الإسلام؛ لأنها باقية لا تُنسَخ، وهدم الباطل فكسر الصليب الذي طالما عبدته النصارى وعظمته واستغاثت به وحلفت به من دون الله، والمقصود هدم دين النصارى (المسيحية) الباطلة المنسوخة بدين الإسلام. وقتل الخنزير الذي يحرم الإسلام أكله، ووضع الجزية فلم يقبلها، ومَن بذل من الكفار الجزية لم يكف عنه بها، بل لم يقبل إلا الإسلام أو القتل لكل كافر مستنكف مستكبر. وكان في نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الرسل رد من رب العالمين على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وبيَّن الله كذبهم وأنه الذي يقتلهم...!.

لقد نزل عيسى عليه السلام الذي جعلته النصارى ابنًا لله، واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وفنوا أعمارهم وتاريخهم وهم منشغلون في إصدار تركيبات جديدة لشخصيته، فجعلوه إلهًا، وابنًا لله، وأقنومًا، وطبيعة واحدة، وطبيعتان وغيرها من التركيبات، وصار لكل فرقة (مسيحية) مسيحها الخاص بها، حتى أوجدوا تركيبات متعددة ومختلفة يستحيل أن تكون لشخص واحد هو المسيح، وكل فرقة بما لديها من (مسيح) فرحون...! في حين أن عيسى عليه السلام لم يكن سوى نبي ورسول مثل غيره من الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم ليدعوهم إلى الله وإلى عبادته

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وتوحيده وعدم الشرك به. وها هم الذين سموا أنفسهم (مسيحيين) يذوبون كما يذوب الملح في الماء خجلاً حين رأوا المسيح الحقيقي واكتشفوا بأنه لا يوجد أي من التركيبات المعروفة التي اتخذوها دينًا تنطبق عليه، ولا يوجد أي فرقة منهم تعرف الشخصية الحقيقية للمسيح عليه السلام، أما المسلمون فهم وحدهم الذين يعرفون شخصيته الحقيقية التي أخبرهم الله بها في القرآن، أنه عبده ورسوله، وهو بشر من بشر، وهم وحدهم الذين ظلوا أوفياء للمسيح عليه السلام.

لقد اكتشف كثير من النصارى أن اليهود قد استخفوا بهم حين أقنعوهم بأن مسيحهم عيسى لن يجيء إلى الأرض ثانية ليحكم العالم في الألف عام السعيدة إلا بعد عودة اليهود إلى القدس وإعادة بناء الهيكل، وذلك من أجل استغلالهم في تحقيق هذين الهدفين اليهوديين اللذين لا علاقة للمسيح عيسى عليه السلام أو لعودته الثانية بهما. فها هي الحقيقة قد ظهرت على العكس من ذلك؛ حيث لم يأت المسيح ثانية إلا والقدس وفلسطين خالية من دولة لليهود كتلك التي كان الصهيونيون يسمونها (إسرائيل). بل قد ظهرت للنصارى حقيقة اليهود أنهم هم أعداء المسيح عليه السلام عند مجيئه الثاني كما كانوا هم أعداؤه في مجيئه الأول...!.

وهنا أُسقط في يد بعض الفرق المسيحية التي تقول عقيدتها بأنه لا بد من تنصير اليهود قبل مجيء المسيح...! فقد تناسوا أن اليهود هم الذين وقفوا في وجه المسيح في مجيئه الأول وعادوه وأهانوه وسبوه وشتموه ووصفوه بالعبارات الشنيعة وخططوا لقتله، ولم يدرك هؤلاء أن تناولهم للقمر بأيديهم أسهل عليهم من تنصير اليهود كما يحلمون ويتوهمون...![1] فوجدوا أنفسهم في وضع لا يحسدهم عليه

(١) من المستحيل أن يقدر النصارى على تنصير اليهود لعدة أسباب أهمها أن اليهود لا يعترفون أساسًا بالمسيح نفسه الذي يؤمن به النصارى. ومن جهة أخرى، فقد أثبت علماء النصارى أنفسهم بأن هذه المسيحية ليست إلا الوثنية القديمة قد أُلبست لباسًا جديدًا واسمًا جديدًا هو (المسيحية) وتم خلطها ببعض أقوال عيسى عليه السلام للتضليل وإيهام العوام والجهلة بأنها دين المسيح، ومن ثَم فهي ليست دعوة المسيح الحقيقية. وإن أي يهودي إذا اختار الله

حاسد، فتحسروا وندموا على ما أضاعوا من الزمان في اعتناق دين لا علاقة له بالمسيح عيسى عليه السلام، وتحسروا على ما أضاعوا من جهود وأموال في حملات التنصير في العالم لإيقاع غيرهم في الفخ الذي وقعوا هم فيه، حتى إنهم لم يوفروا المسلمين من نشاطاتهم التنصيرية ووضعوا خططًا لتنصير هذا البلد أو ذاك، هذه القارة أو تلك... ! فكانوا في ذلك ممن قال عنهم خالقهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾[1]. فقد أنفقوا أموالهم ليصدوا المسلمين عن سبيل الله، وها هي قد حقت كلمة الله عليهم لتكون عليهم حسرة، وعما قليل سيحق حكم الله الآخر عليهم بأن يُغلَبوا كما غُلِب أسلافهم الذين من قبلهم وأنفقوا مثلما أنفقوا، وفي الآخرة يحق على الذين كفروا حكم الله بحشرهم في جهنم...!.

نزل عيسى عليه السلام، فأين نزل ومَن القوم الذين تم اختيارهم للنزول عندهم وبينهم؟! لم ينزل عليه السلام في أي من الدول الغربية المسيحية التي كانت تقاتل المسلمين باسم المسيح وباسم الصليب...! بل نزل في أرض الأنبياء والرسل، نزل في الشام أرض المحشر والمنشر، نزل في دمشق فسطاط المسلمين، نزل عند المسلمين وبينهم لينضم إليهم في مسجدهم ليصلي معهم الصلاة التي يتوجهون فيها إلى الله وحده لا شريك له، ولم ينزل في مكان جماعة تعبده هو من دون الله أو تشركه معه في العبودية...! إن في ذلك لآية وعبرة لقوم يعقلون ويتفكرون...! فالمسلمون هم أولى الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**أنا أولى الناس**

= والدار الآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار، فإنه لن يفكر أبدًا في اعتناق المسيحية بل سيعتنق الإسلام بلا تردد ودون أدنى شك كما فعل فطاحل من علماء اليهود وأحبارهم الذين أسلموا؛ لأنهم علموا أن رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم حق ومبشَّر به في التوراة وهو آخر الأنبياء والرسل، وأن الإسلام حق وهو آخر الأديان؛ وقد ألَّف بعضهم الكتب التي فضحوا فيها اليهود وأفحموهم بالدليل والحجة على بطلان عقائدهم، وأثبتوا بأن دينهم منسوخ وباطل اعتناقه أو البقاء عليه بعد مجيء الإسلام الناسخ لما قبله من الشرائع والأديان.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1]. إن الأنبياء أولاد لضرائر، أمهاتهم شتى ودينهم واحد وهو التوحيد؛ ولهذا نزل عليه السلام في معسكر التوحيد والإيمان والإسلام والخير ليقود المؤمنين المسلمين الموحدين في المعركة الفاصلة بين الإيمان والكفر، بين الخير والشر، التي سيقتلون فيها المسيح الدجال وأمم الكفر والشر المختلفة؛ ولن يكون بعدها في الأرض سوى دعوة واحدة ودين واحد هو الإسلام.

نهاية الدجال وأمم الكفر:

إن الله عزَّ وجلَّ حليم... ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على الأرض أحدًا من اليهود الذين يسعون في الأرض فسادًا، ولكن أخَّر استئصالهم إلى أجل مسمى، وها هو أجلهم قد اقترب ولن يستأخر ساعة ولن يستقدم. فقد قدَّر الله - جلَّ جلاله - أن تكون نهاية ملك اليهود المسيح الدجال على يد المسيح الحقيقي عيسى عليه السلام الذي أنكره اليهود...! كذلك قدَّر سبحانه وتعالى أن تكون نهاية اليهود على أيدي أمة الإسلام، أمة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنكروه أيضًا...! وقد حانت ساعة كشفهم للعالم أجمع، وكشف كذبهم وأباطيلهم وافتراءاتهم التي كانوا يمارسونها على الشعوب، وكشف خداعهم بأن الدجال هو المسيح وما هو إلا دجال أعور جبان إذا رأى المسيح الحقيقي ذاب كما يذوب الملح في الماء...!.

فقد وصل اليهود مع ملكهم الدجال إلى بيت المقدس. وبان الفسطاطان اللذان لا ثالث لهما: فسطاط الإيمان الذي لا نفاق فيه؛ وهو معسكر حزب الله، وقوى الخير، والفرقة الناجية، الذي ضم المسيح عيسى عليه السلام والمسلمين. وفسطاط النفاق الذي لا إيمان فيه؛ وهو معسكر حزب الشيطان، وقوى الشر، والفرق الهالكة، الذي ضم الأعور الدجال واليهود الذين أبوا إلا أن يكونوا معه ضد رسول الله المسيح

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

الحقيقي عيسى عليه السلام الذي وجدوه يحكم بالإسلام أيضًا كما حكم به أخوه محمد صلى الله عليه وسلم من قبل، وما كانوا ليقبلوا بما رفضه أسلافهم من قبل أو يتراجعوا عن موقفهم، فصمموا على الاستمرار في إنكار المسيح عليه السلام ومعاداته...!.

وتواجه المعسكران استعدادًا للمعركة: المسيح عيسى عليه السلام يتقدم المسلمين، والأعور الدجال يتقدم اليهود وغيرهم من أمم الكفر والمنافقين الذين اتبعوه. وبدأت المعركة التي سوف يضع الله فيها حدًا ونهايةً للدجال ومَن معه من اليهود، «**قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحون ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيفٍ محلًّى وساجٍ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء. وينطلق هاربًا، ويقول عيسى: إن لي فيك ضربةً لن تسبقني، فيدركه عند باب لُدٍّ الشرقي فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله عزَّ وجلَّ يتواقى به يهودي، إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابَّة، إلا الغرقدة، فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله**»[1].

لم يثبت معسكر الكفر والشر لحظة واحدة أمام معسكر الإيمان والخير، ففي اللحظة الأولى من المواجهة، وبمجرد أن وقع نظر الدجال على رسول الله المسيح عليه السلام؛ احترق الدجال وذاب مثل حبة الملح في كأس الماء، إذ كيف سيثبت الدجال صاحب الوجه الأعور المظلم الكافر في مواجهة المسيح عليه السلام الذي يشع وجهه بنور الإيمان ويتلألأ بأنوار النبوة...؟! ولهذا لم يملك الدجال سوى أن يفر هاربًا هو ومن معه من اليهود، ولحق بهم عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين فأدركوهم عند باب اللد في فلسطين، فجاء الموت من كل مكان إلى معسكر الكفر والشر؛ فأما الدجال ملك اليهود ومدعي الألوهية فقتله الله بيد عيسى عليه السلام بضربة واحدة، ثم أراهم عيسى عليه السلام دم الدجال في حربته...! وأما اليهود فذابوا أيضًا مثل ملكهم؛ فقد

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٧٨٧٥

انكشفوا بعد موت الدجال الذي كانوا يختبئون خلفه، وبشروا به ونصروه عند خروجه، فلم يعد أمامهم أي شيء يمكن أن يتواروا خلفه ويختبئوا، ونظروا حولهم فلم يجدوا إلا أحجارًا وأشجارًا، ففروا في كل اتجاه كل منهم يختبئ ويحتمي من الموت ولو خلف صخرة أو شجرة أو حائط أو حتى دابة من الدواب، ولكن هيهات هيهات...! قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود. فيقتلهم المسلمون. حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي. فتعال فاقتله. إلا الغرقد. فإنه من شجر اليهود**»[1].

وبعد أن اختبؤوا خلف الأحجار والأشجار لعلها تخفيهم عن أعين المسلمين فلا يصلون إليهم، كما وصفهم خالقهم عزَّ وجلَّ: ﴿ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ** ﴾[1]، وكما ظن أسلافهم من قبل أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم سبحانه من حيث لم يحتسبوا، فقد ظن هؤلاء أيضًا أن هذه الأشياء التي اختبؤوا خلفها ستمنعهم من الله وتنجيهم من الموت...! إلا أن ظنونهم كانت خاطئة كعادتهم في الظن الخاطئ؛ فأتاهم الله تعالى أيضًا من حيث لم يحتسبوا، ومن حيث لا قِبَل لهم به؛ فقد أنطق جلَّت قدرته الأحجار والأشجار حتى جعل الحجر والشجر ينادي المسلم: يا مسلم! يا عبد الله! سبحان الله...! فحتى الحجر والشجر يعرف الحق، ويعرف أن ذلك الإنسان هو مسلم وهو عبد الله، ويعرف أيضًا أن المختبئ خلفه هو يهودي يستحق القتل لاتباعه الشيطان والدجال؛ لذا فهو ينادي على المسلم لكي يأتي لقتله...! فلبى المسلمون نداء الأحجار والأشجار وأقبلوا يقتلون من اختبأ وراءها من اليهود حتى أبادوهم وقطعوا دابرهم وخلصوا الأرض من شرورهم وإفسادهم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤.

وهكذا كتب الله تعالى النصر لعبده عيسى عليه السلام وللمسلمين، وهزم الدجال والكافرين وقتلهم في هذه المواجهة الأخيرة الحاسمة، التي حاول اليهود ومَن حالفهم بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ وتسلط وعلو دنيوي أن يتجنبوا وقوعها، عن طريق محاربة أي توجه إسلامي حقيقي وأصيل في أي بلدٍ على وجه الأرض، والعمل على اجتثاثه من جذوره، أو تدمير مسبباته، مع ما يُرتَكب في سبيل ذلك في حق المسلمين من ظلمٍ وعدوانٍ وانتهاكاتٍ صارخةٍ لأبسط حقوق الإنسان، ومع ما يقع من مجازر وسفك دماء المسلمين دون هوادة أو رحمة أو شفقة على شيخ كبير أو طفل صغير، أو امرأة ضعيفة، أو مريض عاجز...!. وقد حاولوا أن يعكسوا نتيجة هذه الحرب والمواجهة الأخيرة ظنًّا منهم أنهم هم قوى الخير، وأن المسلمين هم قوى الشر، ولكن قد انكشف الآن وصار يقينًا أن المسلمين هم أهل الإيمان وقوى الخير لكونهم انضموا إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بعد نزوله، ولا يمكن لإنسان عاقل أن يخطئ فيظن أن عيسى عليه السلام هو من أهل الكفر وقوى الشر، بل إن مَن يظن هذا الظن السيئ في عيسى عليه السلام فهو كافر مرتد.

فقد كان لليهود تاريخ طويل وحافل بالتأويلات الخاطئة والظنون والأوهام. فعلى سبيل المثال؛ قد ظنوا أن إلههم وإله موسى هو عجل من ذهب! فخاب ظنهم وقال لهم موسى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[1]. وظنوا أن النبي الأمي الجديد الذي ينتظرون ظهوره في الجزيرة العربية، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، سيكون من بني إسرائيل؛ فخاب ظنهم فكان من العرب فأنكروه، مع أن لديهم أدلة من التوراة على أنه سيكون من العرب. وظنوا أن المسيح المنتظر المبشر به في التوراة ليس هو عيسى ابن مريم عليه السلام، فرفضوه وظلوا ينتظرون مسيحًا آخر، ولما خرج المسيح الدجال اتبعوه ظنًّا منهم أنه هو المسيح المنتظر، فلما تواجه المسيحان خاب

(١) سورة طه، الآية: ٩٨.

ظن اليهود ورأوا أنهم قد اتبعوا المسيح الخطأ، المسيح المزيف، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]...!.

ومرة أخرى وأخيرة وقع اليهود ضحية مخططاتهم الفاسدة، ونفَّذ الله وعده فيهم الذي توعدهم به في كتبه المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن؛ بأن يرد المكر إلى نحورهم، ويجعل عاقبة أعمالهم على رؤوسهم، ويعاقبهم بحسب أفعالهم، حتى «يعلَمونَ أنِّي أنا هوَ الرّبُّ وأنِّي ما تكلَّمتُ عَبثًا حينَ هَدَّدتُهُم بِهذا الشَّرِّ»[2]. ففي سفر حزقيال: «الآنَ عمَّا قريبٍ أصُبُّ غَيظي وأُتَمِّمُ غضَبي وأحكُمُ علَيكُم بِحسَبِ طُرقِكُم وأُعاقِبُكُم على جميعِ أرجاسِكُم، ولا أُشْفِقُ ولا أعفو بل أعاقِبُكُم على طُرُقِكُم وأرجاسِكُم، فتعلمونَ أني أنا الرّبُّ، وأنا الذي يُنزِلُ بكُم هذهِ الضَّرَبات... على حسَبِ سيرتِهم أفعلُ بِهِم. وبمُقتضى أحكامِهِم أحكُمُ علَيهِم، فيعلمونَ أنِّي أنا هوَ الرّبُّ»[3]. وفي إنجيل متى: «حتَّى يَنزِلَ بِكُم العِقابُ على سَفكِ كُلِّ دمٍ بريءٍ على الأرضِ»[4]. وفي القرآن آيات كثيرة بهذا الخصوص، بل وتوعد مستمر لهم على الدوام بأنهم كلما عادوا إلى الفساد عاد الله عليهم بالعذاب، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[5]

وبهذه النتيجة انكشفت الخديعة الكبرى التي رُوِّجت لقرون طويلة عمن هم قوى الخير وقوى الشر، وتيقن العالم أجمع من الحقيقة الكبرى التي أظهرها وأكدها رسول الله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أن المسلمين الذين كانوا معه وحاربوا معه الدجال وأتباعه، كانوا هم المؤمنين الأخيار الأبرار، وهم قوى الخير. وأن اليهود

(١) سورة فصِّلت، الآية: ٢٣.

(٢) حزقيال ٦/١٠.

(٣) حزقيال ٧/٨-٢٧.

(٤) متى ٢٣/٣٥.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨.

وغيرهم من الملل التي اتبعت المسيح المزيف الأعور الدجال وحاربوا معه المسيح الحقيقي عيسى عليه السلام والمسلمين، كانوا هم الكفار الأشرار الفجار، وهم قوى الشر.

وقد قال الله جلَّ جلاله: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾[1]. فقد وعد سبحانه أن يظهر للناس الدلالات والحجج والبراهين على كون القرآن حقًا منزلاً من عنده، على رسوله محمد ﷺ، وأن دينه الإسلام هو الدين الحق المقبول عنده دون غيره من الأديان، وأن المسلمين هم أهل الإيمان وأهل الخير... بدلائل خارجية من الفتوحات والانتصارات وظهور الإسلام على البلدان وسائر الأديان، كما في قوله سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[2]. وقد فعل الله تعالى هذا كله؛ فأي دليل أو برهان هو أقوى من إنزال رسوله عيسى عليه السلام إلى الدنيا من أجل أن يُري سبحانه العالم أجمع هذا الحق...؟!.

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

نهاية أمتَي يأجوج ومأجوج
أعداء المسيح عليه السلام والمسلمين

يأجوج ومأجوج:

لقد خلق الله - تبارك وتعالى - عباداً له لا يقدر على قتالهم أحد، وهم ما كانوا مع شيء إلا غلبوه كثرة لكثرة عددهم! إنهم يأجوج ومأجوج المفسدون في الأرض، الذين أخبر الله تعالى بقصتهم وقصة ذي القرنين الذي مكَّن له سبحانه في الأرض: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[1].

فقد بلغ عبد الله ذو القرنين بين جبلين متقابلين بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ووجد ذو القرنين هنالك قومًا لا يكادون يعرفون لغة غير لغتهم، فأخبروا ذا القرنين عن إفساد يأجوج ومأجوج وإيذائهم لهم، وعرضوا عليه أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصدٍ للخير: إن الذي أعطاني الله من المُلك والتمكين خيرٌ لي من الذي تجمعونه، ولكن ساعدوني بعملكم وآلات البناء فأجعل بينكم وبينهم سداً. وطلب منهم أن يأتوه بزبر الحديد ووضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا

(١) سورة الكهف، الآيات: ٩٣-٩٧.

حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضًا أجَّج عليه النار، حتى إذا صار كله نارًا، أفرغ عليه النحاس المذاب، فما قدرت يأجوج ومأجوج على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، فقال ذو القرنين: هذا رحمة من ربي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد، فإذا اقترب الوعد الحق جعله ربي دكًّا وساواه بالأرض، طريقًا كما كان، وكان وعد ربي كائنًا لا محالة.

خروج يأجوج ومأجوج:

لقد أخبر الله - عزَّ وجلَّ - بأن مخلوقاته يأجوج ومأجوج خارجون لا محالة من مكانهم بعد الدجال، وبعد نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴾[1]. فقد كان يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فعادوا إليه وهو كهيئته حين تركوه، فحفروه وخرجوا على الناس.

فعندما أذن الله تعالى لمخلوقاته هؤلاء بالخروج دك السد الذي بناه ذو القرنين عليهم وسوَّاه بالأرض وفتح لهم طريقًا فأسرعوا بالخروج من كل جهة، وماجوا في الناس، فأفسدوا على الناس أموالهم، وأتلفوا أشياءهم، ونشفوا الماء، وتحصن الناس منهم في حصونهم...!.

فبعد انتصار عيسى عليه السلام والمسلمون وقتلهم الدجال واليهود ومَن معهم من الكفار حتى لم يعد في فلسطين إلا المسلمون، إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أنه

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.

تعالى قد أخرج عباداً من عباده لا قدرة ولا طاقة له بقتالهم، وأمره سبحانه بأن يحفظ عباده المسلمين ويضمهم إلى الطور...! فبعث الله يأجوج ومأجوج، واتجهوا مسرعين نحو الشام وفلسطين، فمروا ببحيرة طبرية فشربوا ما فيها من ماء حتى تركوها يابسة بلا ماء، فمر عليها آخرهم فلم يجد ماءً...!.

نهاية يأجوج ومأجوج بالدعاء:

أطاع عيسى عليه السلام ربه - عزَّ وجلَّ - وانحاز بعباد الله المسلمين إلى حيث أمره مبتعداً بهم عن يأجوج ومأجوج، وبعد أن انحاز عن طريق يأجوج ومأجوج كل مَن في طريقهم من المسلمين إلى مدائنهم وحصونهم وضموا إليهم مواشيهم، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة، قال قائل من يأجوج ومأجوج: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء، ثم هز أحدهم حربته ثم رمى بها إلى السماء فرجعت إليه مخضبة دمًا للبلاء والفتنة...!.

فهنا رغب عيسى وأصحابه إلى الله بالدعاء ليكفيهم شر يأجوج ومأجوج ويخلصهم منهم؛ فاستجاب الله تعالى لهم فأرسل على يأجوج ومأجوج دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فأصبحوا موتى كموت نفس واحدة لم يسمع لهم حس، فقال المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، فانحدر رجل منهم محتسبًا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فنزل، فوجدهم موتى بعضهم على بعض، فنادى: يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله - عزَّ وجلَّ - قد كفاكم عدوكم، فخرجوا من مدائنهم وحصونهم وسرحوا مواشيهم، فما كان لهم رعي إلا لحومهم فشكرت عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط.

وهبط عيسى وأصحابه، فلم يجدوا في الأرض بيتًا إلا قد ملأه زهم يأجوج ومأجوج ونتنهم، فرغب عيسى وأصحابه إلى الله؛ فأرسل سبحانه عليهم طيراً كأعناق البُخْت فحملتهم فطرحتهم حيث شاء. وأرسل سبحانه مطراً فلم يمنع من

نزول الماء بيت مدر ولا وبر أربعين يومًا، فغسل الأرض حتى تركها كالمرآة من نظافتها.

فهذه المعركة بين المؤمنين ويأجوج ومأجوج لم يُستخدم فيها إلا سلاح الدعاء الذي لا يقيم الكفار له وزنًا، ولا يأخذوا في اعتبارهم أن دعاء المظلومين سلاح من أمضى الأسلحة وأقوى من الأسلحة التي يستخدمونها ويظنون أنه بإمكانهم أن يحققوا بها كل ما يريدون من الآخرين...! ولو يعلم الكفار حق المعرفة بخطورة سلاح الدعاء الذي يملكه كل مسلم بل كل إنسان، وأن دعاء المظلوم ليس بينه وبين الله حجاب؛ لما ظلموا أحدًا وبالذات المسلمين. فالله - تبارك وتعالى - قادر على نصر الداعين المظلومين، وهزيمة المنتصرين بالقوة والمفتخرين بالعدد والأسلحة.. وخير دليل على ذلك انتصار الداعين المسلمين على يأجوج ومأجوج المسلحين الذين من كثرتهم لا قدرة لأحد على قتالهم أو هزيمتهم. فآخر معركة في هذه الأرض قد انتهت بالدعاء وكان النصر فيها للمسلمين.

قوى الخير وقوى الشر:

بعد قتل يأجوج ومأجوج لا يبقى على وجه الأرض كافر ما دام عيسى عليه السلام حيًا في الأرض. فقد طهَّر الله تعالى الأرض من كل قوى الشر، ولم يبق فيها إلا قوى الخير وأهل الإيمان وهم عيسى ابن مريم عليه السلام وأصحابه المسلمون. فحتى أهل الكتاب اليهود والنصارى قد دخلوا في الإسلام وأصبحوا مسلمين، بعد أن آمنوا بحقيقة المسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله؛ كما أخبر الله تعالى بذلك: ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ** ﴾[1]. هذا على تفسير قوله تعالى بأن إيمانهم بعيسى عليه السلام يكون بعد نزوله لقتل الدجال وقبل موته. أما التفسير الآخر فهو أن الإيمان به يكون عند موت كل واحد من أهل الكتاب ولكن لا ينفعه ذلك لأن الموت قد حضره.

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

وبتطهير الأرض من أمم الكفر جميعًا لم يبق فيها إلا أمة الإسلام، والحكم من الآن وصاعدًا سيكون للإسلام الذي ببركته يعم الخير في الأرض.

الإسلام والخير يعم الأرض:

لا إله إلا الله وحده، نصر عبده عيسى عليه السلام والمسلمين، وهزم الأحزاب وحده، وأعاد الحكم إلى الإسلام، الذي حكم في الماضي لأكثر من ثلاثة عشر قرنًا منذ ظهوره، وتناوب على حكمه أكثر من مئة خليفة، فجاءت بعض الدول الغربية من غير المسلمين فاغتصبت حكم العالم من المسلمين وأخذته لنفسها، وأعطت نفسها الفرصة بالقوة لحكم العالم، فماذا كانت ثمار حكمها حتى نعرف حقيقتهم؟

لقد جارت وساقت العالم إلى النار والحروب والدمار والتناحر والتقاتل والانتقام والفتن الطائفية والعنصرية وسائر الفتن والمصائب والويلات...! لقد ظلموا ولم يعدلوا، ونسوا أن العدل أساس المُلْك، وقتلوا ولم يرحموا...! أرادوا أخذ قيادة العالم من المسلمين ونفذوا ما أرادوا؛ فلينظروا إلى ثمار حكمهم: حروب عالمية حصدت ملايين البشر الذين يخلقهم الله فردًا فردًا وهم يقتلونهم بالآلاف...! قنابل وصواريخ من كل الأنواع قتلت مئات الآلاف والملايين...! تدمير، فظائع، مجازر، مذابح، تخريب للبيئة والطبيعة، مؤامرات يباد فيها شعوب لأتفه الأسباب مثل بيع أسلحة، أو تخفيض سعر برميل النفط، أو كسب أصوات في انتخابات، أو تسجيل موقف سياسي، أو كسب بعض المال وما شابه ذلك من الأمور الدنيوية الفانية...! إنها قمة في الظلم، قمة في العدوان، قمة في الخيانة الإنسانية؛ ومآل ذلك كله إلى خراب ودمار عالمي ارتد على هؤلاء الذين قادوا العالم إلى الخراب والكوارث، فاستأصلهم الله من أرضه التي أفسدوا فيها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، واستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا...!.

لقد أخذت اليهود والنصارى فرصًا كثيرة طويلة ومديدة في حكم العالم فلم يزيدوا في الأرض إلا ظلمًا وطغيانًا وفسادًا، ولم يزدادوا هم إلا كفرًا وعتوًا وتجبرًا

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وأنهم قوى الخير التي سوف تقتل قوى الشر، وأنهم أبناء الله وأحباؤه...! وبإرسال الله لعبده ورسوله عيسى عليه السلام مرة ثانية إلى الأرض؛ حطَّم الله كل هذه الأباطيل والضلالات، وحطم دورة الدجل التي أخذت مدة طويلة من الزمن، ظلوا فيها حتى آخر لحظة منها يجرون في الاتجاه المضاد لتعاليم الله وأوامره، وظلوا يجرون في اتجاه الدجال حتى خرجوا وراءه وقد ملئوا كبرًا وفخرًا وزهوًا ليدجلوا على الناس أنهم أسياد العالم وحكامه...!.

لم تعد هناك فرصة أخرى لأمم الشر والدجل لتحكم العالم وتبدأ دورة الدجل مجددًا في العالم...! لم تعد هناك فرصة أخرى لهم ليعودوا إلى لعبة السخرية التي كانوا يلعبونها على المسلمين فيصفونهم بقوى الشر والإرهاب والتطرف وأوصاف أخرى مقيتة، حتى وصل بهم الأمر إلى أن يسخروا من رب العالمين ومن اسمه الجليل؛ فيسخرون من المسلمين بأنهم يعبدون إلهًا اسمه (الله)...! وأن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم إرهابي...! فقد حانت الفرصة الآن ليعود حكم العالم إلى أصحابه الأصليين الذين اختارهم الله لذلك وجعلهم خير أمة أُخرِجت للناس؛ أمة الخير التي تقود الناس إلى ما فيه خير لهم في الدنيا، وكذلك تدلهم على ما ينجيهم وينفعهم في الآخرة التي إليها مآلهم مهما طالت أعمارهم... إنها أمة الإسلام التي ستعود إلى حكم العالم من الآن إلى ما شاء الله من الزمان...

فبعد الفرص التي اغتصبها غير المسلمين لقيادة العالم؛ قد ثبت لدى الناس أجمعين أنه لا يصلح لقيادة العالم إلا دين الله الحنيف الإسلام، ولا يصلح أن يكون الحكام العالميون المسلمون إلا أن يكونوا كما كان الذين من قبلهم من الحكام المسلمين الأوائل من الخلفاء الراشدين وأمثالهم من الذين وعدهم الله بوراثة الأرض فقال عزَّ شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ

﴿أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1]. فهذه هي المهمة الشريفة التي لا تصلح إلا لمن شرَّفهم الله وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله - جلَّ جلاله - وتوحده وتعبده ولا تشرك به شيئًا، وهي الأمة الإسلامية، الذين وصفهم سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[2].

ففي هذا الزمان لن يكون هناك سوى دعوة واحدة في الأرض وهي الإسلام، الذي يدعو عيسى عليه السلام إليه ويحكم به ولا يقبل غيره، ويُهلك الله الملل كلها إلا الإسلام...! وإذا كان من ثمارهم نعرفهم فهلم لنعرف ثمار حكم الإسلام لنعرف حقيقة المسلمين.

إن من ثمار الحكم بالإسلام وإقامة العدل ومنع الظلم؛ أنه يقع الأمان في الأرض وتذهب العداوة حتى ترتع الحيوانات الأليفة مع الحيوانات المفترسة، ويلعب الصبيان بالحيات...! قال رسول الله ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلات، دينهم واحد وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين ممصرتين[3] فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعًا، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضًا، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه**»[4].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٤.

(٣) ممصرتين: حلتين ممصرتين، والحلة الممصرة التي يقرب لونها إلى الأصفر (لسان العرب).

(٤) مسند أحمد، رقم: ٩٥٩٨، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

ويكثر المال، وتنزل البركات، وتكثر الخيرات، وتخرج الأرض كنوزها، وتقل أيضًا الرغبات في اقتناء المال لقصر آمال الناس، وقلة رغبتهم في الدنيا لعدم الحاجة إليها، وعلمهم بقرب الساعة، فإن عيسى عليه السلام علم من أعلام الساعة... وعندئذ تكثر رغبة الناس في الصلاة وسائر الطاعات حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، فلا يتقرب المسلمون إلى الله إلا بالعبادة، لا بالتصدق بالمال، فأجر السجدة خير لمصليها من صدقته بالدنيا وما فيها لفيض المال حينئذ وهوانه وقلة الشح وقلة الحاجة إليه للنفقة في الجهاد.

ومن ثمار الحكم بالإسلام وإقامة العدل ومنع الظلم أن الأرض قد صلحت حتى أصابها تغير عجيب وعادت جنة على الأرض، كما كانت على عهد آدم عليه السلام...! وكيف لا تكون كذلك ورسول الله ﷺ يقول: «**العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»[1]. فإذا كان هذا ما يحصل لموت فاجر واحد، فكيف وقد مات جميع الفجار والكفار ولم يبق إلا المسلمون...؟!.

فالجماعة من الناس يجتمعون على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمعون على الرمانة فتشبعهم ويستظلون بقشرها، ويبارك في لبن الإبل والبقر والغنم فتكفي الواحدة منها الجماعة الكثيرة من الناس، قال رسول الله ﷺ: «**ثُمّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَك، وَرُدّي بَرَكَتَك. فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرّمّانَةِ. وَيَسْتَظِلّونَ بِقِحْفِهَا. وَيُبَارَكُ فِي الرّسْلِ. حَتّىَ أَنّ اللّقْحَةَ[2] مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ[3] مِنَ النّاسِ. وَاللّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النّاسِ وَاللّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النّاسِ**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه.

(٢) اللقحة: الحلوب الغزيرة اللبن.

(٣) الفئام: الجماعة.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه.

وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة الله وسنة رسوله محمد ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير، فصلاح الأرض والسماء بالطاعة.

الله أكبر...! هذه هي ثمار الحكم بالإسلام، دين الله ودين جميع أنبيائه ورسله من آدم ونوح إلى محمد ﷺ مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى في مجيئه الأول والثاني صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهو الدين الذي أكمله الله ورضيه للناس جميعًا، ومن يبتغ غيره دينًا فلن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين... فأنى لغير دين الإسلام من الملل والنحل والسياسات والأنظمة المختلفة أن تجلب للناس مثل هذا الخير أو قريبًا منه، ومثل هذه الكرامات التي جعلت الأرض أشبه بالجنة التي يحلم بدخولها كل إنسان على وجه الأرض...؟!.

وفاة عيسى عليه السلام:

ويتوجه عيسى عليه السلام إلى بلد الله الحرام مكة المكرمة حاجًا أو معتمرًا، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! ليهلن ابن مريم بفج الروحاء، حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما**»[1]. أو ليقرن بين الحج والعمرة.

ويمكث عيسى عليه السلام في الأرض ما شاء الله له أن يمكث، ثم يتوفاه الله تعالى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: إهلال النبي ﷺ وهديه.

نهاية أمة المسلمين قبل قيام الساعة

أجل أمة المسلمين:

لقد قدَّر الله - عزَّ وجلَّ - أجلاً ونهاية حتمية لكل أمة، وقال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾[1]. فما من أمة إلا وكان لها أجل لم يستأخروا عنه ساعة ولم يستقدموا، وليست أمة المسلمين مستثناة من هذا التقدير، بل لأمة المسلمين أيضًا أجل كغيرها من الأمم، وقد حان أجل أمة المؤمنين منها قريبًا من قيام الساعة.

فقد حدد رسول الله ﷺ أجل أمته المسلمة بالنسبة لغيرها من الأمم التي سبقتها من أهل الكتاب، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط، فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر، فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئت**»[2].

مسلمون يعودون إلى الشرك:

بعد أن أتم الله تعالى على المسلمين نعمته ورضي لهم الإسلام دينًا، وبعد أن بلغ دين الله الإسلام ما بلغ الليل والنهار ولم يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيزٍ أو بذل ذليلٍ، عزًا أعز الله به الإسلام، وذلاً أذل الله به الكفر؛ أخذ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل القرآن على سائر الكلام.

الجهل في الانتشار، وعاد الإسلام غريبًا كما بدأ، حتى وصل الحال إلى ما سبق أن أخبر به النبي ﷺ: «**يَدرُسُ الإسلام كما يدرس وشي الثوب. حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة. ولَيُسرى على كتاب الله، عزَّ وجلَّ، في ليلة. فلا يبقى في الأرض منه آية. وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز. يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله. فنحن نقولها**»[1]. فالعلم يرفع من صدور الرجال، حتى إن القرآن يُسرى عليه فيُرفع من المصاحف والصدور، ويبقى الناس بلا علم ولا قرآن، وإنما الشيخ الكبير والعجوز يخبرون أنهم أدركوا الناس وهم يقولون: لا إله إلا الله. فهم يقولونها أيضًا على وجه التقرب بها إلى الله عزَّ وجلَّ، فهي نافعة لهم، وإن لم يكن عندهم من العمل الصالح والعلم النافع غيرها. وهي تدفع عنهم دخول النار أو تنجيهم منها بعد دخولها.[2]

وأخذ أقوام من أمة النبي ﷺ يعودون إلى الشرك وعبادة الأصنام، وهو ما سبق أن أخبر به النبي ﷺ من أنه حاصل في آخر الزمان قبل قيام الساعة، إذ قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[3].

فقبائل تلحق بالمشركين، وقبائل تعبد الأصنام، وتعود عبادة اللات والعزى إلى الظهور بعد أن أزالها النبي ﷺ في بداية الإسلام، وقد أخبر ﷺ عن عودة عبادتها فقال: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى**»[4]. وكذلك صنم ذي

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٢٧٣.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٤٤/١٩.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٥٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة.

الخلصة، الذي كانت تعبده قبيلة دوس في الجاهلية الأولى، وكسره الصحابة عن أمر رسول الله ﷺ ليريحوه منه، إذ ما كان شيء أتعب لقلبه ﷺ من بقاء ما يُشرَك به من دون الله تعالى؛ يعود هذا الصنم إلى الظهور وتعبده قبيلة دوس وتسافر إليه نساؤها ويطفن حوله، إذ قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخَلَصَة**»(١).

نهاية أمة المسلمين:

لقد قدَّر الله تعالى لأمته الإسلامية التي آمنت ورضيت بالله ربًا، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام دينًا، ألاَّ يشهدها أهوال قيام الساعة رحمة منه ورفقًا بها وإكرامًا لها، وسيقبض أرواح المؤمنين قبل ذلك بألطف طريقة وأرأفها بعباده المؤمنين.

فمع عودة الإسلام غريبًا كما بدأ، والتحاق قبائل من المسلمين بأهل الشرك وعبادة الأصنام؛ فقد ظلت هناك طائفة مسلمة مؤمنة منصورة مؤيدة من الله إلى قرب قيام الساعة، وكانوا لا يزالون يقاتلون على الحق، ظاهرين على مَن ناوأهم، حتى قاتل آخرهم المسيح الدجال ومَن معه من أمم الكفر. وبينما كان هؤلاء المسلمون المؤمنون غارقين بنعم الله وخيراته وبركته التي يمكثون بها سبع سنين. وليس بين اثنين عداوة. إذ بعث الله عليهم ريحًا طيبة ألين من الحرير فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، فيبقى على الأرض مَن لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم...!.

فهكذا لا يبقى على الأرض أحد يقول: الله، الله. عند قيام الساعة، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله**»(٢). بل لا يبقى إلا شرار الناس الذين يجامع رجالهم نساءهم بحضرة الناس كما يفعل الحمير! ويكونون في

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب: تغير الزمان حتى تُعبد الأوثان.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان.

سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد، كطيران الطير. وفي العدوان وظلم بعضهم بعضًا، في أخلاق السباع العادية. ولا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، وعلى هؤلاء تقوم الساعة، وقد أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «**فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة. فتأخذهم تحت آباطهم. فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ثم يمكث الناس سبع سنين. ليس بين اثنين عداوة. ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام. فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته. حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه، حتى تقبضه... فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع. لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا. فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان. وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم**»(٢).

مكة المكرمة والكعبة:

بعد أن توفى الله تعالى المؤمنين بالريح الطيبة الألين من الحرير ولم يترك منهم أحدًا على الأرض، لم يعد هناك حج ولا عمرة، ولا حتى صلاة باتجاه بيت الله المحرم وكعبته الشريفة، كما لم يعد هناك مَن يدافع عن الحرمين الشريفين المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة...! فيطمع الحبشة بالكعبة وكنزها، فيأتي ذو السويقتين فيخربها كما أخبر بذلك النبي ﷺ الذي قال: «**يُخرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: هدم الكعبة.

وذو السويقتين رجل من الحبشة، أسود، أصلع، معوج المفاصل، دقيق الساقين بعيد ما بينهما، يأتي إلى مكة ويهدم الكعبة ويقلعها حجرًا حجرًا بمعوله ومجرفه. قال النبي ﷺ: «**يبايع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا يُسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمرُ بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنزه**»[1].

فمكة المكرمة ستخلو من المؤمنين، ويتوقف الحج، وتُهجر الكعبة والمسجد الحرام، وعند ذلك تصبح الفرصة مهيأة لهذا الحبشي أن يأتي إلى مكة لهدم الكعبة، ولن يجد في مكة من يمنعه من ذلك. قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يُحَجَّ البيت**»[2]. فبعد خراب بيت الله المحرم لا يعمر أبدًا لأن الساعة قد اقتربت وحان قيامها على شرار الناس...!.

المدينة النبوية:

لن يكون بيت الله المحرم الوحيد الذي سيُهجر ويتعرض للتخريب من قبل الأشرار في آخر الزمان وعند قيام الساعة، بل إن المدينة النبوية ومسجد النبي ﷺ سيلاقيان المصير نفسه من الهجران والتخريب، ولا يغشى المدينة إلا الحيوانات والطيور...! قال رسول الله ﷺ: «**تتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العواف** - يريد عوافي السباع والطير - **وآخر مَن يُحشَرُ راعيان من مُزَينْة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرَّا على وجوههما**»[3]. وقيل إن الراعيين يجدان المدينة خالية ليس بها أحد ويجدانها ذات وحوش. وقيل: إن المدينة هي آخر قرية في الإسلام خرابًا...!.

---

(١) مسند أحمد، رقم: ٧٨٩٧، وقال أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة.

قرب قيام الساعة:

لقد جعل الله تعالى آخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح الطيبة اللينة التي تقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى على الأرض إلا شرار الناس، وحينئذ تكون الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تضع...! وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون...!.

نهاية الأمم وقيام الساعة

كل من عليها فان:

سبحان الله ما أعظمه...! هو الأول ولا شيء قبله...! وهو الآخر ولا شيء بعده...! له ما في السماوات وما في الأرض...! كل مَن عليها فانٍ ويبقى وجه الله ذو الجلال والإكرام...!.

بدأ الله - جلَّ جلاله - الأمم البشرية على الأرض في الوقت الذي شاء فيه أن تبدأ، وينهيها في الوقت الذي يشاء فيه أن تنتهي بقيام الساعة...! بدأ الأمم بآدم وحواء، وينهي الأمم بمن يشاء من عباده، وهم من أولهم إلى آخرهم عباده، سواء أقر بالعبودية المؤمنون أم جحد بالعبودية الكافرون...! فقلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يقلبه ويصرفه حيث يشاء، فمَن يشاء أقامه ومَن يشاء أزاغه...!.

إن عبيد الله المقهورين قد ذهبوا في عبوديتهم مذاهب شتى؛ فمنهم من هداهم إلى العبودية الحقيقية؛ فآمنوا به ووحدوه وعبدوه حق عبادته وهم قليل...! ومنهم من أضلهم فعبدوا كل شيء إلا هو سبحانه، فكفروا وأشركوا وضلوا عن سبيل الله وهم أكثر الناس...! وقد قال سبحانه: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[1]. وما أكثر الناس ولو حرص المسلمون بمؤمنين بالله...!.

فمن الأمم من عَبَدَ الحجارة التي صنعوها بأيديهم! ومنها من عبد الشمس! ومنها من عبد القمر! ومنها من عبد الكواكب! ومنها من عبد النجوم! ومنها من عبد

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

النار! ومنها من عبد العجل! ومنها من عبد البقرة! ومنها من عبد القردة! ومنها من عبد الأنبياء والرسل! ومنها من عبد الرجال الصالحين! ومنها من عبد الرجال الطالحين! ومنها من عبد فرج المرأة! ومنها من عبد فرج الرجل! ومنها من عبد المال! ومنها من عبد الجنس! ومنها من عبد المسكرات! ومنها من عبد المخدرات! ومنها من عبد التجارة! ومنها من عبد المناصب! ومنها من عبد السياسة...!.

قال عزَّ شأنه: ﴿ **وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** ﴾[1]، فقد حتم الله وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية أو مدينة أو بلد إلا سيهلك أهلها بأن يبيدهم قبل يوم القيامة، أو يعذبهم بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، فذاقوا وبال أمرهم وكان عاقبة أمرهم خسرًا. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾[2]. ويوم القيامة، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء يُنادى: لمن المُلك اليوم؟ ويكون الجواب: لله الواحد القهار.

الرسل والرسالات:

إن من رحمة الله تعالى بعباده، أنه تعالى لم يترك أمة من الأمم إلا وبعث فيها رسولاً يدعوهم إليه وإلى توحيده وعبادته والإسلام له، ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾[3]، ﴿ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾[4]، ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾[5]. وذلك حتى تقام عليهم الحجة بمجيء الرسل إليهم؛ لأن الله لا يعاقب

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

(٢) سورة المرسلات، الآيات: ١٦-١٩.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٥) سورة النحل، الآية: ٣٦.

أحدًا ولا يهلك أممًا بظلمٍ إلا بعد إرسال الرسل إليهم، ينبهونهم على حججه عليهم، وينذرونهم عذابه يوم معادهم، ولم يكن سبحانه بالذي يؤاخذهم غفلة، فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير. وهذا منتهى العدل والرحمة بعباده.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1]. وستعترف جميع الأمم بمجيء الرسل إليهم ويندمون على عدم اتباعهم ويعترفون بذنوبهم عندما يُلقى الكافرون من تلك الأمم في عذاب جهنم: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

لقد كان عدد أنبياء الله بالآلاف، وكان الرسل منهم ثلاث مئة وبضعة عشر؛ كان أولهم آدم وآخرهم وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. كلهم دعوا إلى الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده أجمعين، وأكمله ببعثة رسوله محمد ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[3]. وهكذا تمت كلمة الله صدقًا وعدلاً، ورضي لعباده الإسلام، ومَن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. وقد تحقق ما أوحاه الله إلى خاتم رسله محمد ﷺ عن دينه الإسلام: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيزٍ أو بذل ذليلٍ، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر**»[4]. ولم تزل القرون تلو القرون تثبت أن محمدًا ﷺ كان حقًا خاتم الأنبياء والمرسلين، إذ لم يأت بعده أي نبي أو رسول جديد بشريعة جديدة إلى البشرية إلى وقت قيام الساعة، ولم يُشرِّع الله أي دين جديد غير الإسلام الذي أرسل به رسوله

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة المُلك، الآيات: ٨-١١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤) مسند أحمد، رقم: ١٦٨٩٤، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

محمداً ﷺ، وقد كان ذلك كافياً ليكون سبباً في دخول اليهود والنصارى كافة في الإسلام، إلا أن الواقع كان غير ذلك؛ فبالرغم من هذا الدليل الواضح على أن الإسلام هو آخر الرسالات التي أرسلها الله لعباده؛ إلا أن اليهود والنصارى استمروا على كفرهم به إلا مَن رحم الله منهم فاعتنقوا الإسلام وأكثرهم من النصارى.

ثم قدَّر الله عزَّ وجلَّ أن ينزل رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان ليكشف للعالم أجمع هذه الحقيقة، وأن الإسلام هو دين الله الحق. فأبطل عيسى عليه السلام كل الأديان إلا دين واحد هو الإسلام ولم يقبل غيره من أحد. حتى إذا اقتربت الساعة توفى الله المؤمنين والمسلمين فلم يبق على الأرض إلا شرار الناس الذين عليهم تقوم الساعة...!.

نهاية الأمم وقيام الساعة:[1]

سبحان الله ما أحكمه وما أرحمه حيث جعل لقيام الساعة علامات منها الصغرى ومنها الكبرى، لينتبه عباده ويحذروا من الوقوع في المعاصي، وليُعِدوا للساعة الكثير من الطاعات والقربات، فيعملوا لها ويستعدوا لها. فقد ظهر معظم أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى ومنها الآيات الثلاث التي يُقفل بعدها باب التوبة، كما أخبر عنها رسول الله ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن، لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها. والدجال. ودابة الأرض**»[2]. فباب التوبة أصبح مقفولاً ولا يوجد على الأرض إلا شرار الناس وأكثرهم من الروم، فقد قال رسول الله ﷺ: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»[3]. فعلى هؤلاء وغيرهم من شرار الناس؛ ستقوم الساعة وتكون فيها نهاية

(١) مواضع متفرقة من تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس.

جميع الأمم التي على الأرض...! بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر، وهي آتية لا ريب فيها ولعلها قريبة، يكاد يخفيها عزَّ وجلَّ لتُجزى كل نفس بما تسعى، وهي من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه سبحانه بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملَك مقرب، لا يجليِّها لوقتها إلا هو سبحانه عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

فالخلائق الساكنون في السماوات والأرض لا يشعرون بوقت الساعة، وقد ثَقُل علمها عليهم فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة؛ في أي سنة أو في أي شهر، أو في ليل أو نهار، وستأتي الناس بغتةً وهم لا يشعرون، وما أمرها إلا كلمح البصر أو هو أقرب، يوم يراها الناس كأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها...! وزلزلتها أمر عظيم وخطب جليل، فيحصل للنفوس من الرعب والفزع ما لا يمكن وصفه. يوم يراها الناس تذهل كل مرضعة عما أرضعت، فتشتغل لهول ما ترى عن رضيعها الذي هو أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له. وتضع كل حامل حملها قبل تمامه لشدة الهول. ويُرى الناس سكارى من شدة الأمر والهلع الذي صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد...!.

ولتقومن الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها.

يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام بالنفخة الأولى نفخة الفزع، فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله تعالى، ويأمره جلَّ جلاله فيمد النفخة ويطولها ولا يفتر، فتزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض أثقالها، وتُحمل الأرض

والجبال فتدكا دكة واحدة، وتسير الجبال فتكون ترابًا، وترج الأرض بأهلها رجًّا فتكون كالسفينة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مدبرين ينادي بعضُهم بعضًا، ما لهم من الله من عاصم...! والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك، وإنما هو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهم في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم...!.

فبينما الناس على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمرًا عظيمًا، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله سبحانه أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالزيت المغلي أو الفضة المذابة، ثم كشطت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها، وخسف القمر، وجُمِع الشمس والقمر، وانتثرت النجوم وتساقطت وذهب ضوؤها، والجبال زالت عن أماكنها ونُسِفت فلا يبقى لها عين ولا أثر، والبحار سُجِّرت وصارت نارًا تأجج؛ وقلوب الناس عندئذ خائفة، وأبصارها خاشعة ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال، وبما دهمهم من الأمور العظيمة الفظيعة الهائلة...!.

ثم يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الثانية نفخة الصعق، فصعق مَن في السماوات والأرض، وتموت بهذه النفخة الأحياء كلهم ما عدا الله الحي القيوم. ثم بعد ذلك يأمر سبحانه إسرافيل بنفخة البعث، والله سبحانه أعلم بذلك كله...!.

لقد دعا الله جميع خلقه إلى الإسلام له، وحذرهم من عذابه وعقابه إذا لم يفعلوا، قبل قيام قيامة كل منهم بالموت، وقبل قيام الساعة وإقفال باب التوبة؛ فيندمون في ساعة لا ينفع فيها الندم، فقال عزَّ شأنه وتقدست أسماؤه: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ**

نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) سورة الزمر، الآيات: ٥٤- ٧٥.

دروس مستخلصة للمسلمين

أسباب النصر والاستخلاف:

قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]. فليس عند الله شعب مختار ومفضل على غيره على الدوام طائعًا كان أو عاصيًا، مهتديًا أو ضالاً، حتى وإن كانوا من المسلمين، وإنما عباده المقربون المنصورون هم الذين ينصرونه ويعلون كلمته ويكون ذلك هو همهم وهدفهم الأكبر والأوحد في الدنيا، فلا يركنون إلى الدنيا ولا إلى المناصب ولا إلى الحكم لغرض الحكم والاستعلاء على العباد. وهم الذين آمنوا وتيقنوا أن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ويوحدوه، فإذا كانوا كذلك فإنه وعدهم، ووعده حق، بأن يستخلفهم في الأرض.

كذلك ليس عند الله - عزَّ وجلَّ - استخلاف دائم في الأرض لقوم من الأقوام، فهناك شروط وواجبات يجب على مَن استخلفهم الله أن ينفذوها ويقوموا بها وإلا اعتبروا ناقضين للعهد يستحقون الجزاء وتنحيتهم عن هذا المنصب وتكليف غيرهم به، فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[2]. وإن الله تعالى إذا أهلك عدوًا أو أقصاه واستخلف بعده مَن شاء من الأمم والشعوب، فإنه سبحانه لا يستخلفها لتفعل ما تريد، بل لينظر ما تعمل، فإن كان خيرًا باركها، وإن كان شرًا لعنها واستبدل قومًا غيرها كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[3].

(١) سورة محمد، الآية: ٧. ومثله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٨.

فقد خالف اليهود ذلك من قبل فأقصاهم الله عن هذا المنصب الذي لم يقدروا قدره وأساؤوا وظلموا، وكلف العرب به ليقودوا الإنسانية حيث عجز أبناء عمومتهم، وليقوموا بما يوجبه عليهم هذا المنصب وإلا يستبدل سبحانه قومًا غيرهم من الأجناس الأخرى لحمل رسالة الإسلام.

فالصحابة لما كانوا أقوم الناس بأوامر الله، وأطوعهم له كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم الله تأييدًا عظيمًا، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، وقد قال تعالى: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[1]، إن ينصر الله المؤمنين على من ناوأهم وعاداهم من أعدائه، والكافرين به، فلا غالب لهم من الناس، فلا يهابوا أعداءه لقلة عددهم، فما دام المسلمون على أمر الله، مستقيمين على طاعته وطاعة رسوله، فإن الغلبة لهم. وإن يخذلهم - بخلافهم أمره، وتركهم طاعته وطاعة رسوله - فمن ذا الذي ينصرهم من بعده، فلييأسوا من نصرة الناس، وليطيعوا ربهم قبل أن يهلكوا بخذلانه إياهم وإيكالهم إلى أنفسهم.

ولا يخفى ما حدث لبعض لحكام المسلمين الذين عملوا بالأسباب التي تؤدي إلى الخذلان والهزيمة؛ فاحتُلت بلادهم من قبل أعداء الإسلام، الذين جاؤوا بمسميات مختلفة لحملاتهم تناسب كل عصر...! والبلاد التي فتحها المسلمون المخلصون الأوائل لأجل نشر الإسلام فيها، واستشهد لأجل ذلك الآلاف من المجاهدين المسلمين، أضاعها هؤلاء الحكام بسبب التنافس على الحكم والكراسي والمناصب والأطماع الشخصية والأمور الدنيوية، وإخلادهم إلى الأرض وتركهم للجهاد وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

الحكام المسلمون:

إن على الحكام المسلمين مسؤولية عظيمة أمام الله تعالى، وإن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته، فما بالك بسؤال الحاكم عن رعيته...؟! عليهم ألا ينسوا أنهم أمة أعزهم الله بالإسلام، ومهما ابتغوا العزة في غيره، أذلَّهم الله...! ألم يكن هذا هو ما حصل لبعض حكام المسلمين؛ ذل وهوان وخزي حتى انهزموا أمام النصارى المشركين؟! إن الله تعالى لا ينصر حكام المسلمين على كل حال لمجرد أنهم عرب أو لمجرد أنهم مسلمون مهما فعلوا من المعاصي ومهما ارتكبوا من الظلم، وإنما لله سنن ثابتة وأسباب مَن عمل بها واتخذها حصَّل نتائجها مهما كان جنسه ومهما كان لونه، بل ومهما كان دينه حقًّا أم باطلاً، ومَن عطَّل الأسباب حصَّل نتائج تعطيلها ولو كان من أهل الحق...! فإذا ترك بعض حكام المسلمين العمل بأسباب النصر والعزة والكرامة والسؤدد، وأخذوا بأسباب الخذلان والذل والهوان والانحطاط فلا يلوموا إلا أنفسهم.

على الحكام المسلمين أن يستفيدوا من الدروس والأحداث التي مر بها من سبقهم من الحكام في التاريخ الإسلامي. ففي الحكام المسلمين في الأندلس -مثلاً- وما جرى لهم وضياع الأندلس دروس وعبر كثيرة عليهم أن يستفيدوا منها جيدًا، فإذا كانوا لا يريدون أن يكون مصيرهم كمصيرهم؛ فعليهم إذًا أن يتجنبوا السير في الطريق الذي ساروا فيه، وأن يحذروا من تكرار الأخطاء القاتلة التي وقعوا فيها ودفعوا ثمنها غاليًا، وهو قتلهم أو زوالهم عن الحكم، بل ضياع الأندلس كلها من أيدي الحكام المسلمين...!. فماذا فعل حكام الأندلس مما كرره بعض الحكام الذين جاؤوا من بعدهم فلاقوا المصير نفسه؟!.

لقد تركوا الجهاد لإنقاذ الناس من الظلم وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وهو الجهاد الذي يؤيده الله وينصر القائمين به وييسر لهم فتح البلاد وإخضاعها لحكم الإسلام، وما كانت هذه البلاد التي حكموها إلا من ثمرات هذا

الجهاد، ورضوا بالدنيا التي فُتحت عليهم فأصابهم الوهن بحبهم للدنيا وكراهيتهم للموت، وسرعان ما حصل ما يخافه النبي ﷺ عليهم من التنافس في الدنيا كما تنافسها من كان قبلهم فأهلكتهم كما أهلكتهم.

لقد انشغلوا بالحكم والكراسي والمناصب عن الغاية التي فُتحت البلاد من أجلها، وتوهموا أن الغاية هي فتح بلاد الكفار ليحكمها المسلمون! ونسوا أو تناسوا أن الحكم والكرسي هو مجرد وسيلة لتحقيق الغاية الحقيقية ألا وهي إقامة الحق والعدل وتطبيق الشريعة الإسلامية وحماية المسلمين والذبِّ عنهم، وحماية بلادهم من أي عدوان خارجي من أعداء الإسلام، والحاكم في كل ذلك إنما هو مجرد خادم للمسلمين؛ ولأجل الوصول إلى هذه الغاية شُرِع الجهاد في سبيل الله، ووعد الله عليه بالنصر من عنده، والاستخلاف والتمكين في الأرض، فمن حاد عن هذه الغاية وسلك طريقًا آخر فقد باء بغضب من الله، ولن يجد في نهاية المطاف سوى الهزيمة بدلاً من النصر، والذل والهوان بدلاً من العزة والكرامة، والفرار في الأرض بدلاً من التمكين فيها.

وبدلاً من قيامهم بالمحافظة على قوة الدولة الإسلامية في وجه أعدائها لكي لا تسول لهم أنفسهم أن يفكروا في الاعتداء على أراضي الدولة الإسلامية فضلاً عن احتلال بعضها، وبدلاً من المحافظة على وحدة البلاد والعباد التي حققها الفاتحون الأولون، دفعتهم أنانيتهم وأطماعهم في الحكم والكراسي إلى تفتيت الدولة وتحويلها إلى مجموعة من الممالك الصغيرة الضعيفة، التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها في وجه أي عدوان نصراني، بل قام بعضهم بالتحالف مع النصارى - الذين من المفترض أن يكونوا أعداءهم كما هم يفترضونهم دائمًا وأبدًا - لينتصروا بهم على إخوانهم المسلمين! ولم يكن قتالهم من أجل توحيد الممالك والدويلات المسلمة المتقاتلة للوقوف في وجه العدو، بل كان في سبيل حكم كل واحد منهم وإرضاء شهوته وأطماع نفسه، ولم يكن أحدهم يفكر إلا في إحراز النصر على خصمه.

فكيف يريدون بعد ذلك أن ينصرهم الله ويثبت أقدامهم ويستخلفهم في الأرض ويُمَكِّنهم فيها؟! هل ينتظرون أن يستجيب الله إذا دعاه أحدهم وقال: اللهم انصرني بما معي من الجنود النصارى أو بدعمهم على إخواني المسلمين؟!.

إن ظنهم بأن النصارى يمكن أن يهمهم مصلحة المسلمين في يوم من الأيام، أو أنهم حريصون على تحصيل حقوقهم من الآخرين هو ظن خاطئ، فليختبروهم إذًا أن يساعدوهم وينصروهم في قتالهم مع نصارى مثلهم قد ظلموهم وأكلوا حقوقهم! لا يتوقعوا ذلك منهم؛ لأنه لن يحصل، وإذا كانوا قد ساعدوهم؛ فلأنهم يقاتلون إخوانهم المسلمين، وفي هذه الحالة فهم وإن لم يطلبوا مساعدة النصارى فسيجدونهم يتطوعون لعرض مساعدتهم عليهم، وليس ذلك إلا من أجل الوصول إلى أهدافهم هم وليس أهداف المسلمين، فيقاتلون معهم فريقًا من المسلمين حتى إذا تغلبوا عليهم تفرغوا لحلفائهم من المسلمين وتغلبوا عليهم، ولن يجد هؤلاء المسلمون المتحالفون مع النصارى حينئذ مَن يساعدهم من المسلمين الذين قضوا عليهم أو قاتلوهم، وهذا بالضبط ما حصل لهم...!.

بل إن تحالفهم مع النصارى دليل على ضعف الإيمان بكلام الله عن النصارى، أو استبعاد أن يكونوا كما وصفهم تعالى وهو خالقهم وخالق الناس جميعًا، وهو أعلم بخلقه منهم بأنفسهم، وذلك لما حذَّر الله - عزَّ وجلَّ - نبيه ﷺ من اليهود والنصارى، فقال تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾[1]؟! لو أن النبي ﷺ نفسه اتبع أهواءهم لما كان له من الله من ولي ولا نصير، فهم أولى ألاَّ يكون لهم ذلك خاصة أنهم اتبعوا أهواء النصارى ونصائحهم المغرضة، ليس ضد أعدائهم الكافرين بل ضد إخوانهم المسلمين! وقد اتخذوهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

أولياء وتولوهم فصاروا منهم، وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[1]. فهل بعد ذلك يتساءلون ويستغربون لماذا لم يحصلوا على ما وعدهم به الصليبيون، وضاعت منهم بل من المسلمين بلاد واحتُلت بلاد أخرى؟! وهل بعد ذلك يستنكرون إصابتهم بهذه المصيبة ويتساءلون من أين جاءتهم؟! فإليهم الجواب من الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[2].

كما أن على الحكام المسلمين أن يستفيدوا من تاريخ اليهود الذي قصه الله تعالى علينا في كتابه العزيز؛ فقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. فتاريخ اليهود يحوي في طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم وانهيارها، فليتفكروا في تاريخهم وليعتبروا بمصائرهم وبما آلت إليه أحوالهم وأمورهم، وليسألوا أنفسهم لماذا قال الله تعالى عن اليهود: ﴿ **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾[4]. وذلك حين حملوا رسالة التوحيد في ذلك الزمان، وتحملوا في سبيلها العَنَت، ثم لما انقلب حالهم وتغيروا وحادوا عن سبيل الله وعصوا رسله، ذمهم الله في التوراة والإنجيل والقرآن، وقال عنهم: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾[5]. فلعنهم الله، وغضب عليهم، وضرب عليهم الذلة

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

والمسكنة، بل توعدهم تعالى وعدًا مستمرًا إلى يوم القيامة ليبعثن عليهم من يعذبهم: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[1]...؟!

فقد وجه الله - عزَّ وجلَّ - إلى المسلمين التوجيه نفسه الذي سبق أن وجهه لبني إسرائيل على تباعد الزمان بين الفريقين، إذ قال موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2]. وقال الله تعالى للمسلمين: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[3]. إنه الكلام نفسه للفريقين...!. فالله - عزَّ وجلَّ - ينظر للأمم ماذا تعمل، ثم يجازيها بما تستحق؛ وقد كان أحد أعمال اليهود التي سخط الله عليهم بسببها ما ذكره تعالى عنهم: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾[4]. أليس هذا نفسه ما فعله بعض الحكام المسلمين على مر التاريخ؟! إذًا.. فلا يلوموا إلا أنفسهم على ما جرى لهم وعلى ضياع ملكهم وخلافتهم، فقد اتبعوا سنن الذين من قبلهم من اليهود فكان مصيرهم كمصيرهم...!. وهو ما أخبر به رسول الله ﷺ: «**لتأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم مَن أتى أمه علانية لكان في أمتي مَن يصنع ذلك**»[5]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**لتتبعن سنن مَن قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمَن؟!**»[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٥) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢١٢٩.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل.

الحرب الدائمة بين الإيمان والكفر:

لقد تبين من قصص الأولين والآخرين، ومن قصص الأنبياء والمرسلين مع أممهم وأقوامهم الكافرين الضالين، أن الحرب كانت دائمة بين الإيمان والكفر وبين مَن يمثلهما على الأرض من الأمم والأقوام، مهما أُلبست هذه الحروب وغيَّرت من ملابس، ومهما صُبِغت به من أصباغ ولُوِّنت به من ألوان، ومهما سُمِّيت به من أسماء واصطُلِح عليها من مصطلحات أخرى غير الدين وغير الإيمان والكفر...! وقد استمرت هذه الحرب بلا توقف منذ نوح ومَن معه من المسلمين المؤمنين من جهة، وقومه الكفار من جهة أخرى، وإلى آخر حروب الإيمان والكفر في آخر الزمان بين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ومَن معه من المسلمين المؤمنين من جهة، وملك اليهود المسيح الدجال ومَن اتبعه من أمم الكفار والمشركين والوثنيين من جهة أخرى، ثم الحرب التي أتت بعدها بين عيسى عليه السلام وأصحابه المسلمين من جهة، وبين أمتي يأجوج ومأجوج الذين لا يحصي عددهم من كثرتهم إلا الله ولا طاقة لأحد بحربهم، فنصر الله في الأولى عباده المؤمنين عيسى عليه السلام والمسلمين بواسطة القتال، وقتل الدجال وأتباعه من أمم الكفار وكان في ذلك نهايتهم، ونصرهم سبحانه في الثانية بالدعاء فقط من عيسى عليه السلام والمسلمين الذين معه، وأرسل على يأجوج ومأجوج حشرة صغيرة فأصبحوا موتى عن بكرة أبيهم وكان في ذلك نهايتهم أيضًا...!.

إن تصادم الإيمان مع الكفر والتدافع فيما بينهما أمر حتمي ومستمر؛ لأنه من سنن الله الماضية، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين، وذو منٍّ ورحمة بهم، يدفع بعضهم ببعض وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله؛ ولهذا سيكون في كل عصر أمة أو دولة كافرة تحارب المؤمنين المسلمين، ولا تسنح لها فرصة في محاربة المسلمين إلا وتنتهزها، ولم ولن يكف الكفار عن ذلك في زمن من الأزمان منذ ظهور الإسلام...!

فقد قال الخالق تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾[1]، فما آتاه الله لرسوله محمد ﷺ من النعمة نقمة في حق أعدائه، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملاً صالحًا وعلمًا نافعًا، يزداد به الكافرون الحاسدون له ولأمته طغيانًا وكفرًا وتكذيبًا، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾[2]، ولكنَّ سنة الله في نصر المؤمنين المسلمين ماضية أيضًا، منذ أن نصر الله - عزَّ وجلَّ - نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام جميعًا، ومنذ أن نصر الإسلام والمسلمين بعد كل فتنة ومحنة ومصيبة نزلت بهم، وأزال سبحانه بهم من الوجود أممًا ودولاً كافرة كثيرةً، ونصرهم على أعدائهم ولو بعد حين، ولو بعد تعرضهم للمذابح والمجازر على أيدي أعدائه وأعدائهم، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون...!.

وقد تبين أيضًا أن أمم الكفر قد ينتصرون على أمة المسلمين المؤمنين في جولة من الجولات أو معركة من المعارك؛ وما ذلك إلا فتنة من الله تعالى واستدراجًا لهم من حيث لا يعلمون، وإنظارًا وإملاءً منه سبحانه لهم ليزدادوا إثمًا ويزدادوا عقوبة ولهم عذاب مهين؛ ذلك لأن الكفار إذا انتصروا في معركة ازدادوا كبرًا وطغيانًا وتجبرًا فيكون ذلك زيادة لهم في الإثم والعقوبة ليذوقوا وبال أمرهم. وكذلك ما كان الله - عزَّ شأنه - ليذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، فلا بد أن يعقد سبحانه شيئًا من المحنة، يَظهر فيه وليُّه ويفضح به عدوه، ويعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، ولكي يتخذ من المؤمنين شهداء؛ ولهذا كانت العبرة في النهاية، والنتيجة الحاسمة في المعركة الأخيرة التي نصر الله فيها دائمًا عباده المؤمنين على أعدائه الكافرين، أو أنزل فيها العذاب على الكافرين فأبادهم وقطع دابرهم وجعل في ذلك نهايتهم، وأنجى عباده المؤمنين من بين أظهرهم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

ليستعد المسلمون فالصليبيون عائدون:

ست مئة عام مضت على انتصار صلاح الدين الأيوبي على أمم الصليبيين وإخراجهم من القدس ومن غيرها من بلاد الشام، ولم ينس الصليبيون له هذا العمل، فبعد أن احتل الصليبيون الأوروبيون الشام تحت مسمى الاستعمار، توجه قائد الجيش الفرنسي (غورو) إلى قبر صلاح الدين في دمشق، فوقف أمامه يتأمل ويستعيد ذكريات تاريخ أجداده الصليبيين، ثم قال: «لقد عدنا يا صلاح الدين...!» وكأنه يعني: إن حملاتنا الصليبية عليكم لم ولن تنتهي، وها نحن في حملة جديدة! أما الجنرال الإنجليزي (اللنبي) الذي دخل القدس، فكان له رأي آخر مفرط في التفاؤل، حيث قال أمام كنيسة القيامة: «اليوم! انتهت الحروب الصليبية». فقد توهم بأنه لن تقوم قائمة للمسلمين بعد اليوم؛ ومن ثَم انتهت الحروب الصليبية لعدم الحاجة إليها في المستقبل...!»[1]. وقوله هذا إن دل على شيء فهو يدل على الحقد الصليبي الدفين في قلوبهم، وأن حربهم هذه لم تكن للاستعمار وإنما هي حرب صليبية خالصة، وامتداد لما سبقها من الحروب الصليبية على المسلمين، وهمزة وصل لما سيتبعها من حروب صليبية أخرى في المستقبل...!. و«سيكون وهمًا خطيرًا أن نعتقد تلاشي الروح الصليبية... في الحقيقة، لم ينته عصر الحروب الصليبية في أي زمان»[1].

إن أي مستقري للتاريخ، أو أي باحث أو محلل في توجهات أعداء الإسلام ومشاعرهم نحوه، سيدرك أن مجيء الصليبيين واحتلالهم لبلاد المسلمين والانتقام من أبنائها، والعمل على تقسيمها وفق ما سطرته أقلامهم على الخرائط، والعمل

---

(١) وبعد أكثر من ثمانين عامًا جاء من يكذب قول اللنبي هذا؛ حيث أعلن الرئيس الأميركي في العام ١٤٢٤هـ-٢٠٠١م بدء (حملة صليبية)، مما يعني أن الحروب الصليبية لم تنته بعد! والصحيح أن الحملات على المسلمين سوف تستمر ولن تنتهي حتى آخر الزمان، إلا أن آخر الحملات على المسلمين ومعهم المسيح عليه السلام ستكون حملة دجالية-يهودية، ثم بعدها حملة يأجوجية - مأجوجية.

(٢) مراد هوفمان: الإسلام عام ٢٠٠٠، ص: ٥٠، ٥٢.

على تنفيذ برنامجهم الإفسادي والتخريبي الذي كان لدى أسلافهم مع إضافة ما استحدثوه واستجدوه مما زينه الشيطان لهم من أعمال ضد المسلمين، لا يعني أبدًا أن هذه ستكون المرة الأخيرة التي لن يفكروا بعدها في غزو بلاد المسلمين، بل سيعلم أنهم سيعيدون الكرة إثر الكرة ولن يكفوا أبدًا عن التفكير والتخطيط لذلك، وسيظل ذلك مسيطرًا على تفكيرهم ما دام للإسلام وجود على هذه الأرض.

على المسلمين أن يوقنوا بأن الصليبيين لن يجدوا فرصة أو زمنًا مناسبًا للهجمة على المسلمين وبلادهم إلا وسيستغلونها، هذا إذا لم يخلقوا بأنفسهم الأسباب والمبررات، والفرصة والزمن المناسب...! لأنهم لن ينسوا أن المسلمين قد طردوهم من بلاد الشام وأزالوا دولتهم منها، ثم طاردوهم وأخذوا منهم بلاد الأناضول وفتحوا العاصمة الصليبية العظيمة القسطنطينية، وأزالوا دولة الروم البيزنطيين، ثم فتحوا شرق أوروبا حتى وصلوا إلى فيينا عاصمة النمسا... ومن جهة أخرى طردوهم وأزالوا دولهم من مصر وبلاد شمال إفريقيا والأندلس حتى دخلوا جنوب فرنسا... كما أن الصليبيين سوف يمنعون بكل وسيلة عودة البلاد الإسلامية إلى الاتحاد في دولة واحدة؛ لأن ذلك في نظرهم يمثل خطرًا عظيمًا على أوروبا نفسها، ويعني لهم عودة الفتوحات الإسلامية إليهم، وهم ما قسموا البلاد الإسلامية وفتتوها إلى أجزاء صغيرة، ووضعوا للمسلمين الجنسيات المختلفة وجوازات السفر وتأشيرات الدخول فيما بين الدول المسلمة، وأيقظوا دعاوى الجاهلية في نفوسهم وشجعوهم للعودة إلى العصبية والقبلية والعرقية بدلاً من العودة إلى الإسلام، وأن يقدموا مصالحهم الخاصة على مصالح الإسلام العامة... إلا من أجل منع اتحادهم، ومنع أي احتمال في عودة الدولة الإسلامية...!.

ففي المؤتمر العالمي للدول الاستعمارية الذي عقد في عام ١٩٠٧م تقرر أن الخطر الذي يهدد الاستعمار الغربي يكمن في ذلك الشعب العربي الواحد المقيم على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، ويتميز بكل مقومات التوحد

والترابط، وبما في أراضيه من كنوز وثروات تتيح لأهلها مجال التقدم والرقي في طريق الحضارة والثقافة. ولمواجهة هذا الخطر أوصوا بأن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئة هذه المنطقة، والإبقاء على تفككها، ومحاربة أي اتحاد يقوم بين أجزائها، والسعي الدائب إلى تفسيخها عمليًّا وفكريًّا وتاريخيًّا، واقترحوا العمل على فصل الجزأين الإفريقي والآسيوي في هذه المنطقة، أحدهما عن الآخر، وإقامة حاجز بشري غريب في نقطة التقاء هذين الجزأين، يمكن للاستعمار أن يستخدمه كأداة في تحقيق أغراضه[1]؛ فكان هذا الحاجز الغريب هو الدولة اليهودية الصهيونية التي قالوا بأن قيامها في فلسطين يخدم أهداف بريطانيا والغرب من حيث إنها تساعدهم على مواجهة تناقض المصالح الحادة بينهم وبين العرب، وتكون عازلاً يفصل بين العرب ويشغلهم ويمتص طاقاتهم أولاً بأول.

إن الحقد المرير على الإسلام وأهله يكمن وراء كل السياسات والحروب المتتابعة على بلاد المسلمين، وإن خططهم لعلاج قضايا المسلمين وإصلاحها، لا تنفك أبدًا عن خططهم لإفساد المسلمين ومجتمعاتهم وتدمير نقاط القوة فيهم، وإن كثيرًا من الأشياء التي يقدمونها للمسلمين كنصائح وخطط إصلاح وتوعية...إلخ لتنفيذها في بلدان المسلمين، إنما هي الأشياء التي اكتشفوا أنها تدمر مجتمعاتهم وتؤدي إلى انهيار دولهم وزوالها؛ وهو ما يريدونه أن يحدث عند المسلمين. إن أهدافهم لا تنتهي عند غزو بلاد المسلمين واحتلالهم، بل هدفهم الأكبر هدم رسالة الإسلام، ولن يرضوا عن المسلمين حتى يتبعوا ملتهم المسيحية، ومَن ذا الذي يستطيع أن يناقش في هذه المسألة وقد حسمها رب العالمين في كتابه العزيز عندما أخبر تعالى بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عن المسلمين حتى يتبعوا ملتهم؟! فعلى المسلمين ألاَّ يسقطوا ذلك من حسابهم لحظة واحدة، وليكونوا على حذر دائم، وإن تكرر من

(١) إسماعيل أحمد ياغي: الإرهاب والعنف في الفكر الصهيوني ٢٨-٢٩، نقلاً عن خيري حماد: الوجود الإسرائيلي في المخطط الاستعماري.

المسلمين فعل ما حرمه الله ونهاهم عنه؛ فسيتكرر العقاب، وسيتكرر تسلط أعدائهم عليهم ليثوبوا إلى رشدهم وليعودوا إلى دينهم.

وإذا كان المسلمون أبذل الأجناس لمشاعر الود والرحمة، وأعشق الأمم لعهود السلام؛ لأن حب السلام أصيل في أمة الإسلام، وافتراضه في كل أفق، وانتظاره من كل إنسان، عنصر شائع في معاملاتهم جميعًا، فعليهم الحذر والاستعداد لأنهم ما أُخِذوا ونال منهم أعداؤهم إلا لهذه الطبيعة الدينية الوادعة، التي تؤثر السلام على الخصام، وتؤثر المرونة على الجمود، والتي ترمق المخالفين في العقيدة -خصوصًا أهل الكتاب الأولين- وكأنها تعتذر لهم!. عليهم الحذر والاستعداد على ضوء التجارب المستفادة من تاريخهم الطويل، وعلى ضوء ما كشفت عنه الأيام من طبيعة أعدائهم، وطبيعة الأفكار التي تملأ أنفسهم، والمشاعر التي تسيطر عليهم. فقد لُدغوا مرات متكررة من الجحر نفسه، مع أن رسول الله ﷺ قد علَّمهم أن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين. إذ من الخطر على رسالة المسلمين أن يبنوا سياستهم على السماحة المفرطة، في حين يبني الآخرون سياستهم على خسف الأرض من تحتهم. ومن الخطر أن يطرحوا الحذر جانبًا، ويسترسلوا مع سجايا الأمان والثقة، في حين يستدير خصومهم ليغرزوا خناجرهم في ظهورهم!. فقد اصطلحت الصهيونية مع الصليبية على محاربة الإسلام وقتل المسلمين في فلسطين وفي غيرها، وانتهاب مدنهم وقراهم، وأقاموا دولة للصهيونيين في قلب العالم الإسلامي، بعد أن طردوا المسلمين العرب من أرضهم بالسيف أو بالمكر...! فعلى المسلمين أن يعرفوا أنه لا مكان لتفاؤل، ولا انتظار لمسالمة، وأنه من العجز ارتقاب الشرف من الغادرين، أو العفاف من الداعرين، أو الإنصاف ممن آذوا أهل الأرض أجمعين.[1]

فقد آن الأوان ليؤمن أعداء الإسلام بأن المسلمين هم أصحاب الرسالة الخاتمة

(١) انظر: محمد الغزالي: الاستعمار أحقاد وأطماع ١٠٢، ١٢٠، ١٦٦.

لكل الرسالات السابقة، فهذا هو الحق الذي لا شك فيه، ويجب على الملل كلها أن تؤمن بهذا الحق قبل فوات الأوان وإغلاق باب التوبة عليها. إن الذين يعادون الإسلام ويحاربونه بكل وسيلة لا يؤمنون بهذا الحق إلا إذا أشعرهم المسلمون بقوتهم وأروهم عزة الإسلام ونصروا هذا الحق فينصرهم الله، ولا يكون نصر الحق إلا بالقوة التي تسنده وتدعمه، والتي أمر الله بإعدادها لإخافة أعدائه وأعداء المسلمين، وإلا فإن الحق وحده لا يمكن أن ينتصر.

العبرة والواجب من نهاية الأمم

العبرة الدائمة:

بعد هذه الرحلة عبر التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل، والانتقال من أمة إلى أمة، ومن دولة إلى دولة، ومعرفة قصصهم وأحوالهم وما جرى لهم.. يتضح أنه يجب على الأمم والدول الحاضرة، وكذلك التي تأتي في المستقبل أن يضعوا نصب أعينهم العبرة من قصص الأمم السابقة ويعملوا وفقًا لها في مستقبل حياتهم، حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب مَن قبلهم، خاصة أنه قد ظهر من قصص الأمم السابقة، أن الأحداث بل والعبارات نفسها تتكرر في كل أمة ومع كل دولة، وستظل تتكرر في كل زمن إلى آخر الزمان.

لقد ظهر يقينًا أن المؤمنين في جميع الأمم كانوا هم الذين آمنوا بالله وأسلموا له واتبعوا رسوله المرسل إليهم؛ فكانوا مسلمين لله، من نوح وإلى خاتم الرسل محمد ﷺ، والكفار كانوا هم الذين رفضوا اتباع رسل الله وحاربوهم وحاربوا المؤمنين المسلمين معهم.

وقد أخبر الله تعالى أنه أهلك الأمم السابقة لما ظلموا، ثم جعل كل أمة أتت بعدها خلائف في الأرض لينظر سبحانه كيف يعملون، فإن عادوا وكرروا ما فعله الظالمون في الأمم السابقة مع المؤمنين، عاد وكرر الله عليهم أيضًا العذاب الذي يستحقونه والمناسب لهم، وأنجى المؤمنين من بينهم.. ﴿ **وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** ﴾[1]. وهذا الأمر مستمر إلى قيام الساعة؛ ليميز الله الذين صدقوا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨.

وآمنوا، ويتخذ منهم شهداء، وليميز الذين كذبوا وظلموا، فالخالق - جلَّ وعلا - يقول: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾[1].

وقد كانت لكل أمة ولكل دولة النهاية نفسها، وهي نزول عذاب الله على الكافرين العاصين له وإهلاكهم وتدمير الدول الظالمة وإزالتها من الوجود، وإنجاء الله لعباده المؤمنين المسلمين له. وجعل الله - عزَّ وجلَّ - نهاية كل أمة وكل دولة آية وعبرة لمن يأتي بعدها من الأمم والدول، كما أخبر تعالى بذلك: ﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾[2]. لذا فقد وجب على الناس جميعًا أن يعتبروا بنهاية مَن قبلهم من الأمم والدول، فيسارعوا للالتحاق بمعسكر الإيمان والإسلام للخالق جلَّ وعلا؛ ليكونوا من الأمة التي تتبع رسولها من الله فينصرها الله وينجيها ويجعل مثواها الجنة، وليتجنبوا أن يكونوا من الأمم التي تعصي رسولها وتنكره فيهزمها الله ويهلكها ويجعل مأواها النار.

وقد كان آخر رسول لله هو محمد ﷺ، أرسله الله للناس جميعًا، وأمره أن يخبرهم بذلك: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[3]. وأرسل الله بآخر الرسالات السماوية وهي الإسلام الذي كان دين جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأكمله الله تعالى مع بعث آخر الرسل والرسالات. وهو دين الله الذي يجب على خلق الله جميعًا أن يعتنقوه ويتبعوه إذا أرادوا أن يكونوا من الفئة المهتدية التي ينصرها الله وينجيها، وليس من الفئة الضالة التي ترفضه وتخالفه وتحاربه فتوجب على نفسها نهاية مثل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

نهاية كل أمة عصت رسولها ولم تتبع الرسالة التي أرسله الله بها إليهم. فقد قال خاتم النبيين والمرسلين ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١). فكل من يسمع برسول الله محمد ﷺ في زمنه وبعده إلى يوم القيامة، عليه اتباعه والدخول في طاعته، وإلا كان من أصحاب النار. وإن اليهود والنصارى الذين يظنون غير ذلك، سيعرفون الحق ويسلمون له، وهكذا كل إنسان، وذلك في يوم الحساب والعرض على الله، لكن لا ينفعهم ذلك؛ لأنه قد فات الأوان على الإيمان الذي كان عليهم أن يكونوا عليه في الدنيا. بل قبل يوم القيامة ستتكشف الحقيقة لكل إنسان، ويتبين له الحق، وذلك عند الموت وبعده، وسيُسأل في القبر: مَن ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟ وعندها سيعرف الكافر بدين الله أن الإسلام كان الدين الحق، وأنه كان في ضلال مبين، وأن مصيره إلى جهنم وبئس المصير، وسيرى مقعده فيها حتى قبل أن يدخلها، وسيُفتح له باب إلى النار، ويأتيه من حرها وسمومها...!.

وإن من حكمة الله تعالى في إعادة عبده ورسوله المسيح عيسى عليه السلام إلى الأرض؛ أن يقوم بنفسه بتأكيد هذا الحق وهذه الحقيقة للناس جميعًا، ولن يقبل أن يكون في وجوده إلا دين واحد هو الإسلام، وسيقاتل غير المسلمين. وعندها سيتيقن جميع الناس بأن الإسلام هو الدين الحق المقبول عند الله، وسيتيقنون أيضًا بأن جميع الذين ماتوا في الماضي على غير دين الإسلام هم من أصحاب النار. وبناءً على ذلك فإن الناس الذين سيعيشون قبل نزول المسيح عيسى عليه السلام، وقبل إقفال باب التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة، ويهمهم مكان إقامتهم في الآخرة؛ في الجنة أم في النار؛ يجب عليهم أن يبادروا منذ الآن إلى الدخول في الإسلام الموصل إلى الجنة، ما دامت الفرصة سانحة أمامهم قبل أن تفوتهم بموتهم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

إذا كانت لكل أمة ولكل دولة النهاية نفسها، فقد كانت لها أيضًا البداية نفسها؛ وهي الدعوة إلى الله تعالى، التي قام بها رسول الله المرسل إلى تلك الأمة، وقد بدأ هذا الكتاب بالدعوة التي قام بها نوح عليه السلام، وحتى يكون ختام الكتاب نظير بدايته، فنختم أيضًا بالدعوة إلى الله تعالى، التي تكون بين طرفين اثنين، هما الداعي؛ وهم هنا المسلمون، والمدعو؛ وهم غير المسلمين. وعلى كلا الطرفين واجب في هذا الشأن.

فواجب المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - وهي المهمة العظيمة التي كلَّف الله بها الأنبياء والرسل، وللقائم بها أجر عظيم عند الله. وواجب غير المسلمين أن يتقبلوا هذه الدعوة التي هي لصالحهم في الدنيا والآخرة، ونرجو لهم جميعًا: يهودًا ونصارى ومشركين ووثنيين... الهداية إلى الله وإلى دينه، وهو الغرض الذي من أجله أرسل الله الرسل إلى الناس، لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

واجبات أمة المسلمين:

- الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ:

إن هدف دين الإسلام هو المصلحة العليا للبشر، ولتحقيق هذه المصلحة شرع الله تعالى لها وسائل ومنها: الجهاد بالقتال، والدعوة باللسان. فحين تتطلب الدعوة إلى الإسلام قتالاً يكون ذلك طاعة لأمر الله عزَّ وجلَّ، وليس لمصلحة المجاهدين الشخصية أو مصلحة المسلمين الخاصة، فالقتال إذًا ليس هو الغاية، ولا المطلوب من المسلمين أن يقوموا بقتل الناس، وإنما المطلوب إحياء الناس بالإيمان وإنقاذهم من الكفر والضلال، والقتال وسيلة لتحقيق ذلك، وهو يأتي بعد خطوات تسبقه وأولها الدعوة باللسان إلى الإسلام. وإذا كانت وسيلة الجهاد بالقتال لها شروط وضوابط قد لا تتوفر في كل زمان وفي كل مكان، إلا أن وسيلة الدعوة باللسان تظل متوفرة على الدوام، وهي أيضًا جهاد بالكلمة يقوم به المسلمون أيضًا طاعة لأمر الله إياهم بدعوة الناس إليه وإلى دينه. وإن أفضل مثال لانتشار الإسلام بالدعوة اللسانية، هو

بلاد جنوب شرقي آسيا التي انتشر فيها الإسلام بلا قتال، بل باللسان وبما لمسه أهالي تلك البلاد من التجار المسلمين من حسن المعاملة، ومكارم الأخلاق، والسماحة، والعدل، والمحبة، والرفق.

فإذا أراد المسلمون استخدام وسيلة الدعوة باللسان فعليهم أن يدعوا إلى الله بالحكمة وليس بالغلظة، وبالموعظة الحسنة وليس بالفظاظة، وبالرفق وليس بالعنف، فالله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق من نيل المطالب وحصول المقاصد مثل قبول الناس الدعوة إلى الله وإلى الإسلام وإلى كل خير ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه؛ وهذا بلد واحد هو إندونيسيا، التي دعي أهلها إلى الإسلام باللسان وبالرفق، يبلغ تعداد المسلمين فيها قريبًا من مجموع المسلمين في البلاد العربية...!.

إن الأمة الإسلامية صاحبة رسالة خالدة هي الإسلام. فمن واجبات هذه الأمة ألاَّ يقتصر عملها على بيان أخطاء الآخرين وضلالهم وكفرهم، بل أيضًا بدعوتهم إلى الله وإلى الإسلام، وأن ينصحوا خلق الله من غير المسلمين ويتمنوا لهم الهداية من الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]. ولا ينبغي لهم أن يُكرِهوا أحدًا على الدخول في الإسلام؛ لأن الله تعالى الذي أمرهم بدعوة الناس إليه، نهاهم قائلاً: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]. فبالدعوة المستمرة إلى الله قد يستفيد أفراد أو جماعة أو حتى دولة أو أمة فيسارعوا إلى ترك طريق الضلال الأعوج الشرير، والسير في طريق الهدى المستقيم الصالح. وإذا كان المسلمون وغيرهم على خلاف فيما بينهم، فإنما هو خلاف في الدين والعقيدة، إذ لا خلافات شخصية أو آدمية بين المسلمين وغيرهم، بدليل أنه ما

(١) سورة فُصِّلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

أحد من هؤلاء يدخل في الإسلام حتى ينقلب الخلاف فوراً إلى اتفاق وموالاة ومحبة في الله، واعتباره أخ للمسلمين في الإسلام.

وإذا كان المسلمون يتوجهون إلى غيرهم بالدعوة إلى الله وإسداء النصيحة لهم بالدخول في الإسلام، فإنما ذلك لأنه قد بقي بين المسلمين وبينهم رابط وهو أنهم جميعًا من آدم، فضلاً عن أنهم جميعًا من خلق الله مهما اختلفت أديانهم ومذاهبهم، وانطلاقًا من هذا الرابط الدائم بين بني آدم على المسلمين أن يخاطبوا غيرهم من الناس، والله تعالى قد أمرهم بذلك، فقال سبحانه: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[1]. فبالرغم من أنه سبحانه أعلم بمن هم الضالون ومَن هم المهتدون، ومَن هم الأشقياء ومَن هم السعداء، وكتب ذلك عنده وفرغ منه؛ إلا إنه أمر المسلمين بدعوة خلقه إليه وإلى دينه بالحكمة، وبما في كتابه وسنة نبيه ﷺ من الزواجر والوقائع وأخبار الأمم السابقة، يذكرونهم بها ليحذروا بأس الله وعذابه. فبقيام المسلمين بهذا الواجب يحذون حذو الأنبياء والرسل في دعوة أممهم، ويكون لهم من الأجر ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى. فلا يتوانوا في دعوة الأمم والدول الحاضرة وكذلك القادمة في المستقبل إلى هذا الخير.

وأول ما يجب على المسلم الذي يريد أن يدعو أحدًا من الناس إلى الله - عزَّ وجلَّ - أن تكون نيته خالصة لوجه الله. وأن يكون لديه علم بما يدعو إليه. وأن يكون رفيقًا. وأن يكون صبورًا، ويحتمل ما يمكن أن ينتج عن دعوته من الأذى. وليعلم المسلم أن عدم كماله في الدين لا يمنع من واجبه في القيام بالدعوة إلى الله؛ كذلك عدم الاستجابة ليس مانعًا من الدعوة؛ إذ لا تسقط الدعوة إلى الله عن مسلم إذا ظن أنه لا يفيد، بل عليه أن يدعو بقدر استطاعته وبذلك تبرأ ذمته، أما القبول

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

والاستجابة والهداية فليست إليه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[1]، أي؛ عليه البلاغ والإرشاد والنصيحة وليس له الهداية والتوفيق ولا الثواب، فالله - عزَّ وجلَّ - يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وهو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة.

- الداعية المسلم فائز:

وأخيرًا، فليعلم الداعية إلى الله أنه فائز في جميع الأحوال؛ إما بأجر الدعوة، وإما بأجر الدعوة وأجر هداية الآخرين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**فوالله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[2]، وليعلم أنه مؤيد ومنصور من الله لأنه يدعو إلى دينه الحق، فغيره من دعاة الأديان الأخرى يبذلون قصارى جهدهم في سبيل دعوتهم، ويستغلون كل عمل يعملونه للدعوة إلى دينهم، بل وينفقون الأموال الطائلة في سبيل ذلك، وليس لهم عند الله إلا الوزر والسيئات، حتى الأموال التي ينفقونها تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأن الله متم نوره، ومعلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[3]. أما المسلم فهو على العكس من ذلك؛ فهو مأجور على كل حال، وقد وعد الله المنفق في سبيل الله أن يضاعفه أضعافًا كثيرة ويغفر له ويدخله الجنة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: غزوة خيبر.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

واجب الأمم غير المسلمة:

إن من واجب جميع الناس غير المسلمين وخصوصًا أهل الكتاب أن يعلموا بأن دين الله واحد في جميع الرسالات السماوية: التوحيد والإخلاص لله، والأمر بالمعروف والأخلاق والنهي عن المنكر والرذائل، قال خاتم الأنبياء ﷺ: «**الأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(١).

إن رسالة الإسلام، ليست بدعًا في تاريخ الحياة، إنها عقيدة التوحيد والتعاليم النبيلة نفسها التي سبق أن جاء بها موسى عليه السلام، وبشَّر بها عيسى عليه السلام، ودعا إليها الأنبياء والرسل جميعًا. وما قال الله تعالى لرسول الإسلام محمد ﷺ إلا ما قد قال للرسل من قبله، وهدى سبحانه أمة المسلمين سنن الذين من قبلهم من أهل الكتاب، ولهذا يقول عزَّ وجلَّ لرسوله وخاتم أنبيائه ﷺ: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ**﴾(٢)، ويقول سبحانه لأمة محمد ﷺ المسلمة: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾(٣).

فأهل الكتاب الذين ينكرون النبي محمدًا ﷺ، الذي ما قال الله له إلا ما قد قيل لإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل عليهم السلام، ويحاربون الإسلام وأتباعه الذين هداهم الله الطرائق الحميدة وما يحبه ويرضاه من الشرائع السابقة، لا يمكن أن يكونوا حقًّا من أتباع رسلهم، بل إنهم في الحقيقة يحاربون رسلهم وتعاليمهم التي جعلها الله جزءًا من الإسلام! أليست وصايا موسى وعيسى عليهما السلام: (لا يكن لك آلهة سواي، لا تحلف باسم الرب إلهك باطلاً، أكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على غيرك شهادة زور، لا تشته امرأة غيرك...)

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٦.

- هي جزء من وصايا الإسلام وأحكامه؟! إذًا.. فالذين يحاربون الإسلام إنما هم يحاربون هذه الوصايا، ومن ثَم فهم يحاربون الله الذي أنزلها على رسله أجمعين.

إن المسلمين يعبدون الله خالق الكون وما فيه من إنس وجن ومسلمين ونصارى ويهود وغيرهم، وهو رب العالمين ورب الناس أجمعين، ورب جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ويوحدونه ولا يشركون به، ويؤمنون بأنه لا إله إلا هو ولا معبود بحق إلا هو. فإن كان أهل الكتاب يؤمنون حقًّا بالله، ويتبعون رسله، فالمفترض بهم أن يحبوا المسلمين لا أن يحقدوا عليهم أو يبغضونهم أو يحسدونهم، بل الواجب أن يكونوا مثلهم في الدخول في الإسلام لأنه لجميع الناس. وإذا كان هناك مَن يحسد المسلمين على ما آتاهم الله من فضله، فليلحق بهم وليدخل في الإسلام لينال الفضل نفسه، بل لينال أكثر من الشخص المولود مسلمًا، كما أخبر رسول الله ﷺ فقال: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد** ﷺ...»[1].

يجب على الناس أن يفيقوا من غفلتهم، ويضعوا جانبًا ولو مؤقتًا ما تعوَّدوا عليه وورثوه عن آبائهم منذ الصغر ولم يكن لهم حيلة في اختياره، ويبدؤون في البحث عن الحقيقة، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أبيه. وعليهم أن يعودوا إلى الله الذي خلقهم ويرزقهم، ويحييهم ويميتهم، من قبل أن يأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون، وقبل أن تقول كل نفس منهم يوم القيامة: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وكان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير مصدق...! وليتقوا يومًا يُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلَمون، وليتركوا ما وجدوا عليه آباءهم من الشريعة المنسوخة والتعاليم المبتدعة؛ لأن الله تعالى لا يقبل غير الإسلام دينًا، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[2]. وإن

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: تعليم الرجل أمَتَه وأهله.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

مصلحة كل إنسان في الآخرة فوق كل مصلحة دنيوية تخص وطنًا أو قومية أو حزبًا أو عشيرة أو أسرة... إلخ، ويجب عليه أن يقدمها على كل المصالح الدنيوية، ومصلحته في الآخرة تكون في نجاته من النار ودخول الجنة.

ولو ملك الإنسان ما في الأرض جميعًا فإن ذلك لا يعوضه خسارة الآخرة ولا يمنعه من العذاب إذا مات على غير دين الإسلام، كما أخبر بذلك رب العالمين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[1]. و«**يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم: ألاَّ تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك بي**»[2].

فالحريص على ملذات الدنيا والمصالح الفانية، الذي يسعى جهده وبأي وسيلة للحصول عليها لزمن قصير هو عمره مهما طال، لحري به أن يكون أذكى من ذلك فيحرص على الحصول على السعادة والملذات والنعيم المقيم في الجنة لزمن دائم أبد الآباد، وهذا لن يكون إلا باعتناقه الإسلام والموت عليه. بل إن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الذي ينتظر العالم نزوله في آخر الزمان؛ سيفاجئ الناس جميعًا بأنه لا يقبل من الناس إلا الإسلام أو السيف، وسيقوم عيسى عليه السلام بالأعمال التي تؤكد على قبوله للإسلام وهدمه لغيره من الملل والأديان، من كسر الصليب الذي اتخذته النصارى رمزًا لها، وقتل الخنزير، ووضع الجزية فلا يقبلها، وإهلاله بالحج والعمرة إلى بيت الله الحرام في مكة، بل إن نزوله في دمشق وهي بلد الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت وصلاته عليه السلام مع المسلمين في دمشق والقدس خلف إمام مسلم، يعد إعلانًا عامًا لأهل الأرض على أن الدين الصحيح هو الإسلام، إذ إنه عليه السلام لن ينزل

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار.

في (الفاتيكان المسيحي) ولا بين اليهود أو على أحد معابدهم، ولا في إحدى عواصم البلدان النصرانية الكبرى. فالبدار البدار إلى الإسلام، قبل وقوع هذه الأحداث غدًا، وإن غدًا لناظره قريب.

فإن قالوا للمسلمين: قد كنا نرجو أن تكون عقولكم كاملة قبل دعاؤكم إيانا إلى الإسلام، وإفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له، وترك ما نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد.

فالجواب: فما ظنكم إذا اجتمعنا أمام الله في ساحة القيامة وانكشف أن الأمر كما نقول لكم وندعوكم إليه، ما هو عذركم عند الله؟ وما الذي يخلصكم بين يديه وأنتم تعلمون أنه لا يقدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجير نفسه من الله ولا يستطيع أن ينصرها؟ لهذا فنحن لا نزال ندعوكم إلى الله وحده لا شريك له، وإلى دينه الإسلام حتى يحكم الله بين الناس.

وهذه كلمات نبوية شريفة قد وجهها رسول الله محمد ﷺ لزعماء الأمم وحكامها في زمانه، نعيد توجيهها إلى زعماء الدول غير المسلمة وحكامها ومسؤوليها في الحاضر والمستقبل لعله يكون لها الصدى الطيب والقبول الحسن عندهم: ففي كتابه الموجه إلى هرقل ملك الروم، قال رسول الله ﷺ:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[1]»[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: كتب النبي صلى الله عليه وسلم.

وإنما وجهنا هذه الدعوة والنصيحة الغالية؛ لأنه ليس أمام هذه الدول من خيار غير الإسلام لتنقذ نفسها، ولن تخسر شيئًا بتجربة هذا الخيار، وهو ليس بالأمر الصعب؛ فكم من زعيم أمة أو قبيلة أو قرية أو مدينة أو بلد... أسلم فأسلم أتباعه، مثلما حدث في ماليزيا وإندونيسيا وغيرها، أو مثل السلاجقة والأكراد والعثمانيين الذين أسلموا وقادوا المسلمين... وسوف يفرح المسلمون كثيرًا لو أن أمة غربية عظيمة يسلمون ويقودون المسلمين؛ لأن الإسلام ليس حكرًا على أمة دون أمة أو على جنس دون جنس. أما استمرار هذه الدول في السير في الطريق نفسه الذي تمشي به على غير الإسلام، وربما العداوة له؛ سيؤدي بها لا محالة إلى انهيارها وزوالها في يوم من الأيام، وعندها سيذكرها العالم كما يذكر الدولة الرومانية أو الفارسية أو غيرها من الدول التي أزالها الله من الوجود، وإن المستقبل لكفيل بأن يثبت صحة ذلك. ولا يغرن أي دولة أنها قوية، فهي دائمًا في قبضة الله عزَّ وجلَّ، وإن من سنته تعالى إمهال الأمم والدول الظالمة كما كان حال من قبلها من الأمم والدول القوية السابقة الزائلة، وهو ما أخبر الله تعالى به فقال: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾[1]، فأخبر تعالى عن إملائه أهل القرية الظالمة وتركه معاجلتهم بالعذاب، وهم بالله كافرون أو مشركون، ولأمره مخالفون، ولغيرهم ظالمون، ثم أخذهم بالعذاب، فعذبهم في الدنيا بإحلال عقوبته بهم، وإليه مصيرهم أيضًا بعد هلاكهم، فيلقون من العذاب حينئذ ما لا انقطاع له.

وقد سبق أن حذَّر رسل الله أممهم وزعماءها من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم التي قبلهم، ولا بأس أيضًا في توجيه التحذير نفسه رغبة في حصول الخير لهذه الأمم والدول والحكومات: ﴿**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ**﴾[2]. إن الذين وُجِّه

(١) سورة الحج، الآية: ٤٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٩.

لهم هذا التحذير في الماضي لم يأخذوه على محمل الجد، بل سخروا منه ولم يقبلوا نصيحة الناصح؛ وقد علمنا يقينًا اليوم أنه قد أصابهم ما تم تحذيرهم منه من العذاب والهلاك والزوال. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]. فالأمة والدولة العاقلة هي التي تنظر كيف كان عاقبة الذين من قبلها فتعتبر بذلك أشد الاعتبار، وتحرص على تجنب السير على خطى الأمم والدول الهالكة، وإلا ستأتي أجيال في المستقبل تنظر إليها على أنه قد أصابها أيضًا ما تم تحذيرها منه من عذاب الله والزوال.

فإذا كانت هذه الأمم والدول لا تبالي بكل ما سبق... فعلى الأقل لا تنسى التاريخ الذي لا يحابي ولا يجامل ويسجل عنها كل شيء، ويحصي عليها أفعالها الحسنة والسيئة؛ لتعرفها الأمم القادمة في المستقبل. كما تعرف أمم اليوم ما فعلته في الماضي القريب الدول السابقة الهالكة الزائلة، مثل ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، وما الاتحاد السوفيتي الشيوعي منهم ببعيد...!. فتبادر إلى رفع الظلم وإقامة العدل وأداء الحقوق، فالعدل أساس المُلك والظلم يزيله. فتقوم بإزالة الظلم عن المسلمين وإعطائهم حقوقهم والعدل بين الناس وعدم الانحياز إلى طرف على حساب طرف آخر. وتتجنب ممارسة إرهاب الدولة مع الآخرين خاصة مع المسلمين، ولا ترعى الإرهاب أو تشجعه أو تدعمه، ولا تدعم الطغاة الإرهابيين الذين يكتمون أنفاس شعوبهم ويستعبدونهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؛ فيشكرها العالم وخاصة المسلمون على هذا الصنيع.

كذلك تمتنع عن زرع أشجار الإرهاب؛ لأن الثمار من جنس الشجر. وقد قال المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: «مِنْ ثِمارِهِم تعرِفونَهُم. أيُثمِرُ الشَّوكُ عِنَبًا، أمِ العُلَّيقُ تِينًا؟»[2]. إن ترك العدل وممارسة الظلم أو دعمه هو بمثابة زرع لأشجار الإرهاب،

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

(٢) متى ١٦/٧.

وهو ما أثبته العلماء والكتاب المنصفون من أبناء الدول غير المسلمة نفسها، وأخبروا بأن دولهم تفعله في بلاد المسلمين بترك العدل بين المسلمين وخصومهم، وبشن الحروب على المسلمين وقتلهم. وإن إغفال معالجة الأشجار أو إزالتها بإزالة الأسباب والعوامل المولدة لثمار الإرهاب معناه تكاثر مستمر في الثمار، وحروب متزايدة على هذه الثمار دون الحصول على الفائدة المرجوة منها!.

خاتمة

ما قدَروا الله حقَّ قدْرِه:

سبحان الله ما أعظمه...! خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما...! خلق جميع الأمم التي عاشت وماتت، وسيخلق جميع الأمم التي ستعيش وتموت...! خلقهم جميعًا على هذه الكرة الأرضية، التي هي نقطة في كون الله العظيم...!. فماذا يكون حجم أي إنسان مهما عظم مركزه، بل ماذا يكون حجم أي أمة أو دولة مهما كبر حجمها حتى ولو ملأت الأرض، من حجم هذا الكون العظيم...؟!.

فسبحان الله مالك الملك يؤتي المُلك من يشاء، وينزع المُلك ممن يشاء؛ فاليوم تلك الأمة هي أعظم الأمم وأقواها، وغدًا يجعلها بحوله وقوته من أصغر الأمم وأضعفها، ويجعل غيرها من الأمم هي الأعظم والأقوى...! سبحانه إنه يُعز من يشاء ويُذل من يشاء بيده الخير إنه على كل شيء قدير؛ فاليوم تلك الأمة هي العزيزة المنيعة المرهوبة الجانب المسيطرة المتسلطة الظالمة لغيرها من الأمم، وغدًا يجعلها بحوله وسلطانه من أذل الأمم وأرذلها، ويجعلها عبرةً لمن خلفها، وآية بينة لكل متكبر جبار، ظالم كفار...! ويمنح غيرها من الأمم العزة والمنعة والرهبة والسيطرة...! فالميزان بيده سبحانه يرفع أقوامًا ودولاً وأممًا ويخفض آخرين إلى يوم القيامة.

كل مَن على الأرض فانٍ ويبقى وجه الله ذو الجلال والإكرام؛ فاليوم تظن تلك الأمة أنها خالدة مخلدة في الدنيا، وغدًا يستأصلها الله ويقطع دابرها ولا يفلت منها أحدًا، فتصبح في خبر: كان في قديم الزمان أمة اسمها أمة فلان...! أولم يهد لهم كم أهلك سبحانه من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم، إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون؟! أين قوم نوح وقوم لوط؟! أين أمة عاد وأمة ثمود؟! أين أمم الفراعنة

والإغريق والبيزنطيين؟! أين أمم الفرس والرومان؟! وكم أهلك سبحانه من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً وكان سبحانه الوارث، فالله سبحانه يرث الأرض ومَن عليها وإليه يُرجعون...! فأين ألمانيا النازية وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي؟! حيث أصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى...! فمن الأمم من قضت هلاكها وفناءها ومنها مَن تنتظر؛ وغدًا يأتي الدور على الأمم الموجودة، ثم يأتي الدور على الأمم القادمة في المستقبل...! فلكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون...! وهكذا سبحانه وتعالى يداول بين الناس تلك الأيام؛ أمة فوق وأمة تحت. أمة قوية وأمة ضعيفة. أمة منصورة وأمة مهزومة. أمة تُولَد وأمة تفنى. إلى أن تقوم الساعة على أمة شرار الناس الذين ليس فيهم مَن يقول: الله، الله...!.

التحدي العظيم:

لقد تحدى الله - عزَّ وجلَّ - الأمم والدول التي تأتيها فرصة لتكون عظيمة قوية مسيطرة لزمن محدد ومقدر عنده، فتتوهم أن هذه العظمة والقوة قد أتتها على علم عندها، تحداهم سبحانه تحديًا دائمًا إلى قيام الساعة بما لا طاقة لهم ولا لغيرهم فيه، تحداهم بالموت: ﴿**فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1]؛ وذلك لأن كل نفس ذائقة الموت ثم إلى الله جلَّ ثناؤه يُرجعون، وإذا كان للإنسان عمر وأجل محدد ثم من بعده الموت؛ فكذلك الأمر بالنسبة للأمم والدول والحكومات، فلها أيضًا عمر وأجل محدد ثم من بعده الموت طال عمرها أم قصر.

وما جعل الله لبشر أو أمة أو دولة أو حكومة الخلود في الدنيا، وإنما يبلوهم سبحانه بالخير والشر اختبارًا لهم ثم يكون رجوعهم إليه ليوفوا أجورهم، فمن زُحزح

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

عن النار وأُدخِل الجنة فقد فاز، ولن ينفعهم الفرار إن فروا من الموت، فأينما يكونوا يدركهم الموت ولو كانوا في بروج مُشَيَّدة، ولا أحد يستطيع أن يعصم أحدًا من الله إن أراد بهم سوءًا أو أراد بهم رحمة، ولن يجدوا لهم من دونه وليًّا يتولاهم ولا نصيرًا ينصرهم.

وهم سيأتونه فرادى كما خلقهم أول مرة؛ عراة حفاة كما ولدتهم أمهاتهم لا شيء عليهم ولا شيء معهم، وسيتركون خلفهم في الدنيا كل ما مكنهم الله فيه مما كانوا يتباهون به من مال أو أثاث أو سلاح أو جيش، ولن يكون معهم ما اتخذوه في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان والأتباع التي ظنوا أنها تنفعهم، ففي يوم القيامة تَقَطع ما بينهم من الأسباب والوسائل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون من رجاء الأصنام والأنداد، إذ تبرأ الذين اتُبِعوا من الذين اتَبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون، ثم يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا، ويقال لهم ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار، كلما دخلت أمة في النار لعنت أختها حتى إذا اجتمعوا فيها جميعًا قالت أخراهم دخولاً لأولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار! ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيرًا. وقالت أولاهم لأخراهم: لقد ضللتم كما ضللنا فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون!. ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة، ومع هذا لا يُقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبًا، وظهر لهم من الله ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم من العذاب والنكال بهم، وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من الظلم والمحارم والمآثم والقتل والعدوان، وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتب المؤلف

١- الصلاة والرياضة والبدن	الطبعة الثانية	المؤلف
٢- لماذا صلاة الفجر	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
٣- مجالسنا إلى أين	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
٤- جسمك والتلفزيون	الطبعة الثالثة	المؤلف
٥- ولدك والتلفزيون	الطبعة الثالثة	المؤلف
٦- دليلك إلى المرأة	الطبعة الرابعة	مكتبة العبيكان
٧- ماذا يحب الله جلَّ جلاله وماذا يبغض	الطبعة السادسة	مكتبة العبيكان
٨- التعري الشيطاني	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
٩- ماذا يحب النبي محمد ﷺ وماذا يكره	الطبعة الخامسة	مكتبة العبيكان
١٠- كيف تكون ناجحًا ومحبوبًا	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
١١- كيف تكونين ناجحةً ومحبوبةً	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
١٢- أنت والمال	الطبعة الأولى	مكتبة العبيكان
١٣- نهاية الأمم	الطبعة الأولى	مكتبة العبيكان